
فريق
متميزون
E-BOOK
رواية
إينيو فلايانو
زمن القَتْل
ترجمها عن الإيطالية: عرفان رشيد
المتوسط

# كلمه مهمة:

**هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.**
**وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.**

**مع تحيات:**

**فريق -متميزون-**

**انضم الى الجروب**

**انضم الى القناة**

# زمن القتل

## رواية مترجمة..

الكاتب: إينيو فلايانو.
ترجمها عن الإيطالية: عرفان رشيد

" ... زمنٌ للقَتْل وزمنٌ للـ

زمنٌ للـ ..."([1])

الكتاب المقدَّس. الإصحاح الثالث، الفصل الثالث

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1 - ثَمَّةَ زمنٌ معلومٌ لكلِّ شيء، وثَمَّةَ زمنٌ لكلَّ ما يحدُث تحت السموات ..

زمنٌ للولادة وزمنٌ للموت .. زمنٌ للزرع وزمن لإبتلاع ما زُرِعَ ..

زمنٌ للقَتْل وزمنٌ للصلاح؛ زمنٌ للهدم وزمنٌ للبناء ...

زمنٌ للنحيب وزمنٌ للضحك .. زمنٌ للشكوى وزمنٌ للتقافز ..

إلخ ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# مدخل

بقلم: الناقدة آنّا لونغوني

في مقالة كَتَبَهَا لاستذكار الناشر الإيطالي الكبير ليو لونغانيزي([2])، ونشرها في مجلّة "الموندو" في الثامن من أكتوبر 1957، ثبَّت إينيو فلايانو شهادةً هامَّةً للغاية حول الظروف التي وُلِدَتْ فيها هذه الرواية:

"كان عليَّ أن ألتقيَ ليو (لونغانيزي) في ميلانو خلال الشتاء قارس البرد في عام 1946. كنَّا نجول في شوارع المدينة في إحدى أماسي ديسمبر الباردة حين توقَّف فجأة، وقال لي: "هل بإمكانكَ أن تكتبَ لي روايةً، وتنتهي من كتابتها مع بدايات شهر آذار/مارس؟"، انفجرتُ ضاحكاً وأنا أتوقَّع بأنَّه يمزح، لكنَّه كان في غاية الجدِّيَّة.

بحيويَّته المُضيئة والمفعَمة التي تشعُّ من عَيْنَيْه كان يُحدِّق فيَّ باندهاش، على الدوام، بالودِّ وبالتَّضادِّ معاً. كانت تانكَ العينان تُحدِّقان فيَّ. وعندما أخبرتُهُ (لمُجرَّد الرَّدِّ على طَلَبِهِ فحسب)، بطبيعة الرواية التي تجول في ذهني، وبكونها، برأيي، مصنوعة من الخيال، وأخبرتُهُ بأنَّ أحداثها - وبمقدار ما كنتُ أتوقَّعها خيالية - لم يكنْ لها أن تدور في إيطاليا على الإطلاق، بل في أفريقيا، أفريقيا هيرودوت([3]) وسولينو([4]).

إذَّاك بادر لونغانيزي بالقول: "إذا ما ابتدأتَ بالكتابة، فسأدفع لكَ جزءاً من الحقوق مقدَّماً.

وهكذا، وبأسلوبه المعتاد ذاك، والذي كان يضع الفنَّ على منصَّة الأعمال، وبطريقته العَجِلَة تلك، فقد أَلزَمَني لونغانيري بعمل مُضنٍ وشاقٍّ، مُجبِراً إيَّاي على نَقْل أفكاري إلى الورق، وقد كنتُ أجهل، حتَّى تلك اللحظة، كيفيةً إنجاز ذلك الالتزام، إلَّا أنَّني كنتُ أشعر بفداحة أن يخيبَ ظنُّ لونغانيزي بي، لأنَّ الثقة التي كان يُبديها تجاهنا كانت تُفيدنا ليس في اكتشاف طاقاتنا، بل في تحريكها وتفعيلها، ولم يكن الخذلان لائقاً بتلك الثقة. وهكذا بدأتُ الكتابة، وفي أوائل آذار، سلَّمتُهُ المسوَّدة، التي دَفَعَهَا إلى المطبعة في الحال".

وهكذا كانت "زمن القَتْل" في المكتبات في أيَّار / مايو 1947، وقُوبلَتْ بحفاوة جيِّدة من قِبَل النُّقَّاد؛ ورَغْمَ بعض المعترضين، كالناقد جاكومو دي بينيديتِّي، الذي أعلن أنَّه يُجيز الصفحات السِّتِّين الأولى من النَّصِّ، فقد فازت الرواية في تمُّوز/ يوليو من العام ذاته بجائزة "ستريغا([5])"، التي تُعدُّ من أهمِّ الجوائز الرِّوائيَّة الإيطالية على الإطلاق.

خلال اللقاء مع الجمهور في فندق بالعاصمة روما لتقديم روايتي الأولى والوحيدة "زمن القَتْل" لمستُ آثار بصمة النجاح، كما لمستُ القناعة المطلقة بكوني غير مؤهَّلٍ لاحتمال نتائج ذلك النجاح. كان ذلك في صيف عام 1947، وكان حُكَّام الجائزة بين الحضور بالإضافة إلى الزملاء والمَدعوِّين.

بعد استلامي للجائزة بقليل، ابتدأتْ "حفلة الرقص" وخلالها كان هناك شيء يعذِّبني بقَدْر غير مألوف، وكنتُ أحاول أن أُدركَ سببه، هل كانَ ذلك العذاب نابعاً من القناعة بأنَّ أيَّ نجاحٍ، في خاتمة المطاف، ليس إلَّا نتاجاً لخطأٍ أو سهوٍ ما؟ فقد نلتُ جائزة عن رواية أرى الآن ضرورةً أن

أَعيد كتابتها بالكامل. عُدتُ إلى منزلي بمفردي. أذكر جيِّداً بأنَّه كان في الدرب كلبٌ سائب، أصرَّ على مرافقتي حتَّى الباب، وأراد أن يدخل معي. أكانَ بإمكاني أن أرفض ذلك؟ أعددتُ له صحناً من الخبز المنقوع بالحليب، وأعددتُ له مكاناً للنوم عند أسفل سريري، وحين أفقتُ في صباح اليوم التالي، كان الكلب قد غادر المنزل. لكنْ، حتَّى رفقة ذلك الكلب لي لم تُخفِّف من وطأة الاضطراب الذي كنتُ أشعر به خلال الليل. كنتُ أحمل في جيبي صكّاً بمبلغ مائَتَي ألف ليرة، ومعه كنتُ أحمل الشعور بأني لا أستحقُّ ذلك المال. والمعضلة الحقيقيَّة تكمن في أنَّني كنتُ بحاجةٍ ماسَّة إلى ذلك المال. ومنذُ ذلك الحين رَسَخَتْ في ذهني الشكوك حول ضرورة الجوائز الأدبيَّة، وهي شكوكٌ لم أتمكَّن من فكِّ ألغازها حتَّى الآن. أمَّا فيما يتعلَّق بتشجيع وتصفيق المحكِّمين والنَّقْد، فقد اعتبرتُهُ، على الدوام، دَيْناً في رقبتي، قبضتُهُ باستسهال كبير، ولم أتمكَّن بعدُ من رَدِّه إلى أصحابه".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما يُثير الدهشة هو المسافة التي يُقيمها إينيو فلايانو مع تجربته الأدبية الأولى: ففي كلِّ مرَّة اضطُرَّ إلى الحديث عن "زمن القَتْل" كان يتناول الرواية بقَدْرٍ كبيرٍ من الاختزال والإيجاز، كما لو أنَّه يعتبرها أتاوة، وَجَبَ عليه دَفْعها، كي يتمكَّن من الولوج إلى العالم الأدبي، وفي الوقت ذاته، ليُبرِّئ نفسه، عبر بناءٍ متشابكٍ للحَدَث المَروِيِّ، من حالة الاضطراب والانزعاج الوجودي (المرتبط بسِنِي الفاشيَّة وبالحرب الأفريقيَّة وبالمأساة الشَّخصيَّة التي عاشها بسبب المرض الذي أصاب ابنته لِيلِي، والتي وُلِدت في عام 1942 وهي مُصابةٌ بتمزُّقات في الدماغ).

وفي الملاحظة المُصاحِبة لطبعة عام 1968 في سلسلة الكُتُب الفائزة بجائزة "لا ستريغا"، وخلال تعبيره عن الامتنان لماريَّا بيلُّونتشي التي كَتَبَتْ مقدِّمة الطبعة، سيتحدَّث الكاتب عمَّا أسماه ب. "الضرورة، غير الوضيعة، التي أجبرتْني على كتابة الرواية على عجلٍ، حتَّى بَدَتْ وكأنَّها بمثابة الاعتراف أو بمثابة التعبير عن أملٍ ما".

وبالفعل تظلُّ رواية "زمن القَتْل" فريدةً في الإنتاج الإبداعي لإينيو فلايانو، والذي سيُغيِّر نموذجه الإبداعي مُفضِّلاً الأشكال المُختزَلَة والقصيرة، التي بَلَغَتْ من القِصَرِ، في بعض الأحيان، درجة التشابه مع مُجرَّد الخربشة والتخطيط السريع، والتي وَلَّدَتْ ما عُرف ب. "الأقوال المأثورة" لإينيو فلايانو. ولم يعد للإسراف الكتابيِّ المُميَّز للرواية، ليظهر في فضاء نتاجه الإبداعي، وبقيت هذه الرواية تحتفظ بدرجةٍ من التَّميُّز عمَّا صَدَرَ من أعمال روائية في تلك الفترة. وما يُثير الاهتمام هو أصالة "زمن القَتْل" قياساً إلى أعمال زملائه ومُجايليه، كما تؤكِّد الناقدة ماريَّا كورتي، مُشيرةً إلى أنّ المكتبة الإيطالية شهدتْ صدور عدد من الأعمال التي يمكن أن تندرج تحت إطار "الواقعيَّة الجديدة" كـ "الرفيق" لتشيزيره پاڤيزي، و"درب أعشاش العناكب" لإيتالو كالڤينو، و"السماء الحمراء" لجوزيپي بيرتو، و"ذَهَب نابولي" لجوزيپي ماروتَّا، و"يوميات عائليَّة" لڤاسكو پراتوليني؛ وما يُفاجِئُ به فلايانو القارئ هو أنَّه لم يَروِ سِفْرَ الحرب وأحداثه، رَغْمَ أنّ أحداث الرواية تدور خلال الحرب، وبالذات خلال الحملة التي أطلقها الديكتاتور الإيطالي الفاشي بينيتو موسُّوليني في إثيوبيا في عام 1936. والتي شارك فيها الكاتب برتبة ملازم ثانٍ؛ وبدلاً من ذلك، فإنَّ الرواية تنطلق من الواقعة التاريخية لعملية الاجتياح الاستعمارية لتلك البلاد، وتتحوَّل في الحال إلى رمز ورؤية مُتخيَّلة، تصطبغ، في الكثير من الأحيان، بتلاوين سوريالية، يتمُّ فيها الاستعاضة عن النَّقْل المُطابق والموثَّق للواقع بحالة سيكولوجيَّة، تُطلق عنانها من أخطاءَ ارتُكِبَتْ بالصدفة أو فَرَضَتْها أقدار الشخوص. في الوقت ذاته، يُفصح المشهد الابتدائي في الرواية

عن وجوه خياليَّة، تَقرُبُ من حالة الحُلْم؛ فنحن في هذه الرواية لسنا في أفريقيا، بل بالأحرى، في ما يُشبهها على خشبة مسرح واسع، ويظهر ذلك جَليّاً منذُ الصفحات الأولى التي تصف الطبيعة وشكل جذوع الأشجار في تلك الغابة، والتي تُشبه حيوانات مُحنَّطةً، صُنعَت من الورق المُقوَّى والصمغ، وكذلك بحضور تلك الحِرْبَاءِ التي غَرَسَ العسكريُّ الإيطاليُّ بين فَكَّيْها سيجارة مشتعلة، تبتعد عنه، لتعبر الطريق، ولتُصبح ضحيَّةً لتكاسلها.

يختار فلايانو رواية حادثة، لا تستحقُّ الزَّهْوَ، ولا يجوز الفخر بها، مُسنِداً مهمَّة القَصِّ إلى صوت "أنا، ضمير المتكلِّم". إنَّها حادثة أبعد ما تكون عن البطولة، تنطلق من وَجَعٍ عاديٍّ، بسبب التهاب ضِرْس، ومن خطأ في السير في طريق مختصرة ومن رصاصةٍ طائشةٍ، حوَّلت الصخور مسارها، وانغرست في المكان الخطأ، وتُختتم الحادثة بصوت البوق العسكري، وحيد النغمة التي تليق ببطل هذه الرواية، تلك النغمة الرتيبة التي يُطلقها جندي البوق في المعسكر، تستعجل الجنود بالاستيقاظ، وتدعوهم إلى الاستعداد للعودة إلى إيطاليا، لكنَّها أيضاً نغمة تروي عن الستار الذي سينسدل على التجارب المخفقة والجرائم المقترفة التي لوَّثت يَدَي هذا الضابط الإيطالي.

وإذا ما كان تحرير المسوَّدة الأولى من الرواية سريعاً، على حسب الشهادات المتعدِّدة، فإنَّ عملية الإعداد لها شهدت فترة مخاض طويلة، وَسَمَهَا تردُّدٌ كبير. وتُشير الوثائق التي تَرَكَهَا الكاتب ما بعد رحيله بأنَّ المشروع الابتدائي، والذي احتفظ الكاتب بمسوَّدة منه، انطلق من فصلٍ مُختصَر ومُختزَل، حَمَلَ عنوان "الضِّرْس"، وهو الذي (وَضَعَهُ فلايانو فيما بعد كعنوانٍ نهائيٍّ لأحد فصول الرواية)، وكان ذلك الفصل المختصَر يتضمَّن مغامرات "إفْ - F"، العسكري الإيطالي المشارك في الحملة العسكريَّة لاحتلال إثيوبيا، والذي يرحل من معسكره للبحث عن طبيبٍ للأسنان. ويحدُث في رحلة البحث هذه عدد من الملابسات والمصادفات، لكنَّه حين يصل إلى معسكرٍ آخر، يكتشف بأنَّ الآلام التي كان يستشعرها باتت قابلةً للتَّحمُّل، لذا يُقرِّر التعويض عن عملية البحث عن طبيب الأسنان برحلة البحث عن امرأة: يُرافق عدداً من النساء المحلِّيَّات اللواتي يعشقهنَّ لليلة واحدة فحسب، ويتقاطع مع ضبَّاط آخرين، يتحاور معهم في شؤون الأدب والثقافة، ويتقاسم معهم، قبل كلِّ شيء، عدداً من المغامرات الجنسيَّة. وفي النهاية، يُقرِّر الخضوع إلى عملية قَلْع الضِّرْس، ليعود إلى معسكره، وهو متأكِّد من أنَّه سيجد بانتظاره عقوبةً، بسبب تجاوزه أيَّام الإجازة التي مُنِحَتْ له، إلَّا أنَّه، ولمُجرَّد عودته إلى المعسكر، يُواجَهُ من قِبَل قائد كتيبته، باستقبال بشوش وساخر كاشفاً له بأنَّ أخبار مغامراته العاطفية قد بَلَغَتْ أسماعه.

إلى جانب هذا الفصل المختصَر، كان فلايانو قد سَطَّرَ فصلاً آخر بعنوان "الطريق المختصرة" وهو عنوان - مَنَحَهُ لفصلٍ آخر من الرواية أيضاً - ويروي في هذا الفصل التَّطوُّر المتواتر للأحداث التي ستفضي لاكتمال الحكاية. وقياساً إلى المشروع الابتدائيِّ للنَّصِّ ثَمَّةَ في هذا الفصل تغيُّرٌ بنيويٌّ ملموس: إذْ نرى شخصية "إف - F" تنشطر إلى نصفَيْن مُولِّدة شخصيَّتَيْن متمايزَتَيْن فيما بينهما، وهما الرجل الذي يلتقي بالصدفة بامرأة من السُّكَّان الأصليِّيْن، ويقتلها بعد أن قضَّى معها نهاراً، أمَّا الشَّخصيَّة الثانية، فهو الضابط المُجاز لغرض البحث عن طبيبٍ للأسنان، ليُعالج ضِرْسَهُ الملتهب، والذي يلتقي بقاتل المرأة المحلِّيَّة. أمَّا الصوت الراوي، فهو للضابط الذي يروي مغامرات ذلك الرجل، وسيكون شاهداً في النهاية، على عملية إعدامه رَمْيَاً بالرصاص.

وسيواصل فلايانو العمل على المسوَّدات التي بحوزته حتَّى مرحلة تحرير المسوَّدة الأولى المطبوعة بالآلة الكاتبة، والتي احتفظ بها في شكلها غير النِّهائيِّ، والتي حَمَلَتْ عنوان "التمساح"، وستتعرَّض هذه المسوَّدة أيضاً إلى تعديلاتٍ أُخرى، لتوصلها إلى الشكل النِّهائيِّ الذي يُعطيه فلايانو إلى الناشر لونغانيزي، وكان لونغانيزي نفسه هو مَنْ طَلَبَ من الكاتب تغيير عنوان الرواية، "لأنَّ مفردة "التمساح" - كما يرد في رسالة من الناشر بتاريخ 27 شباط / فبراير 1947 - لا تبدو مناسبة"، وتورد الناقدة بيلُّونتشي هذه المعلومة في مقدِّمتها لطبعة العام 1968 وتقول:"كان الرأي السائد هو أنّ العنوان الأوَّل، "التمساح"، لم يكن مُحبَّباً لدى الناشر، الذي كان قد نَشَرَ قبل ذلك بوقت قصير كتابَيْن؛ أحدهما بعنوان "الفيل"، والآخر بعنوان "الحِرْبَاء"، ولم يكن يُفضِّل تكرار أسماء حيوانات كثيرة على أغلفة كُتُبه".

وإذا ما كان صحيحاً أنّ إينيو فلايانو مرَّ في سماء الرواية مثل شهابٍ عابر، ليُمكِّن ذاته من التَّحرُّر من دَيْنٍ ما، فإنَّ من الصحيح أيضاً التأكيد على أن هذه التجربة الفريدة التي خاضها ستظلُّ ماثلةً، وسيتمُّ التَّعرُّف عليها في كلِّ ما أُنجز من أعمالٍ فيما بعد.

وممَّا يُثير الاهتمام بالذات تكرار عدد من الموضوعات في العمل: سأم العسكريِّيْن والسُّكَّان الأصليِّيْن، وهو السأم الذي يقود إلى نوعٍ من أنواع الشَّلَل الذي يبدو وكأنَّه يُزيل أيَّة مسؤوليّةً أخلاقيّة (مسؤولية النساء اللَّاتي يمنحنَ أنفسهنَّ إلى الجنود، ومسؤولية العسكريِّيْن المُحتلِّين الأجلاف)؛ أضف إلى ذلك بروز أعراض بعض الأمراض، الإحساس العابر بالذنب والخطيئة، والذي يُشعِر بالرعب في البداية فحسب، لكنَّه يُمكِّن المرء في مرحلة تالية من أن يكتشف ذاته الحقيقيَّة؛ وإلى جانب ذلك، نلمس، أيضاً، هيمنة المصادفة على حياة البشر، وهي مُجسَّدة هنا بوَجَع الضِّرْس، وبوقوع البطل في خطأ اختيار الطريق المختصرة، وبكلِّ ما يتبعانهما من مآلات؛ لعبة الغموض (البطل الذي يُخطئ فَهْم إيماءات ورغبة المرأة التي يلتقيها، المرأة المعشوقة والقتيلة؛ ومن ثمَّ تفسيره الخاطئ لاحتمالات انتقال عدوى المرض إليه؛ عجزه عن إدراك طبيعة سلوك السُّكَّان الأصليِّيْن، فهو يلجأ إلى تأويل ما يرى، باعتباره دليلاً على الصداقة، بينما هو في الواقع، ليس إلَّا غَضَباً وحَنَقَاً مكتومَيْن، ويرى خيانة حيثُ ينبغي أن يكتشف أن ما يأتي به الآخر ليس إلَّا تضامناً؛ فقدانه للإحساس بالأشياء، إذْ تظلُّ "النقاط" غامضةً، كما يحمل الفصل الأخير من الكتاب عنواناً؛ وفوق كلِّ هذا وذاك تبرز مسألة الخطأ، وفكرة أنّ الحياة ليست إلَّا سلسلة متواترة من الأخطاء، العفوية، أو المرغوب فيها دونما وعي، وهي، في جميع الأحوال، أخطاء، لا مناص من وقوعها.

وتحتوي الخيارات الأسلوبية على مفردات واضحة ومُميِّزة لكتابة فلايانو: على سبيل المثال التقاطعات اللُّغويَّة المُفاجِئة، إذْ نقرأ عن "حطام النوايا الصادقة"، للبحر الأحمر، الذي يصفه بأنَّه "البحر الذي اعتاد على العجائز"، ومرتفع الجبل الذي يصفه بكونه "مرصد الضباع لتقفِّي روائح الجِيَفْ"؛ سخرية بعض الصور (كتلك الصورة المشار إليها سابقاً للحِرْبَاءِ السائرة بتكاسُلٍ وبين فَكَّيْها سيجارة مُتَّقدة)؛ تتابعُ جُمَلُه الأثيرة والطريفة (كتلك التي يتحدَّث فيها عن روائح البغال النافقة التي يمكن لها أن تتحوَّل إلى دليلٍ لمسير الملازم، فيما لو لأنَّ تلك الحيوانات التزمت بصرامة الأوامر العسكريَّة، وتهاوت نافقةً بانتظام كحجارة الطريق؛ أو الإشارة إلى الضِّباع التي تُفصِح عن حضورها مُتحوِّلةً إلى عونٍ كبير لمكافحة الأرق، لو أنَّها - أي الضِّباع - امتلكت مقدرة الحوار حول الأدب.

وتحضر الطرفة والأمثولة في نسيج الكتابة لدى فلايانو بشكلٍ نادرٍ، لكن حضورها أساسي، وقد

ارتبط أسلوب كتابة الأمثولة باسم كاتبنا بشكل أساسي، وللدلالة على ذلك نورد بعض النماذج من قبيل: "الواقع يدحرُ الخيال، أو بالأحرى ينتبه الخيال أنَّه تجاهل إسهامةَ الضوء والصوت"؛ ولم يكن قادراً على السكوت، وكان يحترم التَّوقُّف عن الكلام فقط لما تحتويه لحظات الصمت من قيمة"؛ و"أفريقيا هي عبارة عن حاوية للقذارات، ولا يذهب إليها إلَّا مَنْ يسعى لتمسيد عضلات ضميره المشدودة"؛ و"يُصبح الإنسان مجذوماً بالضبط كما يُصبح ديكتاتوراً: فكلاهما وراثيٌّ ومُعْدٍ".

وثَمَّةَ أيضاً ما يُحيل إلى نصوص فلايانو اللَّاحقة أنّ البطل في الرواية دائم التسجيل للملاحظات: وسيفعل ذلك عدد كبير من شخصيات أعماله، وقد كانت تلك، كما هو معروف، عادة دَرَجَ عليها الكاتب نفسه، إذْ راكم عبر السنين كمَّاً كبيراً من القُصَاصَات الورقيَّة التي لم تُنشَر محتوياتها، وضُمَّتْ بعد موته في كُتُبٍ هامَّة للغاية، وفي مقدِّمها مجموعة الأمثولات التي حَمَلَتْ عنوان "يوميات الأخطاء"، والتي أفادَ منها فلايانو كخزَّانٍ، يستقي منه نُسْغَاً للكتابات والمنشورات اللَّاحقة.

وثَمَّةَ، إضافةً إلى كلِّ ذلك، مُفكِّرةٌ للملاحظات ولرؤوس الأقلام، شكَّلت المادَّة التَّمهيديَّة لرواية "زمن القَتْل". إنَّها المفكِّرة التي حَمَلَتْ عنوان "أثيوبيا، رؤوس أقلام لكتابة أُغنيَّة([6])" (ننشره هنا كملحق للطبعة العربية من هذا الكتاب).

يوميَّات سطَّرها إينيو فلايانو ما بين نوفمبر 1935 ومايو 1936، خلال الحملة الإيطالية على أثيوبيا. ومن خلال رؤوس الأقلام المُثبَّتة في هذه المفكِّرة سيكون بمقدور القارئ أن يسبر بسهولة أغوار بعض الأفكار والتَّأمُّلات التي ضمَّنها الكاتب في روايته، كما سيتقاطع مع عدد من الصور والنوادر، كما أنَّه سيلحظ بوضوح تامٍّ التباينَ الجليَّ في النبرة: إذْ تبرز النبرة الساخرة والموضوعيَّة في محتويات دفتر المذكِّرات من أفكار وتأمُّلات، وهي نبرة تُرحَّل إلى المرحلة اللَّاحقة للكاتب، وتُقيم مسافةً عازلة ما بينها واللغة المعذَّبة وجوديَّاً التي تَطلَع من الرواية. وهذه هي السِّمَة التي دفعت الكثير من النُّقَّاد الأوائل الذين درسوا النَّصَّ إلى التَّعرُّف في "زمن القَتْل" على تأثيراتٍ من آلبير كامو، جوزيف كونراد، فرانز كافكا وجان جيرودو، وهو ما وَضَعَ الكاتب، منذُ تجربته الرِّوائيَّة الأولى، على خلفية الثقافة الأوروبية.

في حوارٍ أُجري معه في عام 1972، يقترح فلايانو التعريف التالي به في إنسكلوبيديا افتراضية قد تُنشر في عام 2050، إذا يصف نفسه بالقول: "صَحَفِيٌّ وكاتب سيناريو، وحتَّى مؤلِّف رواية واحدة، عنوانها "زمن القَتْل"، (ولنغفر له الإشارة غير المُستحقَّة للعنوان). كاتب ساتيري بسيط من إيطاليا المرفَّهة". ويظهر في هذه الجمل بجلاء كلُّ مرارة مَنْ كان مُدركاً أنَّه بدا مختالاً ومَزْهُوَّاً إلى القَدْر الذي يعسُر على مُجايليه من إدراك كُنهِهِ الحقيقيِّ: وبالفعل فقد انقضى وقتٌ طويل قبل أن يتمَّ إدراجه ضمن كُتَّاب القرن العشرين الكلاسيكيِّيْن. كان على قَدْرٍ كبير من الزَّهْوِ بذاته (إذْ اعتبر نفسه دائماً مُثقَّفاً مُعاراً إلى الكتابة "الأقلِّ أهمِّيَّة" في الصحافة والسينما، وبأنّه القاصُّ الجَسُور في الدوران ما بين دروب الأساليب الأدبيَّة)، إنَّه كاتب "مُضطربٌ" أجاد في مَنْح شهادةٍ جليَّة، شبيهةٍ بالنُّبُوءة، حول ما سيكون عليه عصره وعصرنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الأوَّل

# الطريق المُختصَرَة

## ١

مُذهلٌ بقائي على قيد الحياة بعد الحادث، وهذا ما كان مُهيمناً على ذهني. فيما أنتظر فِرَق الإنقاذ، وحين نَفَدَ صبري، شَعَرْتُ بانزعاجٍ قاتل من رؤية الأشجار التي يكتَظُّ بها المنحدر؛ لقد نَبَتَتْ تلك الأشجار ونمَتْ في كلِّ مكانٍ، توفَّرت فيه بُقعة من الأرض، لتُدفنَ فيها بذرةٌ، قَرَّرَتِ الانتحار، كي تمنحَ الحياة لنبتةٍ جديدة. تسلَّلتْ حرارة الطقس إلى جسدي، وعَجِزَتْ حتَّى نسائم الصباح الأولى عن تخفيف شِدَّة اشتعال تلك الحرارة، وبَدَتْ لي كلُّ النباتات هنا كحيوانات مُحنَّطة.

ومنذُ لحظةِ انقلاب الشاحنة عند أوَّل انعطافة في طريق النزول، عاد الألم إلى ضِرْسي من جديد. كنتُ مدفوعاً برغبةٍ - ربَّما نَتَجَتْ عن نفاد صبرٍ، سببه الألم - لا تُقاوَم للرحيل عن ذلك المكان. نَهَضْتُ من مكاني. وقلتُ للجندي السائق: أنا راحلٌ؛ كان يُدخِّن سيجارته واثقاً من أنَّه سيتقاسم معي مفاجآت مغامرتنا الجديدة، فذُهل وتساءل قائلاً : إلى أين؟.

- إلى هناك، إلى حيثُ النهر عند أسفل الهضبة.

لم نكن بَعْدُ نرى النهر الجاري هناك في الأسفل، في الوادي الذي حفرتْهُ مياهه عبر القرون. ذلك النهر الذي يحرسُ شواطئَه عددٌ من التماسيح المُتكاسلة التي تترقَّب ضحيَّتها من بين النساء اللَّاتي يحملنَ الثياب لغَسْلها في مياه النهر. اعتقدتُ أنّ بإمكاني العثور على شاحنة، تحملني إلى الطرف الآخر. يجب أن أصل إلى هناك قبل حلول المساء، وإلَّا سأخسر يوماً آخر من أيَّام الإجازة الأربعة التي مُنِحَتْ لي لغرض العثور على طبيبٍ للأسنان.

أجل، ينبغي أن أغادر في الحال. كان الطرف الآخر مُضاءً بنور الشمس الساطعة، هناك، خلف الوادي الذي حَفَرَهُ النهر في الجبال تاركاً حجارتها بيضاءَ كالعظام. طَرَفَا الوادي مفصولان عن بعضهما بمسافة، تصل إلى بضعة كيلومترات، أعجز عن تحديد تلك المسافة بدقَّة، لأنَّ ضياء الشمس يخدع الناظر، ويُعيد رَسْم وتشكيل حتَّى أصغر الجزئيات، قد تكون المسافة خمسة أو ستَّة كيلومترات. وبالتأكيد ثَمَّةَ هناك، ما وراء الطرف الآخر، حياة هادئة ودكاكين، وقد يكون هناك، أيضاً، أناسٌ يعيشون حيواتهم في سَكِينَةٍ مُطلقة، وسأُدركُ قيمة تلك الحياة إذا ما بَلَغْتُ الطرف الآخر، إذْ سأعثر هناك على أوَّل سرير بشراشف، وعلى أوَّل بائع للصُّحُف، وطبيب للأسنان.

لم يَبْدُ الجنديُّ مستعدَّاً لاستيعاب ما يحدُث. "انتظرْ"، قال لي "سيمرُّ أحدهم من هنا بالتأكيد". نَظَرْتُ إلى شاحنتنا التي انقلبت، وعَلِقَتْ إطاراتها في صخور المنحدر، فَهَزَزْتُ رأسي بالنَّفْي: لن يمرَّ من هنا أيُّ أحد. وربَّما لم يمرّ إلَّا كولونيلٌ واحد، كان يتصرَّف بنفس الضَّجَر التي يَسِمُ سلوك الجنرالات.

زاد إلحاح الجندي عليَّ للبقاء في انزعاجيَ شِدَّة، ولم تكن نجاتُه من الموت برفقتي سبباً كافياً، كي

نبدأ باستعراض صورنا العائلية، أو أن نرويَ لبعضنا عن قضايانا الشَّخصيَّة، أو حتَّى أنْ نتخيَّل صورتنا ونحن عائدان معاً إلى إيطاليا. ورَغْمَ انزعاجي الشديد منه، فقد شَعَرْتُ بالأسى لتَرْكه هناك وحيداً.

. هكذا، إذاً، ستتركني وحيداً؟.

جَمَعْتُ أشيائي، حقيبة الظَّهْر، حزامي ومُسدَّسي، حاولتُ البحث عن أيِّ مُبرِّرٍ للتخفيف من تأثيرات قراري بالفرار، أخبرتُهُ بأنَّني سأعود لإغاثته إذا ما عثرتُ على وسيلةِ نَقْل. تظاهرَ الجندي بتصديقي، وقد ازددتُ خجلاً بسبب انصياعه، العدواني والمفاجِئ، واحمرَّ وجهي. صافَحَني بجفاءٍ وبرود، وهو يشعر بخيبة أمل كبيرة. غابت صورته، هو وشاحنته، عن ناظرَيَّ بعد خمسين خطوة فقط، ولم أرهما بعد ذلك أبداً.

هل يقع الجسر على مسافة بعيدة؟ بإمكاني أن أسلكَ طريقاً مختصرةً، لكنِّي لا أثق كثيراً بالطُّرُق المختصرة في أفريقيا. ومع انحداراته صوب النهر، فقد انفتح الدرب، بين الفَيْنَة والأُخرى، على عدَّة دروبٍ، ومن ثمَّ انحدر، بعد استدارة قصيرة، صوب أحراش الغابة وأدغالها.

تجاهلتُ الطُّرُق المختصرة، كانت حرارة الطقس قد ارتفعت، وازداد عدد الأشجار كثافةً بشكلٍ مخيف، وبَدَتْ كأعمدةٍ منحوتةٍ بالورق المُقوَّى، بالضبط كتلك التي اعْتَدْتُ على رؤيتها في الاحتفالات الدِّينيَّة في البلاد، وبَدَتْ لناظرَيَّ، كما لو أنَّها من قديم الزمان وغابره، وشبيهة بمنحوتاتٍ، تُعلن الولاء لآلهة ديانةٍ غابرة.

وبعد مسيرٍ ما يربو على ساعَتَيْن، زادت كثافة الأحراش أكثر فأكثر، وارتفعت درجات الحرارة في الدروب التُّرابيَّة. وعلى حين غِرَّة، وجدتُ النهر ينفتح أمامي، ورأيتُ جسراً جديداً قيد التشييد.

وتراءى لي، أيضاً، من بين الأشجار الباسقة، عددٌ من الصُّلْبَان المغروسة في الأرض، وصناديق خشبية، وعددٌ من عُلب اللحوم المحفوظة، وأكياس البسكويت، وبقايا جُثَّة، قد تكون لجنديٍّ، توقَّف عن المسير، وقال لرفاقه: "لم أعدْ قادراً على الاستمرار"، وجَاهَدَ كثيراً من أجل إقناع العريف، ومن ثمَّ الملازم، ومن بعدهما النقيب، جَاهَدَ كي تتمَّ الموافقة على طَلَبِهِ بأن يُترَك هناك، ليخلُدَ إلى الراحة قليلاً.

ولربَّما كانت تلك الطبيعة (الرمل رمادي اللون أو البراعم الناتئة من جذوع الأشجار)، هي ما أنْبأت ذلك المحارب بأنَّ ساعة استراحته النِّهائيَّة قد حَلَّتْ بالفعل. أولئك الذين يحصلون على صناديق البسكويت واللحم المحفوظ، على بُعْد آلاف الأميال عن منازلهم، لا يُدركون بالفعل بأنَّ خشب ذلك الصندوق قد يُصبح، في وقتٍ ما، ثميناً للغاية، فهو، وإنْ كان قد صُنِع من خشب هَشٍّ وخفيف للغاية، فقد يكون مفيداً في شيءٍ ما، وهناك دائماً حاجة إلى صندوق خشبي، فَمَنْ يحظى بواحدٍ من هذه الصناديق، سيستفيد منه، على الأقلّ، لتزيين زاوية خيمته مُستخدِماً إيَّاه كطاولةٍ، تُضاف إلى مكوِّناتها الفقيرة كقطعة استثنائية من الأثاث: وبإمكانه، في أوقات الصفاء أو نُدرة المعارك، أن يضع فوق ذلك الصندوق، ما بين الكُتُب وحقيبة الدخان، صورة المرأة التي يُحبُّ. ليس العثور على امرأة ليُحبَّها الجندي أمراً عَصِيَّاً وعسيراً، إلَّا أنّ الحصول على ذلك الصندوق أعسر، بالتأكيد، من الحصول على امرأة.

لم تكنْ هناك أيَّة شاحنة. جَلَسَ العُمَّال يتناولون غداءهم خلال فترة التَّوقُّف الإجباري عن العمل، بسبب ارتفاع حرارة الشمس، كنتُ واثقاً من أنَّهم حديثو عهدٍ بذلك المكان، وأدركتُ

ذلك من النَّظَّارات الشَّمسيَّة السوداء التي بحوزتهم، والتي كانت ما تزال سليمةً. افترشوا الأرض أمام خيامهم، يتحاورون مع الدركي([7]) المكلَّف بحراسة المكان. لم تكن دهشةُ التواجُد في ذلك المكان قد بارحتْهم بعد، دهشة التواجُد في تلك الأرض التي حين وصلوها اكتشفوا أنَّها مختلفة عن الصورة المطبوعة في أذهانهم عنها، وعمَّا اختزنتْهُ مُخيِّلتهم عن أفريقيا.

وعلى أيَّة حال، لن تمرَّ أيَّة شاحنةٌ من هنا. أخبروني بأنَّ شاحنة موقع العمل قد غادرت للتَّوِّ؛ وبالفعل فقد كان هدير مُحرِّكها ما يزال مسموعاً، وقد ابتعدت وصارت عند أولى مراحل الصعود إلى أعلى الجبل.

"هل ستعود؟".

"غداً"، أجابني أحد العُمَّال، وهو مندهش من جهلي بهذه المعلومة بالذات. "ستعود غداً حاملةً إلينا المؤن والبريد".

المؤن والبريد. لمستُ، عبر قماش جيبي، الرسالة الأخيرة التي استلمتُها منها، من زوجتي. وَصَلَتْ في اليوم السابق. رسالةٌ طويلة. مزدحمة بالكتابة المتشابهة، كتابةٌ دائرية متشابكة، لكنْ، بخطٍ رشيق، جميع أوراقها مزدحمة بالكلمات حتَّى نهاية أطراف الورقة، ودون ترك أيَّة مساحة بيضاء فيها. كانت تلك، بالفعل، رسالة جديرة بأنْ تُعادَ قراءتُها مرَّات ومرَّات. لكنْ، إذا لم يكن هناك احتمال مرورُ شاحنةٍ أُخرى من هنا، فإنَّ عليَّ المكوث في موقع العمل. بدأتُ أفقد هدوئي، فرحلتي آيلةٌ إلى الإخفاق. أخبرتُ العُمَّال عن الموقع الذي انطلقتُ منه، وعن الأهمِّيَّة المطلقة لوصولي إلى أعلى الهضبة. لاحظتُ ثبات قسمات وجوههم، التي لم تتغيَّر حين رويتُ لهم عن حكايتي، وعن انقلاب الشاحنة التي أقلَّتْنا. لم أكن آمُلُ، بالطبع، في استثارة اهتمامهم، إلَّا أنَّه لم يصدر عن أولئك العُمَّال أيُّ تعليق، كما أنَّهم لم يعرضوا عليَّ أيَّ حلٍّ. فأفريقيا مليئة بالشاحنات المقلوبة.

"لا أعتقد بأن تمرَّ شاحنةً ما من هنا الآن"، قال الدركي، رَغْمَ أنَّه لم يستبعد احتمال مرور رتلٍ من المركبات، لكنّه لم يَبْدُ متأكِّداً من هذا الاحتمال؛ في أثناء ذلك وَاصَلَ مراقبتي وهو مستلقٍ على الأرض، مُسنِداً قُبَّعته العسكريَّة على جبهته.

"أين يمكنني العثور على أولى الشاحنات المتوجِّهة صوب الأعلى؟"

"هناك قيادةٌ لموقع عسكري على بُعد اثنَي عشر كيلومتراً من هنا، هناك بالضبط، على حافَّة الهضبة"، قال الدركي وهو يُطلِق تثاؤباً طويلاً. مسافةُ اثنَي عشر كيلومتراً تعني مسير ثلاث ساعات، هذا إذا لم تُزدْها حرارة الطقس إلى أربع ساعات، وكانت تلك، هي الساعة الأسوأ للبدء بمغامرة من هذا النوع: لكنْ، كان عليَّ اتِّخاذ قرارٍ ما. "برأيكم، كم ساعةً يمكن أن تستغرقني الرحلة؟".

ومن الأجوبة الأولى التي استمعتُ إليها، أدركتُ بأنَّ سؤالي ذاك كان غير ذي جدوى. إلَّا أنَّني طرحتُهُ لأنَّني كنتُ منزعجاً من فكرة الرحيل، بينما كنتُ أبحث عن مبرِّراتٍ للمكوث هناك. كان العُمَّال يتمازحون متشاتمين فيما بينهم بلهجاتهم المحلِّيَّة، مُخترعين، حتَّى في وَضْع مثل هذا، مواضيعَ مناكفاتٍ ذات طابعٍ مناطقيٍّ وإقليميٍّ. وَصَمَ بعضُهمُ الآخرَ بافتقاد الفراسة في تحديد المسافات (هم أيضاً عثروا، بحضوري، على مبرِّرات للتَّندُّر والاستمتاع)، لكن الجميع اتَّفقوا في النهاية بأنَّني سأحتاج إلى أربع ساعاتٍ، على الأقلِّ، لقَطْع تلك المسافة.

"إذا ما مشيتَ بخُطىً سريعة، فستُعجِّل بالوصول إلى هناك". قال صوتٌ صَدَرَ من خلف ظَهْري. نَظَرْتُ إلى المتكلِّم، كان شاباًّ أشقرَ الشَّعْر، على قَدْرٍ من الحياء، تلعثم عندما نَظَرْتُ إليه، وطَلَبْتُ منه تكرار ما قال، كان كلامهُ خالياً من أيَّة رغبة في السخرية منِّي.

أفقدتْني مسكِّنات الألم الشَّهيَّة للطعام. وبَلَغَتْ درجات الحرارة على طول الطريق مستوىً يتجاوز حدود الاحتمال البشري. واجهتُ مسار الصعود الأوَّل، ولم أكن وقتها قد ابتعدتُ أكثر من مائة خطوة، حين سمعتُ صوتاً يُناديني، كان العامل الأشقر يعدو باتِّجاهي، ولمَّا صار على مقربةٍ منِّي، قال لي: "إذا ما سلكتَ إحدى الطُّرُق المختصرة، فستُوفِّر على نفسِكَ الكثير من الوقت والعناء". مَكَثَ واقفاً في مكانه مُحدِّقاً فيَّ، مُترقِّباً أن أطلب منه ليُدلَّني على الطريق المختصر.

"تُرى أين التقيتُ بهذا الشَّابِّ؟"، فكَّرتُ في سرِّي. كانت ملامحه تحملُ إيماءات لطيفةً لعاملٍ شابٍّ. إنَّها ملامح شخصٍ، قد أكون التقيتُهُ من قبلُ لمرَّة واحدة على الأقلِّ، تُرى هل رأيتُهُ خلال إطلالتي من نافذة القطار العابر، أم أنَّني أمنح وسامته تلك معنى أكبر ممَّا تستحق؟ لقد استعدتُ دائماً ذكرى لقائي بذلك الشَّابِّ ( أعتقد أنَّه كان يمتلك روحاً خَدَميَّةً كالتي تطبع سلوك النُّدُلِ في العادة)، إلَّا أنَّني أودُّ تبديد أيِّ شكٍّ حول أهمِّيَّة حضوره في هذه القصَّة. كان مُجرَّد عاملٍ دفعتْهُ الرغبة في أن يفيدَني بشكلٍ ما، وأنْ يدلَّني على طريق مختصرة مناسبة. ولتغفر لي السماء من وِزْرِ التلميح إلى أنّ كلَّ ما حَدَثَ لي فيما بعد كان نتاجاً لتقفِّيه أثري، وأودُّ تأكيد قناعتي بأنَّ عبوره في حياتي في ذلك اليوم لم يكن إلَّا مروراً طارئاً، ولَّدتْهُ الصدفة.

وَصَلْنَا، بعد دقيقَتَيْن، إلى مفترق طريقَيْن، وكان علينا أن نفترق عن بعضنا. قدَّمتُ له سيجارة، لكنّه لم يُحسِن إشعالها، ونَفَثَ الدخان كغير المدخِّنين. شَعَرَ بالخجَل، لذا لم يرفض هديَّتي، ونَظَرَ إليَّ بعينَيْ مَنْ حقَّق انتصاراً متواضعاً. "لن تُخطئ الطريق بالتأكيد"، قال وكأنَّه يردُّ على كرم هديَّتي. وأضاف ملاحظة مازحة، سمعها بالتأكيد من آخرين؛ كان خَجِلاً من تكرارها، لكنّه، قرَّر أمره في النهاية، وقال لي: "اِلْحَقِ الرائحةَ، اتْبَعْ دائماً نتانةَ البغالِ النافقةِ".

"أعرف ذلك، شكراً". كانت هناك ما تُشبه المذبحة لبغال حَمْل المُؤَنِ والعتاد، وكانت دروب أفريقيا بأسرها مليئةً بنتانة البغال النافقة، وببقاياها ما بعد التهامها من قِبَل الحيوانات الليلية المفترسة، وهناك ثَمَّةَ جماجمُ بأسنان، تبدو ضاحكة وهي مَلآى بدبيب الديدان.

"حسنٌ إذاً، أتمنَّى لك حظَّاً سعيداً، سيِّدي الملازم". قالها العامل، وابتعد عنِّي. أسقطني تَمَنِّيه لي بالحظِّ السعيد في كآبةٍ غير مُنتظرة: أعني بأنَّ تمنِّي الحظِّ السعيد لشخص في مثل حالتي تلك، كان تأكيداً غير مباشر على أن المسار الذي سأُواجهه عسيرٌ للغاية، هذا إذا لم يكن مساراً مستحيلاً.

على أيَّة حال، فكَّرتُ في سرِّي، لم أكن في طريقي لدخول ميدان المعركة أو لعبور جبال الألب[8]، وكلُّ ما عليَّ هو اتِّباع مسار طريق مُختصرة للوصول إلى أعلى الهضبة. كان عليَّ فقط أن أعثر على شاحنةٍ، بعدها سأُقلِّب في الليلة ذاتها صفحات كتابٍ وأنا مستلقٍ على سرير، وستكون تلك هي الليلة الأولى بعد مُضي ثمانية عشر شهراً.

وبعد أن تمنَّى لي العامل يُسْرَ الطريق، كما لو كان تحدِّياً، ساورتْني الرغبة بالعودة إلى الوراء. وللحيلولة دون ذلك القرار مرَّرتُ كفِّي على خشب الشجرة الأولى التي صادفتُها بالقرب منِّي:

بَدَتْ لِي أشجار تلك الغابة الصغيرة وكأنَّها منحوتات أشجار، صُنِعَت بالورق المُقوَّى المُصمَّغ، وكانت تُشبه حقَّاً بقايا مُهْمَلاتٍ في مخزن الكون. قلتُ لنفسي إنَّه "لا بُدَّ أنّ جامعَ لقى قديمة خالٍ من أيِّ وازعٍ للضمير، كوَّمَ هذه الأشياء عديمةِ الأهمِّيَّة هنا، في هذا المكان القَصِيِّ عن الدنيا والبشر".

فكَّرتُ بذلك، ودَلَفْتُ إلى الطريق المختصرة سائراً بخَطْوٍ ثابت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٢

كنتُ سائراً، ربَّما منذُ ساعة واحدةٍ، عندما رأيتُ حِرْباءَ. تلك الزاحفة الوديعة. كانت تعبر الدرب بالحَذَرِ الذي يُمَيِّزُ لصَّاً يسير على حافَّة سقف الفندق المفضَّل لديه. بحَذَرٍ هادئٍ، وبخوفٍ صادقٍ، ممَّا قد تواجه في أفريقيا المَلآى بالمفاجآت والمزالق، كانت الحِرْبَاءُ تُرتِّب برفقٍ قوائمَها واحداً إثْرَ الأخر. ولم يكن لمَرأى بسطاريَّ أن يُقلِقَها بأكثر ممَّا كانت تشعر به من قَلَقٍ في تلك اللحظة، أو أن تَزيدَ من شكوكها من ضرورة مواصلة المسير أو عدمه. وبعد أن دقَّقتْ مليَّاً في بسطارَيَّ، مُتردِّدة ما إذا كان عليها أن تعبر من فوقهما أم لا، استدارتْ تنظر حولها. كانت تثق بقيمة الشرف العسكري الذي في داخلي. لم أكُنْ لأصيبها بأذى، ولم أكُنْ لأُلهِيَها عن بحثها الدؤوب عن الغذاء.

"ما رأيكِ بسيجارة؟"، ودسستُ بسيجارة مُشتعلة بين فَكَّيْها. غادرتْني وهي تُدخِّن بأناقة الدِّبلوماسيِّيْن، دائمة الانشغال في السَّعي للبحث عن مصادر الغذاء الضَّروريِّ للبقاء على قيد الحياة؛ كانت الحِرْبَاءُ على أُهْبَة الاستعداد لرَمْي السيجارة من فمها، كي تقتنصَ ذبابة. أبدَتْ لي خمولاً، لكنَّها كانت على أُهْبَة الاستعداد للانقضاض على الفريسة القادمة.

نَظَرْتُ إلى ساعتي التي كانت تُشير إلى العاشرة. وإذنْ فقد كنتُ سائراً منذُ ساعةٍ وعشرين دقيقةً. كان الدرب ضيِّقاً، ينقسم في بعض الحالات، ليعود مُتَّحداً من جديد بعد قليل: كان المسير مُريحاً، مُريحاً للغاية، بارتفاعات خفيفة للغاية، تليها مسافات من الأرض المنبسطة، وهذا هو بالذات ما جَعَلَنِي أشعر بأنَّني أخطأتُ الطريق. فبعد مُضيِّ ما يربو على نصف ساعة من المسير، لم أعُد أرى أجداث بغالٍ نافقة، عفَّنَتْها الشمس. ومع ذلك، فقد اجترحتُ لذلك تفسيراً، فالبغال، وبرَغْمِ اعتيادها على الانضباط العسكري وانصياعها له، لا تموت دائماً عند الحجارة الدَّالَّة على الطُّرُق، كما لا تُقرِّر توزيع أجداثها النافقة بالتساوي على مسافات المسير، فقد تعثرُ على ثلاثة أجداثٍ متراكمة على بعضها في حفرة، ومن ثمَّ تسير لعشر كيلومترات دون أن تلتقيَ بأيٍّ منها، إلَّا أنَّني شَعَرْتُ في تلك اللحظة بأنَّني لم أرتفع عن مستوى النهر لأكثر من مائة متر. فالجبال ما تزال قائمة أمام ناظرَيَّ، بوضوح أكبر رَغْمَ الأحراش التي تَحول دونَ رؤيتها في بعض المناطق.

واصلتُ المسير: أَعلمُ بأن الطُّرُق المُختصرة تُقبَلُ ولا تُناقَش، وبالتأكيد سأُطلُّ بعد قليلٍ على إحدى حافَّات الهضبة، وقد يكون ذلك بالقرب من مطبخ معسكر، تتصاعد منه الأبخرة وروائح الطعام، أو ربَّما سأُطلُّ على مَرْأَب واسعٍ للشاحنات: نعم هكذا هي الطُّرُقُ المختصرة.

ولذا فقد أزلتُ من ذهني فكرة أنَّني أخطأتُ الطريق، وواصلتُ المسير. لم أشعر بالتعب، أو بالأحرى، قراري بعدم تناوُل ما يُثقِل معدتي جَعَلَ ساقَيَّ أكثر حيويَّةً، وجسدي أخفَّ وزناً؛ ولم أكن أحمل في حقيبة الظَّهْر موادَّ كثيرة. إلَّا أنَّ المُسدَّس الكبير الذي أحمله على جنبي أزعجني كثيراً. فكَّرتُ بأن أضعه داخل حقيبة الظَّهْر؛ لكنّ وجودي في ذلك المكان وحيداً ووسط أحراش مجهولة التضاريس جَعَلَنِي أَعدِلُ عن تلك الفكرة. كنتُ محاطاً بمخاطر مجهولة، فحاولتُ جهدي أنْ أُبعد الفكرة عن ذهني حتَّى لا تزيد من قلقي خلال المسير صوب أربعةِ أيَّام من الحُرِّيَّة، ناهيكَ عن الانزعاج والألم الذي يُسبِّبه لي الضِّرْس الملتهب، والذي كان يُلحُّ عليَّ بآلامه المتواصلة التي جَعَلَتْنِي أصرخ من شِدَّة الوجع من جديد. ولم تبقَ لديَّ إلَّا ثلاثة أقراصٍ مهدِّئة.

ما الذي كان سيحدُثُ لو أنَّني، وبدلاً من تلك الحِرْبَاءِ، التقيتُ ضَبْعَاً، ضَجِرَ من عادته اللَّيليَّة في البحث عن الجثث النافقة، فخَرَجَ نهاراً وهو على استعداد للتَّنصُّل من الالتزام بتقاليد الصيد لديه؟ وأكثر من الضبع الذي يُثير التَّقزُّز بفضلاته التي يتركها وراءه، فقد كنتُ أخشى أن أجد نفسي أمام أحد السُّكَّان المحلِّيِّيْن وهو يتضاحك منِّي مُشيراً إليَّ بسبَّابته الساخرة.

لكنْ، لا ضِباع تخرج من أوكارها نهاراً، فهي اعتادت على التجوال ليلاً، مؤسفٌ أنّ الضِّباع لا تُجيد التحاور في قضايا الأدب والفنون، كأصدقائي الذين تركتُهم هناك، فقد كان بمقدوري، لو كانت تهوى الآداب والفنون، أن أملأ ساعات الأرق الطويلة التي أُعاني منها بالحوارات اللَّيليَّة معها.

نعم، لقد أخطأتُ، أخطأتُ بكلِّ ما تعنيه هذه الكلمة. فأوَّلاً: أخطأتُ في القبول بسلوك طريقٍ مُختصرة. وثانياً: أخطأتُ في السير في تلك الطريق بالتحديد، فهي لا تتقاطعُ مع الشارع العامِّ، كما افترضتُ ذلك بسذاجة في البداية. ولذا لم أكنْ لأحظى بلقاء شاحنةٍ عابرةٍ، كتلك التي أستمع الآن إلى ضجيج محرِّكها عن بُعْد. كانت على بُعْد ثلاثة كيلومتراتٍ على الأقلِّ وهي تصعد مرتفعاً.

تابعتُ هدير محرِّك الشاحنة، وانتابَني قلقٌ عجزتُ عن تفسيره؛ وأدركتُ السبب في ذلك عندما عاودتُ المسير بعد أن استدرتُ شَمالاً بُغية الوصول إلى أعلى الهضبة. نعم، كنتُ قد أخطأتُ، لكنِّي قرَّرتُ أنْ لا ضرورة للتعامل مع الأمر بمشاعر مَنْ تعرَّض إلى مأساةً. فسأصل إلى هدفي في غضون ساعَتَيْن، طالما أن الدرب يُشير شَمالاً والأرض تزداد وعورة.

عبرتُ جدولاً جفَّت مياهه (كانت هناك بِرَكُ قليلة من ماءٍ صافٍ ودَغَلٌ تشكَّل من بضعة أشجار مُورِقة؛ إنَّها الأشجار اللعينة ذاتها، وإنْ اصطبغت بالخُضرة)، وعُدتُ إلى الدرب الذي انفتح من جديد ما بين أكوام من ورق الشجر وكثبان التراب التي كوَّمها النمل. تطاير بعض الطيور السوداء من على الأرض عند مروري، لتحطَّ من جديد على مسافة قصيرة إلى الأمام .. خامرَني إحساسٌ بأنَّ هناك ثَمَّةَ مَنْ يُراقبني ويقتفي أثري بنَظَرَاته، إلَّا أنَّني أيقنتُ بأنَّ ذلك لم يكن إلَّا بسبب الإنهاك والآلام الفظيعة الناتجة عن ضِرْسي الملتهب، ذلك الضِّرْس المُصرّ على إيلامي. ابتدأتُ بإطلاق صفيرٍ مُمَوْسَق، فَحَامَتْ في ذهني أفكار تبعث على الحبور: وبالذات التفكير بالإجازة. ومن ثمَّ، تلك الرسالة التي تلتهب في جيبي، والتي بإمكاني أنْ أُعيدَ قراءتها، في الحال، تلك الرسالة الحبيبة التي حملتُها معي. حاولتُ فَكَّ رموز بعض كلماتها المُبهَمَة المكتوبة على عجل، كنتُ أمنح تلك الكلمات بالذات قيمةً مُبالغاً فيها. فلربَّما كان بمقدور تلك الكلمات المُبهَمَة بالذات أن تُجيبَ عن تساؤلاتي القلقة. لكنِّي واجهتُ ذات الخيبة حين تمكَّنتُ من فَكِّ غموضها: لم تكن كلمات ذات معنى مُحدَّد، واقتنعتُ بأنَّها كتلك الكلمات التي حُكِمَ عليها أَنْ تُكتَبَ على عَجَل، حتَّى وإن كانت اليد التي تكتبها هي يد امرأة هادئةِ الطباع و"وديعة".

تكثَّفت الأحراش بأشجار متشابكةٍ مرَّة أُخرى، وحَجَبَت النَّظَر عمَّا وراءها؛ وهذا ما دَفَعَني إلى التَّوقُّف من جديد، لأُعيد تقييم الموقف. كنتُ داخل وادٍ حَفَرَهُ أحد فروع النهر: وهو ما عَنَى بأنَّني ابتعدتُ سواءٌ من الجسر أو من الهضبة، التي بَدَتْ لي حافَّتها وكأنَّها صارت جزءاً من الجبال البعيدة. ورأيتُ خيط النهر في الأسفل نحيلاً، وقد غطَّتْهُ الأشجار.

بدا المكان وكأنَّه تلفَّع بسلامٍ أزليٍّ. وكأنّ كلَّ شيء تُركَ على حاله منذُ اليوم الأوَّل للخليقة. لم يَبدُ لي الوصول إلى النهر صعباً، لكنِّي تساءلتُ في سرِّي عن الأسباب التي قد تدفع الناس إلى التَّوجُّه

نحو هذا النهر؟ لم تكن من بين الأسباب - بالتأكيد - الحاجة إلى الصعود على مَتْن قارب أو القيام برحلةٍ لصيد السمك، وهو ما لا يمارسه السُّكَّان هنا، كما لم يكن السبب في ذلك هو الحاجة إلى الارتواء أو حَمْل الماء، فالجبال غنيَّة بعيون الماء الوفير، هذا إذا ما افترضْنا، جدلاً، تواجُد أُناسٍ، قرَّروا العيش في هذه المنطقة الحارَّة. تُرى هل الرغبة في القيام برحلة سياحيَّة أو استكشافيَّة من بين الأسباب التي قد تدفع الناس إلى الحضور إلى هنا؟ كَلَّا، فالسُّكَّان الأصليُّون هنا لا يُحبُّون فكرة السَّفْرات الجماعيَّة.

وإذا ما قرَّرتُ النزول إلى عمق الوادي، فإنَّني لن أعثر إلَّا على آثارٍ وبقايا لحيوانات، ولا شيء أكثر من ذلك. وربَّما لم يكن هناك حتَّى مسارٌ سَلَكَهُ آخرون قبلي، وسيكون عليَّ أن أخترعه. لكنْ، ما نفع كلِّ هذا؟ ومع ذلك فقد هيمنتْ فكرة النزول إلى الأسفل على ذهني، فأنا بطلُ الشَّغَفِ بالمحاولات الخائبة. أَوَلستُ من يُضيِّع الوقت سُدىً؟ ابتدأتْ هواجسي حول هذا الأمر تبرز بجلاء.

موَّجَتْ نسمةٌ شفيفة السطحَ الهادئ لماء النهر. وحين أمعنتُ النَّظَر بدا لي أنَّني أرى جِذْع شجرةٍ تالفةٍ، هَوَتْ داخل الماء، غيرَ أنّ ذلك الجِذْع غَطَسَ في النهر، وغاب في لُجَّة مياهه بعد أن قَفَزَ بوثبة مُفاجِئة. ربَّما كان تمساحاً، أو حتَّى زاحفاً آخر، كالإيغوانا مثلاً. لم أتمكَّن من تحديد حجمه من المكان المرتفع الذي كنتُ أقف فيه. "ربَّما كان التمساح بانتظاري أنا"، فكَّرتُ، وحاولتُ الابتسام. كنتُ أواجه صعوباتٍ حتَّى في الابتسام، ولذا فقد واصلتُ مسيري في داخل الغابة.

لم يعدْ هناك درب.

ساورني القلق رويداً رويداً، ولذا حَثَثْتُ الخطى مُسرِّعاً في مشيتي، وقطعتُ، ربَّما، كيلومتراً أو اثنَيْن، باتِّجاه الجسر، مُحاوِلاً الصعود إلى الأعلى، وخلال المسير تذكَّرتُ، لكنْ، بعد فواتِ كثيرٍ من الوقت، الاحتياطات الضَّروريَّة عبر تَرْك بعض المؤشِّرات الدَّالَّة على الطريق بين الحين والآخر، كأنْ أترك قِطَعَاً من الورق مغروسةً في أغصان الأشجار. كم مرَّة تضاحكْنا هازئين من أحد ضُبَّاطنا الذي لم يكن ليدخلَ في مجاهلِ غابةٍ دون أن يكون حاملاً معه رُزمةً من الأوراق، تاركاً قُصَاصَةً منها بعد كلِّ خمس خطواتٍ من المسير، وكان في بعض المرَّات يُرقِّمُ تلك الأوراق بشكل متسلسل، وكان يعني ذلك الاستدلال على الطريق بسهولة، أمَّا بالنسبة إليَّ الآن، فإنَّ القيام بذلك سيكون إضاعةً للوقت. كنتُ قد مشيتُ بخطوات عجْلى، وإذا ما تمكَّنتُ من الوصول إلى الجدول الأوَّل على الأقلِّ، فإنَّ ذلك يعني أنّ عليَّ أن أسير لساعَتَيْن أُخرَيَيْن، أو أقلّ من ذلك بقليل، كي أصلَ إلى الجسر، وكنتُ سأفعل كلَّ ذلك لا لشيء إلَّا ليُحدِّق بي العُمَّال ساخرين، فيما سيتساءل العامل الأشقر بالتأكيد: "هل نسيتَ هنا شيئاً ما، حضرةَ الملازم؟"، نعم، بالتأكيد، لم يكن ليقول شيئاً آخرَ.

أعود أدراجي؟ نعم، بالتأكيد كان ذلك حلَّاً مناسباً، إذا ما تمكَّنتُ من العثور على تيَّار النهر. كان واضحاً أنّ النهر يَنبعُ من الموقع الذي عبرتُ منه. وإذا عجزتُ عن العثور على مكان المنبع، فإنَّ أيَّ حديث عن النهر أمرٌ لا طائل منه.

وكان لديَّ حلٌّ بديل: أن أتسلَّق صوب الهضبة بخطٍّ مستقيم. فالهضبة ليست سراباً، بل هي قائمة هناك، وسأصلُ إليها بعد أربعمائة أو خمسمائة متر من الصعود. واجهتُ الشُّرفة الأولى، لأجدَني في مساحة منبسطة جديدة شبيهة بتلك التي تركتُها قبل قليل. الأشجار ذاتها، والوحدة

الصامتة ذاتها. كان ذهني مركّزاً على الوصول إلى هدفي، وربَّما كنتُ أقرب إلى الهدف أكثر ممَّا أتصوَّر بعد الصعود شُرفةً بعد أُخرى. "تشجَّعْ"، قلتُ لنفسي بصوتٍ مسموع. وبرَغْمِ كوني حانقاً بسبب توريط نفسي بلُجَّة هذه السياحة البليدة، فقد قرَّرتُ أن أعمل جهدي لأضع أجلاً نهائيّاً للوصول إلى حافَّة الهضبة المُطلَّة على الجانب الآخر. صفَّيتُ ذهني، وابتدأتُ بالصعود: لكنِّي شَعَرْتُ بالضياع الكامل عندما وَجَدْتُني في متَّسعٍ آخر بعد اعتلاء شُرفةٍ أُخرى.

وجدتُ أمامي جداراً حَجَرِيّاً من البازلت، وعلى اليسار كانت الشُّرفة تُطلُّ على الوادي السحيق. بإمكاني أن أسلك الدرب الواقع على اليمين، لكنْ، لماذا عليَّ أن أُضيف تعقيداتٍ أُخرى إلى عملية سيِّئة الطالع أصلاً؟ من غير المُجدي أن أبتعدَ عن الجسر كثيراً. بإمكاني محاولة السير على الدرب يساراً، لكنَّه لم يكن مفيداً طالما أنَّه يضيعُ في ممرٍّ ضيِّق، ولا يلتفّ حول الحائط الحَجَرِيِّ، على أيَّة حال. أَمن المفيد لي أن أبحث عن مخرجٍ فوق ذلك البازلت المُتَّقِد، مُغامراً بالمكوث تحت لَفْحِ الشمس؟ "هَيَّا، احسمِ الأمر، عُدْ أدراجَكَ"، قلتُ لنفسي.

بدا لي بأنَّني أشمُّ الآن نتانةَ بغلٍ نافقٍ، لكنْ، لم أرغبْ في إيهام نفسي. ربَّما كان ذلك احتمالاً لنجاتي. بحثتُ بنَظَري وبيدي عن المُسدَّس، وتحسَّستُهُ بكفِّي، فيما كان قلبي يتقافز بين أضلاعي. رأيتُ حبشيّاً جاثياً على الأرض، وعيناه مُوجَّهتان لي: كان قد استند على عَصىً برأسٍ قُدَّت من صخر، وثبَّت رأسه الأصلع على راحة كفِّه، كان يُحدِّق صوبي أنا بالذات دونما حركة، بإحدى عَيْنَيْه مفتوحةً، والأُخرى شبه مُغلقة.

أَرجَعَ الحائطُ الحَجَرِيُّ صدى صرختي، لكن الحبشيَّ لم يأتِ بأيِّ حَرَاكٍ، وكلُّ ما تحرَّك في المكان هو مُجرَّد مجموعة من الطيور السوداء، نَفَرَتْ من خلف ظَهْره، في احتفالٍ كئيب ومصطبغ بالأسود، لكن الغِرْبَان السوداء سُرعان ما عادت لتحطَّ خلف ظَهْر الرجل.

ابتعدتُ في الحال وبسرعة، وظَهَرَتْ أمامي جُثَّة أُخرى. كانت مستلقيةً على الأرض، وكانت إحدى يَدَي الميِّت تؤشِّر صوب السماء، كان خلفه مقاتلٌ آخر، فاغر الفم، ورأسه مُسندة على ذراعه، في هدوءٍ وصفاء سماوي: ربَّما كان ما يزال يستمع إلى كلمات صديقة الذي أشار له إلى السماء. كانا يرقدان برفقة تجهيزاتهما القتاليَّة، وكانت هناك صفائح بترولٍ فارغة ورماد نارٍ أُوقِدَت ما بين حَجَرَيْن. وفوق الحَجَرَيْن كان ثَمَّةَ قِدْرٌ توقَّف عن تسخين محتوياته منذُ وقتٍ طويل.

توقَّف قُبَالَتي سنجابٌ، وصار يُحدِّق بي، ولم تكن نَظْرَته ودودة على الإطلاق، إلَّا أنَّه لم يُثِرْ فيَّ أيَّ ابتسامة. كنتُ أُردِّد مع نفسي بأنَّني لو افتقدتُ هدوئي، فإنَّني سأمكث في ذلك المكان. ماذا لو أنَّني بدأتُ بالعدوِ السريع (كما تنتابني الرغبة بالفعل)؟ وما الذي سأناله لو أنَّني حاولتُ قهرَ الخوف بالصراخ؟ كان عليَّ التفكير بهدوء. خَلَدْتُ إلى الراحة قليلاً في ظلِّ الشجرة الأقلِّ إثارةً للحَنَق، إلَّا أنَّ محاولتي تلك لم تكنْ إلَّا حطام نوايا طيِّبة، أعجز عن إدارة دفَّتها. حدَّقتُ في الساعة المربوطة حول مِعْصَمِي، فوجدتُها قد توقَّفتْ عن العمل.

وما هو هذا الهدير الذي أستمع إليه الآن؟ ركَّزتُ أُذُنيَّ لألتقطَ هدير الشاحنة الباعث على الحبور، إلَّا أنَّني أدركتُ بأنَّها بعيدة، أنا كنتُ بعيداً عنها كثيراً.

فرشتُ الخارطة الورقيَّة المَطويَّة على الأرض، وبحثتُ عن النهر، وعن القرية في أعلى الهضبة، والتي كان يُفترَض أن تكون محطَّتي الأولى. كانت هناك دروب كثيرة تتفرَّع من النهر، وقد عثرتُ على موقع المعبر، أو بالأحرى موقع بناء الجسر. كانت جميع المعالم قد وُضِعَتْ على الخريطة

بشكلٍ تقريبيٍّ، ولم يكن النهر الصغير يظهر فيها إطلاقاً، وكانت الأسماء التي أُطلقت على الأماكن تُدلِّل على مقدارِ الرُّومانسيَّة التي اجتاحت رسَّام هذه الخرائط. ولأنَّه كان يرفض إصدار خريطة تحتوي على مساحات فارغة كثيرة، فقد أضاف، بنزقٍ، جملاً قصيرة من قبيل: "موقعٌ مُحتمَلٌ للرعاة"، أو، "هنا مكان التقاء العديد من النَّعَام". إذَّاكٍ فقط، انتبهتُ بأنَّ تلك الخريطة كانت قديمة جدَّاً، ويعودُ تاريخ طباعتها إلى ما يربو على نصف قرن.

استعدتُ بعضاً من جرأتي حين ضحكتُ من ذلك الاكتشاف، فاسترختْ أعصابي. لكنْ، عليَّ أن أُضيف بأنَّ نبرة صوتي كانت غريبةً على ذلك المكان، وأدَّتْ في الحال تلك الفرحة العقيمة إلى أنْ أَوْلَجَتْنِي إلى دهليزِ لحظات القلق الأكثر قتامة. "لا يبدو لي بأنَّني سأُفلِحُ بالخروج من هذا الدهليز"، فكَّرْتُ. وبَدَتْ لي فكرة قضاء الليل هنا ورؤية انبلاج الفجر بجوار تلك الجثث أمراً غير قابل للتَّصوُّر. نَظَرْتُ إلى الخارطة من جديد: كان هناك دربٌ، وربَّما كان ذلك هو الدرب الذي تجاهلتُهُ من قبل عن عَمْد، أو ربَّما كانت تلك الطريق المختصرة التي أخفقتُ عن بلوغها، والسير فيها. كان رسَّام الخريطة أطلق على الطريق المُختصرة اسم Harghez.

عاودتُ المسير: عُدتُ وعبرتُ الشُّرفَتَيْن، لألجَ من جديد داخل الغابة. وبعد ساعة كاملة، كنتُ مُنهَكاً، وجَلَسْتُ إلى جوار كُثبانٍ ترابيَّة، راكمها النمل.

# ٣

كيف قُيِّضَ لعينَيَّ أن تتجاهلا ذلك التشابك من الأشجار الخضراء؟ فإذا ما كانت نَضِرةً بهذا الشكل، فإنَّ ذلك يعني بأنَّ هناك ثَمَّةَ ماءً أيضاً، وأينما تواجد الماء، لا بُدَّ أن تتواجد طريقٌ ما، أو لا بُدَّ أنْ تعثر على طريق، سواءٌ أكان للرعاة أو للنَّعَام، للتماسيح أو للبِغَال الحاملة لمؤن الجند، أو أن تعثر على جندي، جَلَسَ يقرأ في جريدة صَدَرَتْ منذُ شهر!

ولكي أُواجه الانزعاج كما ينبغي، استعدتُ كامل هدوئي، وشاورتُ نفسي هامساً: "تُرى هل مُبتدأُ الطريق من هنا؟"

حَمَلْتُ حقيبتي، وهرولتُ صوب الأشجار، مزوَّداً بصفاء الذهن في الحال، لكنِّي توقَّفتُ فجأة بعد بضع خطوات. فقد عثرتُ هناك على الأرض، على المظروف الذي كنتُ سَحَبْتُهُ من جيبي قبل ساعات لقراءة الرسالة، ويبدو أنَّه سَقَطَ منِّي دون أن أنتبه. كان اسمي المكتوب بخطِّ يدها على المظروف واضحاً بشكل كبير، إذَّاك فقط تذكَّرتُ تلك الكلمَتَيْن اللَّتَيْن تميِّزانني من باقي بني البشر، وتُعلنان أنَّني ما أزال حيَّاً أُرزَق داخل مجاهل تلك الغابة المثيرة للرعب. كانت تلك الرسالة، في تلك اللحظة، هي الأكثر جمالاً من بين الرسائل التي يمكن أن تصل. وكان عثوري عليها يؤكِّد لي بأنَّني قريبٌ من "دربي"، أو ربَّما كان الدرب الذي أتواجد فيه هو ما سيقودني إلى ما وراء الأشجار، وإلى مجرى النهر.

وستبدأ الحياة ما وراء تلك الأشجار التي صارت مُحبَّبةً إلى النفس، وسيتَّخذ كلُّ شيء تَنَاسُبَهُ الخاصَّ والحقيقيَّ، بما في ذلك مشاعر الخوف التي تنتابني. واقتنعتُ بأنَّ الحَبَشِيِّيْن الثلاثة الذي التقيتُهم هناك في الأعلى لم يكونوا إلَّا ثلاثة قَتْلى فحسب. وربَّما كانت الرسالة التي عثرتُ عليها تمنحني دَفْقَاً آخر، عجزتُ عن تحديد كُنْهِهِ.

عاودتُ السير من جديد تاركاً لساقَيَّ أن تتحرَّكا بتِلقائيَّة، لكنْ، وَجَبَ عليَّ التَّوقُّف من جديد. فقد رأيتُ من بين الأشجار امرأة تستحمُّ في النهر.

لم تنتبه المرأة إلى وجودي. كانت عارية، وتستحمُّ في إحدى بِرَك المياه. كانت جاثمةً على رُكبَتَيْها كأيِّ حيوان داجن وهادئ. وبينما كنتُ أُراقبها، فكَّرتُ بأنَّ في إمكانها أن تدلَّني على الطريق، وسيُمكِّنُني ذلك من العودة إلى موقع بناء الجسر. إن مشهد امرأة تستحمُّ في العراء أمرٌ في مألوف للغاية في هذه البقاع، وقد يُؤشِّر ذلك إلى وجود قريةٍ أو مجموعة سَكَنيَّةٍ ما بالقرب من المكان. "ثَمَّةَ الكثير جدَّاً من المفاجآت داخل هذه الغابة"، قلتُ لنفسي. وواصلتُ النَّظَر إليها. لا، بل جَلَسْتُ على الأرض، فبعد مسير لا طائل من ورائه على مدى نهارٍ كامل، ابتدأتُ الآن أشعر بالإنهاك حقَّاً.

كانت المرأة ترفع يدها بتكاسل، حاملة الماء حتَّى ثدييْها، وتتركه ينساب إلى الأسفل. كانت تبدو وكأنَّها تلهو بلعبة ممتعة. ربَّما كانت هناك منذُ وقتٍ طويل، وقرَّرتِ الاستحمام دونما تسرُّعٍ، كي تستمتع بانسياب قطرات الماء على جِلْدها، تاركةً للوقت أن يمضي بإيقاعه البطيء. لم تنتبه إلى وجودي، فبقيتُ أراقب ما تفعل دونما حَرَاك. كان المشهد في غاية الاعتيادية، إلَّا أنَّه صار بالتأكيد أجمل بكثير ممَّا سَبَقَ لي رؤيته في هذه الأرجاء. وبما أنّ اللعبة لم تبدُ آيلة إلى نهاية قريبة، فقد أشعلتُ سيجارة، وقرَّرتُ أن أستريح من وَعْثَاء المسير الطويل.

ترفع المرأة يدها مملوءة بالماء، وتتركه ينساب على جسدها مُكرِّرة ذلك الفعل برتابة حزينة. لكنْ، تلك هي طريقتها الخاصَّة للاستمتاع، أو ربَّما للتعبير عن حُبِّها لذاتها. كانت طريقتها في الاستحمام مُغايرة: تمرِّر كَفَّيْهَا على جِلْدها، كما تُمرِّر ربَّة بيت يدها على أشيائها، بَدَتْ لي وكأن ذلك الجسد ليس مِلْكاً لها. وكان كلُّ ذلك يجري على شكل ومضات قادحةٍ في لُجَّة بحرٍ من الضجر. انقطعت الرتابة عندما حطَّ غُراب بالقرب منها، ليشربَ من ماء البركة، فَرَمَتْهُ المرأة بحصاةٍ، وأصابتْهُ، فتخبَّط الغراب، وطار مسرعاً بشكل عمودي، وحطَّ على شجرة، متخفِّياً بين أغصانها. وَاصَلَتِ المرأة الصراخ نحو الغراب، ثمَّ سَكَتَتْ، وعادت لتسكبَ الماء على جسدها بتكاسُل مُفرِط.

لِماذا ينبغي عليَّ أن أُزعجَها؟ كانت بشرتها مُضيئة بسُمْرَةٍ فاتحة اللون، لكنِّي لم أُعنَ بهذا التفصيل، وإنْ كان تفصيلاً مثيراً للدهشة داخل تلك الغابة. كنتُ قد التقيتُ بنساءٍ من ذوات البشرة فاتحة السُّمْرَة، مثل هذه، فقط عند جبال الغوندور، وحيثُ أسهمتِ الهيمنةُ البرتغالية، على ما أعتقد، في تبييض بشرة النساء اللَّاتي تلتقي بهنَّ هناك، كما أسهم ذلك الحضور أيضاً في شَحْذ رغبات النساء. تذكَّرتُ المرأة التي التقيتُها على بساط من العشب الأخضر الجميل، والتي اقتربتْ منِّي، وأَسمعَتْني كلمة واحدة فحسب "أخي". وكانت قد أضافت إلى تلك الكلمة ابتسامة الحياء التي لم تكن قد فَقَدَتْها بعدُ، ومكثتْ هناك تُحدِّق فيَّ، كما لو أنّ أمري لا يعنيها أبداً مُلقيةً على كاهلي، بشكلٍ لا مناص منه، المسؤولية الكاملة للمبادرة بالخطوة الأولى.

ولكي تستحمَّ بحُرِّيَّة، كانت المرأة قد عَقَصَت خُصْلات شَعْرها تحت فوطةٍ بيضاء، لَفَّتْها على شكل عِمَامَة على الرأس. الآن، وأنا أُعيد التفكير في الأمر، فإنَّ تلك العِمَامَة البيضاء كانت تؤكِّد وجود المرأة في ذلك المكان، فلولاها ما كان لي إلَّا أنْ أعتبرها جزءاً من مشهد الغابة ومكوِّناتها العامَّة، كالمشهد الذي ينبغي عليكَ، حتَّى ينطبع في ذهنكَ، أن تُدقِّق النَّظَر فيه مَليَّاً قبل أن يتجاوزَهُ القطار السائر على السِّكَّة، ويدخل في نفقٍ مظلم. أمَّا هنا، فقد كانت تلك العِمَامَة البيضاء تُحدِّد ملامح كلِّ شيء، ولا أعلم ما هو الشيءُ الآخر الذي بإمكانه أنْ يُحدِّد معالم الأشياء في هذه الغابة غير تلك العِمَامَة. لم أعثر على جوابٍ هذا التساؤل، وواصلتُ الانبهار بالبهاء التِّلقائيِّ الذي أبْدَتْهُ لي العِمَامَة البيضاء، وبَدَتْ لي وكأنَّها ترتدي كلَّ ثيابها، ومَنَحَتْني أنا، الذي كنتُ أراقبها، الفرصةَ للترابط معها.

حين استقامت ووَقَفَتْ على طولها، لتغسل بطنَها وساقَيْها، انتبهتُ إلى أنَّها في ريعان الشباب، إلَّا أنَّها كانت تتحرَّك بتُؤدَة النساء البالغات، وكنتُ أُحيل التكاسل في إيماءاتها إلى السَّأم وإلى حرارة الطقس. ثمَّ انتبهتُ أنَّها جميلة، أو بالأحرى، كانت جميلةً للغاية، ولربَّما فَرَضَتْ عليَّ حالة الوَحْدة هذا التقييم دونما خيار. كَلَّا، كان جمالها من النوع الذي يُقبَلُ بأناةٍ عاليةٍ، ويحمِلُكَ إلى أزمنة غابرة للغاية، لم يتمكَّن الزمن بعدُ من إغراق ذلك الجمال في لُجَّة الذاكرة. أو أنَّه كان من نوع الجمال الذي نُلاقيه في الحُلْم، ونعجز عن تحديد ما إذا كان ينتمي إلى الماضي أم هو قادمٌ من المستقبل. وتنصحنا الرغبة دائماً على تفضيل الاحتمال الثاني. أمَّا الآن، فلا أحلام على الإطلاق. فأنا يَقِظٌ، وهي هناك تستحمُّ أمام ناظرَيَّ على بُعد خطواتٍ قليلة للغاية، بقطعة من صابون الجيش. كنتُ أرى بشرتها فاتحة السُّمْرَة الوديعة والحيوية بدمٍ نابض، "لا بُدَّ أنَّه دمٌ تأقلم على مشاعر السَّأم التي تخنقُ هذه الأرض"، فكَّرتُ في داخلي.

ربَّما لم تكن المرأة واعيةً لما تملك من جمال، وصارت تلك البركة مرآتها الوحيدة، أو هي، ربَّما، تملك في كوخها مرآةً، اشترتْها بثمن بخس، لا يُعيد إليها إلَّا صورةً مغبَّشة عن جمالها الأخَّاذ.

وربَّما لم تلتقِ بعدُ برجلٍ كافح من أجل النيل بها، فالرجال هنا ينأون بأنفسهم عن الوقوع في مصائد الغَيْرة، ويمنحون الأشياء ما تستحقُّه من قيمة، برأيهم. ولأنَّهم أُجبروا على العيش في هذه الطبيعة ذات المأساوية العالية، فإنَّ رغباتهم لا تُستثار بمآسٍ أُخرى. ربَّما كان لهذه المرأة زوجٌ، أو ربَّما أولادٌ أيضاً، وربَّما لا، فهي تبدو في مُقتبل الشباب، ولو كان لديها أولاد ما كانت لتتركَهم في القرية وحدهم، وكانوا الآن يملؤون الأرجاء بالصَّخَب والصياح، أو ربَّما كانوا الآن متحلِّقين حولي يستجْدُونَ بعض قِطَع النقود أو شيئاً للأكل.

عندما رأتْني في مكاني ما بين الأشجار، وَاصَلَتِ استحمامَها بهدوء، دون أن تُعنَى بي، أو دون أن تكون مَعنيَّة بشيءٍ ما إطلاقاً .. اجتاحتْني الرغبة في الضحك، وفكَّرتُ أن لا بُدَّ أن يكون أحدنا مُجرَّد سراب، لكنِّي لم أكن كذلك، وهي، كما أراها ماثلةً أمامي، شبيهة بالنساء ذوات الجمال الذي يبحث الجنود عنهنَّ، لالتقاط صورة لهنَّ أو لإشباع غرائز أُخرى.

انتهيتُ من تدخين سيجارتي، واقتربتُ من مكانها، كان ينبغي عليَّ أن أعبر النهر من هناك للوصول إلى الطريق المختصرة. غَطَسَتْ في ماء البركة مُجدَّداً، وعاودتْ ما كانت تفعله في متعة رتيبة. كانت تُحدِّق بالماء الذي ينساب على جسدها، وهذا ما كان يكفيها. أفكارها، إنْ كانت لديها أفكار، كانت تتحرَّك بتكاسل، ولم تكن تلك الأفكار تخصُّني بأيِّ شكلٍ من الأشكال. لم يكنْ ليخطر ببال المرأة بأنَّني أُوهِمَتْ نفسي بأنَّ الوادي انفتح أمامي في تلك اللحظة فحسب، وبأنَّني غُمِرتُ برغبة لم أجرؤ أبداً على الاعتراف بها لنفسي. بالتأكيد لم تكن المرأة تفترض بأنَّ لديَّ رغبة تجاهها؛ كما أنَّني لم أفترض بأنَّها لم تبرح مكانها لرغبة لديها في أن أحترم صفاءها، فالمرأة التي تَفِرُّ مذعورة، تُثير لدى مَنْ يُحاصرها الرغبة في ملاحقتها، أو بالأحرى، فإنَّ الفرار يخلق المُلاحقَ. ربَّما فكَّرتْ فطريَّاً بالهرب، لكنَّها بقيتْ في مكانها بانتظار أن تراني أُقرِّر مواصلة طريقي. أو ربَّما فكَّرتْ بأنَّني لا بُدَّ سأُفصح لها بوضوح عمَّا أُريد.

أنا أحد "الأسياد"، لذا فقد كان مسموحاً لي أن أُفصحَ عن رغباتي. أو بالأحرى لو أنَّني كلَّفتُ نفسي عناء اللحاق بها، وبَلَغْتُ كوخها، وقلتُ لها "أرغب في الزواج منكِ لشهرٍ أو شهرَيْن"، فإنَّها ستنصاع، وتتبعني دونما تردُّد. وسيضمُّ والدها بين أصابع كفِّه المال القليل الذي سأمنحه إليه، وتنصاع هي للمغامرة. إلَّا أنّ تلك الفكرة بَدَتْ لي حمقاء وغير معقولة، لأنَّها تعني إمَّا الاحجام عن العودة إلى المعسكر، أو حَمْلَها معي إلى هناك، والتَّوجُّه إلى حانوت المعسكر، لأصرخ في وجه العريف المسؤول عن التموين: "إيسبوزيتو(9)، أعطني بطَّانيَّةً أُخرى". وبعد ليلتَيْن فحسب، سأتعب من مشكلة إخفائها في الخيمة، ولربَّما سأبتدئُ بالبحث عن وسائلَ للتَّخلُّص من الورطة، متنازلاً عنها لأحد الضُّبَّاط المسؤولين عن التموين، وسنراها، بعد حين من الوقت، حاملة بيدها مظلَّة، تقيها من لَفْح الشمس، وقد انتعلت في رجلَيْها زوجاً من الأحذية الواسعة، وتسير متأرجحةً بينما تحاول الاحتفاظ بتوازنها. كلَّا، من الأفضل أن أترك فوق الوسادة كلَّ الجمال الذي ألتقيه في الأحلام )أو ما بين أشجار الغابة(، ولا ينبغي لي أن أحمله معي لأدور به: لأنَّني إذَّاك سأجد نفسي مُضطرَّاً إلى تقديم العديد من التنازلات والشروح والتبريرات. أو ربَّما سأُعيدها إلى قريتها، بعد أن أشبعتُ رغباتي منها، وستبقى هي، على طول الفترة التي اتَّفقنا على أن نكون خلالها زوجَيْن، وفيَّة ومخلصة لي دون أيِّ عناء.

اقتربتُ منها، وسألتُ: "هل الطريق من هنا؟"

ابتسمتْ، لكنَّه كان واضحاً بأنَّها لم تفهم ما سألتُها عنه. أشَّرتُ لها على الهضبة، فردَّتْ عليَّ

بإيماءةٍ مُوافَقَةٍ بنعم. لكنّ إيماءةَ "نعم" تلك لم تكن لتعني شيئاً على الإطلاق. كانت تعني فقط بأَنَّها ترى ما كنتُ أؤشِّر إليه بيدي.

ولم تكن هناك وسيلة لجَعْلِهَا تقول شيئاً مختلفاً عن كلمة "نعم"، وكان كلُّ شيءٍ بالنسبة إليها إيجابيَّاً، سواء سألت ما إذا كان الطريق إلى اليمين أو هو إلى الشِّمال، من هنا أو من هناك. وكانت تنظر إليَّ بعَيْنَيْن شبه مُغلَقَتَيْن.

"آدي" (كلمة آدي تعني البلدة، وهي واحدة من الكلمات القليلة التي أعرفها).

"آدي" كرَّرتُ تلك الكلمة بصوتٍ خفيض للغاية، وهو ما جَعَلَهَا تبدو أقلَّ شباباً من عُمُرها. ثمَّ عادت إلى الإيماءة ب. "نعم"، نعم دائماً. لم يعدْ من السهل جَعْلها تُدرك بأنَّ ما أطلبه هو أنْ تُؤشِّر لي على المسار صوب الهضبة. نَهَضَتْ على طول قامتها دون أن تكترث لكونها عاريةٍ تماماً، واقتربتْ منِّي، ومدَّتْ ذراعها مُشيرةً إلى ما وراء كتفي.

لم أرَ في المكان الذي أشارت إليه غير قِمَم الجبال ما وراء النهر، وحين دقَّقتُ في الرؤية، رأيتُ تلَّة على بُعد ما يربو على كيلومترٍ واحد، نَبَتَتْ عليها أشجار. ربَّما كانت قريتها هناك، وتصوَّرتُها بأكواخها القليلة، أو ربَّما كانت ما وصفها رسَّام الخريطة القديمة ب. "ملاجئ محتملة لرعاةٍ رُحَّل"، وعلى أيَّة حال، لم يكن من المناسب أن أسير حتَّى ذلك المكان، الآن بالذات، بعد أن عثرتُ على طريقي المختصرة، وبإمكاني السير فيها، والوصول إلى الجسر، والعثور على شاحنة تُوصلني إلى مبتغاي. وإذا ما كانت القرية موجودة هناك بالفعل، فإنَّها ليست على الطريق المؤدِّية إلى الهضبة، بل في الطرف المؤدِّي إلى النهر. وكان غريباً للغاية أن تكون هناك أكواخ في ذلك المكان. ولو كانت موجودة، فلا بُدَّ أنَّها أكواخ جديدة، بُنِيَتْ لإيواء اللَّاجئين الذين فرُّوا صوب الجبل خوفاً من طبول الحرب التي باتت تُقرَعُ بالقرب من منازلهم.

لم أكن أرى جسدها الآن، لكنِّي أشعر بثديَيْها المتحرِّرين يمسَّان ظَهْري. أمسكتُ أحد الثَّديَيْن، فأبعدتْ كفِّي عنه مرتعبةً، غَطَسَتْ في ماء البركة. ربَّما كانت يدي قد ارتجفت لحظة المساس بها، وعلى أيَّة حال، صارت الآن في البركة، ولو أنِّي طَلَبْتُ منها أن تدلَّني على المنطقة الأُخرى ما كانت لتنهض من جلستها من جديد. لم تعد تبتسم كما فَعَلَتْ من ذي قبل.

"عليَّ أن أرحل من هنا"، فكَّرتُ، "لا شيء يُمسك بي هنا، لستُ باحثاً عن استعراض في غاية الاعتياديَّة لامرأة تستحمُّ"، لكنْ، وبرَغْمِ محاولتي بنَفْي ذلك، فإنَّ الرحيل من هناك لم يَعُدْ يحتل المقدِّمة من بين اهتماماتي وأفكاري. حَمَلَتِ الريح في تلك الأثناء هدير محرِّك شاحنة. وأَنَّبْتُ نفسي كثيراً لأنَّني لم أَمكث بالقرب من الجسر، ولو فعلتُ ذلك، لكنتُ الآن في طريقي إلى قمَّة الهضبة. كانت تلك هي الشاحنة الثانية التي أستمع إلى هدير محرِّكها وهي تصعد، ومَنْ يدري كم من الشاحنات مرَّت من تلك المنطقة في الساعات التي قضَّيتُها مُجهِداً نفسي بمسيرٍ لا طائل من ورائه؟! ألقيتُ نَظْرَة على باطن كفِّي، كان ما يزال مبلَّلاً، لذا قرَّرتُ الاستحمام بدوري. كانت هناك بركة ماء نظيف أُخرى، خَلَعْتُ قميصي، وفكَّرتُ: "قد يُفيدني الاستحمام في هذه الساعة. ربَّما سأتجنَّب ضربة الشمس".

ثارَ فضولها حين رأتْ قطعة صابونٍ جديدة. بَدَتْ مُستثارة، لكنْ، دون أن تجرؤ على التفكير بطَلَبِهِ منِّي أو أن تُقرِّر طَلَبَهُ. رَمَيْتُ لها قطعة الصابون (فقد كانت لديَّ قطعةٌ أُخرى)، فأعادت دَعْكَ جِلْدها بالصابون من جديد؛ وكان الخجل بادياً عليها، لأنَّها استسلمت إلى وَهْج شيء

ينتمي إليَّ. وبذلك صار عليها أن تعترف لي ببعض الحقوق. ربَّما كان الرجال في هذا المكان يعتبرون آليَّاتنا بمثابة كائنات خارقةٍ للعادة، تعمل بفعل وحيٍ إلهيٍّ، وبما أنَّهم يَقْبَلونَ بالماورائيَّات، فإنّهم ما عادوا يندهشون كثيراً ممَّا يقع تحت عيونهم، فها هم يشاهدون بأُمِّ أعينهم طائراتنا وهي تُسقِط القنابل أو تُطلِق النيران. أمَّا الأمور الأُخرى، كقَنِّينَة النبيذ أو قطعة الصابون، أوه، فهذه أمورٌ من صُنْع البشر، ولا دخل للرَّبِّ في ذلك، بل هي أشياءُ يُصنِّعها "السادة" الذين يَفرضون بها أيضاً مفردات سطوتهم.

كنتُ أنظر إلى المرأة، وأتأمَّل في صفاء نَظْرَتها. وساءَلتُ نفسي حول إمكانيَّة إظهار هذا الكمِّ من الاقتدار على إبداء البراءة، وعاودتُ التفكير في احتمال كونها مُجرَّد سراب كذلك الذي يُغشي عيون المصوِّرين الفُوتُوغرافيِّيْن، لكنَّ كفَّيَّ ما تزالان محتفظَتَيْن بتكوُّر نَهْدَيْها، وهي ما تزال تُحمِّمهما كشيء ثمينٍ للغاية.

بدأتُ بارتداء ثيابي، وفكَّرتُ بأنَّ ساعة الرحيل قد حَلَّت بالفعل. لكن الواقع كان مختلفاً، فمن المؤكَّد أنّ المرأة على دراية بالاحتياجات العاجلة للجنود أو لعُمَّال الجسر، كما كانت تعرف ثمنهم بدقَّة. "يا للأسف، عليَّ المغادرة"، ودون أن أُزيح ناظرَيَّ عن المرأة، فكَّرتُ في داخلي بالرسالة التي أحتفظ بها في جيبي.

كانت زوجتي ستنفجر بالضحك. وكنَّا نضحك دائماً عندما نتواجه مع بعض الاحتمالات إلى درجة تحويلها إلى مُجرَّد خيالات. هل بالإمكان مَنْع رجل من إشباعِ رغبةٍ من رغباته، عندما لا تتركُ لديه هذه الرغبات السَّطحيَّة أيَّ أثر يُذكَر؟ بالتأكيد ستسألني بعد عودتي إلى البلاد: "وإذاً، هل حقَّاً النساء هناك بهذا الجمال؟"، ولم تكن لتنتظر جواباً على هذا السؤال، لكونه موضوعاً تمَّ نقاشه أو هو غير ذي قيمة. ولم يكن بالإمكان اعتبارُ ما قد أفعل هنا نوعاً من أنواع الخيانة، بل استجابةً طبيعيَّة للسأم الذي تُولِّده الغربة الطويلة.

جمعتُ، أشيائي وألقيتُ على المرأة تحيَّةً حميمة، ردَّتْ على تحيَّتي بذات الحرارة ممتنَّةً لي، لأنَّني أهديتُها تلك القطعة البديعة من الصابون. لم أكن قد خطوتُ إلَّا بضع خطوات، حتَّى بدأت المرأة تلفُّ جسدها بالإزار. كانت العملية في غاية الانسيابيَّة، فقد أنزلتِ الثوب على جسدها، وكان قد خِيطَ من قطعة قماش قطنيٍّ. إذَّاك بَدَتْ وكأنَّها ترتدي زِيَّ امرأة من روما القديمة، وَصَلَتْ إلى هذه الأرض أو إلى حدود السودان برفقة صيَّادي الأُسُود، أو برفقة سفراء الإمبراطوريَّة. "مؤسفٌ حقَّاً"، قلتُ لنفسي "مؤسف أن نعيش في زَمَنَيْن مختلفَيْن عن بعضنا!". ربَّما هي تعرف جميع الأسرار التي كنتُ قد أقصيتُها عن ذهني دون أيَّة رغبةٍ أو أيِّ استعداد للتَّعمُّق فيها، لأنّي اعتبرتُها ميراثاً بائساً، ولكي أُرفِّه عن نفسي، اعتبرتُ ذلك الميراث، بحقٍّ، وبشكلٍ لا يقبل الشَّكَّ، باعثاً على الغثيان. أنا كنتُ أبحث عن المعرفة في الكُتُب، فيما هذه المرأة تحتبس تلك المعرفة في ناظرَيْها اللَّذَيْن يُحدِّقان بي منذُ ألفَي عام، بالضبط كشعاع النجمة التي تستغرق زمناً طويلاً من السَّفَر حتَّى تتمكَّن عيون البشر من رؤيتها. وأعتقد بأنَّ هذه الفكرة بالذات هي ما أمسكتْ بي في ذلك المكان. أكان بإمكاني أن أُشكِّكَ بحقيقة ما أرى؟.

راقبتُها. كانت تُولِجُ جسدها الغضَّ في الثوب، وقد غاب رأسها للحظة في ثنايا القماش القطني، وبقي جسدها العاري، ونهداها يقاومان الاختفاء تحت الثوب، وهما يحلمان بأن يلمَّهما كَفَّايَ. عدتُ أدراجي، وخلعتُ الثوبَ من على جسدها، فسارعتْ هي إلى إلقائه على الأرض، وضَمَمْتُ المرأة، وأجبرتُها على الجلوس على الأرض.

دَفَعَتْنِي عندما حاولتُ لَمْسَها، وأوحتْ بحركة مَنْ يحاول النهوض عن على الأرض. كان وجهها قد تجهَّمَ بعض الشيء. أجبرتُها من جديد على الجلوس أرضاً، عاودتْني الحُمَّى التي كنتُ أشعر بها من قبل؛ وكانت هي تصدُّني بحزم، لكنْ، دون استشعارٍ بالإهانة، التي أسأتُ في التعبير عنها، لم تكن تنظر إلى الأمر بمنظار اللياقة والسلوك الحضاري أو استقلال المرأة. بل كانت تُبعِد يدي، لأنَّ حواءَ فَعَلَتِ الشيء ذاته في غابة شبيهة بهذه الغابة حين أزاحت يد آدم عنها في المرَّة الأولى. أو ربَّما فَعَلَتْ ذلك لتزيد من قيمة الخطوة، لأنَّ الرفض مرحلة ضرورية بين مراحل اللعبة، أو ربَّما فَعَلَتْ ذلك لأنَّها شعرتْ بالخوف فعلاً. لكنْ، ممَّنْ تخاف؟ لم يكن خوفها ناتجاً بالتأكيد من احتمال قيامي باغتصابها، بل هو خوف أعمق لكونه ناتجاً عن استسلام الأَمَةِ إلى السَّيِّد. كان عليها أن تدفع جزيةَ الهزيمة التي تعرَّض لها رجالها في تلك الحرب. أأنا أبالغُ في تحليلاتي؟ صابون الجيش ذاك ... ربَّما لم يكن يفي بالواجب، ولم يكن كافياً لتعويضها؟

كانت لديَّ، في جيبي، قطعتان من النقود المعدنيَّة، فوَضَعْتُهما في باطن كفِّها. لم يكن ذاك ما كانت تريد. بَدَتْ وكأنَّها على وشك الاحتفاظ بهما، إلَّا أنَّها أعادتْهما إليَّ. كان هناك ثَمَّةَ ما لم أتمكَّن من تحديد كُنْهِهِ أو فَهْمه. أكانَ ذلك هو الكراهية ل. "السادة" الذين هدموا كوخها أو قتلوا رجل العائلة؟ هل كانت خائفة من أن يُفاجِئَنا أحد من سُكَّان القرية التي دلَّتْني عليها؟ سَحَبْتُها عن الأرض، ورافقتُها إلى منطقة كثيفة الأشجار. تبعتْني بهدوء وطمأنينة، لكنَّها عادت من جديد إلى مقاومتها الوئيدة والحازمة عندما حاولتُ ضمَّها إليَّ. دافعتْ عن نفسها بلطفٍ، لكنْ، دون اقتناع مُطلق، وأجرؤ على القول، بأنَّ ذهنها ازدحم في تلك اللحظة بأفكار أُخرى.

سألتُها ما إذا كانت متزوِّجة، كنتُ قادراً على توجيه هذا السؤال إليها، فهزَّت رأسها بقوَّة بالنَّفْي، وإذاً! فما هي العوائق التي تقف في وجه رغباتي المشروعة؟ "وإذاً هَيَّا، أختاه، تشجَّعي، فقد استطال هذا المشهد التَّوراتيُّ طويلاً"، قلتُ لها، وصرتُ لا أعي أيَّ شيء، ومن ثمَّ تركتُها. أخطأتْ بالابتسام، فَسَحَبْتُها إليَّ؛ ذَادَتْ عن نفسها من جديد.

ربَّما اعتقدتُ، ككلِّ الجنود المحتلِّين في هذا العالم، بمعرفة نَفْسِيَّة مَنْ وقعوا تحت سطوة الاحتلال. كنتُ أشعر بنفسي مختلفاً بشكل كبير عن أولئك الناس، إلى حَدِّ التَّصوُّر باستحالة أن تكون لديهم أفكار أُخرى مُغايرة لما تفرضها الطبيعة. ربَّما اعتبرتُهم بُسطاء للغاية. لذا كان عليَّ أن أَلِجَّ: عيناها كانتا تُحدِّقان بي منذُ ألفَي عام، بتأنيبٍ صامت لميراثٍ مهجور. وأدركتُ بأنَّ دفاعها المتكاسل تضمَّن أيضاً الأمل الذي قد يبزغ بعد الاستسلام.

لماذا عجزتُ عن فَهْم أولئك الناس؟ كنتُ أراهم كالحيوانات الحزينة التي شاخت في أرض لا مخرج منها، كانوا مشَّائين عظماء، بارعين في معرفة مُختصرات الطُّرُق، ربَّما كانوا حكماء، لكنَّهم غابرون وأُمِّيُّون. لا أحد من بينهم يحلق لحيته بينما يستمع من المذياع إلى موجز أخبار الصباح، ولم تختلط روائح الفطور لديهم برائحة الحبر الصادرة من ورق الجرائد المطبوعة للتَّوِّ. كانت تكفيهم معرفة مائة كلمة فحسب، ليتمكَّنوا من مواجهة يوميَّات الحياة وأحداثها. فعلى جانب يوجد الجميل والخيِّر، ويكمن القبيح والشِّرِّير على الجانب الآخر. لقد تناسَوا كلَّ شيءٍ من أزمنتهم المشرقة، ولم يبقَ لديهم إلَّا إيمانٌ خرافيٌّ، يمنح أرواحهم البدائية قدرة المقاومة في عالم مليءٍ بالمفاجآت. كانت تقدح من عَيْنَيَّ بروق ألفَي عامٍ ونيِّف، وهي استشعرتْ كلَّ ذلك.

نعم، ربَّما كانوا كمثل حيوانات غابرة من ما قبل التاريخ، وانتهى بها المقام في مَرْأَبٍ للدَّبَّابات

المعطوبة، ليُوقنوا أنَّهم استنفدوا زمنهم، وليشعروا، بفعل ذلك، بمقدارٍ هائلٍ من اليأس ... كَلّا، لقد كانت قراءتي هذه في غاية التبسيط، ولم يكن لي أنْ أُدرك كُنْهَ تلك الأمور إطلاقاً.

تَواصَلَ التجاذُب فيما بيننا، وكان بإمكانه أن يستمرَّ طويلاً: أنا أيضاً كنتُ منشغلَ الذهن بأمرٍ آخر. إلَّا أنّ العملية بأسرها انتهت بعُجَالَة فظَّة، كما كانت قد ابتدأت بفظاظة، انتهت دون أن تشيح هي ببصرها عنِّي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٤

وُلِدَ في داخلي شيءٌ ما، لم يكن ليموت أبداً. حين نَظَرْتُ إلى الغابة، شَعَرْتُ بها ترتعش كما لو أنَّها وَقَعَتْ فريسةً لهزَّةٍ أرضية دونما أضرار. لم تكفّ الغِرْبَان عن طيرانها المضطرب، وواصلت الهبوط على حافَّة بِرَكِ الماء القريبة منِّي؛ وحين استُثير فضول أحدها من جمودنا المُطلق هَبَطَ صوبنا، وبقِيَ عالقاً في الهواء لبُرْهَة من الوقت ضارباً جناحَيْه. ثمَّ عاود طيرانه باضطراب.

كنتُ أُمعِنُ التفكير بالشيء الذي وُلِدَ في داخلي، ولم يكن ليموت أبداً. هل وُلِدَ ذلك الشيء من العلاقة مع هذه المرأة السمراء .. أم لأنَّني عثرتُ على شيءٍ ما بعينه؟ ساءَلتُ نفسي عمَّا يدعوها إلى الاستلقاء إلى جواري مُغمضة العَيْنَيْن؟! وما السبب الذي يدفعها إلى إشاحة نَظَرَاتها عنِّي كلَّما فتحت عَيْنَيْهَا؛ في الغضون كانت يداها، اللَّتان بقيتا غريبَتَيْن عنِّي حتَّى بُرْهَة سابقةٍ من الوقت، تحاولان ملامسة جسدي، وتُمسكان بي بقوَّة خوفاً من رحيلي على عجل، وأن أتركها؟! كما يحدُث في مثل هذه الحالات، بعد أن يُعيدَ المرء، بقَدْرٍ من الانزعاج، التَّأمُّل في الخطأ الذي أقدمَ عليه.

سمعتُ هدير محرِّكات شاحنة، فقرَّرتُ إثرَ ذلك بأنَّ عليَّ الرحيل في الحال، لكنِّي عجزتُ عن الحركة، ربَّما كنتُ مُرهقاً، وكانت المرأة إلى جواري، صامتةً، متكاسلة، ولا تأتي حَرَاكاً. وعندما أدركتُ بأنَّها هي ما كان يُمسكني عن الحركة، فرضتُ على نفسي قرار الرحيل في الحال، قبل أن يتأخَّر بي الوقت، وقبل أن أترك لها فرصة اقتيادي إلى كوخها، وأن أقضي في ذلك الكوخ أيَّام إجازتي الأربعة، أو ربَّما أيَّاماً أُخرى غيرها؛ قرَّرتُ الرحيل قبل أن أكبوَ مهزوماً. نَهَضْتُ من رقدتي، فألقتْ عليَّ نَظْرَة سريعةً عبر جفنَيْها المنغلقَيْن، ورفعتْ ذراعها لتُغطِّي وجهها. بعد قليل (وقد فكَّرتُ بأنَّني مُرهقٌ للغاية، وبأنّ عليَّ أن أخلُدَ إلى الراحة قليلاً) وجدتُ نفسي إلى جوارها من جديد. ضمَّتْني إليها بعذوبة متكاسلة. كان الطقس حارَّاً، فغرقتُ في النوم.

غرقتُ في وَسَنِ نُعاسٍ متراكم ومضطرب. كنتُ أشعر بالخوف إزاء ما أرى، لكنِّي لم أرغب في هجر ذلك المَرأى، ورغبتُ في أن يتواصل. كنتُ أرى أنهاراً عميقة، وسواحل لم أشهدها من قبل، وكانت العودة منها إلى الواقع في غاية العُسْر. هل كانت هناك ثَمَّةَ هضبة؟ وهل توجد شاحنة أصعد على مَتْنها، لأصل إلى أعلى الهضبة؟ أهناك ما هو مُختلفٌ عمَّا أنا فيه الآن؟ كنتُ أرى نفسي هابطاً صوب النهر، وأرى التمساح على أُهْبَة الاستعداد للترحيب بمَقْدَمي، ومن ثمَّ كان يختفي كما لو كان جِذْع شجرة، تاركاً إيَّايَ فَرِحاً من ذلك الترحاب الذي أبقى على حياتي.

لم أنمْ طويلاً، ربَّما عشرون دقيقةً فحسب. كانت المرأة قد ارتدتْ ثوبها، وجَلَسَتْ تحرس رقدتي. حدَّقتُ بها باستياء، فيما هي غارقةٌ في الأفكار التي تدور في خَلَدِهَا، ولم تكن أفكاراً تُعنى بشخصي بأيِّ شكلٍ من الأشكال. ذَهَبْتُ إلى بركة الماء لأغتسلَ، وشربتُ من ماء البركة الأُخرى، كان الماء دافئاً، ومع هذا شربتُ منه الكثير. كنتُ أشعر بالجوع، فأخرجتُ من حقيبتي قطعة خبز وعلبة لحم، لكن اللحم كان قد فَسَدَ بسبب حرارة الطقس، لذا فقد فتحتُ علبة فواكه. كانت المرأة تُحدِّق بي بمُراقبةِ حركاتي، كما لو أنَّها تُراقب أنامل حاوٍ يؤدِّي إحدى حِيَلِهِ. لم تقبل بتناوُل اللحم، وأكلت إجاصةً، وكانت، بالنسبة إليها، شيئاً جديداً يُثير الاستغراب. ربَّما كانت تُفضِّل وجبةً مُرعبة من اللحم المُجفَّف في الشمس والمطبوخ بالنار طويلاً.

إذَّاك استعدتُ الهيمنة على الموقف، كانت تُوحِّدنا الذكرى، فيما كانت العلبة المعدنية تُقيم

بيننا جداراً عالياً لا يُطالُ. كنتُ أرغب في الرحيل بعد الشعور بالشبع. كتابٌ ودردشة في مَقْصِف المعسكر، وحيثُ قد تلتقي بصديقٍ قديمٍ، سيسألكَ عن اليوم الذي ستنتهي فيه هذه المغامرة، دون أن يُغرِقَكَ بتفاصيل مغامراته!

كان عليَّ الرحيل في الحال، فقفزتُ واقفاً. لم تَنبُس المرأة ببنت شَفَة. كانت تُدرك جيِّداً بأنَّ هذه الأمور لا تدوم طويلاً، ولم تندهش من قراري المفاجِئ، كما لم تُبدِ استياءً إزاءه. ربَّما لم تكن مَعنيَّةً بأيِّ شيء من كلِّ هذا، رَغْمَ سعيها المتوتِّر في ملامسة جسدي بيَدَيْهَا. لم يكن بمقدوري تخيُّل أسباب ذلك التَّوتُّر. أجل، كانت المرأة تُحدِّق بي مثلما فَعَلَتْ من ذي قبل، حين سألتُها حول الاتِّجاه الذي عليَّ أن أسلكه. لقد انتهى كلُّ شيء. وظَهَرَتْ خيبتُها بجلاء، فقط في اللحظة التي ودَّعتُها فيها، وأعادت إلى ذهني ذلك اليوم الذي كنتُ أبتعد فيه عن شخصٍ مُحاوِلاً تجاوُز الإحساس بالخطيئة. فقبل وقتٍ قصير، تركتُ الجنديَّ عند الشاحنة المنقلبة (ربَّما كان ما يزال هناك بانتظار النجدة)، والآن أهجرها هي، أهجر ألفَي عام.

"أجل، ألفا عام"، فكَّرتُ في داخلي "لكنَّها انقضت وصارت ماضياً، وبمجموعها وبكلِّ ما تحتوي، لم تكنْ لتُعادل الأيَّام الأربعة القادمة!"، وابتسمتُ، بينما أسندت المرأة حَنَكَهَا على رُكبَتَيْهَا، المضمومَتَيْن بذراعَيْها، بَدَتْ لي غارقة في التفكير. "لقد تأخَّر الوقت"، استنتجتُ "ولا ينبغي أن يُوقِفَني هنا، في هذا المكان، أيُّ شيء". وفي ضوء خطيئتي الصغرى تلك، صارت صورة المرأة بائسةً في نَظَري. إذَّاك حتَّى الطبيعة، وإنْ كانت غابرة ومتهالكةً، فقد بَدَتْ لي أكثر عدوانيَّةً، ولم يترك ضياء الشمس المشرقة أيَّ مجالٍ للغموض في ذلك. ولم تكن هي إلَّا امرأة، أطلقوا عليها اسماً، ومَنَحُوها حصيرة للنوم، وكانت بركة الماء تلك عبارة عن بحرها البائس. صار كلُّ شيء يتلبَّس سُخْفاً وسطحيَّة مُريبة، وعندما استعدتُ في ذهني بأنّ هناك أحد أفراد الدَرَك على بُعد ساعتَيْن من المشي، تمكَّنتُ من الابتسام رَغْمَ كلِّ شيء.

أخرجتُ من جيبي قطعَتَي النقود المعدنيَّة، ووَضَعْتُهُما على باطن كفِّ المرأة. نَظَرْتْ إليهما مَلِيَّاً، فكَّرتْ لبُرْهَة في إبقائها في حوزتها، لكنَّها أعادتْهما إليَّ من جديد. لم تُطالِب بأيِّ شيء، وهذا ما أثار لديَّ الزَّهْو برجولتي، لشديد الأسف.

حينئذٍ جَلَسْتُ إلى جوارها لبضع دقائق (ما يكفي من الوقت لتوديعها)، وفتحتُ حقيبتي. فهل في داخل تلك الحقيبة ما قد يروق لها؟ أخرجتُ كلَّ شيء، وفي كلِّ مرَّة كنتُ أُومِئ لها بأنّ بإمكانها أن تحتفظ بما أعرض عليها. هل ترغبُ في ملابس داخليَّة؟ بقميصٍ؟ بمنشفة، أم بهديَّة عُرس؟ هل ترغب في كتاب الإنجيل هذا، صغير الحجم، وطُبع في اكسفورد؟ لا تنقصُ إلَّا ورقةٌ بيضاءَ واحدة، اقتطعتُها، وحوَّلتُها إلى ورقٍ لِلَفِّ التبغ، لكنْ، لا أحد غيري يعلم بذلك السِّرِّ. أو ربَّما كانت سترضى ببلوزة الصوف هذه؟ أو ربَّما ما كان ينفعها للتواليت؟ ربَّما معجونُ الأسنان؟ لكنْ، لا، ابتسمتْ، وكسرت ابتسامةٌ عابرة انقباضَ ملامحها حين لاحتْ أسنانها كما القمر الذي يلوح من بين الغيوم الحُبْلَى بالمطر والرعد. وإذاً لا حاجة بها إلى معجون الأسنان ... كلَّا، ليس هذا ما سأعرض عليكِ، لندع حُزمة الرسائل جانباً. ربَّما أعجبَكِ هذا البنطلون القصير.

"هذا قليلٌ للغاية" فكَّرتُ. عرضتُ عليها الساعة. كانت ساعةً رخيصةً للغاية، تتوقَّف عن العمل عادةً في اللحظات الأكثر حرجاً. وكنتُ قد فكَّرتُ، منذُ وقت طويل، بشراء واحدة أُخرى، وسأفعل ذلك في أسمرا بالتأكيد. وما هي الفرصة الأنسب للتَّخلُّص من ساعة اختلطت عليها فكرة الزمن والوقت؟ كنتُ سأرميها في الغابة، فهي تستحقُّ هذا المصير.

نَظَرَتِ المرأةُ إلى الساعة، منذهلة. لقد كان العرض يتجاوز أيَّ إمكانية للرفض الشريف، وكان استياؤها إزاء رحيلي العاجل ينهار أمام هذه التضحية غير المتوقَّعة. كانت الساعة زهيدة الثمن، وتتوقَّف عن العمل بالضبط في اللحظة التي أحتاج فيها إلى معرفة الوقت. كانت تتخلَّى عنِّي في الليلة التي عليَّ أن أظلَّ فيها يَقِظاً، وإذاً أيَّة فرصة أفضل من هذه للتَّخلُّص من هذه الآلة المعطوبة؟

رَبَطَتْ حزام الساعة حول مِعْصَمِهَا، وكانت نبضات قلبي تصطرع بين أضلاع صدري بفعل حيوية مشاعر الذهول. الآن فقط، أعتقد بأنَّني بَلَغْتُ ناصية الإدراك بأنّ تلك المرأة كانت، في ذلك اليوم، أو بالأحرى في تلك الساعات، تعبر إلى مرحلة الشباب تاركةً وراء ظَهْرها عُمُر المراهقة، فقد كانت إيماءاتها تحمل دلالات المرحلَتَيْن العمريَّتَيْن معاً. كانت متكاسلة في بعض اللحظات، لتتحوَّل، على حين غِرَّة، إلى شخصٍ مطلق الحيوية ومليئة بالفضول الذي ينبغي إشباعه. وكانت تبدو، بعد لحظات من ذلك، بعيدةً، قَصِيَّةً للغاية من سنواتها الألفَيْن، ومندهشة من تواجُدها حَيَّة إلى جوار رجلٍ يرتدي زِيّاً، خِيطَ من قماشٍ بُنِّيِّ اللون. وبينما كنتُ أربط حزام الساعة حول مِعْصَمِهَا، حدَّقَتْ في عَيْنَيَّ، وأرخت رأسها: إذَّاك انتابتْني مشاعر مُقبَّضة، وكأنّني أُدخِل خاتم الزواج في بِنْصِرِهَا.

لم تعد بحاجة إلى شيء؟ الآن بمقدوري الرحيل.

إلَّا أنَّني كنتُ على خطأ. إذْ لم تتوقَّع المرأة، حتَّى ولو للحظة واحدة، بأنَّني سأُعوِّضها بتلك الطريقة. لقد استوعبتْ، وقد فهمتُ ذلك فيما بعد، بأنّ ما عرضتُ عليها من هدايا، لم يكن إلَّا بمثابة مُقدَّم صِداقٍ لطمأنتها بأنَّني لم أكن لأرحلَ من هناك. وعندما شاهدتْني راحلاً بالفعل، أطلقتْ صرخة، أصابتْ أحشائي بجُرحٍ غائر. هُرِعَتْ إلى جواري، وصارت تُمسكُ بذراعي، وأسندتْ جسدها على جسدي، وشَعَرْتُ من جديد بنهدها النابض والحُرِّ داخل الثوب، يضغط على ذراعي. كانت تواصل الكلام، ولم أستوعب أيّاً من كلماتها المُفعمة بالحماس. وكي أُسكِتَها، أومأتُ إليها برأسي بإشارة موافقة، وبأنَّني سأبقى معها بعضاً آخر من الوقت، كانت الشمس ما تزال عالية في كبد السماء، ويكفيني أن أبلغ الجسر قبل الغروب.

تركتُها تقودني، وعدْنا صوب الأشجار، وعاودتِ الأمورُ دورتَها من جديد. ومن جديد عاودَني الشعور بالهَلَع من الوقوع في ذلك النهر ذي الزمن الغائر في القِدَم، وأحسستُ من جديد بفرحِ السقوط في لُجَّة ذلك النهر، وبالاقتناع المؤكَّد بلا جدوى الخروج من مياهه. وبعد أنْ انتهيْنا غفوتُ من جديد. ومرَّة أُخرى، رأيتُ نَهْدَيْها يحرسان غفوتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٥

حين أفقتُ من الغفوة، كانت المرأة قد غادرتِ المكان. وتميَّزتْ ردَّة فعلي الأولى ببؤسٍ سافلٍ ومقيت، ففي الحال تحرَّيتُ داخل حقيبتي، لأتأكَّد ما إذا اختفى من محتوياتها شيءٌ ما. كان كلُّ شيء على حاله.

تغيَّرتْ أجواء المكان، ولم يعد الحَرُّ القاتل هو العنصر المهيمن، وصارت الغابة كأنَّها تتلقَّى أولى نسمات المساء: كانت الشمس تُقارِب عناق الأُفق، وأصبحت الأصوات القادمة من الوادي أقلَّ صَخَبَاً. كنتُ أشعر بإرهاق كبير، فبدلاً من أنْ تُريحَني، فقد زادتْني تلك الإغفاءة إرهاقاً، شَعَرْتُ في جفنَيَّ تثاقلاً، وبجسدي مُهشَّماً، وطَعْم المرارة يجتاح فمي. هُرِعت إلى بركة المياه لأغتسل، واستبدلتُ قميصي الذي كان قد تلوَّث بالعَرَق والتراب. كنتُ على عجلٍ للرحيل، لكنِّي شَعَرْتُ بمقدارٍ من الاستياء بسبب رحيل المرأة، وبدا كلُّ ما حَدَثَ وكأنَّه وُلِدَ في خيالي، بسبب العفَّة المتواصلة، وعدم معانقة امرأة منذُ وقت طويل.

لكنْ، عليَّ الرحيل، فقد اكتظَّت أغصان أشجار الغابة بأعداد كبيرة من الغِرْبَان. سأُكمل غفوتي في موقع العُمَّال، وفكَّرتُ باجتراح تبرير أُقدِّمه إلى العُمَّال عن عودتي إليهم. نعم، سأقول لهم بأنَّني أضعتُ محفظتي على الطريق، لذا وَجَبَ عليَّ الدوران على ذات الطريق المختصرة التي سَلَكْتُها لمرَّتَيْن إو ثلاثاً. وبأنَّني سأستقلُّ شاحنة الصباح صوب أعلى الهضبة، ومن هناك سأستقلُّ شاحنة أُخرى صوب أوكسوم، ومنها بشاحنة أُخرى صوب عدوة، وهناك، في المستعمرة القديمة، سأعثر على سريرٍ ومطعم وكتاب. وهل سأعثر على امرأة أيضا؟ كَلَّا، فقد كانت رُخصة السماح بهذا الموضوع الأخير قد استُنفِدَتْ، وبالفعل فقد كنتُ أشعر بمقدار من الاستياء من نفسي حين مسَّتْ يدايَ رُزمةَ الرسائل التي أحملها معي في الحقيبة. تلمَّستُ الرزمة، لأُطمئِنَ نفسي بأنَّ ذلك اليوم سيُمْحَى من ذاكرتي، وسأنساه بأسرعَ من أيِّ يوم آخر، ربَّما. وإذاً ما الذي سأفعل لو أنّ المرأة ظَهَرَتْ الآن من بين الأشجار، وطَلَبَتْ منِّي أَنْ "ابقَ هنا"، فهل كنتُ سأبقى؟ كان ذلك القلق هو، بالذات، ما يُشعرني بغُصَّة في الحَلْق. وليس ذلك لأنَّ هذه المرأة باتت تمتلك أهمِّيَّة ما في نَظَري، بل لأنَّني ابتدأتُ بالشعور في أنَّها تُخبِّئُ مُخطَّطاً لعيناً، وكنتُ أشعر بنفسي عاجزاً عن فَكِّ غموضه، أو بالأحرى لم أكن راغباً في ذلك إطلاقاً. لكنْ، عن أيِّ مُخطَّطٍ لعينٍ أتحدَّث؟ لم يكن من المناسب طَرْح ذلك السؤال على أشجار الغابة أو على الغِرْبَان، أو الصراخ به في وجه تلك الطبيعة المحيطة بكَ، والتي، بتحصيل الحاصل، ستُخبركَ بانتصاركَ القديم، لكنَّها ستصطفُّ دائماً إلى جانب المنهزمين في تلك الحرب.

كانت المرأة تتقدَّم صوب النهر بخطوات سريعة، عارية القَدَمَيْن، لكنْ، نبيلة المظهر في ثوبها الرُّومانيِّ. كانت تتَّجه صوبي حاملةً في يدها شيئاً ما، لم أتمكَّن من تحديده. وحين صارت بقربي، افترشتِ الأرضَ، وفتحتْ زَنْبِيْلَاً حِيكَ من القشِّ: كان في داخل الزَّنْبِيْلِ بيضٌ وكِسرات من فطائر الخبز من النوع الذي يُعدُّه السُّكَّان هنا عبر وَضْع حَجَرَة حارقة الحرارة وسط العجين. كانوا يفعلون ذلك، وكِسْرَة الخبز لمَّا تزَلْ ساخنةً.

لم تكن تشكُّ، حتَّى للحظة واحدةٍ، بمسألة بقائي هناك، والجلوس إلى جوارها. كانت واثقة بشكل مطلق بأنَّني سأَقبلُ دعوتها لتناوُل الطعام برفقتها، وبينما كنتُ أحتسي ما في البيضة (ولا أعتقد بأنّ هناك عملية أكثر إثارة للانزعاج من أن تفعل ذلك تحت عيون مَنْ يراقبون سلوكَ)

كانت هي تُريح يَدَيْهَا على بطنها: بالضبط كما يفعل الأهل في بعض الأحيان مع الطفل الذي يتناول طعامه دونما احتجاج أو تلكُّؤ. كانت تُحدِّق فيَّ دائماً بعَيْنَيْن شبه مُغلَقَتَيْن، وكانت تلك هي اللحظة التي انتبهتُ فيها بأنَّ عَيْنَيْهَا كانتا بلونٍ فاتح ما بين الخضرة والرَّماديّ، وعلى أيَّة حال، لم يكن من ذات اللون البُنِّيِّ الطاغي على عيون السَّيِّدات في هذه الأرجاء. وما لم يكن ذلك نتاجاً لزيارة قنصلٍ ما أو صيَّادٍ أسود، فهو، بالتأكيد، من العلائم التي تَرَكَهَا الأجداد البرتغاليون كدلالاتٍ واضحة على تواجُدهم. وكان ذهولي يزداد دائماً حين أتساءل عن سبب انحطاط أوضاع أميرة مثلها، كي تُضطرَّ إلى العيش في مكانٍ مثل هذا من عمق الوادي، بينما قد يكون هناك جنرالٌ ما أو حتَّى سائقُ حافلة في المدينة سيكون سعيداً بحمايتها، وضمِّها تحت جناحَيْه. كانت هناك خُصْلات من الشَّعْر تبرز من تحت الفوطة البيضاء التي لَفَّتْها كالعِمَامَة حول رأسها: وإذاً لم تكن خُصْلات شَعْرها معقودةً على شكل ضفائر. "دعيني أرَ"، قلتُ لها، وحاولتُ خَلْع الفوطة البيضاء عن رأسها. دَفَعَتْ يدي بعنف، وخَلَعَتِ الفوطة بنفسها، فَكَّتْها من الوقت ما يكفي لتُريَني بأنّ شَعْرها ليس مُجعَّداً، بل ناعماً وسلساً، ثمَّ أعادت رَبْط العِمَامَة على رأسها بشكلٍ مضطرب، كما لو أن ذلك الرأس كان لشخصٍ آخر.

بدأ صمتُنا الإجباري يُثير انزعاجي، فبدأتُ بممارسة ما يفعله الجنود في الأرض الغريبة: أخرجتُ من حقيبتي دفتر ملاحظات، ورسمتُ على ورقه صورة كلب. عرضتُ الصورة على المرأة، فقالت: "Chelbi".

حسنٌ، هذا هو "Chelbi"، ورسمتُ بعد ذلك دجاجة، وحين شاهدت المرأةُ الصورةَ قالت "Doro"، رائع، لنواصل. رسمتُ امرأة عارية، وأشرتُ إلى شَعْرها، أنفها، الرقبة والفم. وعندما أشرتُ لها إلى بعض الأجزاء الحسَّاسة، ضحكتْ، وغطَّتْ وجهها بكفَّيْها. رسمتُ سمكة، والقمر. ومن ثمَّ رسمتُ تمساحاً. "Harghez" هتفتْ مُرتعبةً كما لو أن بإمكان ما رسمتُ أن يتحوَّل إلى تمساح حقيقي يزحف على الأرض.

غيَّرتُ الصفحة في الحال. كانت تستمتع وهي تشاهدني أرسم بتلك السرعة، وتُسارع إلى لفظ اسمِ ما كنتُ أبتدئُ برَسْمه، لتُوفِّر عليَّ عناء الرسم. ملأتُ بتلك الرسوم عدداً من الصفحات. وكانت تُغطِّي فمها بيدها، وتمتنع عن الرَّدِّ، كلَّما حاولتُ تجاوُز الحدود في بعض الرسوم، وبقَدْر ما كانت اللعبة تتواصل، كنتُ أشعر بها تقترب منِّي، وأشعر بجسدها الدافئ يستند بثِقَلِهِ إلى جسدي حتَّى تتمكَّن من رؤية أفضل للرسوم التي أُخطِّطها؛ لكنَّها لم تكن مَعنِيَّة بمعرفة كيف تُلفَظ أسماء ما أرسم في لغتي. وفي النهاية سَحَبَتِ القلمَ من يدي، وبدأتْ برسم شيءٍ ما يُشبه صليباً قبطيَّاً. كانت مَعنِيَّة في أن تُعْلِمَني بكونها مسيحيَّة. "حسنٌ جدَّاً"، قلتُ لها "وكيف بالإمكان ألَّا يكون المرء مؤمناً في زمان الحرب؟"، لكنَّها لم تفهم ما أقول. وكان فائضاً عن الحاجة أن أجعلها تستوعب ما يدور في خَلَدِي من أفكار وحماقات، أضفْ إلى ذلك أنَّني كنتُ أشعر بإرهاقٍ كبير.

وبعد عودتها إلى المكان (وقد تحقَّق لي ذلك الزَّهْو الخسيس أيضاً) كان بإمكاني الرحيل. لكنْ، حَاوِلُوا أن تتصوَّروا معي الآن بأنّكم تُمسكون في أيديكم قطعة نقودٍ معدنية، وتحاولون إدخالها في فتحةِ جهازٍ ما، وبعد محاولاتٍ عديدة، تتمكّنون من إسقاطها في داخل الجهاز: هكذا بالذات بَدَتْ الشمس الغاربة في تلك اللحظة، في هبوطها المتواتر في ما وراء الأُفق بعد أن أُنهِكَتْ من تحمُّل أعباء الأصيل الأفريقي. وأُعتِم المكان بسرعة كبيرة، وزادت الضوضاء، وتناهت إلى الآذان عن بُعدٍ أولى صيحات الضِّباع المتأهِّبة لعمليات الحفر اللَّيليَّة: تُحيل تلك الصيحاتُ الذاكرةَ

هنا إلى صَفَّارات القطارات اللَّيليَّة التي تُثير لدى المرء الرغبة في الرحيل. إذَّاك فحسب انتبهتُ بأنَّ المصباح الذي أحمله في حقيبتي قد انكسر، ولم يعدْ صالحاً للاستخدام، ربَّما حَدَثَ ذلك عندما سَقَطْتُ خارجاً من الشاحنة المنقلبة.

شَعَرْتُ بنفسي كحيوان وَقَعَ في مصيدة. لم يكنْ لي أن أبلغ الجسر إطلاقاً، إلَّا إذا كانت المرأة توافق على مرافقتي إلى هناك. رَسَمْتُ صورة الجسر، وعرضتُها عليها. أشرتُ إلى صدري بأصبعي، وحاولتُ إفهامها بأنّنا، أنا والجسر، شيءٌ واحد، وبأنّ علينا أن نلتقيَ، وبأنّ عليَّ الرحيل في الحال. هزَّت رأسها لعدَّة مرَّات بإيماءة دالَّةٍ على أنَّها استوعبت ما أرمي إليه. لكنَّها لم تُقدِمُ على النهوض من مكانها، فلم يكن الأمر يعنيها على الإطلاق.

انزعجتُ، فأمسكتُ بذراعها، وحاولتُ إفهامها عبر الإيماءات بأنّ عليها أن ترافقَني إلى هناك، أو على الأقلِّ إلى المكان الذي تُهتُ فيه عن الطريق، لكنَّها، ربَّما، استوعبتْ بأنَّني أرغب في أَخْذها معي، لأقضيَ الليلة معها داخل خيمتي، ويبدو بأنّ هذا الافتراض بدا لها ضرباً من اللَّامعقول، لأنَّها أحجمت عن اللحاق بي. بقيتْ واقفة ومتصلِّبة في مكانها، بالضبط كما فعلتْ في المرَّة الأولى، كانت عنيدة وعَصِيَّة على الإمساك.

غضبتُ بشدَّة، ودفعتُها بعنف أمامي، وسارت الأمور على ما يُرام لبضع خطوات. ومن ثمَّ توقَّفتْ، وحدجتْني عبر جفنَيْن شبه مُغلَقَيْن بنَظَرَاتٍ، لا تُحتمَل لحيوان متوجِّسٍ بريبة. لا مناص من الاستسلام لرغبتها، ولا فائدة من الإصرار على إجبارها. وكان الظلام قد حلَّ مُسرِعاً في ليلة دون شُعاع القمر. جَلَسْتُ على الأرض لأُدخِّنَ سيجارةً، ففي النهاية أنا مَنْ رَغبَ في وقوع ما يحدُث، ولم يكن عدلاً أن أُؤنِّبها هي على النتائج. وعندما شاهدتْني هادئاً دونما غضب، اقتربتْ منِّي من جديد، وأشارتْ إلى موقع القرية، ما وراء الأشجار. هَزَزْتُ رأسي، لأُعرِبَ لها عن رَفْضي للعرض، فلم أكن من البلادة إلى الدرجة التي أُولِجُ فيها بنفسي في خضمِّ مغامرة غير محسوبة العواقب: فليس هناك أسهل من عملية إخفاء جُثَّة ضابطٍ أجنبي، إذْ يكفي حَمْلُهُ في موكبٍ صوب كتيبة التماسيح المُترقِّبة عند ساحل النهر، ولم يكن هناك مَنْ سيستجوبُ السُّكَّان في تلك البلدة عمَّا إذا شاهدوني عابراً من أرضهم.

أكانت المرأة تحاول اقتيادي إلى جُحْر مقاتلٍ جشعٍ؟ مددتُ يدي، وتحسَّستُ المُسدَّس، واطمأنيتُ لوجوده مربوطاً إلى حزامي، كنتُ ما أزال أحتفظ برصاصاتي السبع، إضافة إلى خزَّان الطلقات الاحتياطي: كانت الطلقات مُشمَّعة بشكل جيِّد، والمُسدَّس نظيفاً.

عاد صَخَبُ العُوَاء البعيد وصيحات الضِّباع إلى الصعود من جديد. "ما يزال الوقت مُبكّراً" فكَّرتُ. لكنْ، هناك ليالٍ تشعر فيها الضِّباع بالحاجة إلى إنهاء مهامِّها في وقتٍ مبكِّر، وعلى عجل.

في غضون ذلك، كانت المرأة قد نَهَضَتْ من على الأرض، ولوَّحتْ لي بيدها أن أتبعَها؛ وبما أنَّها لم تكن متوجِّهة صوب القرية، فقد قرَّرتُ أن أتبعَها.

بعد ما يربو على مائة خطوة، وَجَدْنا أنفسنا ما بين صخور عالية وضخمة، ما تزال دافئة بسبب ما اختزنتْهُ من وَهْج شمس النهار، وكان على جنب أحد هذه الصخور مكانٌ يُشبه كهفاً، بجدران ملساء قادر على استضافة شخصَيْن أو ثلاثة ما تحت قبَّته. وقد أشارت لي المرأة بأنّنا سنبيتُ هناك ليلتنا.

كان المقترح بليداً، ما دعاني إلى الاحتجاج: "وماذا عن الجسر؟". أعدتُ ذلك لمرَّات عديدة، وحاولتُ الإمساكَ بها، ودَفْعَها، لكنَّها تحرَّرتْ من قبضتَيَّ، وابتسمتْ مبتدِئَة بجَمْع أغصان الأشجار الجافَّة، وكوَّمَتْها، كي تُشعِلَ النار أمام مدخل الكهف: ولربَّما سَعَتْ إلى إضرامِ النار لتطميني، أو ربَّما لأنَّ لدى النساء براعة في تحقيق الأُلفة العائلية. ناولتُها علبة أعواد الثِّقاب، وتركتُها تفعل ما تريد. اشتعلت النار في الحطب، فاغتنمتُ الفرصة، لأُعدَّ فنجاناً من القهوة، بتسخينها في الوعاء المعدني المُرفَق بالحقيبة العسكريَّة، قدَّمتُ لها بعضاً من القهوة، فشربتْهُ. كنتُ أشعر أن لا مفرَّ لديَّ من الاستسلام لواقع الحال، وعليَّ أن أُضيف بأنَّني صرتُ أستحبُّ ذلك الوَضْع كثيراً: وأدركتُ، ممَّا تفعله المرأة في تلك الدقائق، بأنَّها ستظلُّ برفقتي، وستقضي الليل معي. ابتعدتْ قليلاً، لتجمعَ الحطب، وكانت، في كلِّ مرَّة تُسقِط ما جَمَعَتْ قرب النار، تبتسمُ لي.

وبرَغْمِ ذلك، لم يكن بمقدوري أن أتحرَّر من القلق المتنامي في داخلي، وقد كانت مكوِّناته المجتمعة معاً عبارة عن مفردات كثيرة ومتفرِّقة عن بعضها بعضاً كـ (الليل، الضِّرْس الملتهب، الأصوات الغريبة والمزعجة الآتية من مجاهل الغابة، والانزعاج من المغامرة التي استطالت أكثر من المعتاد) كلُّ هذه الأمور بمجملها جَعَلَتْنِي أرتكن إلى الهدوء والسكينة، مستسلماً إلى الأقدار. وفي الوقت ذاته، لم يكن هناك فارقٌ كبير ما بين النوم في موقع بناء الجسر أو في الهواء الطلق في هذا المكان. ربَّما كان البعوض عند ضفَّة النهر سينهش جسدي. لكنّ المرءُ يشعر هنا، في هذا المكان، بأنَّه يتواجد في أرض بِكْرٍ، لم تتلوَّث بعد بأدران المَدَنِيَّة: أمعنتُ التفكير في أوضاع الناس الذين يعيشون في مُدُننا، ويُضطرُّون إلى استخدام الحافلة والعربات لمرَّات عديدة خلال اليوم، فيما أنتَ هنا إنسانٌ، وتدرك كُنْهَ أن تكونَ إنساناً، وحفيداً لذلك الإنسان الذي قَهَرَ الديناصورات. تتأمَّلُ، تتحرَّك، تقتل، تلتهم لحم الحيوان الذي كان حَيَّاً يُرزَق قبل ساعة فحسب، فكمنتَ له، وفاجأتَهُ، واصطدتَهُ. أنتَ الإنسان الذي يأتي بإيماءةٍ صغيرة، فينصاع إليكَ الآخرون. تمرُّ دونما سلاح، فتنصاع لكَ حتَّى الطبيعة بحَدِّ ذاتها. كلُّ الأمور واضحةٌ لديكَ، وليس هناك في مشْهد الأحداث إلَّاكَ. وغالباً ما تشعر بأنّ زَهْوَكَ وغرورَكَ يخرجان من تلك المواجهة منتصرَيْن.

توافق على ما تفعل، تنظر إلى ذاتكَ وأنتَ تحيا، وتجد نفسكَ كَمَنْ لن تَحُلَّ نهايته أبداً، فأنت مَلِكُ ذاتكَ: وأنتَ على استعداد لفعل أيِّ شيء يُشيح الإحساس بالخيبة عن ناظِرَيْكَ. الآخرون يبعثون على الضجر، ويُجبرونكَ على تقاسم الانتصارات التي ترغب أنتَ في الإبقاء عليها لديكَ كُلًّا لا يتجزَّأ؛ أنتَ سعيدٌ في هذه الوحدة، وهكذا يؤول بكَ الأمر إلى أنْ تُقرِّر المكوث في المكان.

ربَّما سيتَّهمني مَنْ يراني إنساناً مُغرقاً بشكلٍ مُبالغٍ فيه في الخيال الخصب. أعددتُ نفسي لأرويَ لأصدقائي الأحداث التي مرَّت بي، سينفجرون بالضحك بالتأكيد. وسيضحك طبيب الكتيبةِ أكثر من الآخرين، لقد كان يضحك دائماً أكثر من الآخرين عندما يستمع إلى قصص تتجاوز قدرات خياله. كان نوَّاماً كبيراً، ويستقبل المرضى في أيَّام الآحاد مرتدياً مَنَامَتَهُ، مُغرِقاً الجنودَ الذين ينهبون منه أحلامه المنزلية باللعنات. وسيستلُّ الملازم ( B) من حافظة نقوده إحدى بطاقاته، ويقدِّمها إليكَ مرفقة بابتسامة. كانت تلك البطاقة (التي طبع منها مائة نسخة في نابولي) تحمل الجمل التالية: "على رَغْمِ أنّ الأحداث التي ترووها مُضخَّمة للغاية، لكنْ، لأنّنا نثق بأنَّها رُويت بنوايا صادقة، فإنّنا نمنحكم هذه الشهادة، ونحن واثقون بأنَّ ما نفعل سيُدخل السرور في نفوسكم".

انفجرتُ بالضحك، فنَظَرَتْ إليَّ المرأة. وكان جمالها قد ازداد بفعل ضياء نار الموقد. "ليس بمقدوركِ أن تفهمي"، فكَّرتُ "ستدفعين ثمن ليلة مُفعمةً بالفرح الغامر". وأثارت لديَّ ذكرى أصدقائي، الذين تركتُهم، العديد من انفعالات التَّأثُّر، إنَّهم أشقَّاءٌ طيِّبون، قد أنسى يوماً ما حتَّى أسماءهم، لكنِّي لن أنسى حبورهم وصداقاتهم الخالية من أيَّة مصالح، أو بالأحرى إيثارهم الكبير، وهو ما كان يجعل من ذلك الوقت يبدو، في الذاكرة، كما لو أنَّه تمهيدٌ لحياة أُخرى عَصِيَّة البلوغ.

أو ربَّما سأصمت عن روايةِ أيِّ شيء ممَّا عشتُ في هذه الأيَّام: وسأبدأ نهاري التالي وكأن ما جرى في اليوم السابق لم يحدُث أبداً، وذلك لأنَّ رحلة العطلات السِّرِّيَّة والغامضة، هي دائماً الرحلة الأجمل، وبتحصيل الحاصل، فقد تحرَّرتُ ممَّا كان يُثير لديَّ الفضول لمعرفته.

وحتَّى لو اجتاحتْني الرغبة في امتلاك تلك المرأة من جديد (وكنتُ واثقاً من أنَّه احتمال قائم بقوَّة، ولا مناص منه)، ولم تستجبْ هي إلى رغبتي تلك، فلا ضير، إذْ لم تكن هي المرأة الوحيدة في تلك الهضاب، ولربَّما كانت النساء متشابهات فيما بينهنَّ.

شَعَرْتُ بالجوع. فَمَدَدْتُ يدي إلى الخبز الذي حمَلَتْه معها من القرية بتردُّدٍ، وبقَدْر من الاشمئزاز: أكلْنا معاً. لم تعد لديَّ مؤونة، وشربتُ محتويات بيضةً أُخرى. كانت المرأة تأكل برزانة كبيرة، حاملة إلى فمها فُتات خبزها بحركة هادئة ومتواصلة من يدها.

بعد ذلك تمدَّدتُ تحت قبَّة الصَدَفَةِ الحَجَرِيَّة الكبيرة، أشرتُ إليها أن تقترب منِّي، وسرعان ما وَجَدْنا نفسَيْنا ملتصقَيْن ببعضنا ونحن نتضاحك. ومن ثمَّ غذَّيْنا النار بأغصانٍ أُخرى، فاضطرمتْ، وسرعان ما غَلَبَنَا النوم. نامت هي قبل أن يغلبَني الوَسَنُ، ولكي أتمكَّن من رؤيتها بشكلٍ جيِّد، كان عليَّ أن أُدير ظَهْري إلى النار. كان انعكاس النار على حجارة الكهف يُضيءُ وجهها ونَهْدَيْهَا، اللَّذَيْن يرتفعان وينخفضان بتناغمٍ مموسق مع شهيق وزفير تنفُّسها الهادئ. وعندما نَظَرْتُ إليها نائمةً باطمئنان وثقة، تذكَّرتُ بأنَّني لم أسألها عن اسمها. "ذلك أفضل"، فكَّرتُ "فلنَعِشْ في ظلِّ المجهول". كنتُ واثقاً بأنَّه لم يكن لاسمها إلَّا أن يكون مريم (فجميع النساء هنا يحملنَ اسم مريم)، على الأقلِّ سأناديها مرَّات بهذا الاسم في ساعات الأرق، وبالفعل كان ذلك هو اسمها الحقيقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٦

كانت باهرة الجمال وهي راقدة. فالرُّقادُ وحده يُبرِز جمالها بالكامل، وكما لو أنّ الرُّقاد هو وَضْعُها الطَّبيعيُّ، وبأنّ اليقظة ليست، بالنسبة إليها، إلّا نوعاً من أنواع التعذيب. كانت ترقُدُ كأفريقيا بالضبط، رُقادٌ دافئ وثقيل، كرُقاد الإمبراطوريات الكبرى التي وُئِدَتْ في مهدها، ولن تقوم حتَّى اليوم الذي سيتوقَّف فيه الرَّبُّ من إعْمالَ خيالاته واجتراحاته للأشياء التي قد تتمرَّد عليه في يومٍ ما. مسكينٌ ذلك "الرَّبُّ" الذي سيُلاقي هذه الأرض كما هي عليه الآن؛ لذا فإنَّ رُقادها هو الجواب الأكثر منطقيَّة من بين جميع الأسئلة.

كانت المرأة قد أراحتْ يدها على بطنها، وتركَّز القليل من الضياء في تلك العَتمة اللَّيليَّة على فضَّة الساعة التي رَبَطَتْ حزامها الجِلْدِيَّ حول مِعْصَمِهَا. ما الذي ستفعل، هي التي لا تُجيد القراءة، بتلك الأداة العنيدة والخَرِبة؟ وإذا ما كانت قادرة على القراءة، فسيكون حزيناً ذلك اليوم الذي ستكتشف فيه بأنّ "تِك تاكْ([10])" هذه الساعة قد توقَّف نهائيَّاً، وسيحدُثُ ذلك، لا محالةَ، عمَّا قريب: ربَّما ستعتبر الحَدَثَ بمثابة الطالعِ الأقلِّ شُؤْماً، لكنّ ما هو مؤكَّد لديَّ الآن، هو أنّ هذه الساعة هي الشيء الأقلّ معقوليَّة والأكثر غرابةً من بين ما يمكن لي أن أتلمَّسَهُ على جِلْد تلك الذراع التي عانقتْ رقبتي حتَّى قبل دقائق. كما العاطفة بالضبط، ليس الوقت قابلاً للتجزئة، فما معنى أن تقضي سنةً، شهراً أو حتَّى ساعة عندما يكون المعيار الحقيقي للزمن موجوداً في داخلك أنتَ بالذات؟ أنا قديمٌ غابر، وأعتبر نفسي خالداً، وليس ذلك لاقتداري على قَهْر الخوف من الموت، بل لأنَّني أرى البرهان على ذلك الخلود في هذه الجبال، في هذه الأشجار، وفي عَيْنَي هذه المرأة اللَّتَيْن التقتا بعينَيَّ بعد انقطاعٍ طويل.

كان فمها مفتوحاً قليلاً، لتتنفَّس بارتياح، وجفناها يستريحان كقطَّتَيْن خجولَتَيْن؛ وبإمكاني الآن أن أُلاحظَ مقطعهما الدقيق. وتوحي الحركة المفاجِئة لحَدَقَتَيْهَا وارتعاشة جفنَيْهَا بأنَّ عَيْنَيْهَا مفتوحتان.

أَغارَ عليَّ حُلْمٌ، فأبعدتْهُ عن ذهني، وتبعه حُلْمٌ آخر، وأَبْعَدَتْ ذلك أيضاً؛ فمَرأى هذه المرأة، وحده، هو القادرُ على الاستيلاء على ذهني في هذه اللحظة، وعلى إضاعتي في ثناياه: لأنَّه، ككلِّ الأشياء السهلة جدَّاً، مَرأىً يُخفي بين طيَّاته لُغزاً ما، ولو تمكَّنتُ من التَّعرُّف على ذلك اللُّغز، فسيكون بمقدوري أن أنام أنا أيضاً، كما ينام المرء ليلته الأولى تحت لَحْدِ القبر غير آبهٍ بأرق الآخرين، مُقتنعاً بشكلٍ مُطلق بأنَّ أمور حياته لم تكن لتسير إلَّا على الشكل الذي سارت عليها.

ذكَّرني كلُّ ذلك بالمرَّة الأولى التي اعتليتُ فيها صهوة جواد، وشَعَرْتُ بوجود قوَّة هائلة ما بين رُكبَتَيَّ تنصاعُ إلى أوامري بانتظار بلوغ أفضل الحالات. كانت تلك القوَّة كمياه البحر البعيدة عن الساحل، مياهٌ تحرس البشر وتُنَبِّئُهُم دائماً بالأخطار وتَنْئِيْهِم عنها في آنٍ، لكنّ تلك المياه على استعداد لأنْ تقوم في أيَّة لحظة بابتلاع مَنْ يُبدُون، من بين بني البشر، انتقاصاً تجاهها أو يدَّعون لأنفسهم امتلاك ناصية الكثير من أسرارها: كانت ذاكرتي تستعيد كلَّ هذه الأمور، وشَعَرْتُ نحو المرأة بجاذبية لا تُقاوَم.

حسنٌ، لنتركها الآن تنام، هذه الأميرة المسكينة دونما همومٍ أو انشغالاتٍ خارج هَمِّ الحصول على فطيرة الخبز أو الاستحمام في مياه البركة الصغيرة واللهو مع مياه تلك البركة.

أمَّا أنا، فقد عجزتُ عن النوم، لأنَّ الإرهاق الذي أشعر به تجاوز كلَّ الحدود، أعصابي متوتِّرة، مُستَنْفَرَة وحسَّاسة نحو أيَّة نَأمَة تُحدِثُها في الأرجاء حشرةٌ زاحفة، أو نحو أيَّة صرخةِ ضبعٍ يُضخِّمها هدوء الليل. كانت الذئاب بعيدة، لكنَّها وَاصَلَتْ عُوَاءها، لتُخبر الضبعَ بأنّ هناك ثَمَّةَ حاجةً لمساعدتها لاستخراج أجداثٍ دفينةً، وكان الضبع، هذا الصَّيَّاد اللَّيليُّ المُفزِعُ، سيصل باعثاً في قلوب حلفائه جنون الفرح والحبور، يأتي ليحفرَ المدافن، يُخرِجَ الأجداث من تحت التراب، ليُقدِّمها إلى الآخرين، بعد أن يكون قد ازدرد هو اللقمةَ الأولى من الوليمة الثَّريَّة المُقامة بكلِّ تلك الجثث المتروكة في العَرَاء!. إذا ما توافق البشر فيما بينهم، وكفُّوا عن قَتْل بعضهم لبعض، فإنَّ ذلك سيعني النهاية بالنسبة إلى الضِّباع. وسيكون عليها أن تعود إلى الوجبات الفقيرة الأولى، إلى الكلاب، إلى الجمال، وإلى السناجب، لكنْ، إذا ما تواصلت الحروب، فإن الضِّباع لن تفتقد أجداث البغال التي يستخدمها الجُند في نَقْل المؤن والعتاد.

كانت الحيوانات الأُخرى ترقد هنا وهناك دون أن تُثيرَ لديَّ أيّما قلقٍ. فبعد أن شَبِعَتْ من التهام الذباب، ارتَدَتْ الحِرْبَاءُ ثياب المنام غامقة الألوان، متأمِّلةً في تجربتها مع تلك السيجارة كريهة الرائحة، التي حاولتُ إقناعها بأنَّها سيجارة طيِّبة المذاق والرائحة. وكان السنجاب، الأكثر نُبلاً في عالم الحيوانات هذا، يستريح جالساً في الكُوَّة التي حَفَرَهَا بنفسه في جِذْع الشجرة. كما كان القطُّ الوحشي يؤمِّل نفسه بأن يجد السنجاب قد آوى إلى كُوَّتِهِ.

وإذاً، فقد كان كلُّ شيءٍ يسير بانتظام، ولم تكن صورتها وهي نائمة إلَّا واحدةً من مفردات هذه اللوحة.

غير أنِّي لاحظتُ ظلّاً لشيءٍ ما يتحرَّك على بُعد ما يربو على عشرين متراً منِّي، فَمَدَدْتُ يدي بشكلٍ غريزي إلى المُسدَّس. سَحَبْتُهُ من قِرَابِهِ بهدوء كبير، وأزلتُ زرَّ الأمان، إلَّا أنَّ الظِّلَّ اختفى، وأزاح غيابُهُ الهَلَعَ والخوفَ عنِّي، وشَعَرْتُ بالطمأنينة لبُرْهَة قصيرة، لكنْ، ها هو الظِّلُّ يعود ثانيةً، كدلالةٍ على عدم اختفائه بالكامل، ولم يمرّ حَذَرِي في تجنُّب القيام بأيَّة حركة أو إثارة أيِّ ضوضاء دون إثارة انتباهه. هل عليَّ إحياء النار في الموقد أم أنَّ عليَّ إطفاءَها بالكامل؟ لو كان الزائر الغريب حيواناً، فإنَّ النار الموقَدَة كافية لإقصائه وإبقائه بعيداً عنِّي، أمَّا إذا كان مقاتلاً ضلَّ طريقه، فإنَّ عليَّ أن أحولَ دون تمكينه من رؤية ما حوله، ومن إطلاق النار عليَّ.

لكنْ، يبدو أنَّه كان حيواناً، لأنَّ الظِّلَّ الذي شاهدتُهُ كان واطئاً وطويلاً. لا أعتقد أنّ بإمكان إنسانٍ يجثو على أربعة قوائم أنْ يأتِيَ بتلك الحركة السريعة دون إحداث صَخَبٍ، أو دون أن يستشعر الحاجة إلى النهوض واقفاً على قَدَمَيْه. إذا ما كان رجلاً، فبئسَ ما سيواجه. كنتُ واثقاً بأنَّه ليس واحداً من السُّكَّان الأصليِّيْن، لأنَّ لا أحد من هؤلاء كان ليواجه مجاهل الغابة دون أن يحمل بيده شعلةً أو شمعة متَّقدة. قد يكون عدوَّاً ضلَّ طريقه مثلي: إلَّا أنّ هذا افتراضاً غير قابل للوقوع، فقد اجتازت الحرب هذه المنطقة قبل أسابيع عديدة، وما يزال العديد من الجثث مَرمِيَّة في العراء بالقرب من جدار البازلت الحَجَرِيِّ، وقد لاقى الحبشيُّون الثلاثة، الذين رأيتُ جثثهم في الغابة، حَتْفَهُم بفعل صِلْيَة بندقيةٍ رشَّاش من طائرة، وكان ذلك يُقرأُ بوضوح في إيماءة أحد القَتْلى بأصبعه صوب الأعلى، ولو كان أولئك الثلاثة من سُكَّان القرية، فقد كان ذَوُوْهُم سيُسارِعون إلى دَفْنهم، هم غرباء عن القرية بالتأكيد، لذا لم يفتقدْهم أحد من سُكَّانِها، كما أنَّهم لم يشكُّوا بوجود تلك الجثث في الغابة.

وإذاً فلا شكَّ في كون ذلك الزائر الغريب حيواناً. لكنْ، ما هو هذا الحيوان الحَذِرُ بالمقدار الذي

يجعله يختبئ عندما يستشعر نَظَرَات الآخرين نحوه؟ وأيُّ حيوان هذا الذي يمتنع عن الصراخ أو العُوَاء بعد أن تسرَّبت إلى خياشيمه رائحةٌ مشكوكٌ فيها، رائحةُ كائنٍ بشري؟

أعدتُ إحياءَ النار في الموقد. كانت المرأة ما تزال غارقةً في النوم، ولم تكن هناك أيَّة حاجة إلى إيقاظها. ربَّما، لو فعلتُ ذلك، فإنَّها ستُسيءُ فَهْم نواياي، وستقدِّم نفسها إليَّ ثانيةً، حتَّى قبل أن أتمكَّن من توضيح الوَضْع لها، وإذا ما تمكَّنتُ من إعلامها عن الحيوان الذي يتجوَّل هناك في الخارج، فإنَّها ستغرق في الضحك، "يا للرجل المرعوب الذي صار من حصَّتي! هناك ظلالٌ في كلِّ مكان، لكنّ الظلال لا تُحدِثُ أضراراً".

وكفريسة خوف مجهول، استلقيتُ إلى جوار المرأة. وترقَّبْتُ. كانت دقَّات الساعة تتناهى إلى مسامعي.

لم يعد الظِّلُّ إلى الظهور، ولم أعد أسمع أيَّة ضوضاء دالَّة على حضوره. ربَّما اختبأ الحيوان الضخم في الأرجاء بانتظار اللحظة المناسبة للانقضاض علينا، ربَّما كنَّا نحن مَنْ يجذب انتباهه، أو هي تلك النار المتَّقدة بجَذَلٍ. لو أنَّه استكان هناك، فإنَّ جميع الأمور ستسير دونما مشكلة، وسينبلج الفجر على حين غِرَّة بذات السرعة عندما يُدار مفتاح إشعال الضوء: وإذَّاك ستخفت الضوضاء، وستختفي جميع الظلال، سيظهر بأنَّ الظِّلَّ الذي أثار قلقي طَوَالَ الليل لم يكن إلَّا صورة لكومة من أغصانٍ متشابكة حرَّكتها نسائم ليليَّة. كان ضروريَّاً أنْ أتحلَّى بالجرأة، وبالاقتدار على الانتظار، والإقلاع عن النوم (فمغامرات من هذا النوع لا تقع إلَّا ليلاً) أعترف بأنَّني كنتُ سأخلُدُ إلى النوم عن طِيْب خاطر، حتَّى إنَّ القلق زاد من احتياجي إلى النوم.

كانت المرأة تُواصِلُ نومها، فانتابتْني رقَّة مفاجِئة، نَتَجَتْ عن الثقة المطلقة والتِّلقائيَّة التي استكانت بها هذه المخلوقة إلى حمايتي، فمسَّدتُ بأصابعي على ظاهر كفِّها. إنَّ الحُبَّ مجبول بأشياء كثيرة، من بينها رسائل الحُبِّ المُرسَلَة أو المُستلَمَة. لقد ارتبطتُ مع هذه المرأة، وبدلاً من الشعور بالخطيئة، فقد فكَّرتُ بأنَّني لم أُقدِم إلَّا على هفوةٍ عابرة. قد لا تمنحُ الحالةُ المرأةَ المغزى نفسه الذي أمنحه إيَّاها أنا، فبالنسبة إليها اختُزلت جميعُ الأشياء في الانصياع الكامل إلى أوامري، دون أن تتساءل عن السبب. إنَّها، في الحالة هذه، شيءٌ ما، أكثر من شجرةٍ وأقلّ من امرأة. "ليس كلُّ ما يدورُ في خَلَدِي الآن"، فكَّرتُ. "إلَّا خيالات حمقاء، قلَّبتُها لقضاء الوقت: فهناك ذراعان أُخريان تمتدَّان صوبي من مسافات بعيدةٍ للغاية، وابتسامات أُخرى تدعوني إلى العودة، لذا فإنَّ من الضَّروريِّ لي للغاية أنْ أُسرِعَ في تناسي أحداث هذه الليلة".

عَبَرَ الظِّلُّ صوبَ الاتِّجاه المعاكس للمكان الذي كان قد اختفى فيه. وإذاً فقد كان ذلك الشيء موجوداً، وقد عَبَرَ بالفعل، ولم يكنْ ذلك مُجرَّد رؤى مُتخيَّلةً أو مُجرَّد هلوسة بحتة، كما أنَّها ليست إحدى المَزْحَات ثقيلة الظِّلِّ التي تتسبَّب فيها آلام الضِّرْس، التي عادت لتؤكِّد حضورها المؤلم، بسبب الرطوبة اللَّيليَّة.

نَهَضْتُ واقفاً، لآتِيَ بحركةٍ ما، أو، ربَّما، لأشحذَ جرأتي.

كان الظِّلُّ قد اختفى من جديد، لم يَعُدْ بمقدوري رؤيته، فقد دار حوالي صخرة الكهف، وهو يتربَّص هناك مُترقِّباً، فساورتْني فكرة الدوران حوله لمباغتته من الخلف، لم أكن أرغب في تقليص المسافة الفاصلة بيننا حتَّى ولو شبراً واحداً، بعد أن قدَّرتُها بستَّة أو سبعة أمتار، وهي مسافة يمكن للحيوان أن يقطعها بقفزة واحدة، ولا بُدَّ أن الحيوان سيقفز مُنقضَّاً عليَّ بالذات

في اللحظة التي أفقد فيها التركيز.

بإمكاني الآن أن أدور حول صخرتنا، وأن أُباغتَه من الخلف. ثَمَّةَ مخاطرُ في ازدياد شراسة الحيوان في حال تعرُّضه إلى جروح، وسيكون الوَضْع أخطرَ فيما لو قابلتُهُ وجهاً لوجه. كنتُ أسعى إلى التَّمكُّن من إصابته في الرأس بالطلقة الأولى.

تنهَّدت المرأة، استدارتْ، وحرَّكتْ ذراعَيْهَا.

ببطءٍ شديد، ودون أن أُثير أيَّ نَأمَة صوت، دُرتُ حول الصخرة التي صارت مخبأً لنا. وتركتْ دورتي تلك المرأةَ النائمة دونما حماية لبُرْهَة من الوقت، كان لا بُدَّ لي من مواجهة تلك المخاطرة، وأقنعتُ نفسي بأنْ لا شيء سيحدُث في تلك الغضون. وفيما كفَّت يداي عن الارتجاف، شَعَرْتُ بنبضات قلبي تتسارع وتتصاعد صوب حَلْقي. خطوتُ بضع خطوات درتُ خلالها حول الصخرة، وألقيتُ نَظْرَة على الصخرة الأُخرى، ودقَّقتُ فيها. لا شيء. سعلتُ كي أُطَمْئِنَ نفسي.

وبسبب الأعصاب المتوتِّرة أصلاً في ليلة ظلماء دونما أيِّ مخرج، توصَّلتُ إلى افتراض لا معقول: فقد فكَّرتُ في تلك اللحظة بالذات بأنَّ ذلك الظِّلَّ نَتَجَ عن حضور تمساح. وتذكَّرتُ الهَلَع الذي شَعَرَتْ به المرأة إزاء الصورة التي رسمتُها على الورقة لهذا الحيوان الكاسر، كان نُطقها المرتعب باسم "هارغيز"، حين سألتُها عن مكان وجوده، دليلاً على ذلك الهَلَع. لقد غذَّى هذا الافتراض مُخيِّلتي الرُّومانسيَّة، بالضبط مثلما حلمَ رسَّامو الخرائط الجغرافية، فوصفوا الأماكن بموجوداتها. إلَّا أنَّني أزحتُ تلك الفكرة عن ذهني في الحال: إذْ لم يكن لأيِّ تمساح أنْ يُغامر في الابتعاد كثيراً عن ضفَّة النهر، وأن يقطع كلَّ تلك المسافة. ثمَّ إنَّ تلك الحيوانات الكاسرة بطيئة للغاية عندما تتحرَّك على اليابسة. وضحكتُ ساخراً من تخيُّلاتي. لا، لم يكن الظِّلُّ تمساحاً ولا ضبعاً. ربَّما كان فهداً، رَغْمَ أنّ عدد الفهود تناقص، وصار حيواناً نادراً في مناطق المنخفضات.

ها هو الظِّلُّ يمرُّ من أمامي مرَّة أُخرى بسرعة خارقة. يزحف على الأرض في البقعة المُضاءة بنار الموقد: جرى كلُّ ذلك في لمح البصر، فأطلقتُ النار لمرَّتَيْن. اصطدم الظِّلُّ بي، وشَمَمْتُ رائحة النتانة الوحشية من فروته، فسَقَطْتُ على الأرض بينما كنتُ أُطلق صوبه الرصاصة الثالثة. فَرَّ الحيوان صائحاً، وسمعتُهُ، فيما بعد، يتأوَّه محتضِراً على مسافةٍ بعيدة عنِّي.

عُدتُ صوب المرأة. ويعسر عليَّ التصديق بكلِّ ما حَدَثَ فيما بعد ذلك.

كانت المرأة قد تكوَّرت على نفسها ضاغطةً على بطنها، وبعد قليل، وهي لمَّا تزال غارقة في بقايا نوم غادرها على حين غِرَّة، أطلقتْ أولى تأوُّهات الألم، كانت تأوُّهات طويلة ومُفجِعَة، صرخات ألمٍ، سَبَقَ لي أن استمعتُ إليها في ذلك المستشفى، خلف زجاج غرفة العمليات. كانت صرخات ألمٍ وحشية، هي الاحتجاج الذي نختزنه في دواخلنا لِلَّحظة الأخيرة التي يُباغتنا فيها الألم فجأة، وبلَمْح البصر. كانت صرخات الألم المريرة التي تُطلقها هذه المرأة كصرخاتِ مَنْ لا يُصدِّق ما تراه عيناه.

كنتُ قريباً منها مُوهِماً نفسي بإدراك ما تُعاني منه. أنا مَنْ تسبَّب في ذلك، فتلك اليد تعرف جيِّداً بأنَّها هي التي أصابتْها. كانت يمناي ترتعش. عندما أزاحت المرأة يدها عن بطنها، رأيتُ التماعةَ الجِلْد بسبب الدم النازف. لقد أصبتُها. فلربَّما حَرَفَ بعض الصخور الطلقة عن مجراها الاعتيادي، لكنْ، لماذا عليَّ أن أنفيَ بأنَّني فقدتُ القدرة على تحديد الاتِّجاهات حين سَقَطْتُ

على الأرض باضطراب؟ لم أَخطِئ الهدف في الرَّصاصَتَيْن الأولى والثانية، وربَّما طلقة المُسدَّس تدفع الذراع إلى الارتفاع إلى الأعلى، فقد رفعت ارتدادات الطلقتَيْن الأولى والثانية ذراعي إلى الأعلى، لذا عَمَدْتُ إلى تصويب الإطلاقة الثالثة نحو الأسفل، كي لا أُخطِئ الهدف. نعم، لقد أطلقتُ صوب الأسفل، لا تفسير لما حَدَثَ غير هذا: ليس جِلْد ذلك الوحش أيّاً كانت قسوته، بل صخرةٌ ما، هي التي ردَّتِ الطلقةَ، وحَرَفَتْهَا إلى الاتِّجاه الآخر.

ولكي أختزلَ التفكير في الأمر، فقد خَلُصْتُ إلى القناعة بأنَّ حجارة تلك الصخرة، إحدى حجارة تلك الصخرة اللعينة هي السبب، فإنَّ لم تتسبَّبْ تلك الصخور بأيِّ أذى مباشر، فإنَّها قد تُخبِّئُ تحتها عقرباً سامَّاً.

لكنِّي الآن في مواجهة المرأة التي تتألَّم وتحتضر. وصار ذلك الجسد، الذي كنتُ أحرسه قبل دقائق، يتقلَّص ويتكوَّر من الوجع المفجِع الذي يزداد إيلاماً لبشاعته وعُسر تفسير أسباب حدوثه. وكان تأكيد وقوعه بسبب سوء الطالع أشدَّ إيلاماً. حين حاولتُ أن أرفعها قليلاً، لأضعَ الحقيبة تحت رأسها، نَظَرَتْ إليَّ بعَيْنَيْن شبه مُغلَقَتَيْن، بالضبط كما فَعَلَتْ في السابق. وكانت تدور في خَلَدِهَا قناعةٌ مُطلقةٌ بأنَّني لستُ أنا مَنْ أطلق النار عليها. شخصٌ آخر أطلق النار، ولستُ أنا، إذْ لم يكن معقولاً على الإطلاق أن أكون أنا مَنْ فعل ذلك. كنتُ مذعوراً، مسَّدْتُ على جبهتها بكفِّي، كي لا تراني بمثابة عدوٍّ. تَغَطَّى وجهها بعَرَقٍ بارد. يدها، التي ما تزال مُؤطَّرة بحزام الساعة، عادت لتضغط من جديد على الجُرح في بطنها، ورفعتُها بعد أن امتلأت بالدم الحارِّ. كان ثوبها قد تشرَّب بذلك الدم، وتكوَّمتْ على الرمل بُركةٌ من الدم المتخثِّر بُنِّيِّ اللون.

واصلتْ أنينَها، لكنْ، بصوت خافت، وبعزَّة نفس وإباء، كي لا تُثير فيَّ فزعاً أكبر. كانت تفتح عَيْنَيْهَا بين الفَيْنَة والأُخرى، ويبلغ بها الأمر في بعض المرَّات أنْ تبتسم لي؛ وللحظات كانت زاويتا فمها تُمسكان ببقايا البسمة، كي تُطمئنني، كتلك البسمة التي تلي الصرخة البطولية التي تُطلِقُها الأُمُّ في لحظة الولادة، والتي تخفت، لتُتيح المجال لحبل سرِّيٍّ ينبع من رحمها.

أحييتُ النار في الموقد. وتحوَّل الفزع الذي كنتُ أستشعره في تلك اللحظة إلى غضبٌ شديد. كنتُ غاضباً من نفسي، ولم أدَّخر جهداً في تحميل نفسي بكلِّ الذنوب، وبأنَّني تصرَّفتُ بحُمْق تاركاً للخوف امتلاك قياد الأمور. كنتُ في تلك اللحظة أفكِّر بأنَّه كان يكفيني أن أرميَ صوب الحيوان حجراً واحداً، ليهرب من المكان بالتأكيد. إلَّا أن القَدَرَ اختزن لتلك الحجارة دَوْراً آخر في تلك الكوميديا المُفجِعَة. كنتُ غاضباً حقَّاً.

عاد الحيوان الجريح مُجدَّداً إلى صرخاته وتأوُّهاته، لأنَّني كنتُ قد أصبتُ منه مقتلاً. كان يصرخ ويتأوَّه، ووَاصَلَ ذلك لوقت طويل، ساكناً إلى هدوءٍ متقطِّع، وكنتُ أشعر بالرعب في ظُلمة الليل الحالكة. كان الحيوان بعيداً عنَّا، ومع ذلك فقد خشيتُ أن يعود أدراجه للانتقام منَّا.

كنتُ غاضباً بحقٍّ، لكنّ تساؤلاً ما تسرَّب إلى ذهني، وصار يُقلقني: ما الذي عليَّ أن أفعل؟

كان ذاك تساؤلاً فَرَضَهُ الهَلَعُ، الذي لم أكنْ راغباً بالاعتراف به. كنتُ أتساءل حول ما عليَّ أنْ أفعل كي أتجاوزَ هذه المصيبة. عليَّ إسعافها، لا شكَّ في ذلك، لكنْ، كيف؟ ما الذي عليكم أن تفعلوا عندما تجدون أنفسكم إزاء امرأة تواجه الموت في الليلة الأكثر حُلكة خلال العام، وسط ظلال عدوانية في أرضٍ، أحرقت الكثير من أعصابكم، وهي الأرض التي تمقتونها بكلِّ جوارحكم؟ فكَّرتُ بأنَّ عليَّ أن أُغادر ذلك المكان في الحال.

وقد بدأت هذه الفكرة تنضج بشكل مفاجِئ: كانت قد بدأت بالتَّشكُّل عندما هُرعتُ إلى جوار المرأة، وانتبهتُ إلى جُرحها. حاولتُ إقصاء الفكرة عن ذهني، لكنِّي شَعَرْتُ بأنَّ الفكرة صارت تغزو رأسي بمبرِّرات، يعسُرُ دَحْضها. ولكي أُقصيَ تلك المبرِّرات عن ذهني بالكامل، قرَّرتُ إسعاف المرأة بأيِّ شكلٍ من الأشكال، أن أفعل شيئاً ما، كأنْ أُغلق الجُرح مثلاً. لكنْ، ما كنتُ أُدركه بجلاء، هو أنّ كلَّ ما فكَّرتُ بإنجازه لم تكن إلّا أموراً لا معقولة. نعم، أنا لستُ طبيباً، لكنَّه لم يكن عسيراً عليَّ أن أُدرك استحالة علاج ذلك الجُرح. وجَعَلَني عجز المرأة عن الإتيان بأيَّة حركة، أنْ أُدركَ أنَّ الطلقة قد أصابتْها في العمق.

أَرَحْتُ رأسها بأناة كبيرة. كانت تستجيب لكلِّ ما أفعل. رفعتُ طرف ثوبها حتَّى كشفتُ عن بطنها، فأَفقدَني ما رأيتُ آخر قطرات الجرأة. فقد أغرق الدمُ بطنَها بالكامل، وكان يتدفَّق ملتمعاً وسميكاً في نقطة من البطن. أخذتُ منديلاً، وبلَّلتُهُ بالماء، وابتدأتُ بتنظيف البطنِ من الدم. فعلتُ ذلك بأناة، لكنِّي كنتُ أستشعر ثقب الطلقة تحت أصابعي، ورأيتُ التَّدفُّق البطيء والمتواصل للدم الذي صار يتكوَّم ويتخثَّر في الأرجاء. أخذتُ منديلاً آخر، ووَضَعْتُهُ على الجرح، وضغطتُ حتَّى بدأتُ أشعر برطوبة الدم التي أغرقت المنديل. عندها أنزلتُ الثوب، وغطَّيتُ بطن المرأة. كانت ساقاها ملتمعَتَيْن، لكنّهما كانتا باردَتَيْن.

راقَبَتِ المرأةُ كلَّ ما أفعل دونما تأوُّه، ربَّما كانت تشعر بالقناعة بأنَّ هناك أملاً كبيراً في الخلاص. ربَّما كانت قد سمعت بمعجزات "الأسياد" في إحداث التئام إعجازيٍّ للجروح، أو بقدرتهم على اجتراح خلطات قادرة على دَحْر أيِّ مَرَضٍ أو وَجَع. رَفَعَتْ رأسها لتنظرَ إلى ما أفعل، ولم أمتلك الجرأة على الابتسام لها، وربَّما كان ذلك الفعلُ الأقلَّ جُبناً من بين كلِّ ما فعلتُ وما سأفعل. لقد أدرَكَتْ ما يجري. أَرَاحَتْ رأسها، واستعادت تأوُّهاتها، ببطء، ثمَّ سمعتُها تقول "ماي".

ماي؟ ولأنَّها أعادت الكلمة لمرَّات، أدركتُ بعد مرور قليل من الوقت أنَّها كانت تطلب ماءً للشرب. بلَّلتُ شَفَتَيْهَا، لكنَّها كانت تريد ماءً لتشربه، وبكثرة. تركتُها تشرب. وعندما أغلقتْ عَيْنَيْهَا تمنَّيتُ أنَّنا بَلَغْنا المحطَّة الأخيرة. إلَّا أن المرأة كانت ما تزال تتنفَّس، بَدَتْ هادئةً. فيما اصطبغ الرمل الذي امتصَّ دمَها بلونٍ بُنِّيٍّ.

كانت بشائر الضياء تلوح في الأُفق بهدوء مُنبِئةً بطلوع الفجر. وبدأتْ أواخر ضوضاء الغابة بالخفوت، وابتدأت ملامح الأشجار بالوضوح رويداً رويداً، وبرَغْمِ أن ملامحها لم تَبْدُ واضحةً بالكامل بعد، فقد بدأتُ برؤية ملامح قمَّة الهضبة، كبُقعةٍ من الظُّلمة المنطبعة على السماء التي بدأت تصطبغ بشكل تدريجيٍّ. حينها ابتدأ القلق حول تَرْك ذلك المكان بسرعة يساورني، ويتحوَّل إلى رغبة جامحة. ابتدأتُ بالتجوال في المكان جيئةً وذهاباً مُحاوِلاً ترتيب أفكاري. ما الذي عليَّ أن أفعله؟

نعم، (أذكر أنَّني فكَّرتُ بهذا)، كان عليَّ أنْ أُنجزَ أشياء كثيرة، وكان أحدُها أعسرَ من الآخر، وأكثرَ عُجَالَة. كان بمقدوري، مثلاً، أنْ أُهرعَ إلى القرية التي دلَّتْني المرأة عليها: لكنْ، هل كانت هناك قريةٌ ما فعلاً أم أنّ هناك كوخها فحسب؟ وإنْ كانت القريةُ موجودةً بالفعل، فبأيَّة لغةٍ سأتحاور مع سُكَّانها؟! المنطقة بأسرها تحفل بالكنائس، لكنّ أماكن العبادة تبعد عن بعضها مائة كيلومتر على الأقلِّ، إنَّها صوامع يعيش فيها الرهبان، أو التجأ إليها أُناسٌ باحثون عن العزلة والوَحْدَة، أو شيء ما من هذا القبيل. لم أكن قد سمعتُ أبداً عن قرى في الأسفل من هذا الوادي العسير على العيش أصلاً. ربَّما كانت المرأة تعيش معزولةً وحدها، ربَّما كانت أرملة أو أنَّها انعزلت طَلَبَاً

للغفران عن خطيئة ما، ولهذا كان شَعْرها مقصوصاً بذلك القِصَرِ ومُتَلَفِّعَاً بالعِمَامَة البيضاء. ولكنْ، حتَّى إذا ما عثرتُ على القرية، فما الذي يمكن أن أحصل عليه؟ هل سيُداوُون جُرحها، ويخيطونه، أولئك العاجزون حتَّى عن تضميد خِدْشٍ صغير في أجسادهم، فيتركونه ليتقرَّح، ويُصبح بسعة المنديل؟

كان بإمكاني إرسال أحدهم إلى الجسر طَلَبَاً للإغاثة، وبعد أربع ساعات، سيصلني مُضمِّدٌ حاملاً في يده حقيبته، هذا إذا ما حالفَنا الحظُّ في أنّ الشركة قد وافقت على إقامة مضمِّد جريء في موقع العمل. ثمَّ ما الذي سيحتويه صندوقه للإسعاف الفوريِّ؟! ملحٌ إنجليزي، مسحوق الكينينو، حبَّات الأسبرين، الكونياك (في قَنِّينَة شبه فارغة)، بعض اللِّفَافَات والقطن، إصبعان من الكحول، وصورة خطيبته المُلصقة على ظَهْر غطاء الحقيبة.

وحتَّى لو افترضْنا وجود أُناسٍ من أصحاب الهمَّة من سُكَّان القرية يتبرَّعون لتحمُّل عناء رحلة شاقَّة، فبالتأكيد لم يكن بمقدورنا حَمْل المرأة إلى أسفل الوادي، لأنَّها ستموت خلال الرحلة، وإذا ما وَصَلْنَا إلى القاع، وهي لمَّا تَزَلْ على قيد الحياة، فإنَّ علينا انتظار الطبيب، الذي سيصل في الثامنة صباحاً برفقة البريد والمؤن، ولم يكن الطبيب ليفعل غير استنتاج حماقة شخص كان يُلاعب مُسدَّسه، وبعد أن يُثبِّت وفاة المرأة سيكتب تقريره الطِّبِّيّ. وكي لا تتفسَّخ الجُثَّة، وتتسبَّب في تراكم أعدادٍ مُضاعفة من أسراب الذباب، لا بُدَّ من الإسراع إلى دَفْنها في الحال.

كانت المرأة تحتضر (ولا يفكِّرنَّ أحدكم بأنَّها كانت قابلة للإنقاذ بأيِّ شكلٍ من الأشكال)، لذا كان من الضَّروريِّ الانتظار لساعة أو ساعتَيْن حتَّى تلفظ أنفاسها الأخيرة، أرحل بعدهما من المكان. لا جدوى من تحريك كلِّ الآلية البيروقراطية، إطلاق العنان لتحقيقات قضائية ومراسلات ما بين قطاعات قيادة القوَّات المسلَّحة، أو ربَّما حتَّى المثول أمام محكمة عسكريَّة. بالتأكيد كان شبح المحكمة العسكريَّة قائماً. أو بالأحرى، سيقيس المُقدَّم مفرداته بأناقة تامَّة، تاركاً إيَّاها تغادر شَفَتَيْه مثل فُقاعات الصابون: "اسمحوا لي أن أُعبِّر لكم عن دهشتي"، وسيقول لي وهو يسير جيئة وإياباً داخل الخيمة، ليستخلص في النهاية "وبما أنَّني لا أدري ما الذي عليَّ فعله. فلتتركوا لي الإعراب عن الدهشة". أَوَ لم يكن النقيب المُحابي، وزملاء المَقْصِف الذين أعتبرُ وجودهم إلى جواري كهبةٍ من الأحداث، هل سيُسارعون إلى الإفصاح عمَّا يدور في خَلَدِهِم حول ضِعَةِ مَنْ يضع صورة خطيبته على الصندوق الخشبي إلى جوار السرير في الخيمة، ويقترف هذه الأفعال؟! أَو لَن تؤدِّي اعترافاتي بما حَدَثَ إلى تحويل إجازة الشهر في إيطاليا إلى تسريحٍ من الخدمة العسكريَّة؟! أليس الأمر كذلك؟، ليس بمقدوري أنْ أنفيَ بأنَّ تبريراتي كانت وضيعةً وبائسةً، لكنَّها كانت، في الوقت ذاته، تعبيراً عمَّا وَقَعَ بالفعل؛ وكانت وضاعة تلك التبريرات وبؤسها بالذات هما ما يمنحانها القوَّة. محاكمةٌ عسكريَّة، إجازة مُلغاة وفضيحة. هل كان عليَّ أن أهاب الفضيحة بالفعل؟.

لم أكن، في خضمِّ كلِّ هذه الأفكار، قد فكَّرتُ بالمرأة بعد. كانت الفضيحة ستُسيءُ إلى سُمعتها، استعدتُ ملامح وجهها في اللحظات الأكثر إيلاماً، عندما كانت شَفَتَاهَا تنحفان، وحاجباها يتقطَّبان، لتتركا أخدوداً واهياً على جبهتها، يدفعني إلى وَأْدِ ابتسامةٍ مستسلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٧

وبينما كنتُ أسير جيئة وإياباً، مأخوذاً بالعُجَالَة التي أعجز عن قيادها، ارتطمتْ قَدَمِي بشيء ما في الظُّلمة. كان ذلك هو المُسدَّس الذي تركتُهُ يسقط من يدي عندما هُرعتُ للاقتراب من المرأة لمعرفة ما جرى. حَمَلْتُهُ عن الأرض، وأزلت عنه الغبار بفَرْكِهِ بقميصي، ووَضَعْتُهُ في جيب بنطالي.

كانت المرأة قد هدأتْ. وقبضتُها ما تزال على بطنها مُترقِّبةً، يحدوها الأمل الذي يمتلكه ذوو الأرواح الطَّيِّبة فحسب. بالتأكيد، لم أكن لأتركَها وحدها هناك. كانت واثقةً، بشكل يُثير العجب، من أنَّني سأُسارع إلى إسعافها، لم يكن لها أن تستبقَ ما سأفعل، لكنِّي سأفعل، ربَّما كانت تفكِّر بأنَّني سأُقدِم على فعلِ شيءٍ ما لمُجرَّد حلول الفجر واستعادة أشجار الغابة لألوانها ولأشكالها المضطربة الآن والغارقة في الظُّلمة. كانت متأكِّدة من ذلك. ولأنَّني كنتُ قد عزمتُ، لأكثر من مرَّة في الأُمسيَّة السابقة، على التَّوجُّه صوب الجسر، فقد كانت واثقةً من أنَّني سأفعل ذلك الآن من أجلها، لأعود إليها برفقة أحد أولئك "الأسياد" القادرين على شفائها. أنا واثقٌ من أنّ ذاكَ هو ما كان يدور في خَلَدِهَا، لأنَّها كانت تُحدِّق فيَّ بهدوءٍ مُطلق.

لم يعدْ وجهها جميلاً كالمعتاد، وقد زادت عتمة اللون حول أنفها فيما بدا فمها مريراً وشَفَتَاها هابطتَيْن صوب الأسفل، وابتدأت تجعيدتان عميقتان بتشويه ذلك الوجه الوديع الذي كان يرقد بسلامٍ قبل دقائق فحسب. عيناها، اللتان بَدَتَا شبه مُغلَقَتَيْن بسبب طول رموشهما، بقيَتا هادئَتَيْن كما لو أنّهما ضاقتا قليلاً، إلَّا أنَّ حَدَقَتَيْها تتحرَّكان، وتتبعاني أينما تحرَّكتُ. لم تنطقْ بشيء منذُ سقيتُها الماء، وكي أَحُولَ دون الاستماع إلى همسها المتوجِّع، قرَّبْتُ قارورة الماء من شَفَتَيْهَا، إلَّا أنَّها كانت فارغة، فاضطررتُ على الذهاب إلى البركة مُتخبِّطاً في المسافة القصيرة، كي أملأ القارورة.

عاد التفكير بتَرْكِها يُهيمن بقوَّة على ذهني. كان عليَّ أن أهجرَها. كانت ستلفظ أنفاسها خلال ساعة أو اثنتَيْن على أقصى احتمال، كنتُ أُردِّد لنفسي هذه القناعة. ومع ذلك، فقد كان يتحتَّم عليَّ البقاء إلى جوارها، وأن أقبل بجميع المسؤوليات، وأن أُوفِّر تبريرات لا نهاية لها، وأن أترك في النفوس الإحساس بأنَّني أقدمتُ على قَتْل تلك المرأة لأسباب غير واضحة. قاومتْني المرأة وأنا سَحَبْتُ مُسدَّسي، وأطلقتُ النار عليها، فيما كنتُ عازماً على إخافتها بالتهديد، أو، ما هو أسوأ من ذلك: في البدء اغتصبتُها، ومن ثمَّ أقدمتُ على قَتْلها، كي أَحُوْلَ دون أن تتوجَّه إلى القيادة لطَلَب العدالة عن الانتهاك الذي تعرَّضتْ إليه.

كَلَّا، سأمكث هناك. ولْتَذْهَبْ جميع المسؤوليات إلى الجحيم، ولتلحقْ بها القوانين وكلُّ شيء. ليس بإمكاني أن أهجرَها، حتَّى وإن اعتقد الآخرون أن سلوكي ذاك عَصِيٌّ على الفَهْم. كان عليَّ أن أُهرعَ إلى القرية، أن أعثر على الطريق المؤدِّي إلى القرية، أن أطلب المساعدة، وإذا ما كنَّا سنعثر عليها وقد فارقت الحياة وسربٌ من الغِرْبَان المتطفِّلة يُعسكر بالقرب منها، فقد كان عليَّ أن أتحمَّل مسؤولية إقدامي على قَتْلها. سيأتي راهب لمباركة الجُثَّة، وللصلاة عليها، وسيجرى قُدَّاس الدَّفْن، وعليَّ أنا أن أدفع ثمن فعلتي تلك (كنتُ قد ترقَّبتُ أن تُعيدَني هذه المرأة إلى ماضٍ سحيق، لكنْ، ليس ما أنا فيه الآن إلَّا حاضراً بكلِّ ما تعنيه هذه الكلمة). من نافل القول أن أؤكِّد بأنَّني أقصيتُ هذا الحلَّ عن ذهني في الحال بينما كنتُ أسقي المرأة من قارورة الماء، وحين

مسَّتْ أناملُها يدي.

ما الذي يربطني بهذه المرأة؟ وما الذي يربطني بيدها التي أراحتْها على ظَهْر كفِّي؟ أكانتْ ترغب في التعبير عن تملُّكٍ أقوى من الشَّغَف العابر الذي سمحْنا به لنفسَيْنا؟ ليست اليد التي تستحثُّني الآن هي ذاتها التي داعبتْ كفِّي من قبل، كانت يداً أُخرى تُطالبني بمشاعر مغايرة، فيما ليس بمقدوري الآن إلَّا أن أُشفقَ عليها. نَهَضْتُ واقفاً، وفكَّرتُ في إنهاء عذابها.

ينبغي عليَّ أن أقتلَها. أسباب عديدة تدعوني إلى قَتْلها، وكانت جميعها أسباباً قويَّةً. عليَّ أن أُنهيَ ما تبقَّى من حياتها، وأُخفيَ جُثَّتها. ما كان عليَّ إضاعة الوقت: كان الفجر قد انبلج. وابتدأت الطيور حياتها بحيوية بعد أن أيقظتْها أولى إيماءات أنوار الفجر. وكانت الغِرْبَان الناعقة تتطاير ما بين بركة الماء وأغصان الأشجار، مُحلِّقة بشكلٍ جماعي ومُفاجِئ. وكانت تبلغ مسامعي من عمق الوادي آخر صيحات وضجيج الحيوانات المسرعة للاختباء بعد أن فاجأها ضياء النهار.

ابتعدتُ عن المرأة، وتفحَّصتُ في أرجاء الغابة القريبة من الكهف، هَبَطْتُ شَمالاً عبر ممرٍّ ضيِّق، لأصعدَ من جديد باتِّجاه الهضبة. وعثرتُ على ضالَّتي على بُعد مسافة ما يربو على خمسين متراً؛ شَقٌّ في صخور الجبل كان بطولٍ وعرضٍ كافيَيْن لاستلقاء شخص واحد.

عُدْتُ صوب الكهف، وابتسمتُ للمرأة حين سَحَبْتُ حقيبتي من تحت رأسها، وأوحيتُ إليها بأنِّي أبحث عن شيءٍ ما في داخلها، لكنَّ حقيقة الأمر هي أنَّني سعيتُ إلى الحصول على حقيبتي فحسب، كنتُ عازماً على عدم تَرْك أيِّ أثرٍ لمروري وتواجُدي في ذلك المكان، ولم أكنْ راغباً في حَمْل الحقيبة وهي مُلطَّخة بالدماء. إذْ كانت ستغرق بالدم بعد قليل فيما لو تركتُها هناك تحت رأس المرأة.

كنتُ مُستعدَّاً. انحنيتُ صوبها، وداعبتُ جبهتها. هَشَشْتُ ذُبابَتَيْن حَطَّتَا عند زاويَتَي شَفَتَيْهَا، ومُواصِلاً ابتسامتي، أخذتُ لِفَافَة الرأس البيضاء التي انْحَلَّتْ خلال نومها، وفرشتُها على وجهها، مُوحِياً إليها أنَّني أفعل ذلك للحيلولة دون أن تُزعِجَها الحشرات. ذُبابات أُخرى كانت تمتصُّ من الدم النازف من بطنها، والمتخثِّر على قبضتها الضاغطة على الجُرح، لكنَّها ما عادت تشعر بالانزعاج من كلِّ ذلك. وعندما انتهيتُ من ترتيب اللِّفَافَة فوق وجهها، هُرعتُ صوب الخارج، لأُلقيَ نَظْرَة على المكان. لم يكن هناك أحد. كما لم يكن هناك ما يُصدرُ أيُّ نَأمَة ضجيج. أمَّا أولئك، مَنْ في القرية، (وهل كانت هناك قريةٌ ما بالفعل؟)، فقد كانوا ما يزالون غارقين في النوم بالتأكيد. وكانت الهضبة قد بدأت تصطبغ بضياء وردي.

عُدتُ صوب المرأة، وأخرجت المُسدَّس من جيبي. كانت الرصاصة في موقعها، ولم يكن عليَّ أنْ أُحدث أيَّ ضجيج مُثيرٍ للانتباه والشكوك. لم يشردْ ذهني صوب أيِّ شيء إلَّا التصويب في الموقع الصحيح. كنتُ قَلِقاً حول الفرقعة التي ستُحدِثها الرصاصة، والتي يمكن لِمَنْ في القرية سماعها، فأخذتُ الخِرْقَةَ التي كانت قد لَفَّتْ بها جسدها، ولَفَفْتُهَا حول كفِّي المُمسكة بالمُسدَّس، آملاً في أن يُخفِّف ذلك من ضجيج الإطلاقة، وشَدَدْتُ الخِرْقَةَ حول كفِّي بشكل صارم. ولبُرْهَة خامرني الشَّكُّ في أن تكون المرأة قادرة على رؤية ما أفعل عبر قماشة لِفَافَة الرأس التي غطَّيتُ بها وجهها. لكنْ، لا، ربَّما كان قد غَطَّتْ في نوم عميق.

ولم يكن ذلك الوَجَعُ الذي عبَّرتْ عنه بتأوُّهٍ طويل، إلَّا صرخة الرَّمَق الأخير من احتضار طال أَمَدُهُ، وحين رأيْتُهَا تُدير رأسها إلى الجانب الآخر، ضغطتُ على الزناد، فانطلقت الرصاصة.

لم يكن مسموحاً لي الآن أن أفقدَ هدوئي: ففي نهاية الأمر، لم أكن أنا مَنْ قَتَلَهَا، لقد حِلْتُ دون أن يطولَ عذابها لمزيدٍ من الوقت. "هَيَّا، تشجَّع!" قلتُ لنفسي "أهي المرَّة الأولى التي ترى فيها جُثَّة؟"، ودُهشتُ لسماع نبرات صوتي.

كانت لِفَافَة الرأس قد تضمَّخت بقليل من الدم، لكنِّي لم أُزِلها عن وجهها، لم يكن ذلك يفيد في شيء. فلقد ماتت المرأة دون أن تأتيَ بأيِّ حَرَاك، إلَّا أنَّني شَعَرْتُ برعشة شكٍّ حول ما إذا صوَّبتُ بشكل دقيق أم لا. غير أنَّني أدركتُ بأنَّ الأمر قد تمَّ، حين بدأتُ بقعة دم بالبروز من لِفَافَة الرأس، وابتدأتْ بالاتِّساع، وحين انزلقتْ يدها التي كانت تضغط بها على الجرح إلى جوارها.

عُدتُ أدراجي إلى الشَّقِّ في صخرة الجبل دون أن أُدرك لذلك سبباً، ربَّما أردتُ التَّأكُّد بأنَّه ما يزال هناك في محلِّه: كان شَقَّاً صخريَّاً واسعاً، وبعمق بأكثر من مترٍ واحد، وبطول ما يربو على أربعة أمتار، وكان في داخلها بعض الأغصان النابتة.

عُدتُ صوب المرأة من جديد. كانت لِفَافَة الرأس قد تشرَّبتْ بالدم، وصارت تشي بملامح وجهها، وببروز أنفها وشَفَتَيْهَا. كان عليَّ أن أحمل الجُثَّة إلى ذلك الشَّقِّ الصَّخْرِيِّ. حاولتُ حَمْلَهَا، لكنِّي أخفقتُ، وسَقَطْتُ فوقها؛ كنتُ في غاية الإنهاك، وشَعَرْتُ بالحاجة إلى الراحة قليلاً، فاستلقيتُ إلى حوارها لبضع ثوانٍ، بَدَتْ لي زمناً لا نهائيَّاً. كنتُ أُلحُّ على نفسي بأنْ أُسارِعَ في إنجاز ما عليَّ القيام به، فَزِعاً من فكرة الإخفاق عن الإتيان بما ينبغي عليَّ القيام به.

عُدتُ إلى العمل. فرشتُ قُفْطَانَ المرأة على الأرض. كان واسعاً بما يكفي، حَمَلْتُ المرأة من تحت إبطَيْها منتبهاً ألَّا أتَّسخ بالدم النازف: وبما أنَّه كان من الضَّروريِّ إنجاز هذا العمل، لذا كان ينبغي إنجازه على أفضل وجه. آهِ ما أثقلَ الجُثَّة! وكم كان ذلك الجسد مُختلفاً عمَّا كنتُ قد عانقتُ قبل ساعات قليلة! وعندما انتهيتُ من وَضْعها على القُفْطَان، جرَّبتُ سَحْب القماش من طَرَفَيْه. نعم، كنتُ قادراً على السَّحْب.

كانت القماشة التي تغطِّي الوجه مُلتصقة بجِلْدها، ولم تنتقل من مكانها حتَّى في اللحظة التي عبرت الجُثَّة بُقعاً وعرة من الأرض، كما لم تنتقل من مكانها حتَّى عندما دفعتُ الجُثَّة، لتنزلقَ في الشَّقِّ الصَّخْرِيِّ، وسَقَطَتْ في داخله بشكلٍ مُجلجِل.

أمَّا الآن، فإنَّ عليَّ العثور على أعداد كافية من الحجارة لتغطية الجُثَّة، وكانت هناك أعداد كافية من الحجارة داخل الغابة، وكنتُ أعلم بذلك. وقبل أن أقوم بتكديس تلك الحجارة في الشَّقِّ، لَفَفْتُ جسدها بقطعة القماش، كما لو كانت كَفَنَاً، وأدَّيتُ لها صلاةً قصيرة. ووَضَعْتُ على الجُثَّة عودَيْن من أغصان الأشجار مُقاطِعاً فيما بينها كما الصليب، إذْ كنتُ أُدرك أنَّني لم أكنْ لأضعَ صليباً على المكان الذي دفنتُها فيه. وبينما كنتُ أُتمُّ ذلك العمل، ارتطمتْ يدي بحافَّة القماش، فتحرَّك ذراعها، وبرز خارجاً.

وانحنيتُ على عجل مادَّاً ذراعي داخل الشَّقِّ الصَّخْرِيِّ، وفتحتُ حزام الساعة من مِعْصَمِهَا، ووَضَعْتُها في جيبي. وحين كنتُ سائراً في طريق العودة، شَعَرْتُ بالأسى لأنَّني استعدتُ منها الهديَّة الوحيدة التي تَقَبَّلَتْها منِّي، إلَّا أنَّه لم يكن هناك خيارٌ آخر غير ما فَعَلْتُ، لأنَّ غطاء الساعة السُّفليَّ كان يحمل الحرفَيْن الأوَّلَيْن من اسمي وكُنيتي: لم يكن لي أن أترك أيَّ أثرٍ لي هناك.

آه، لو تعلمون، بأيَّة عناية اخترتُ الحجارة، وبأيِّ أناة صفَفْتُها واحدةً تلو الأُخرى فوق الجُثَّة التي

استقبلتْها رخوة ناعمة!! أمضيتُ وقتاً طويلاً، ربَّما لساعة كاملة، لدَفْن الجُثَّة، وإملاء الشَّرْخ الصَّخْرِيِّ، ثمَّ وَضَعْتُ حجارة أثقلَ، كي تَحُولَ دون تَمَكُّنِ الحيوانات المفترسة من الوصول إلى الجُثَّة والعَبَث بها، وحتَّى تعجزَ الضِّبَاع عن تحريكها من مكانها. وعندما وَصَلَت الحجارة إلى مستوى الأرض، حَمَلْتُ بِكَفَّيَّ أكواماً من التراب، ونثرتُها فوق الحجارة. نثرتُ التراب بطريقةٍ لا تُثير الانتباه. دُسْتُ على التراب بقبضَتَيَّ، ونثرتُ على المكان عدداً من الأغصان للتمويه، وجَعْله شبيهاً بالمحيط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٨

دَفَعَتْنِي نغمات آلة موسيقيَّة إلى الانبطاح الفُجائيِّ على الأرض.

تناهت إلى أُذُنيَّ أصواتٌ مبحوحة، تبدو خارجة من حَلْق مشروخ، تأتي من الدرب القادم من جانب القرية، ومن ثمَّ، ظَهَرَ من بين الأشجار رتلٌ مكوَّنٌ من خمسة أشخاص، يتقدَّمهم راهبٌ (عرفتُ بأنَّه راهب، لأنَّه كان يعتمر على رأسه قَلَنْسُوَةَ الرهبان)، وإلى يساره رجلٌ كهلٌ، كان صامتاً، وبدا لا يأبه لما يهمس به الراهب في أُذُنه. وكان شابَّان وطفلٌ صغير يتبعان الرَّجلَيْن. أحد الشَّابَّيْن يعزف بآلة موسيقيَّة طويلة الذراع، شيءٌ من قبيل الكمان البدائيِّ، منزليِّ الصُّنع، وقادر على إصدار النغمات الحادَّة والخاملة فحسب. كان العازف يُحرِّك قوس آلته صعوداً ونزولاً دونما اهتمام، كما لو أنَّه يفعل ذلك لتمضية الوقت ولمقاومة الضجر، أمَّا الشَّابُّ الآخر، فقد كان يومِئ بحركات رقصة، تستبق إيقاع الموسيقى، متطايراً هنا وهناك، وبإيماءات وجهه المعبِّرة عن رُعبٍ مُصطَنَع، يُغرِق الطفل الصغير في الضحك.

كان الراهب يتقدَّم الجمعَ برفقة الرجل الكهل غير آبهٍ بالمجموعة المتصعلكة خلفهما؛ إلَّا أنَّه كان يستدير بين الحين والآخر رافعاً عصاه، ومُطلِقاً صرخة تُهَدِّئُ من صَخَبِ فريق الكسالى المرحين. وكان الثلاثة يلتحقون بالرَّجلَيْن راكضين، ليُعاودوا بعد ذلك بقليل رقصتهم، وبدا الطفل الصغير نَهِمَاً في الاستمتاع بتلك الرقصة البدائية والإعجاب بالراقص. رأيتُهُم يعبرون الجدول، وتواصلت نغمات الكمان وضحكات الشَّابَّيْن والطفل الصغير ببلوغ أسماعي.

حين كفَّت الأصوات، شَعَرْتُ بارتفاع درجات حرارة الطقس، وكأنّ ما تراكم من رطوبةٍ داخل الغابة قد تبخَّر. كانت الساعة تُشير إلى السادسة صباحاً، لكنْ، ليس بالإمكان الوثوق بذلك التوقيت، لأنَّني ضبطتُّ توقيت الساعة في الليلة السابقة عندما انتبهتُ بأنَّها قد توقَّفتْ. أعدتُ رَبْط الساعة بِمِعْصَمِي شاعراً بالاشمئزاز الكبير، لأنَّني استعدتُ في ذهني صورة المرأة التي ترقد تحت الأحجار على بُعد خطواتٍ قليلة منِّي.

كان وقت الرحيل قد حَلَّ، وإلَّا لن يكون بإمكاني العثور على أيَّة شاحنة تقلُّني. كان عليَّ أنْ أُعجِّل بالرحيل، ومع ذلك فما يزال هناك الكثير الذي ينبغي فعله. كان القبر على ما يُرام، لكنْ، ما يزال في داخل الكهف الكثير من آثار تواجُدنا. عُدتُ إلى هناك مهروِلاً، وعلى عجلٍ، وبحثتُ قبل كلِّ شيء عن الرصاصات الفارغة التي أطلقتُها. فلم أعثر إلَّا على اثنتَيْن منها فحسب.

استدعتْ بقعةُ الدم المتخثِّر فوجاً من الذباب، رميتُ قبضات من التراب فوقها، ودُستُ عليها بقَدَمَيَّ، وتمكَّنت من تمويهها وخَلْطها مع الأرض. نثرتُ بقايا رماد الموقد في الأرجاء، وبحُزمةٍ من الأغصان كنستُ المكان بأسره. كان عليَّ أن أستريح بين الفَيْنَة والأُخرى. ثمَّ خلعتُ قميصي، الذي كان مُلطَّخاً بالدم، وارتديتُ قميص اليوم السابق، وكانت هناك، فوق حذائي بعض قطرات من الدم، لكنّ غبار الطريق كان كفيلاً بإخفائها وتمويهها.

ما الذي يتبقَّى الآن؟

توقَّفتُ للحظاتٍ مُنهَكاً وأنا أطرح على نفسي هذا السؤال، مُحاوِلاً التنقيب في ذاكرتي ومستعيناً بما حولي من أشياء. المناديل؟ هي داخل القبر. لكنَّها لم تكن لتشيَ بي، لأنَّها لا تحمل حرفَي اسمي وكُنيتي مُطرَّزَيْن عليها. والساعة بحوزتي. آه! السَّلَّة التي حَمَلَتْها المرأة من القرية! أين هي

السَّلَّة؟ بحثتُ عنها، كانت هناك خلف صخرة داخل مخدعنا. حَمَلْتُها بعيداً، وأضرمتُ النار فيها. ولم يبقَ هناك ما عليَّ فعله.

ذَهَبْتُ إلى البركة، وغسلتُ يَدَيَّ. ولاحظتُ وجود جُرحٍ في ظاهر كفِّيَ الأيمن، ربَّما حَدَثَ بفعل احتكاكٍ بصخرة: غطَّيتُ الجرح أيضاً برغوة الصابون، وربطتُهُ بمنديل. ورميتُ قطعة الصابون ما بين الأشجار، فسارع غُرابٌ للتحليق صوبه، ليتأكَّد ممَّا يكون. لم تكن تلك الطيور المثيرة للكآبة تتركني وحيداً، ولو للحظة واحدة، فهي تُعسكر بالقرب منِّي، ولا تُغادر إلَّا إذا هَشَشْتُهَا.

كنتُ جاهزاً للرحيل. ومع ذلك فقد كنتُ شارد الذهن عاجزاً عن اتِّخاذ قرار، كحال مَنْ هو على أُهْبَة الاستعداد للقيام برحلة طويلة، فتنتابه التساؤلات ما إذا نسيَ شيئاً أو أمراً ما، فيدور في الغرفة، يُحرِّك الأثاث من أماكنه، ويفتح الأدراج والدواليب.

ما الذي عليَّ فعله؟

لا شيء عليَّ فعله. ليس بإمكان حتَّى أكثر رجال الشرطة حذاقة أن يكتشف أثراً عن مروري في ذلك المكان. ولم تكن هناك أيَّة أمورٌ أُخرى لآخذها في الحسبان. وعلى الرَّغْمِ من أنَّني رأيتُ ذلك الرَّتْل من الرجال، فلربَّما لم يكنْ هناك مَنْ سيُجهد نفسه للبحث عن المرأة، وإذاً، فقد كانت جميع الأمور على ما يُرام.

ما الذي كان غائباً؟

عُدتُ أدراجي إلى القبر، وأضفتُ على ترابه عدداً آخر من الأغصان. ولأنَّني كنتُ أحمل حقيبتي معي، واصلتُ طريقي صوب الجسر دون العودة إلى الكهف (فقد كانت جميع الأمور هناك مُرتَّبةً، وقد هشَّمتُ ونثرتُ حتَّى قشور البيض).

ألقيتُ نَظْرَة أخيرة على القبر قبل أن يغيبَ عن ناظرَيَّ بشكل نهائيٍّ، و"وداعاً! وداعاً، أيَّتُها المرأة"، فكَّرتُ "في غضون ذلك الوقت القصير جدَّاً، علَّمَتْني قيمة أشياءٍ كثيرة لن أتمكَّن من نسيانها أبداً، ولربَّما كان هذا هو السبب الذي يجعلني الآن أسير في طريقي هادئ البال، وأشعر بنفسي مختلفاً عمَّا كنتُ عليه، أكثر نُضجاً وبثِقَلٍ حَيٍّ، فالتجارب تُثري البشر". وبِتُّ أرى هذه الغابة القذرة بعيونٍ أُخرى.

غيَّرتُ خزَّان المُسدَّس، وأعدتُهُ إلى قِرَابِهِ. وكلُّ ذلك عملية ببساطة تغيير مصباح محترق، ولا يحتاج إلى أناةٍ كبيرة. كنتُ أعتبر المُسدَّس جزءاً من الزخرفة المُلحقة بالزِّيِّ العسكريِّ، أُنظِّفه بانتظام، وأنا متأكِّدٌ بأنَّه لم يكن ينفعني في أيِّ شيء. فقد أُولِجْتُ في هذه الحرب عنوةً، وكنتُ واثقاً بأنَّني لم أكن لأستخدم المُسدَّس. فبِمَ سينفع إذاً؟ هناك أنواعٌ من الأسلحة أكثر فتكاً وفائدةً لفرض الهيمنة، وهي أسلحةٌ لا يمتلكها العدوُّ الذي نتواجه معه، لذا ترى جُثَّته في اليوم التالي مَرميَّةً ما بين الأحراش. وإذا ما سُئِلتُ عمَّنْ فعل ذلك؟ يأتي جوابي: كلَّا، لستُ أنا مَنْ فعل ذلك، فقد كنتُ أُطلق النار في الاتِّجاه الآخر.

وداعاً، أيَّتُها المرأة. وانقبض حلقي، لكنِّي لم أُتِح لعينَيَّ أن تذرفا الدمع، فقد كانت المسافة التي تفصلني عن الهضبة طويلةً للغاية، لذا مشيتُ بخطوات عاجلة. وبعد ساعةٍ من المسير عثرتُ على الدرب المؤدِّي إلى الجسر: سِرْتُ فيه لمسافةٍ ما، وفكَّرتُ أنَّ بإمكاني تحاشي العودة إلى هناك من جديد، فقد عثرتُ على الطريق المختصرة. وتساءلتُ عن سبب إخفاقي من رؤيتها في

اليوم السابق؟ وأيقنتُ أن السبب يكمن في أن الطريق كانت مُغلَقةً بجيفةِ بغلٍ نافقٍ. سلكتُ الطريق المختصرة، وبعد نصف ساعةٍ عثرتُ على الشارع العامِّ، عند مُنعطفٍ. مكثتُ هناك قليلاً لأستريح على حافَّة الطريق مُدخِّناً سيجارةً، ومن ثمَّ استلقيتُ على الأرض. كان ذهني خالياً من أيَّة فكرة.

وحين تناهى إلى مسامعي هدير شاحنةٍ صاعدةٍ في الطريق. أرغمتُ نفسي على الوقوف، وأشَّرتُ للجندي سائق الشاحنة. خَفَّفَ الجنديُّ السرعة، ولم يكن ليفعل ذلك ما لم يكن الطريق صاعداً وفي المنعطف. بَلَغْتُ الشاحنة، وصَعِدْتُ على عتبة الصعود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الثاني

# الضِّرْس

## ١

بعد أربعة أيَّام، كنتُ مستلقياً، أرتاح في خيمةٍ داخل مقرِّ قيادة الموقع في مدينة "A". كان عليَّ أن أُعدَّ نفسي لرحلة العودة، لكنْ، دونما أيَّة رغبة للقيام بذلك، أو بالأحرى، فقد سرى في أعضائي دفءٌ مُسِرٌّ ومُخدِّر؛ ولم يكن ذلك مُستغرَباً، لأنَّني لم أستَعِدْ بعدُ قواي بالكامل، فلم يكن ذلك الضِّرْس اللعين يمنحني أيَّة هُدنة تُذكَر. لا وجود لأيِّ طبيبٍ للأسنان في "A"، ولذا فقد كان توقُّفي هناك دونما طائل. "أربعة أيَّام بُعثِرَتْ في مهبِّ الريح"، فكَّرتُ. وإذاً فإنَّ عجزي عن الحركة ناتجٌ عن آلام ذلك الضِّرْس اللعين. كنتُ أستمع إلى هدير المدينة وأزيزها وهما يبلغاني حتَّى سريري، وعليَّ الآن الرحيل والعودة إلى معسكري، إذْ لا مبرِّر لديَّ للتَّأخُّر. وربَّما كانت هذه الفكرة هي بالذات ما أفقدتْني كلَّ ما فيَّ من قوَّة.

على السرير الذي بجواري كان يستلقي شابٌّ يتظاهر بالقراءة في كتاب بين يَدَيْه، إلَّا أنَّه كان يتجسَّس عليَّ مُحدِّقاً بي من فوق زجاج نظَّارَتَيْه. شابٌّ مدوَّر الوجه، بشاربَيْن، بَدَوَا وكأنَّهما وُضِعَا على شَفَتِهِ العليا للتعبير عن السخرية؛ كان ما يزال مرتدياً جُبَّته العسكريَّة، ولم يخلع قُبَّعته، ولا حتَّى بسطارَيْه. نعم، ثبَّتَ النَّظْرة على الكتاب، لكن عينَيْه كانتا تسعيان إلى عدم إضاعة أيَّة نَأمَة للحركة آتي بها. كان يُدخِّنُ سيجاراً. بَدَتْ صورة ذلك السيجار، المنطبعة على سَحْنَتِهِ الطُّفوليَّة، بالضبط كلطخات الحبر التي يتركها التلاميذ على صفحات الكُتُب المدرسيَّة. وإذاً فإنَّ دُخان ذلك السيجار هو ما أيقظَني من النوم، وأصابني بالغثيان. "أرجوكَ"، قلتُ له "السيجار!".

الشَّابُّ، وكان برتبة ملازمٍ ثانٍ (ومن نفس الفرقة التي أنتمي إليها)، رمى السيجار خارج الخيمة مُطيِّراً إيَّاه بحركة من أصبعَيْه اللَّذَيْن كان يحمله بهما. أراد، بتلك الحركة، أن يُعبِّر لي عن استيائه. عاد إلى القراءة في كتابه دون أن يتلطَّف عليَّ بأيَّة نَظْرَة أُخرى، في حين واصلتُ مراقبته عبر جفنَيَّ شبه المُغلَقَيْن. وبعد بُرْهَة قصيرة، رأيتُ سيجاراً آخر ما بين شَفَتَيْه، لكنْ، دون أن يُشعله. إنَّه يقرأ الآن بحقٍّ، وقد قَلَبَ صفحة من الكتاب.

كان الغثيان يصعد إلى حلقي، وعاد الضِّرْس إلى إيلامي من جديد. شَعَرْتُ بآلام حادَّة ومفاجِئة إلى درجة الشعور بأنَّها ستُشعِل دماغي. ولِلحظاتٍ اختفت صورة القارئ الصامت خلف غِلَالَة من الدمع. كنتُ أشعر بالرغبة في الصراخ. إلَّا أنَّني قلتُ له بعد أن هدأت موجة الألم لبُرْهَة "اعذرني".

ابتسم الملازم الثاني. ولم تدفعْهُ ملامح وجهي المُضطربة إلى الاحتفالية المعتادة ما بين ضابطَيْن يلتقيان بالصدفة تحت خيمة في قيادة الموقع. عاد إلى القراءة في كتابه، ومن ثمَّ، بعد قليل، مُفسِّراً مقاطعتي له بالشكل الذي يتناسب ورغباته، أشعل السيجار الذي بين شَفَتَيْه. بدا سعيداً بإيقاظي، ربَّما كان يشعر بالضجر. أَشعلَ سيجاره، ونَظَرَ إلى ساعتي التي وَضَعْتُها على الكرسي. لم يُحدِّق في الساعة على تلك المسافة برغبة التَّعرُّف على الوقت. كان يُركِّز ناظرَيْه عليها، ثمَّ

يعود إلى التحديق في كتابه وفي السيجار الذي يحمله.

أخذتُ الساعة (كان حزامها الجِلْدِيُّ مُلطَّخاً بالدم)، واستدرتُ على جنبي الآخر. كان عليَّ أن أستعدَّ للعودة إلى معسكري، أو أن أُواصِلَ البقاء هنا إلى حين عبور طبيبٍ للأسنان. لكنْ، أين بإمكاني العثور على طبيبٍ للأسنان؟ وماذا عن التَّأخُّر في الالتحاق بالمعسكر؟ وعندما وَضَعَ الملازم الثاني الكتابَ تحت وسادته، وأزمع على الخروج ناديتُهُ مستفسراً ما إذا كانت بحوزته أقراصٌ مُهدِّئة لأوجاع الأسنان. لم يكن يملكها، إلَّا أنَّه أكَّد بأنَّه سيُدلُّني على مكان العثور عليها إذا ما رافقتُهُ. كان يتحدَّث بلطف، وقد زالت عنِّي مشاعر الاشمئزاز الأولى التي شَعَرْتُ بها نحوه. بخروجنا من مقرِّ إدارة الموقع واجهتْنا غابة صغيرة من أشجار الكَاْلِبْتُوْسْ. هناك، عند عتبة كوخ خشبي، رأيتُ الطبيب العسكريَّ غارقاً في كرسيِّ استلقاء. استمع إليَّ بانزعاج، ودونما رغبة، وتوجَّه ليُحضِرَ من كوخه أنبوباً من الأقراص. فكَّرتُ باغتنام الفرصة لتغيير لِفَافَة ضِمَاد الجُرح في يدي. نادى على المُضمِّد المساعد، وكأنَّه رَغِبَ في مناكفتي، سارع إلى الاستلقاء على كرسيِّه.

كان في حوالي الأربعين من العُمُر، يقرأ صُحُفاً قديمة، غير آبِهٍ بالفوضى المُحيطة به. كانت على الأرض غلَّايتان للقهوة، صُحُف ملفوفة، كُتُبٌ وأحذية عسكريَّة قذرة، وأجزاء عديدة من درَّاجة بخارية مُفكَّكة: وكان المُضمِّد المساعد، بدلاً من العناية بالأمور، يُصفِّر دونما اهتمام. وبدا الضابط الطبيب منشغلاً بقراءاته، وقد تركناه على هذه الحال. كيف بالإمكان قضاء فترة ما بعد الظُّهْر، حيثُ ابتدأت آلام الأسنان بالهبوط تاركةً لنفسها ذكرى واهية في لِثَّتي؟!

ثَمَّةَ مَنْ كان يُنادي عليَّ برتبتي العسكريَّة، استدرتُ، فرأيتُ ضابطاً برُتبة مُقدَّم. حين اقتربتُ منه قال لي بأنَّ من الأفضل لي أن أحلقَ ذقني. رَفَعَ أصبعه، وقرَّبه من وجهه الحليق، وأعاد الجملة ثانية، بانزعاج. كان يُحدِّق بي رافعاً رأسه إلى الأعلى، وبما أنَّني كنتُ أُواصِلُ التحديق به، قال لي إن بإمكاني الانصراف. أدَّيتُ له التَّحيَّة، فأضاف المُقدَّم بنبرة أكثر عذوبة "جيِّد"، ثمَّ ابتعد عنَّا. كان رجلاً بديناً وفارعاً، يرتدي بِزَّته العسكريَّة بعناية فائقة، يمشي ويداه متقاطعتان خلف ظَهْره. لم أتوقَّع في تلك اللحظة بأنَّني سألتقيه مرَّة أُخرى في ظروف مُغايرة. هل سألتقي الضابط الطبيب أيضاً؟. لا، لم يكن بمقدوري تخمين ذلك الاحتمال، وواصلتُ السير نحو الساحة، برفقة الضابط الشَّابِّ.

كانت ساحة غيرُ منتظمة، وكنتُ أشاهدها للمرَّة الأولى، وانتابني إحساس مريرٌ لتواجُدي في مكانٍ تدور صورته في خيالاتكَ، وحين تزوره لا يُزيل مَرْآهُ من ذهنكَ الصورةَ التي خمَّنتَها، ذلك لأنَّ الواقع يفوق أيَّ خيالٍ، أو بالأحرى فإنَّ الخيال يُدرك بأنَّه تجاهل فاعلية الأضواء والأصوات التي تملأ المكان، وهي ضرورية لتشكيل تلك الصورة، كما تجاهل الخيالُ أيضاً انسياب النسيم الطَّريِّ بنعومةٍ في الأصيل، ويحدُث ذلك عندما تنغلق الأشجار، كما لو كانت مظلَّاتٍ وتشهق المنازل نفس الأسى الذي يدفعنا، في العادة، إلى إبطاء المسير. كانت هناك أيضاً أشجار الكَاْلِبْتُوْسْ الضخمة، وكنَّا نسير فوق أوراقها المتساقطة في الشارع الخالي من الأرصفة والتبليط دون إحداث أيِّ ضجيج. وكانت تَلَّة من الغرانيت تلوح من بين صفِّ المنازل، وفي العمق تلألأت أضواء الفوانيس البترولية عند مداخل المقاصف والمقاهي. كان السُّكَّان المحلِّيُّون يجلسون على الأرائك، تخدمهم سيِّدة إثيوبيَّة ضخمة، ترتدي ثوباً زَهْرِيَّ اللون: بَدَتْ تلك السَّيِّدة كالبقعة الزَّهْرِيَّة الوحيدة في بحر الرَّماديِّ الشامل في المكان. وكانت تبلغ أسماعي من الشارع أصوات وضجيج الحِرَفِيِّيْن، وثَمَّةَ نساءٌ يتوجَّهنَ صوب خزَّان الماء الصالح للشرب، يحملنَ صفائح البنزين الفارغة، وثَمَّةَ تحت الشجرة الضخمة رجلان يتحاوران فيما بينهما، ربَّما كانا بانتظار

عابر سبيل. وكما البشر، فإنَّ الأماكن أيضاً تؤسِّس هي الأُخرى سعادتها، وكانت تلك الساحة المضطربة المَنسيَّة تُعبِّر عن سلام الأزمنة الغابرة التي لن تتكرَّر. وكما لو أنّ الرَّجُلَيْن الجالسَيْن تحت الشجرة الضخمة خمَّنا ما يدور في خَلَدِي، فقد نَهَضَا، وقبَّل أحدُهما خَدَّ الآخر قبل أن يفترقا.

كان الرجل الذي توجَّه صوبنا كهلاً، لكنَّه بدا لي طاعناً في السِّنِّ، كان يسير بخطواتٍ وئيدة مُحدِّقاً في الأرض، كما لو أنّ الأفكار الدائرة في ذهنه تمنعه من أنْ يحثَّ الخطى. كنَّا، الملازم الثاني وأنا، قد جَلَسْنا عند عتبة كوخ الهاتف، الذي اجتذبَنا، لأنَّه مصدر الأخبار والمعلومات (على سبيل المثال الخبر عن عودة إحدى فِرَق جيشنا إلى إيطاليا)، وقد مرَّر لنا عامل مُقسم الهواتف النبأ كبشارةِ أملٍ خفيَّة.

كنتُ أشعر بالغثيان، لكنْ، فقط بسبب الخمول الذي انتابني، وكانت كلمات الملازم الثاني تبلغُ أسماعي بالكاد. كان يروي لي عن أحداثٍ وَقَعَت، عن هجومٍ آخر تعرَّض إليه أحد مواقعنا للبناء من قِبَل رجال العصابات، ثَمَّةَ هناك كثير من الجرحى، لكنْ، دون قتلى لحُسْن الحظِّ؛ لم أكن مَعنيَّاً بالخبر، لذا لم أطرح عليه أيَّ سؤال بهذا الشأن. وبما أنَّ صمتي قد حفَّزه، فسألني إنْ كنتُ أعرف حكاية "طائرة الخَسّ". لم أُجِبْهُ على السؤال. في الغضون كان الرجل الكهل يقترب من مكان جلوسنا، وتعرَّفتُ عليه حين عَبَرَ من أمامنا وعيناه مسدلتان على الأرض، فهو ذات الرجل الذي كان برفقة الراهب في طريق الغابة. كان يسير حافي القَدَمَيْن، وغارقاً بعمقٍ في أفكارٍ عَصِيَّةٍ على التَّحمُّل، وهي الأفكار التي كانت تجعله، في بعض الأحيان، يُبطئُ الخطو، ليُلقي نَظْرَةً على ما حوله. أو ربَّما كان يشعر بالأذى والانزعاج من الحصى المختبئة تحت أوراق الشجر المتساقطة على الدرب. حين مرَّ من أمام كوخ الهاتف انحنى ليلتقط من الأرض شيئاً، (أكان ذلك عُقْبَ السيجارة الذي رميتُهُ قبل حين؟). ثمَّ اختفى خلف سياجٍ، ليظهرَ من جديد في العمق عند المنازل الأخيرة. ورأيتُهُ بعد قليل يَلِجُ إلى أحد تلك المنازل، أو بالأحرى، رأيتُهُ واقفاً عند المدخل وظَهْره إلى الساحة.

كنتُ على استعداد لأترك ذلك الشَّابَّ وحده، لكنّ التفكير بالمساء الذي بات وشيكاً أوقفَني عن الخطوة، وبانزعاجٍ واضح أخبرتُهُ بأنَّني أجهل قصَّة "طائرة الخسّ"، وأَجَزْتُ له روايتها. لم يَبْدُ مَعنيَّاً، على الإطلاق، بفظاظتي، وقال بأنَّها قصَّة طائرة استكشاف، وكانت تُقلع كلَّ صباحٍ من معسكرٍ قريب في المستعمرة القديمة، وقبل تحليقها حول الحقول ما وراء النهر، كان على قائدها أنْ يُسقِط على خيمة القائد علبةً، تحتوي على رؤوس من الخسِّ الأخضر. وكان توقيت تحليق هذه الطائرة دقيقاً إلى درجة مكَّنتْ المسلَّحين المحلّيّيْن من ضبط توقيت ساعاتهم على مواعيد مرورها من فوق رؤوسهم.

"هذا لو افترضْنا"، أضاف "بأنَّ لديهم ساعات"، وبعد أن نَطَقَ بهذه الكلمات، سرح بفكره قليلاً قبل أن يعاودَ روايته.

في الغضون، رأيتُ الرجل الكهل يتحدَّث إلى امرأة شابَّة، وظَهْره ما يزال مُداراً إلى الساحة. كان جامد الحركة، فيما المرأة، التي وَقَفَتْ عند مدخل المنزل، تنظر حولها، وصارت تشير بيدها صوب مقرِّ قيادة الموقع، متحدِّثة بسرعة واضحة. ثمَّ وَلَجَتْ إلى داخل منزلها، وبعد لحظات أُضيءَ المدخل بنورٍ زاهٍ، طغى على المكان بأسره؛ أضاءت المرأة المصباح، وابتعد الرجل الكهل مُتَّجهاً صوب المَقْصِف، الذي كان في الأثناء قد امتلأ بالرُّوَّاد، وبضياء أقوى بسبب الظُّلمة التي

صارت تبتلع أرجاء الساحة الأُخرى.

"وعليه"، عاد الملازم الثاني إلى روايته "لم يكن العسكري المكلَّف بالمراقبة من على مَتْن الطائرة يرى أيَّ مسلَّحٍ في ما وراء النهر. لا أحد إطلاقاً؟ لا أحد إطلاقاً. ولذا فقد تفتَّقتْ مُخيِّلة الجنرال عن فكرةٍ مفادُها أنَّه آن الأوان لأنَّ يُرسل كتيبة من الجند لاستعراض العضلات ما قبل الهجوم النِّهائيِّ؛ وانطلقت الكتيبة على مَضَضٍ، فقد كان الجميع يعلمون بوجود مسلَّحينَ كُثر في الجانب الآخر. وكان الضابط الشَّابُّ الذي يقود الكتيبة صَمُوتاً وباسماً، إلَّا أنَّه أفصح عمَّا في داخله قبل الانطلاق، وقال: "أنا أكره الخسَّ!". ولم يُضِفْ شيئاً آخر. كان عليه الذهاب، ولم يتلكَّأ في تنفيذ الأوامر".

كان الرجل الكهل يتحدَّث مع السَّيِّدة الإثيوبية ذات الرداء زَهْرِيِّ اللون، وكانت هي تُجيب عن تساؤلاته بإيماءات واسعة من ذراعَيْها، ثمَّ دعتْهُ إلى الجلوس. جَلَسَ الرجل العجوز إلى جوار الباب، ومَكَثَ هناك مُواصِلاً التحديق بالساحة، لكنْ، دون أن يرى منها شيئاً، لأنَّه كان، بالتأكيد، سارحاً في أفكاره الجائلة في مكانٍ آخر؛ بعد قليل حَمَلَتْ إليه الإثيوبية كأساً، أخذه العجوز، وأحنى رأسه شاكراً، لكنَّه أبقى الكأس ما بين كفَّيْه دون أن يُقرِّر تقريبه من شَفَتَيْه.

"حسنٌ"، سألتُ "وكيف سارت الأمور؟"

انتفض الملازم الثاني من هدأته "في الأُمسيَّة ذاتها"، قال "رأينا مُجنَّداً واحداً من العساكر([11])، يعود إلى المعسكر ضاغطاً بكفَّيْه على بطنه. كان يترنَّح كما لو كان ثَمِلاً. كانت أحشاؤه المندلقة تملأ كفَّيْه، وكان هو الوحيد الذي نجا من الموت".

وانفجر الملازم الثاني ضاحكاً. وأشاعت ضحكته تلكَ قَدْراً من المرح في المكان. "لا أعتقد بأنَّ علينا تعقيد الأمور"، قلتُ له "فالحرب تحتوي أيضاً على أحداث من هذا النوع، فقد ترى شباباً كانوا يعكفون على دراسة الأدب والموسيقى، وبعد عام، أو أقلّ من ذلك بقليل، تراهم يسقطون في ساح الوغى، بسبب نزق جنرال ونهمهِ في أكلِ باقةٍ من الخسِّ. ليس هناك في هذه الحكاية مُذنبٌ مُحدَّد".

"أيْ نعم، لا أحد" قال الملازم الثاني ساخراً "لكنْ، ليست الطائرة هي مَن اقترفت الخطيئة بالتأكيد!".

"ولا حتَّى الجنرال اقترف تلك الخطيئة" قلتُ "فَمَنْ بَلَغَ تلك السِّنَّ من العُمُر عليه أن يتغذَّى بحكمة".

"نعم، واضح!" قال الملازم الثاني وهو غارق في التفكير "لا أحد أذْنَبَ. ربَّما الوحيد هو ذلك الجندي الذي قاوم الأقدار، ووقف ضدَّ منطقها. أبإمكانكَ أن تتصوَّر أن يسير إنسانٌ ما كلَّ تلك المسافة مُمسِكاً بأحشائه ما بين كفَّيْه؟. ليس ذلك عدلاً، ففي بعض الأحيان، ليس من العدل أن تتعافى أو تُشفَى".

نَظَرْتُ إلى الملازم الثاني. وتساءلتُ حول سبب إصراره على أن يروي لي هذه الحكاية؟ ربَّما... لكنّ جميع شكوكي اختفت في الحال حين حدَّقتُ في وجهه: فقد كانت سَحْنَتُهُ الطُّفوليَّة، شارباه الخاليان من أيِّ ادِّعاء، ونظَّارتاه مُعدَّلتا الذراعَيْن، تمنحني قَدْراً من الثقة فيه. وأكثر من ذلك كلِّه، فقد كنتُ أرى سيجاره باعثاً على ثقةٍ أكبر، فبه كان يُفصح عن جميع طموحاته. هدأتُ

وابتسمتُ. كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أبتسم فيها بعد أيَّام عديدة، وبَدَتْ لي ساحة تلك البلدة وكأنَّها تَعِدُني بأكثر ممَّا في مقدورها على المَنْح من عطاء.

جُلْنا قليلاً في الساحة التي تتفرَّع منها شوارع عديدة، ويقود أحدها إلى الكنيسة، التي كانت عبارة عن بناءٍ قديم في عمق باحة، يبلغها السائر بعد المرور ما بين فناءَيْن طويلَيْن متقابلَيْن. كانت مبنى قديماً من فترة الهيمنة البرتغاليَّة، حافظ بناؤها القديم على قَدْرٍ من البهاء الغابر، إلَّا أنَّه لم يكن بناءً متناسقاً، وبدا وكأنَّ معجزةً ما أبقتْهُ قائماً في مكانه. توقَّفْنا أمام الكنيسة نتأمَّلها. وبعد شهورٍ طويلة من العيش في العَرَاء وتحت الخيام، كان مَرأى بناء شُيِّد وَفْقَ ضرورة واعية، وليس استجابةً عشوائيةً إلى حاجةٍ ما، يمنحني فرحاً عميقاً، عجزتُ للوَهْلَة الأولى عن رَبْطه بشيءٍ مُحدَّد. وحين تمكَّنتُ من حلِّ ذلك اللُغز غَمَرَنِي الحزن من جديد.

بلعتُ قرصاً آخر من الدواء، لأنَّ ضِرْسي عاد إلى الإيلام بشدَّة، أذبتُ القرص في فمي، وشَعَرْتُ بمرارة مذاق الدواء الحادَّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٢

أين انتهى الرجل الكهل؟ لم أعد أرى الكهل على دَكَّة المَقْصِف.

كنتُ مُركِّزاً ناظري على الظلال العابرة في الساحة عندما شاهدتُهُ آتياً صوب الكنيسة، يمشي بخطوات سريعة، بجِذْعه المائل إلى الأمام، وعَبَرَ بَوَّابَة الباحة قبلنا مُتَّجهاً صوب باب الكنيسة. غاب عنَّا بعد أن ابتلعتْهُ ظلال الأشجار في الباحة، وحيثُ كانت هناك ظلالٌ لآخرين يجوبون في الظُّلمة بصمت.

"هل ندخل؟"، سألني الملازم الثاني. أجبتُهُ بأنَّ الوقت تأخَّر، وبأنَّ الظلام سيحول دون أن نرى أيَّ شيء. نَدَرَ عدد المارَّة في الشوارع. لم تُعجبْنا فكرة العودة إلى مقرِّ قيادة الموقع وانتظار موعد العشاء داخل الخيمة، واعتبرْنا بأنَّ من الأفضل أن نتجوَّل في المكان بانتظار حلول الليل. توقَّفْنا، واقترح الملازم الثاني أن نطلب ضيافةَ بعض الفتيات، تانكَ الفَتَاتَان اللَّتَان كانتا تُواصِلان النَّظَر إلينا ضاحكتَيْن، وهما تتبادلان بشأننا تقييمات الإعجاب بالتأكيد. ولم يكن رفيق رحلتي قد انتهى بعدُ من طَرْح اقتراحه عليَّ، حتَّى قَبِلَت الفتاتان ذلك الاقتراح بضحكات مكتومة، بعد أن كان قد طَرَقَ هو الباب مثيراً جلبةً.

"أنا لن آتيَ معكَ"، قلتُ له، لكنْ، كيف بالإمكان التَّسبُّب في خيبة أمل فَتَاتَيْن تنتظرانكَ على عتبة الباب باسمَتَيْن؟!.

الملازم الثاني (ولا بُدَّ أنَّه كان على دراية كبيرة بعادات المكان) رمى بقطعة نَقْدِيَّة على الطاولة، واستلقى على السرير الذي كان يحتلُّ جانباً كاملاً من الغرفة. هُرعتْ إحدى الفتيات لإحضار قَنِّينَة من البيرة، أمَّا أنا، فقد جَلَسْتُ، واقتربتْ منِّي الفتاة الأُخرى، وتَمْتَمَتْ بكلمات لم أفهمها، فتوجَّهَتْ إلى جهاز الغرامافون، وبدأتْ بتخزينه بأناة مليئة بالزَّهْو، فقد كانت تلك العملية عبارة عن مُعجزة تتكرَّر في كلِّ مرَّة يحلو لها. لم أقدِرْ على تحويل ناظرَيَّ عنها، وعجزتُ عن تحديد أيِّ سببٍ لذلك. وعندما انتهتْ من التخزين، وَضَعَتْ على صحن الغرامافون أسطوانة للموسيقى العسكريَّة؛ ومن ثمَّ اختارت أسطوانة أُخرى دونما تحديد. كانت تلك هي الأُغنيَّة التي تتغنَّى بها "هي"([12]) عادة خلال الاستحمام. "ربَّما كان من الضَّروريِّ أن أكتب إليها رسالة"، فكَّرتُ في داخلي.

عادت الفتاة لتجلس إلى جواري، لتتحدَّث معي، فابتسمتُ لها، متظاهِراً بأنَّني فهمتُ ما تقول، إلَّا أنَّني لم أكن أراها إلَّا بالكاد، وكان بياض أسنانها فحسب هو ما يؤكِّد لي بأنَّ تلك الصورة الباهتة ستتمكَّن من الانطباع في ذاكرتي. وخلف ذلك الوجه كنتُ أرى قناة السويس بضياء الغروب، وبصورة ذلك الجندي الجالس على حافَّة قارب النجاة يُغرِّد في وجه الصحراء بأُغنيَّته اليائسة التي كنَّا نستمع إليها جميعنا بشَغَف، لأنَّها كانت تُثير ابتساماتنا وتأثُّرنا (كنتُ في تلك الساعات ما أزال محتفظاً في مقصورتي، على مَتْن السفينة، بالزهور التي حملتُها معها إلى الميناء في لحظة الرحيل، وقد حفظتُ بعضاً منها بين صفحات كتاب). كانت السفينة تمخر عباب البحر ببطء، كما لو أنَّ صوت ذلك الجندي هو القوَّة الدافعة لها.

لم يكن بالإمكان مغادرة المكان. بدأت الفتاتان بشُرب البيرة، مندهشَتَيْن من رَفْضنا الشراب، وابتدأت الغرفة بالاكتظاظ بالأقارب والجيران والأطفال، الذين انجذبوا من السخاء الاستثنائي

الذي أبداه الملازم الثاني الذي أمر أحدهم بإحضار قناني أُخرى من البيرة. لم يكن لتلك الأُغنيَّة، بالغة التسامح والعاطفية، أن تُثير لديَّ حتَّى مُجرَّد ابتسامةٍ عابرة لو أنَّني استمعتُ إليها في أيِّ مكانٍ آخر، أمَّا الآن، فينبغي عليَّ القبول بها إكراماً لها، هي. وللجندي الذي تسلَّق إلى الأعلى صائحاً بالصحراء بصوتٍ حزين. كانت الحفلة ستبلغ نهايتها لمُجرَّد عبورنا قناة السويس. شهورٌ من النأي عن الأهل تُحفرُ أيَّامها على ظاهر الحزام برأس سكِّينة. وبعد العودة تلتقي المرأة المعشوقة التي صارت تغرِّد بأغاني جديدة، وتُلقي ابتسامات صوب ما فات من مشاعر.

"هل سنمكُثُ هنا لوقتٍ طويل؟" سألتُ الملازم الثاني.

كان رفيق الرحلة الغريب ذاك ما يزال مستلقياً على الفراش غير آبهٍ إلى أفراد ذلك الجمع الغريب من المنصتين، بوقارٍ، إلى نغمات الموسيقى القادمة من الغرامافون، مبتسمين، وربَّما كانوا يتملَّقون إلينا بإظهار كلِّ ذلك الحبور.

"هل بدأتَ تشعر بالمَلَل؟" أجابني الملازم الثاني، وابتدأ بالحديث مع النساء اللَّاتي احتللنَ الغرفة بأكملها. نساءٌ كبيرات وذابلات، لكنْ، مرحات، يضحكنَ لكلِّ كلمة ينطق بها صديقي. أمَّا الفتاتان، فلم تكن لديهما أيَّة نِيَّة، على الإطلاق، في الإسراع بإنهاء استعراض السوق الذي ابتدأ في غرفتهما، وقد بدا عليهما الحبور أكثر من الأخريات، كانتا في غاية السعادة بأَنْ يُصبح منزلهما مقاماً للعيد. وعندما ألقيتُ نَظْرَة على المكان شاهدتُ بأنَّ هناك غرفة أُخرى إلى جوار الغرفة التي كنَّا فيها. وعبر الممرِّ شاهدتُ في تلك الغرفة سريراً وباباً يُطلُّ على الباحة. بدأ الأطفال باللعب فيما بينهم، مُلاحقين بعضهم بعضاً داخل الغرفة، وأسقطوا الكراسي، دون أنْ يُعنِّفَهم أحدٌ على ما فعلوا.

تُرى مَنْ مِنَ الأشخاص الذين مرُّوا بهذا المكان تَرَكَ هذا الغرامافون للفَتَاتَيْن؟ كان زَهْوُهُما مترَكِّزاً بالكامل في تلك المِلْكِيَّة. وَضَعَتَا الجهاز على حمَّالةٍ عالية بثلاثة سيقان، ولتغيير الأسطوانة كان عليهما الصعود على دَكَّة خشبية. وهكذا، تشرَّبتُ بأصوات وبأنغام الشوق، وزادت الذكريات المُملَّة والفائضة عن الحاجة من حزني. ثمَّ أشعلتْ إحدى الفَتَاتَيْن الفانوس البترولي، فتراكمت في زوايا الغرفة ظلال كثيفة، جَلَسَتِ النساء يتحاوَرْن فيما بينهنَّ بانتظار أن تغلي القهوة (ترى كم كان عددهنَّ؟ كنتُ أحاول تعدادهنَّ، لكنْ، كان عليَّ أن أبتدئَ العَدَّ من جديد في كلِّ مرَّة، ربَّما كنَّ تسع نساءٍ أو ربَّما اثنَتَي عشر).

آهِ، كم زادت السُّنُون كآبتهنَّ ودمامتهنَّ؟ وأفصحتْ عيونهنَّ عن الضجر والانهيار. لقد هزمهنَّ الزمن بشكلٍ نهائيٍّ. "ما هُما إلَّا يومان أو ثلاثة على أقصى احتمال"، فكَّرتُ "وسأعود إلى معسكري. لكنْ، بالإمكان إنجاز الكثير في بحرِ أيَّام ثلاثة، ربَّما لن أتمكَّن من إنجاز كلِّ ما يدور في خَلَدِي قبل الرحيل، لكنْ، بإمكاني استعادة انسيابيَّة حركتي، حلاقة ذقني، التجوال والسعي لأتعرَّف على ذلك الكتاب الذي يُخفيه الملازم الثاني تحت وسادته. تُرى أيّ نوعٍ من أنواع الأدب يقرأ؟ (ربَّما هو كتاب رُعبٍ، فصاحبي هذا يبدو لي وكأنَّه يُفضِّل الحكايات المثيرة للرُّعب، ويُخفي نِقاط ضعفه تحت الوسادة)، لكنّ الأمر الأهمَّ لديَّ الآن هو تجنُّب الاضطرار إلى الالتحاق بالمعسكر صباح الغد".

مرَّ المُقدَّم من أمام باب منزل الفَتَاتَيْن سائراً بإيقاعٍ بطيء ومدروس. كان مدفوعاً بالرغبة بدخول المنزل، إلَّا أنَّه وَاصَلَ مسيره متظاهِراً بأنَّه لم يُشاهِدْ ما في الداخل، ففكَّرتُ بأنَّه يحمل ما تحت جِلْدته الأبويَّة شَبَقَاً مُتعطِّشاً لم يُشْبَعْ أبداً. وقبل أن يُغادر المكان نهائيَّاً، توقَّف على بُعد

خطوات من الباب، بقي على هذه الحالة لوقتٍ طويل قبل أنْ يُقرِّر الدخول أم لا. وحين ابتعد المُقدَّم من المكان، جاءت الفتاة، تلك التي ابتسمتْ لي قبل الأخريات حاملةً لي كأساً من القهوة، (واندهشتُ من مقدار ما تمنَّيتُ رؤية تلك الابتسامة)

وَضَعَتِ الفتاةُ كأسَ القهوة على باطن كفِّي، وبقيتْ واقفة في مكانها، بانتظار أن تراني وأنا أشربها. انحنتْ عليَّ، وابتسمتْ لي، فرأيتُ نَهْدَيْها النابضَيْن، عبر فتحة ثوبها، ثمَّ قالت لي شيئاً ما، وجَلَسَتْ إلى جواري، دَسَّتْ ذراعها تحت ذراعي. "ألَّا ترى بأنَّ الوقت قد تأخَّر؟"، سألتُ الملازم الثاني.

"كَلَّا" أجابني، وأضاف: "لم يَعُد مقبولاً إهانتهما بالفرار من هنا. ثمَّ، حاذِرْ، يا صاحبي! تذكَّر بأنَّ هؤلاء يستخدمون الملح رفيقاً للقهوة بدلاً من السُّكَّر ".

كنتُ ما أزال أحمل كأسَ القهوة على باطن كفِّي، وأنا أستمع إلى كلمات الفتاة التي لا أَعي معانيها، ومع ذلك فقد كنتُ راغباً في فَهْم ما تقول؛ وعندما مسَّ نهداها كتفي، حاولتُ أن أُشيحَ بنفسي، فانقلب كأس القهوة. ضحك الجميع، ووجدتُ كأس القهوة يُملأُ من جديد، ومن جديد، أحسستُ بنهدَي الفتاة يمسَّان ذراعي. كنتُ مذهولاً كما الخطيب الشَّابّ الجالس أمام قريبات الخطيبة اللَّاتي لا يعارضنَ تلك الخطوبة: ربَّما كنَّ بانتظار أيَّة نَأمَة منِّي، فيما كان نهد الفتاة يواصل الاشتعال بتكاسلٍ مُطلق، ولمُجرَّد النَّظَر إليهما. كان وجهها ينشرح بابتسامة عريضة ومتواطئة ببراءة. كنتُ أرغب في مغادرة المكان، إلَّا أنَّني أعرف بأنَّني لن أتمكَّن من الوصول إلى الباب، لأنَّ مجموعة النساء المتزاحمات في الغرفة ستقطع عليَّ الطريق، أو ربَّما سأتهاوى على الأرض، ثمَّ إنّ الملازم الثاني ابتدأ حواراً مع أحد الأطفال، فيما كان الأطفال الآخرون يُتابعون ذلك الحوار، ضاحكين جميعاً من الأجوبة التي كان الطفل يُعطيها إلى العسكري. وكانت والدة الفَتَاتَيْن، وهي سيِّدة بدينة، تضحك أكثر من جميع الأُخريات (هي أُمُّهما بالتأكيد، لأنَّها انشغلت بتعديل تجعيدات شَعْر الفَتَاتَيْن، وواصلت التحديق فيهما بإعجاب)، وكانت تَعدُّ الأوراق النَّقْدِيَّة التي تقاضاها الأطفال خلال النهار، دون أن أعرف كيف تقاضَوا تلك الأموال.

ثمَّ، لو أسعفتْني قواي لأكتبَ إليها! "لا بُدَّ من ذلك"، فكَّرتُ "سأكتبُ إليها خلال هذه الليلة بالذات، لا سببَ للمماطلة والتأجيل". ولمُجرَّد التفكير بهذا الخيار، شَعَرْتُ بمزيد من الارتياح الذي جَعَلَ كلَّ ما يدور في تلك الغرفة باعثاً على البهجة، وابتدأتُ أضحك برفقة الطفل، فيما كانت الفتاة التي تجاورني تضغط بجسدها على كتفي، وتضحك هي الأُخرى. دفعتُ الطفل إلى الإفصاح عن كلِّ ما يعرف من اللغة الإيطالية: فبادر هو بدوره إلى الحديث بعُجَالَة، مُتلكِّئاً بين الحين والآخر مُحدِّقاً في السقف، كما لو أنَّه يطلب العون من ألواح السقف، باذلاً جهداً كبيراً لتذكُّر ما يريد قوله، لكنَّه وَاصَلَ الإشارة إلى رَفْض مساعدة الآخرين، ورتَّب كلَّ ما يعرف من كلمات. وكان القسم الأكبر ممَّا يعرف عبارة عن كلمات بذيئة أو غير لائقة. "إنَّها كلمات لا غنى عنها للحياة اليومية"، قال الملازم الثاني، "وكلُّ ما عدا ذلك يدخل في خانة الآداب والثقافة".

وبما أنَّ الطفل كان يواصل فَرِحَاً أداءَ امتحانه أمام ناظرَي ذويه، المُعجبين به، انتابتْني رغبة شديدة بالضحك، لبَّيْتُها وضحكتُ، فيما سارعت الفتاة إلى اقتناص كأس القهوة من يدي قبل أن ينقلب من جديد، فقد كان ما يزال مليئاً بالسائل.

وبينما سَحَبْتُ المنديلَ من جيبي، لأُجفِّف دموعي، رأيتُ الرجل الكهل في عمق باحة المنزل. أو

ربَّما كان شخصاً آخر شديد الشبه به. كَلَّا، إنَّه هو بالذات، كان يُحدِّق من خلال الباب المفتوح، منجذباً من تلك الضحكات، ثمَّ تقدَّم إلى عتبة الباب، ومَكَثَ هناك مُحدِّقاً، ثمَّ عَبَرَ الغرفة المظلمة المجاورة، وبَلَغَ ناصية الغرفة التي كنَّا نتواجد في داخلها.

لم يَبْدُ أنَّ أحداً من الحاضرين قد انتبه إلى وجوده. توقَّف العجوز عند عتبة باب الغرفة، وكانت نَظَرَاته تجول ما بين جميع الحاضرين، واحداً تلو الآخر، بالضبط كَمَنْ يبحث عن شخص ما، ويرغب في التَّأكُّد الكامل من عدم وجوده قبل أن يغادر. كانت ملامحه تُشير إلى الاقتناع بالإخفاق المُسبَّق في سعيه، ومع ذلك، فقد كانت عيناه تتفحَّصان الحاضرين، وكنتُ أراهما من فوق رؤوس النساء اللَّاتي يحتسينَ القهوة. في الغضون نَهَضَتِ الفتاة واقفةً، وصَعِدَتْ على الدَّكَّة الخشبيَّة، رفعتِ الأسطوانة من الغرامافون دون أن تضعَ واحدة أُخرى بدلاً منها.

وكانت تلك الحركة هي الإشارة التي تترقَّبها النساء الأخريات، اللَّاتي بدأنَ بالانسحاب المضطرب من الغرفة، وذلك لأنَّ الحفلة انتهت. وجاءت الأُمُّ البدينة لتُزيحَ الطفل من أمامي، ومازحتْهُ بصفعاتٍ على عجيزته، مشيرةً بيدها صوب باب الغرفة.

وانتهيْنا وحدنا برفقة الفَتَاتَيْن في الغرفة، ودونما أيَّة عُجَالَة، بادرتا إلى إعادة ترتيب المائدة وإزاحة الكؤوس من فوقها. وكانت الفتاة التي جاورتْني في الجلسة تستدير إليَّ بين الفَيْنَة والأُخرى، وترمي إليَّ ابتسامة عاجلة: بعدها ابتدأتْ بترديد الأُغنيَّة السابقة بصوت خفيض. كان غناؤها مُتلكِّئاً، دلَّل على عدم معرفتها الدقيقة بالأُغنيَّة.

غادر الجميع الغرفة، إذَّاك وَلَجَ الرجل الكهل إلى الغرفة، وتحدَّث مع الفتاة التي كانت تُغنِّي. كان يتكلَّم بسرعةٍ بلُغته، وبصوت أجشٍّ ومُزعجٍ يخرج من الحَلْق. وبعد أن استمعتْ الفتاة إليه، أومأت برأسها بالنَّفْي، استدارت إلى الفتاة الأُخرى، وكرَّرت ما سألها الرجل العجوز، عرفتُ ذلك لأنَّني استمعتُ تقريباً إلى ذات الكلمات التي نَطَقَ بها العجوز، وسمعتُ تكرار اسم مُحدَّد: مريم (ربَّما كان اسم إحدى الفَتَاتَيْن). ردَّت الفتاة الأُخرى أيضاً بما لم يُقنِع الكهل أو يُسعده.

لم يُغادر الغرفة. توقَّف قرب المائدة مُديراً ظَهْره إليَّ، وبدا لي مُنهَكاً للغاية. جَلَسَ على أحد الكراسي، ودون أن يكون قد دعاه أحد إلى الجلوس، وقدَّمت له الفتاة كأساً من القهوة المُتبقِّية في المغلاة، أو ربَّما ذات القهوة التي رفضتُ أنا شربها. كانت تلك الفتاة قد عادت إلى غنائها المتلكِّئ والسَّيِّئ، وكانت تبتسم لي بين الحين والآخر.

رَشَفَ الكهلُ القهوةَ، واستدار إلى الملازم الثاني، وتوجَّه إليه ببعض الكلمات. لم يُجب الملازم الثاني عن أسئلته.

لم يكن الكهل قد نَظَرَ إليَّ أبداً، ولمُجرَّد أن رآني أومأ إليَّ بتحيَّة برأسه. كنتُ في زاوية من زوايا الغرفة غارقاً في ظلال الفانوس. وأخيراً نَهَضَ وقال بلُغة إيطالية "Buona Sera([13]" وخَرَجَ عبر الباب إلى الشارع. تابعتُهُ بنَظَرَاتي، حين عَبَرَ فراغ الباب. كانت قامته تتضاءل تدريجيّاً حتَّى اختفى بياض ثوبه مختلطاً بظلال الدرب.

"ما الذي أراد معرفته؟" سألتُ الملازم الثاني.

"لا شيء" أجابني. لم أُلحّ على معرفة الأمر، لأنَّ الآلام عادت إلى فكِّي، وكان الوجع يصعد حتَّى عَيْنَيَّ وجبهتي، كما لو كان سيفاً بتَّاراً في يد مُبارز قاسي القلب، يُلحُّ بالنَّصْل راغباً بالوصول إلى

الدماغ.

"لِنَرْحَلْ" قلتُ. إلَّا أن الملازم الثاني لم يأتِ حَرَاكاً، ولم أكنْ، أنا نفسي، قادراً على الإتيان بأيِّ حَرَاك. لكنْ، حين أرادت إحدى الفَتَاتَيْن إغلاق باب الغرفة، نَهَضْتُ واقفاً، وأعْلَمْتُ الجميع عن حاجتي إلى تنشُّق الهواء النَّقيِّ. أبقت الفتاتان فتحة صغيرة للباب، وجَلَسْتُ على دَكَّة السُّلَّم. وشاهدتُ، عبر فتحة الباب، الرجلَ الكهلَ يمرُّ في الدرب متَّجهاً صوب البيوت الأُخرى، مُواصِلاً بحثه الذي كنتُ أعرف بكونه بحثاً لا طائل من ورائه.

وفي اليوم التالي، صَعِدْتُ برفقة الملازم الثاني على مَتْن الشاحنة المُتَّجهة إلى أسمرا، هو ليستمتعَ بوقته، وأنا لأقلعَ ضِرْسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٣

لم يكن فيلماً شيِّقاً، لكنِّي شاهدتُهُ لمرَّات عديدة. ففي كلِّ يوم، وعلى الرَّغْمِ من إحساسي بالخجل إزاء هذا الضعف، كنتُ أخرج من الفندق، بعد أن قرَّرتُ أن أتفسَّح قليلاً: كنتُ أتَّجه صوب الحدائق، أُلقي نَظْرَة على الوادي، وألجُ إلى أحد البارات، لأشرب كأساً من الشراب، وبعد ذلك، كنتُ أجدُني، دونما أيَّة مقاومة داخلية، واقفاً أمام الصور الفُوتُوغرافيَّة لذلك الفيلم الذي شاهدتُهُ مرَّات عديدة في إيطاليا أيضاً. كنتُ أخشى أن تتعرَّف بائعة التذاكر عليَّ في ذلك اليوم، وأن تُبدي دهشتها إزاء هذا الإعجاب المُبالغ فيه بالفيلم. إلَّا أنَّها لم تتعرَّف عليَّ، وبعد قليل، وجدْتُني أغرق في الحُلْم الكابي لمادَّة مُخدِّرة.

كنتُ أُدرك سببَ الارتياح الذي يوفِّره لي ذلك الفيلم. كان هناك ثَمَّةَ شيء ما في عَيْنَي الممثِّلة الثَّانويَّة في الشريط (كَلَّا، بالطبع، لم تكن على جمال استثنائي)، يُذكِّرني بعيونٍ أُخرى. سلامٌ ينسابُ في داخلي بهدوء حين أرى تانك العَيْنَيْن تستديران نحوي على الشاشة؛ كنتُ أستسلم إليهما مُحاولاً استعادة ذكرياتي مع حبيبتي، وأُحاول اقتناص صورتها حتَّى من بين ركام الذكريات المَنسيَّة، وأسعى إلى استعادة لحظات سعادتنا الجميلة. وكنتُ إذَّاك أشعر بشيء من الخجل.

عندما أُضيء النورُ، شَعَرْتُ بالكآبة، لأنَّني وجدتُ نفسي وحيداً مرَّة أُخرى. ولم يكن هناك من سببٍ يدفعني إلى العودة إلى معسكري غير قراءةِ ردِّها على رسالتي. لقد كانت الرسالة بانتظاري هناك بالتأكيد في خيمة ساعي البريد، أمَّا أنا، فقد كنتُ أتردَّد. أترقَّب من تلك الرسالة حلَّاً ما، جملة بسيطة للغاية بإمكانها أنْ تُذيبَ مخاوفي .. وربَّما هي أدركتْ ذلك، ورَغْمَ أنَّني لم أُضمِّن رسالتي السابقة تلميحاً إلى أيِّ شيء، واكتفيتُ بالتأكيد على احتياجي إليها، واشتياقي إلى سماع هَمْس شهقاتها الهادئة والطويلة في المساءات بجوار الموقد، كنتُ محتاجاً إلى ردودها غير المُنتظرة. ناهيكَ عن كون العودة إلى المعسكر واجباً، لا بُدَّ من الانصياع إليه، وعليَّ، إذاً، أن أتواجهَ مع عبور النهر من جديد، وأن أسير صوب البُقعة التي أهابها.

بعد مُضي ثمانية أيَّام عليَّ في تلك المدينة، وبعد شعوري بالخوف من الخمول الذي انتابني، قرَّرتُ الإتيان بأيِّ فعل. فقد كان عليَّ، أوَّلاً، أن أخلعَ هذا الضِّرْس اللعين، الذي توقَّف عن إيلامي. لكنِّي لو عدتُ إلى المعسكر دون قَلْع الضِّرْس، فإنَّ رحلتي تلك ستبدو كإهانةٍ لأصدقائي الذين مكثوا في المعسكر.

وعندما عَرَضَ طبيبُ الأسنان عليَّ الضِّرْسَ الذي أمسكَ به ما بين فَكَّي كمَّاشته، تنشَّقتُ راحة كبيرة. "أنتَ تتناول الكثير من الحلوى"، قال لي مازحاً. "نعم"، فكَّرتُ "حلوى كثيرة تصلني داخل العلب التي تُرسلها لي. عليَّ أن أكتب إليها، لتبعث إليَّ الكُتُب أو أيَّة أشياء أُخرى، لكنْ، ليس الحلوى". أخذت الممرِّضةُ الشَّابَّةُ الضِّرْسَ (أردتُ قبل كلِّ شيء أن أُلقيَ نَظْرَة على ذلك الخصم الشرس، لأتمعَّن في سطوته الغامضة: وإذاً فهذا هو سبب آلامي منذُ شهرٍ كامل)، لَفَّتِ الضِّرْسَ في القطن، وأعادتْهُ إليَّ. "خُذْ، احتفظْ به"، قالت باسمة "ففيه قُدرةُ إقصاء الشرور عنكَ".

"أحقَّاً، ما تقولين؟"، وعاجلتُ جملتي تلك بابتسامة. ومع ذلك، بادرتُ بعد قليل، مستغلَّاً انشغال الممرِّضة الشَّابَّة بشيء ما، إلى أخذ لِفَافَة القطن مع الضِّرْس، ووَضَعْتُهُ في محفظتي. كان لساني يتَّجه دائماً إلى الموقع الفارغ في اللِّثَّة، وفي كلِّ مرَّة كان الإنهاك يغلبُني لمُجرَّد التفكير بأنَّ

العودة إلى المعسكر صارت أمراً لا مناص منه.

الهبوط صوب النهر، هذا هو الأمر الذي يشعل ذهني. لكنِّي فكَّرتُ أيضاً باحتمال توفُّر الوقت للاستحمام في النهر، فيما لو وَصَلْتُ إلى هناك في الساعات الأكثر حرارة. ربَّما كان الموتى يلهون بترهيبنا عندما نبتعد عن أماكن رُقادهم، ولذا تُصبح العودة إلى تلك الأماكن واجبة، وسيكونُ ضرورِيّاً أن تسير ما بين الأشجار بجبهة عالية، وأن تُحدِّق في عَيْنَي السِّنْجَاب مباشرةً، وأن تُقدِّم السيجارة المشتعلة إلى الحِرْبَاء. لكنّ المدينة صارت تمنحني ما كنتُ أخشى فقدانه لمُجرَّد التفكير بالرحيل، كنتُ أهاب بالذات الإنهاك وفقدان القدرة على المقاومة. كنتُ قد أقنعتُ نفسي بأنَّ كلَّ ما حَدَثَ لم يكن إلَّا خطأً عابراً، ولم يكن لذلك الخطأ إلَّا أن يُقتَرَفَ بالشكل الذي وَقَعَ فيه. إلَّا أنَّ حقيقة الأمر في كلِّ هذه المشاعر كانت تكمن في أنّ حياةَ المدينة هدَّأتْ بالي، وأَرَاحَتْهُ؛ حوانيتها ودكاكينها، المقهى، الشرشف الأبيض، الممثِّلة الثَّانويَّة التي تُبعثُ في كلِّ مرَّة لأجلي أنا فحسب. كان يومي في المدينة قد تلبَّس إيقاعاً بطيئاً، جَعَلَ من أعصابي تبدو وكأنَّها استكانت إلى وَسَنٍ وديع. وكنتُ أُشاهد الاحتفال اليومي لجمهرة ناسِ المدينة عبر نافذة الغرفة التي كنَّا نشغلها، الملازم الثاني وأنا، جمهرة مَدَنِيَّة، متكاسلة، محلِّيَّة، قنوعة بما تملك، ولا غنى لها عنه. وعندما كنَّا ننظر إلى ما وراء الحدائق، وحيثُ السماء الممتدَّة مثل ستارة واسعة، كنَّا نفقد القدرة على الكلام، وكنَّا نُدرك سبب ذلك. "البحر هناك، في تلك الأرجاء"، قال لي الملازم الثاني مرَّة، وشَعَرْتُ إذَّاك بأنَّ قلبه كان يُعتصَر، بالضبط كما هي الحال مع قلبي.

ما الحاجة إلى الإفصاح عن كلِّ ذلك؟ ربّما كان صديقي الشَّابُّ عاجزاً عن السكوت، فقد كان يُثمِّن الصمت فقط بمقدار قيمته لضرورات الصمت خلال الكلام. تُرى متى سنرى ذلك البحر اللعين والمتساوي عند الجميع؟ نعم، ربَّما كانَ عليَّ مراوغة أيِّ عناء عنيد، إذْ باتتْ العودة إلى المعسكر ضرورية للتخطيط من أجل الحصول على الإجازة، فبقائي في المدينة وإضاعة الوقت دونما طائل سيُفسِدان كلَّ شيء، هذا إذا لم يكنْ كلُّ شيء قد فَسَدَ بالفعل، وانتهى. وربَّما لم يَعُدْ اسمي يُتداوَل في مَقْصِف الضُّبَّاط بغضب وكراهية، بل بقَدْر من الاندهاش والفضول. كان هناك ضبَّاط آخرون يترقَّبون عودتي، ليتقدَّموا بطَلَبَات الإجازة.

عاد الملازم الثاني إلى الاستلقاء على السرير مُطالِعاً كتابه الذي لا ينتهي. "أنا راحل"، قلتُ له.

"إلى أين؟"

"إلى المعسكر. سأعود أدراجي إلى هناك". عاد إلى صفحات كتابه، ولم يرفع ناظرَيْه عنه حتَّى عندما ابتدأتُ بجَمْع أشيائي، وأضعها في حقيبتي حقَّاً.

"ربَّما سنلتقي"، قلتُ له لمُجرَّد انتهائي من الاستعدادات.

"ولِمَ لا؟"، وتظاهر بأنَّه يُطالع في الكتاب، وكان غاضباً بشدَّة، ويشعر بأنَّ فراري هذا يُفرِغ مقاومته من مغزاها، فقد كان عليه هو أيضاً أن يجمع أشياءه، ويرحل. لكنْ، وكما كنتُ قد فكَّرتُ في الأيَّام الماضية بأن أترافقَ معه لقسطٍ من الرحلة، ربَّما حتَّى البلدة التي انطلقْنا منها، فقد كنتُ مُصرّاً في هذه المرَّة أن أُغادر بمفردي، لأنَّني أدركتُ جيِّداً ما قد يحدُث بعد أن نقطع بضعَ خطوات: فمثلاً نُقرِّر الرحيل، أو بالأُخرى نرحل بالفعل، لكنَّنا نعاود الرجوع بعد المحطَّة الأولى، مُنشرحين ومُتخلِّصين من ثِقَلٍ كبير، ونُقرِّر الإتيان بحماقاتٍ، كي نضحك من مآلاتها فيما بعد.

كنتُ على وشك الخروج من الغرفة، عندما ناداني الملازم الثاني. "هل ستترك ساعتكَ هنا؟". قال.

وَصَلْتُ حتَّى طاولة السرير، وحَمَلْتُ الساعة، وبينما كنتُ أربط حزامها حول مِعْصَمِي (أَنَّبْتُ نفسي لعدم شراء ساعة جديدة، لكن الوقت قد فات، فالحوانيت قد أُغلِقَت ذلك اليوم)، فقال الملازم الثاني: "حزام ساعتِكَ مُتَّسخ. غَيِّرْهُ، وتخلَّصْ من تلك اللطخات".

"سأُغيِّره بالتأكيد" قلتُ له، وغادرتُ الغرفة دون أن أُضيفَ شيئاً. كنتُ أشعر بالرضى لقراري هذا بالرحيل.

وبينما كنتُ أترك كلَّ ملامح المَدَنِيَّة وراء ظَهْري بالتدريج، وحيثُ اختفى إسفلت الشارع، واختفت الحانات والمقاهي، بدأتِ الكآبة والقلق يُهيمنان عليَّ من جديد لِمَا كان بانتظاري في المعسكر، وحيثُ عليَّ تقديم الأعذار والتبريرات لغيابي الطويل.

توقَّفت الشاحنة عند مقرِّ قيادة الموقع الذي أعرفه جيِّداً، وطَلَبَ الدركي من السائق حَمْلَ أشخاصٍ آخرين. هَتَفَ باتِّجاه كُشك الحارس وهو يُواصِل ابتسامته، فخَرَجَ من الكشك رجلٌ كهلٌ من السُّكَّان الأصليِّيْن، ومن ثمَّ طفلٌ صغير، كان هو نفسه الطفل الذي رأيتُهُ يتقافز مَرِحَاً بحبور داخل الغابة، دون أن يتوقَّف عن الإعجاب الجَمّ برقصة صديقه الشَّابِّ. وحينَ انطلقت الشاحنة من جديد شاهدتُ عبر كُوَّة النافذة المُطلَّة على خلفيَّتها الرجل الكهل جالساً على أرضيَّتها مُديراً ظَهْره صوبي، فيما كان الطفل واقفاً على قَدَمَيْه، يهتف مسروراً، كما لو أنَّه في رحلة اصطياف.

كان الكهل قد أدار ظَهْرَهُ النحيل إليَّ. كنتُ أراه بوضوح، وقد أسند كفَّيْه على رأس عصاه مُحرِّكاً ومُلمِّعَاً خَشَبَهَا بأحد أصابعه. كان شارد الذهن عمَّا يهتف به الطفل الصغير بين الفَيْنَة والأُخرى. ثبَّتَ ناظرَيْه مُحدِّقاً إلى الأمام بينما كان رأسه يتحرَّك باضطراب تتسبَّب فيه اندفاعات الشاحنة، وبعد مسير بضعة كيلومترات، ومع حلول المساء، نزلتُ من الشاحنة خلال إحدى الوقفات. "أنا لن أُواصِلَ معكم"، قلتُ للجندي، وبقيتُ هناك فوق التَّلَّة التي تُطلُّ على المكان، وتهيمن عليه، وفي العمق، كنتُ أشاهد جبال السجن الذي أشعر أنَّني أقبع بين جدرانه، لكنّ الجبال كانت بعيدة، وبَدَتْ صغيرة وجَدْبَاء للغاية: خمَّنتُ بأنَّ النهر كان هناك، في تلك الأرجاء.

بقيتُ بمفردي بعد رحيل الشاحنة، جاهلاً لما أنا مُقدِمٌ عليه، إلَّا أنَّني لم أندم لقراري المفاجِئ بالنزول من على مَتْن الشاحنة. كنتُ أفكِّر بالعودة إلى مدينة "A"، تلك البلدة، التي تقوم فيها قيادة موقع خاصَّة بها، وفتياتها المالكات لجهاز الغرامافون، وساحتها المركزية التي تعجُّ في هذه اللحظة بالنساء العابرات أو المتوجِّهات إلى خزَّان ماء الشُّرب، كلُّ ذلك كان سيمنحني قَدْراً من الهدوء والسكينة. ينبغي لِيَ أن أعود إلى منزل فتاتَي الغرامافون، وبألَّا أعود إلى السير في الدروب المقيتة التي تُغِمُّ النَّفْس. سأعود إلى أسمرا في اليوم التالي، وإلى الجحيم كلُّ ما سيرتَّب على ذلك من تبعات وعواقب.

مرَّ عدد من سُكَّان المنطقة المتَّجهين إلى البلدة، وألقوا عليَّ التَّحيَّة بعد أن توقَّفوا على بُعد خطوات منِّي مُترقِّبين أن أنتبه إلى وجودهم، وبأن أسمح لهم بمواصلة المسير. كانوا يُغادرون وفي نفوسهم أسى وحزناً، ودهشةً لمَرأى ضابط إيطالي في ذلك المكان وبمفرده. تساءلتُ مع نفسي عن السبب الذي دَفَعَنِي إلى أن أُهدي ذلك الطفل قطعة من النقود حين هَبَطْتُ من الشاحنة؟

بعد مرور نصف ساعة، مرَّت شاحنةٌ أخرى بالاتِّجاه المعاكس، وحملتْني إلى بلدة "A". كان المساء قد حلَّ، وبدلاً من التَّوجُّه إلى قيادة الموقع، جُلتُ في الطُّرُقات، كنتُ كَمَنْ يستجدي السكينة المفقودة من جدران تلك الحدائق المُغلَقَة. وشاهدتُ في إحدى الساحات الجانبية بعض الجنود يطبخون طعامهم فوق نارٍ أُضرمت في مكانٍ عامٍّ. اقتربتُ منهم. دعوني إلى تناوُل العشاء معهم. هم أيضاً كانوا سيتوجَّهون صوب النهر، وافترضتُ أنَّهم قرَّروا التَّوقُّف في ذلك المكان بسبب حلول المساء. عجزوا عن تجاوُز الخوف من مواجهة الليل داخل الغابة، وحيثُ لم تكن الكمائن المجهولة تُنصَب من قِبَل البشر، بل من قِبَل الأشياء والأشجار، ومن الظلال.

ولأنَّ التفكير بمواصلة المسير في اليوم التالي كان يُثير فيهم سُخطاً كبيراً، فقد تناولْنا الطعام في صمت. أمَّا أنا، فشَعَرْتُ بالارتياح، لأنَّني هزمتُ كلَّ أنواع القلق. ولم يكن هناك من بُدٍّ أن يقتحمَ الكلام عن إمكانيات العودة إلى البلاد حواراتنا اللَّاحقة، تحمَّستُ في الحديث عن ذلك، وكان الجنود يُنصتون دونما حماس إلى موضوعاتي المتفائلة، لكنَّهم لم يُناقِضُوا ما أقول، ولم يرغبوا في إبداء الاعتراضات عليه.

في الغضون شَعَرْتُ بأنَّ أحداً ما كان قد توقَّف وراء ظَهْري.

"حضرة الملازم"

نَهَضْتُ، فرأيتُ المُقدَّم واقفاً بالقرب من الكوخ المُضاء. كان على أناقته المعتادة، ويداه متشابكتان وراء ظَهْره، وجزمتاه تلتمعان بإشعاعات النار الموقَدَة. حين اقتربتُ منه، دعاني إلى الدخول، وبقيْنا في صمتٍ لبضع لحظات. كان هو يبحث عن الكلمات المناسبة لحكايته الحمقاء، وأنا أحاول ترتيب الأعذار التي سأُوردها له. وفي خاتمة المطاف، قرَّر البدء بالكلام. قال بأنَّ عليه أن يكتب تقريراً إلى القيادة بمخالفاتي، لكنَّه أكَّد أنَّه على يقينٍ بلا جدوى ذلك. كان يتساءل في سرِّه بالتأكيد عمَّا يجتذبني إلى الحالة الرَّثَّة التي وَجَدَنِي عليها منذُ التقاني. لحيةٌ طويلة وتعايُشٌ مع سُكَّان المنطقة، أتناول طعامي مُفترِشاً الأرض كما الغجر. كان يُسائِلُ نفسه عن الفكرة التي يُمكن أن تُولَد عنِّي في ذهن مواطنٍ من ذلك المكان.

حَادَثَني بصوتٍ هادئ للغاية. وفَعَلَ كلَّ ذلك، ليَحُولَ دون اقتحام السأم إلى حياته. وحاولتُ، على أيَّة حال، إعلامه بأنَّ لحيتي لم تعدْ طويلة؛ وبأنَّني افترشتُ الأرض لتناوُل الطعام مع الجنود الذين دعوني إلى مشاركتهم، ولم يكن لائقاً أن أرفض تلك الدعوة، وعلى أيَّة حال، فقد تناولتُ طعاماً شهيَّاً للغاية، أمَّا فيما يتعلَّق بارتيادي منزل السُّكَّان الأصليِّيْن في المنطقة، فقد أوضحتُ له بأنَّ ثَمَّةَ لَبْس في الأمر.

نَظَرَ إليَّ بدهشة. كرَّر كلمة "لَبْسْ" بصيغة التساؤل لمرَّات عديدة، وخَتَمَ قائلاً "كيف لكَ أن تدَّعي ذلك، وقد رأيتُكَ هناك بأُمِّ عَيْنِي"، أجبتُهُ بأنَّنا، أنا والملازم الثاني، ارتَدْنا ذلك المنزل للاستماع إلى قليلٍ من الموسيقى.

"أيُّ نوعٍ من الموسيقى؟" سألَني وانطبعتْ على سَحْنَتِهِ بسمةٌ مازحة، وتناولَ من أحد الرفوف قنِّينَة من الكونياك. وإذاً فقد كان ذلك عشُّهُ المفضَّل، كان يعيش مُحاطاً بأعداد كبيرة من صناديق المؤونة، وبمختلف الموادِّ، كانت أناقته تطفو على السطح، لكنَّها أبرزت، في الوقت ذاته، التناقض الحادَّ ما بين الخاتم الضخم المُرصَّع بحَجَر كريم وغالٍ في أصبعه، والرائحة الكريهة التي تتصاعد من خشبات أرضيَّة المكان، وهي تنوء تحت ثِقَل موادّ كثيرة لتجارة

ناشطة. شَرِبْنا الكونياك. كان مُعتَّقاً، وأسهمتْ حرارة الطقس المسائي في الإسراع بالثَّمَل السريع. غَرِقْنا في الضحك كصديقَيْن يعرفان بعضهما منذُ زمنٍ طويل. وثَمَّنَ أحدُنا أبشعَ الخصال لدى الآخر.

أبدى اهتماماً كبيراً بالموضوع الذي لامستُهُ خلال أحاديثنا. سألني ما إذا كنتُ متزوِّجاً، وانشرحتْ أساريره حين رَدَدْتُ على سؤاله بالإيجاب: فقد كانت هذه نقطة في صالحه. وَضَعَ على الطاولة المجاورة للشُّرفة صورة مُؤطَّرة، فيها امرأة دميمة للغاية. رآني وأنا أُحدِّق في الصورة، فأخبرني بأنَّها زوجته. واكتشفتُ من إيقاع ونبرة صوته كلَّ الأسى الناتج عن زيجةٍ مُتعجِّلة، لأسباب، ربَّما نسيَها أو أقصاها عن خاطره. وعلى أيَّة حال، فقد كانت المرأة المصوَّرة داخل الإطار باسمةً. وبالإمكان أن تستنبط من تلك الابتسامة طُرُزَ الأثاث الذي يُعمِّر منزلهما، الستائر والتنظيم المتواضع لما حول صاحبة الصورة، إضافة إلى السأم الكبير الذي خيَّم على المكان.

عندها انطلقتُ في امتداح فتيات المكان الذي نتواجد فيه: فهنَّ بسيطات كما الحمامات، عَذبات، خاليات من روح التَّملُّك، ومنسجمات مع الطبيعة بشكل رائع، وليس لكَ إلَّا أن تقطفهنَّ كما الورد.

"أنتَ واهمٌ"، قال لي، وصار يستخدم معي صيغة التخاطب باحترام([14]).

"كلَّا، لستُ واهماً على الإطلاق"، أجبتُهُ. وأعربتُ عن قناعتي أيضاً بأنَّ ذلك النوع من السلوك من قِبَلِ الفتيات هنا ما كان ليستمرَّ طويلاً على ما هو عليه الآن، فسُرعان ما سيكتسبنَ الإحساس بالزمن في غضون سنواتٍ قليلة، وهو ما يفتقدنه الآن بالكامل. "فعندما سيكتشفنَ الاحساس بالزمن"، قلتُ له "سيُصبحنَ شبيهات بجميع فتيات هذا العالم، لكنْ، بنوعيَّة أدنى من الأُخريات بكثير. إنَّهنَّ يُدخلنَ الحبور إلى قلبي الآن"، أضفتُ "لأنَّ لديهنَّ مَلَكَة إضاعة الوقت، بالضبط كما تفعل الأشجار والحيوانات".

وأخبرتُهُ بأنَّ الاعتبارات التي أُبديها هي نفسها ما يدفعني إلى إضاعة الوقت معهنَّ، ضحك المُقدَّم. شربْنا مزيداً من الكحول. شَعَرْتُ بدورانٍ في رأسي. سألتُهُ "هذا، إذاً، هو الكونياك الذي تحتويه صناديقكَ؟"، لم يفهمْني. أعدتُ عليه الجملة، وأضفتُ: "إنّ قَنِّينَة الكونياك التي يحملها الممرِّض في حقيبة الضِّمَادَات فارغةٌ دائماً".

صَبَّ شراباً آخر في كأسي، وقال بانزعاج: "أنتَ، يا حضرة الملازم، ما تزال فتى يافعاً"، ونَهَضَ من مكانه. اعتقدتُ بأنَّني أهنتُهُ بشكل أو بآخر، إلَّا أنَّه كان يُقهقهُ، وخَرَجَ من الكوخ للحظات مُترنِّحاً. عندها دَفَعَنِي فضولٌ وضيعٌ حقَّاً إلى فَتْح دُرج طاولته. كنتُ واثقاً بأنَّني سأعثر على فوضى مُنظَّمة، وعلى العلبة التي تحتوي بقايا أقلام الرصاص، وعلى عدد من الأمواس لِبَرْيِ تلك الأقلام. وسأعثر على الطوابع البريدية، وعلى الرسائل المربوطة بخيط في حُزمة، وعلى بقايا من الشمع الأحمر. شَعَرْتُ بالارتياح، فلم يكن المَرأى الأنيق الذي يظهر فيه المُقدَّم إلَّا الواجهة الظاهرة لمبنى متهالك، بإمكاني التجوال في ثناياه حتَّى لو كنتُ بعَيْنَيْن مُغمضَتَيْن. حين عاد إلى داخل الكوخ، اقترحتُ عليه أن نذهبَ لإيقاظ الفَتَاتَيْن (كنتُ أرغب فقط برؤية وجه الفتاة التي جَلَسَتْ إلى جواري، وأنْ أُحدِّق في عَيْنَيْهَا). وافق المُقدَّم على الاقتراح، وكان ممتنَّاً لأنَّ اقتراح اللعبة جاء منِّي. أخبرني بأنَّه سيدرس المكان مَلِيَّاً، وسيتفحَّص مقدار مطابقة ما أقول مع الحقيقة. أمَّا أنا، فقد انشغل ذهني بذلك النَّهْد الطليق تحت الثوب القطني، كان الدم يضرب بقوَّة على جدران أوعية الدم في جبهتي، وفي صُدْغَيَّ، وكنتُ مذعوراً من فكرة أن تكون الأمور

اللّاحقة جزءاً من انتقام مريم. لم أكن لأعود إلى المعسكر.

"هل نحمل معنا قَنِّينَة؟"، سألَني المُقدَّم.

لم تقبل الفتاتان فَتْح الباب في البدء، ولم تُوافِقا إلّا بعد لأيٍّ وحوارٍ طويل: وظلَّتْ إحداهما مستلقيةً في فراشها، وفي الضياء الباهت في المكان بدا جسدها، شبه المكشوف، كقطعة من الغرانيت الدافئ. وابتدأ المُقدَّم بتلمُّس جسد الفَتَاتَيْن، متظاهِراً بالمُزاح معهما. "هَيَّا، انهضي"، لكنَّه في الواقع كان يدسُّ يده ما تحت ثوب الفتاة، ويتوقَّف عن الحركة مسحوراً وهو يُرسِل صوبي إيماءات اندهاشٍ مُبالغٍ فيه، ويدعوني إلى أن آخذَ في اعتباري بأنَّ الفتاة جميلة حقّاً وشهيَّة الاستدارات، شهيَّةً حقّاً. "تعال إلى هنا .. تَلَمَّسْ هنا، أيُّها الملازم".

نعم، لقد كان هو بالذات ذلك الشخص الذي رأيتُهُ قبل أيَّام يجول جيئةً وذهاباً أمام باب ذلك المنزل. ولأنَّني نجحتُ في اقتياده إلى المكان الذي أُريد، فقد حسبتُ لنفسي انتصاراً ما، حتَّى وإن كان انتصاراً سهلَ المنال.

تظاهرت الفتاة الأُخرى بعدم التَّعرُّف عليَّ، أو ربَّما لم تتعرَّف عليَّ بالفعل: فلحيتي لم تعدْ طويلة وكَثَّة كما كانت في لقائنا الأوَّل، ولم يكن هناك أيُّ سبب يدفعها إلى التظاهر بعدم التَّعرُّف عليَّ. صَعِدَتْ على المصطبة الواطئة، كي تشحنَ جهاز الغرامافون ببطء شديد، وعندما أمسكتُ بها، وجَذَبْتُها نحوي، ابتسمتْ. تركتُها حين مسَّت أصابع قَدَمَيْهَا الأرض: كان ذلك الجسد يختزن خمولاً يُخيفني. وتساءلتُ ما إذا كانت رغبتي في التواجُد في هذا المكان في هذه اللحظة هي ما دَفَعَتْنِي إلى النزول من الشاحنة، وتَرْكها تُواصِل الطريق إلى ما وراء التلال. "أأنتَ قادرٌ على الابتداء مُجدَّداً؟"، ساءَلتُ نفسي. كنتُ شارد الذهن، ولذا سارعتُ إلى الجلوس على صخرة الموقد، ما دَفَعَ المُقدَّمَ، المندهشَ من جدِّيَّة مظهري ووقاري المفاجئ، إلى فتح قَنِّينَة الشراب التي حَمَلَهَا معه. ابتسم وتوسَّل، كي يحظى منِّي على تشارُكٍ، عجزتُ عن مَنْحِهِ إيَّاه في تلك اللحظة. وحين قدَّم إليَّ الشراب، وقال: "هَيَّا، فلنشربْ"، رفضتُ. وتساءلتُ: إذاً فهذا هو نفسه الكونياك المحفوظ في الصندوق الخشبي.

شربَ جُرعة طويلةً، ليتدرَّع بالجرأة، وليمنحَني الجرأة أنا أيضاً، ولقَدْرِ ما كانت رغبته للخلود إلى النوم قويَّة، فإنَّه لم يكن ليقوى، على البقاء هناك دون ذلك الشراب، ولم يكن ليتحمَّل وطأة الظلال التي يُنتجها الفانوس البترولي الموضوع في إحدى زوايا الغرفة.

أمَّا أنا، فقد كان عليَّ أن أشرب. بعد قليل شَعَرْتُ بالارتياح، وتمكَّنت حتَّى من السخرية من القلق الذي اجتاح ذهني. بَدَتْ جميع الأمور في أقصى درجات الاعتيادية، فها أنا أُواصِلُ حياتي، ومن الطَّبيعيِّ (أو بالأحرى من العَدْل) أن أُوَاصِلَ الإحساس بالانجذاب صوب ما رغبتُ فيه من قبلُ. ولا ضيرَ إذا ما كانت وحدتي الطويلة تُوفِّر لي الآن فرصة تقييم جسدٍ متكاسلٍ، وعَيْنَيْن ما تزالان تكتنزان ضياء قرونٍ خَلَتْ. بحثتُ عن الفتاة، كانت قد ذَهَبَتْ إلى الغرفة الأُخرى، وابتسمتْ لي. "فلنوافق على الدروس التي تُلقِّنُنا إيَّاها هذه الإنسانة"، قلتُ لنفسي باسماً؛ وكنتُ على وشك التَّوجُّه إليها حين أَوقَفَتْنِي الضوضاء الصادرة عن المُقدَّم مع الفتاة الأُخرى.

كان المُقدَّم يحاول إقناع الفتاة بأن تتجرَّع رشفة من الشراب، وهي كانت تدافع عن نفسها بلُطف. وكان المُقدَّم يغتنم الفرصة، ليضطجعَ فوقها، بعد أن اقتنعَ بأنَّني لن أنتقدَهُ على ما يفعل. ذَادَتِ الفتاة عن نفسها، لكنْ، دونما اقتناعٍ كامل، للأسف الشديد، وبدا لي ذلك مشهداً

لا يُطاق.

أمَّا الفتاة الأُخرى، فقد استلقت في سريرها بانتظاري. كان ظلام الليل يعمُّ المكان خارج المنزل. لم يكن هناك لا السُّرَّاق ولا السائرون نياماً.

قبل شهور طويلة، وبينما كانت سفينتنا تجتاز بورسعيد، رأيتُ الليلة الأوروبية الأخيرة من على مَتْن تلك السفينة. كان رصيف الميناء يكتظُّ بالملاهي اللَّيليَّة التي تُوفِّر للسُّيَّاح الفرصة لإنفاق آخر ما تبقَّى في جيوبهم من عملات البلد. وكان يصلُني من الرصيف صوت شبيه بذلك الذي يصدر عن الغرامافون الآن. كان بمقدوري أن أسمع، رَغْمَ المسافة ما بين السفينة والرصيف، فرقعات سدَّادات الفلِّين المنفلتة من فُوَّهَات قناني الشمبانيا، وأن أستشعر الحبور المرتعب لدى بعض السُّيَّاح الحالمين فعلاً بالعودة إلى الوطن، كانت تلك رغبة في الاستمتاع، لكنْ، دون الانزلاق في مُبالَغات، قد تنتج بفعل هبوط ظلام الليل. كان السُّيَّاح يتردَّدون كثيراً في الوثوق بالعربي الذي يقترح عليهم زيارة منازلَ بعينها. أَوَنذهب؟! كانوا يتساءلون، ولِمَ لا؟! يقولون أحياناً، نعم، فلنذهب. إنّ أفريقيا لَيْست إلَّا مكبَّاً لتخزين الفظاعات!، ولا يأتي إليها إلَّا مَنْ يسعى إلى إراحة ضميره.

هُرِعتُ صوب المُقدَّم، وطَلَبْتُ منه آمراً أنْ "كفَّ عمَّا نفعله الآن، واستمعْ إليَّ". لم يندهش لذلك، فأضفتُ: "ألَّا ترى معي بأنَّ أفريقيا لَيْست إلَّا مكبَّاً لتخزين الفظاعات؟!، أليس كذلك؟". انفجر ضاحكاً، ومَدَّ يده بسرعة خارقة صوب خاصرة الفتاة الجالسة إلى جواره. إذَّاك بدأتُ بتوجيه السُّباب إليه إلَّا أنَّه، وبدلاً من تهدئتي، زاد من الاضطراب الذي كان يعتمل في داخلي بمواصلة الضحك، وبمرحه المعتاد. وإذاً، فأنا هو صاحب الروح المضطرمة الوحيد هنا؟ أَوَلستُ أنا مَنْ يحتفظ بالرسائل وبالصور، ويعتبر نفسه مختلفاً عن جميع الآخرين بحقٍّ؟ ها هي سَحْنَةُ المُقدَّم تعرض نفسها أمام ناظرَيَّ كهدف ترقَّبتُهُ طويلاً. كانت بالتأكيد سَحْنَةَ إنسان لا يختلف عن غيره، لكنْ، أَلَمْ تكن الأخاديد التي ارتسمت فوق تلك السَّحْنَةِ إلَّا بمثابة كلمات نُقِشَتْ على شاهدةٍ قديمةٍ، لن تتطلَّبَ ترجمتُها إلَّا القليل من الجهد؟ "ماذا لو قتلتُ هذا الرجل الآن؟"، فكَّرتُ في سرِّي "إذَّاك سأدفنُ أيضاً الجزء الأسوأ منِّي"، لكنْ، لماذا يُثير المُقدَّم فيَّ كلَّ هذا الفضولِ، قلتُ: "استمتعْ كما تشاء، أيُّها الرجل الطَّيِّب". وعندما عاود عناق الفتاة، شَعَرْتُ بالكثير من الإشفاق الصادق تجاهه. وختمتُ "يداكَ الآن تحتفيان بالسأم الناتج عن المَنْفَى الطويل".

كانت الفتاة الأُخرى مُستلقيةً على السرير، تُحدِّق بالجدران، ولم أعد أرى وجهها، لكنِّي شَعَرْتُ بشرود ذهنها الغارق في صبرٍ كئيب، ولم تكن لأفكارها أن تختلف عن أيَّة أفكار تسبق لحظة الخلود إلى النوم.

لماذا أتواجد في هذا المنزل؟ ما الذي دَفَعَني إلى المجيء إلى هنا؟. وحين مسَّت مُقدِّمة لساني لِثَّتِي، في الفراغ الناتج عن خَلْع الضِّرْس تذكَّرتُ كلَّ شيء، وتعرَّفتُ على الكآبة التي يستشعرها السجين الذي يلحظ حلول المساء، ويفقد القدرة على الابتسام. لقد انتهى نهارٌ، وغداً سنبدأ بنهارٍ آخر، وكان الأمل الوحيد كامناً في تلك الرسالة الموجودة الآن في خيمة ساعي البريد. رسالة مُجعَّدة الورق، وفي داخلها كتابة دقيقة الحروف ودائرية المسار، وقد سُطِّرتْ كلماتُها على عجلٍ، وذُيِّلتْ بالتوقيع الأكثر حياءً من بين ما عرفتُ حتَّى الآن. آه، لو أتمكَّن من الوصول إلى تلك الرسالة، الآن، في الحال! لكن الشاحنات متوقِّفة وسائقوها يخلُدُون إلى النوم في هذه

اللحظة، وقد أراحوا البنادق إلى جوارهم. ثمَّ ... هل سأسلك طريق النهر صوب الجبل؟. "كَلَّا، لن أفعل ذلك"، قلتُ لنفسي "سأذهب في الفجر إلى أسمرا، ولتذهب كلُّ تبعات ذلك إلى الجحيم".

كانت الفتاة بانتظاري، وأنا شربتُ حتَّى دارت الغرفة وما فيها من ظلال حول رأسي. تعمَّدتُ الشرب، رَغْمَ أنَّني أمقتُ أن يغالبَني السُّكْر، ولم أكن أرتجي من ذلك الشراب أيَّ ارتياح. بل لم أُطالبه بالارتياح الذي يعجز أيُّ شيء آخر، سوايَ، عن توفيره لي. ولمُجرَّد اقترابي من الفتاة اقتنعتُ بأنَّ كلَّ نساء العالم شبيهاتٌ ببعضهنَّ في نهاية المطاف. "يبدو هذا المكان خالياً، وكلُّ شيءٍ يصمت كما لو أنَّه يقبع في القبر"، قلتُ، أهناك ضرورة لإعادة تخزين الغرامافون، لأنَّ أشرب، وأن أصفع عجيزة هذه الفتاة، أن أَستنهض جرأة المُقدَّم؟ هل عليَّ أن أسلك طريق النهر، أو أن أرقد في مستشفى كما كان مُقدَّراً لي؟ سنرى كلَّ ذلك فيما بعد.

كانت الفتاتان غارقتَيْن في الضحك لرؤيتنا على الصورة التي كنَّا عليها، وهذا ما كان يعني بأنَّ الحفلة حقَّقت النجاح. وربَّما شَعَرْتُ بالأسف لعدم قدرتهما على دعوة الجارات التسع (أو العشر) برفقة أطفالهنَّ. تُرى، أَوَلَمْ تكن تلك هي اللحظة الأنسب لوَضْع أسطوانة موسيقى المارش العسكري؟ نعم، بالتأكيد، لنضع أسطوانة المارش العسكري إذاً. لكنْ، عندما استمع المُقدَّم إلى نغمات المارش العسكري سارع مُهروِلاً إلى رَفْع الأسطوانة من على صحن الغرامافون، وإلى الاستلقاء على السرير. لم أَعُدْ أُطيق صفاقته المفاجِئة. دَلَفْتُ إلى الغرفة الأُخرى، ووقفتُ مُحدِّقاً بالفتاة المستلقية بانتظاري بصبر، ودونما مَلَل. جَلَسْتُ على حافَّة السرير، ونَظَرْتُ إليها، أو بالأحرى دقَّقتُ في تفاصيلها. كانت بشرتها داكنةً شيئاً ما، فيما كانت ابتسامتها شبيهة بملامح حيوان منزلي داجن، يترقَّب سيِّدهُ. لم تأتِ حَرَاكاً، ولم تكن تتوقَّع أن أنظر إليها وأنا بكامل وعيي. "لقد كانت هي الأُخرى شبيهة بهذه"، قلتُ في سرِّي "شبيهةً بهذا الحيوان الذي يُجسِّده السأم المُثقَل بالوحدة أمام ناظرَيْكَ كما السراب". تُرى هل كنتُ أسعى إلى مُخادعة نفسي؟ أكنتُ أبحث عن مُبرِّر ليُخفِّف من اضطراب أفكاري؟ سُرِرْتُ عندما عثرتُ على ذلك المُبرِّر في عبق المرأة، عطرٌ نباتيٌّ، استُخلص من شجرةٍ غابرة، عطرٌ خُلِطَ برائحة تُثير حلاوتها الغثيان. لم أجرؤ على المساس بها، وقرَّرتُ، إذا ما ابتدأتُ بالشعور بأنَّ السرير ابتدأ بالدوران، كما كنتُ أخشى أن يحدُث، فإنَّ عليَّ الرحيل في الحال.

إلَّا أنَّه كان عليَّ المكوث في ذلك المنزل. حدَّقتُ في عَيْنَيِ المرأة، كانت حَدَقَتَاها بلون البُنْدُق، بالضبط كما جميع النساء في هذه البقاع. انفجرتُ ضاحكاً. "لقد رأيتُ هنا أيضاً عيوناً خضراء ورماديَّة، وهي عيون يندرُ وجودُها هنا في هذا البلد. هل ترغبين بمعرفة مَنْ هي صاحبة العَيْنَيْن الخضراوَيْن الرَّماديَّتَيْن؟"، واصلتُ الضحك، وصاحبتْني الفتاة بالضحك، بصبر، لكنْ، دون أن تعيَ سبب تلك الضحكة.

"حضرة المُقدَّم"، قلتُ، ردَّ عليَّ بشخرةٍ من حَلْقه. "أيُّها المُقدَّم"، كرَّرتُ "هل اشتركتَ يوماً ما في معركة قتاليَّة؟"

أجابني بنعم، بقَدْرٍ من الإنهاك والعجب أيضاً. "أَمِنْ الممكن حقَّاً"، سألته "بأن يُبقرَ بطن جندي، وتندلق أمعاؤه، ومن ثمَّ يتماثل إلى الشفاء؟".

وبرَغْمِ انزعاجه الواضح ردَّ عليَّ بأنَّ كلَّ شيءٍ ممكن الحدوث، وبأنَّ عليَّ أن أتركه وشأنه بسلام. مدَّت الفتاة المستلقية إلى جواري ذراعها، وسَحَبَتْ ستارة قطنيَّة، عزلت ما بين الغرفَتَيْن.

هل كان عليَّ الإلحاح في طَرْح الأسئلة عليه؟ ألمْ يكن بإمكاني، على أيَّة حال، أن أحصل على الأجوبة من الطبيب في اليوم التالي، ذلك الطبيب الذي يقرأ صُحُفه القديمة على حافَّة غابة الكَاْلِبْتُوْسْ؟ "لكنْ، عندما تُصاب بجُرحٍ بليغ في البطن"، قلتُ "فإنَّ الأمر مختلفٌ تماماً".

"أحد الجنود من فِرْقَتِي حالفه الحظُّ، ونجا من الموت بعد إصابته في البطن"، أجاب المُقدَّم، وسمعتُ الفتاة وهي تضحك، ربَّما لأنَّ المُقدَّم دَغْدَغَهَا في نقطة حسَّاسة من جسدها.

"هل أخضعوه إلى العمليَّة الجراحية في الحال؟" سألتُهُ وتمكَّنتُ من النهوض لأجلس على السرير. "بعد ستٍّ أو سبع ساعات"، أجاب، ولمستُ في صوته انزعاجاً من الحوار الذي أُجبِرُهُ عليه.

"فهمتُ"، قلتُ له (وكانت المرأة تُحدِّق فيَّ بصبر، وبابتسامة تعلو شَفَتَيْهَا، دون أن تُدرك سبب إصراري على مواصلة ذلك الحوار) "افترضْ أنَّني سأُطلق الآن رصاصة على بطن هذه الفتاة ..." وكنتُ قد بدأتُ بالتساؤل عمَّا إذا كان بإمكان المُقدَّم أن يستوعبَ ما أرمي إليه. أَوَلَمْ يكن من البلادة أن تَطرَح أسئلةً طفوليَّة من هذا النوع وأنتَ تجلس إلى جوار فتاة، تُواصِل الابتسام لكَ.

"إذا كنتَ راغباً في تبذير رصاصاتكَ، فافعلْ ما يحلو لكَ"، ردَّ عليَّ، وأضاف "سأروي لكَ حادثةً". وروى لي عن مذبحة شهدها بأُمِّ عَيْنَيْه. "كانوا أفراد عصابة من قُطَّاع الطُّرُق"، قال "وكان الكولونيل يرغب في تصفيتهم جميعاً، بمَنْ فيهم الجرحى. العين بالعين، كان يقول. وكان كلَّما صادف جريحاً، يُطلق النار عليه. كان يُطلق النار على البطن، وكان الآخرون يبقون جامدين في أماكنهم، وقد غطُّوا عيونهم بأيديهم، كانوا يُحدِّقون فيه من بين أصابعهم التي غطَّت وجوههم. ثمَّ جاءه الطبيب، وقال له "إذا لم تُطلِق النار على رؤوس بعضٍ منهم، فإنَّكَ لن تنال أيَّ اعتراف من هؤلاء الناس بأيِّ شيء". إذَّاك وجَّهَ الكولونيل رصاصاتِهِ إلى رأس الجريح الأوَّل. انفجر رأس الجريح، ووَجَدَ الكولونيل بِزَّته العسكريَّة مُلطَّخة بالدماء. آهِ، لو أنَّك رأيْتَهُ، كان في أقصى درجات الغضب، وأغرق الطبيبَ بآلاف الشتائم: "بئسَ النصائح التي أسديتَها لي"، كان يصرخ بأعلى صوته. واضطُرَّ إلى الانسحاب من المكان، ليُبدِّل بِزَّته المُلطَّخة بالدماء بِزَّةً أخرى".

كان الفانوس البترولي يُزعِج الجميع، وأنا لم أكن أُطيق ذلك الضياء الخافت والظلال التي يخلقها في زوايا الغرفة. نَهَضَ المُقدَّم، وأطفأ الفانوس. وأحسستُ به وهو يعود إلى السرير مُجرجِراً ساقَيْه، ليتلمّس الطريق صوب السرير، كنتُ على وشك الابتسام، إلَّا أنَّني خنقتُ ضحكاتي في حلقي.

هَمَسَتِ الفتاة المستلقية إلى جواري في أُذُني شيئاً ما، وضحكتْ بهدوء.

"أُدرِك"، قلتُ للمُقدَّم "لو كان الأمر يتعلَّق بجروح طفيفة" ... إلَّا أنَّه لم تكن لدى المُقدَّم أيَّة رغبة في مواصلة الحديث، وصاحَ بي بحزم، لكنْ، بصوتٍ مازح: "طابت ليلتكَ". ووجدتُ لزاماً عليَّ أن أستلقيَ بدوري، كان رأسي يدور، بفعل الكحول الذي شربتُ. تسلَّل الليل حتَّى إلى ذلك المنزل، وبدا لي السرير الذي أنام عليه متماوِجاً، كما لو أنَّه يمخر عباب بحيرة عميقةٍ للغاية ومُغلقةٍ بجبال أكثر وعورة من تلك التي تترقَّبني ما وراء النهر. أَأَشعر بكلِّ هذا لأنَّ لِثَّتي ما تزال مُلتهبةً، وتؤلمني؟

كانت الفتاة إلى جواري صامتةً. ربَّما عليَّ أن أسألها عن اسمها على الأقلِّ، كنتُ أسمع وَقْعَ تنفُّسها الهادئ وجسدها الطَّريّ الذي يترقَّب بهدوء عميق ومتكاسل، إلَّا أنَّني كنتُ عاجزاً عن

تحمُّل عطرها الثقيل الذي يُشبه الرائحة المتراكمة داخل الكنائس، أو رائحة الكلاب السائبة، أو حتَّى رائحة فطريات في غرفة حارَّة.

"ما اسمكِ؟" سألتُها، لكن الفتاة لم تفهم سؤالي، وكنتُ على وشك طَرْح السؤال مُجدَّداً، حين سمعتُ جنديَّاً يطرق على الباب (وهل يمكن أن يكون غيرَ جندي ثَمِلٍ؟). طَرَقَ على الباب الخارجي، وسمعتُ صوتاً أجشَّ ينادي بكلمات. نَهَضْتُ بصعوبة بالغة. ردَّتِ الفتاة التي بجواري بسرعة، لكنْ، دون أن تنهض من الفراش، فيما هتفت الأُخرى ببعض الكلمات؛ طَلَبَتْ مِنْ ساكني الدار الإحجام عن إدخال ذلك الشخص غير المرغوب فيه في ساعةٍ مثل تلك، لكن هتافها أشعرني بأنَّ الجندي اقتحم الغرفة. صَرَخَ الرجل مرَّة أُخرى، ثمَّ هزَّ باب البيت بعنف، وسمعْناه في النهاية يبتعد راحلاً.

عندها أمسكتِ الفتاةُ بذراعي، وسَحَبَتْني صوبها، وأسقطتْني على السرير، لكنِّي رفضتُها في الحال، تاركاً إيَّاها مندهشةً وعاريةً في آنٍ، وحين بَلَغْتُ باب الغرفة. قلتُ للمُقدَّم بأنَّني خارجٌ لبُرْهَة من الوقت، وعدوتُ صوب ساحة المدينة.

توقَّفتُ أمام الكنيسة، وبدا لي أنَّني أستمع إلى أنينٍ صادرٍ من بعض الناس في زاويةٍ من زوايا المكان، وحين اقتربتُ من الأكواخ المُقامة إلى جانب الكنيسة، شاهدتُ في الظُّلمة كومة متشابكة من الخِرَقِ واللحم البشري. كان هناك العديد من سُكَّان المكان الذين احتشدوا، يتأوَّهون بنحيب واطئ، كما لو أنَّهم أُنهِكُوا من الصرخات التي أطلقوها خلال النهار دون أن يستجيبَ إليهم أحدٌ ما، بعضُ مَنْ شاهدني من بينهم وأنا أقترب من الكوخ صمتَ عن الأنين، مُترقِّباً. كانوا متسوِّلين، على ما أعتقد، رميتُ إليهم بعض قِطَع النقود، وبدأتُ بالعَدْوِ صوب مقرِّ قيادة الموقع. كنتُ سأنتظر هناك طلوع الفجر وانطلاق الشاحنة الأولى صوب النهر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٤

لم يُتَحْ لي بعدُ إلقاء نَظْرَة على وادي النهر الذي يبدأ انحداره من تلك النقطة بالذات. كان الدرب الصاعد إلى قمَّة الهضبة موشِكاً على الانتهاء، وسرعان ما ستبدأ أولى مناطق الهبوط صوب النهر. وحين توقَّفتِ الشاحنة عند نقطة التفتيش الأولى، تعلَّق جندي ببابها راكباً على مَسْنَدِ الصعود. تعرَّفتُ عليه في الحال. كان واحداً من فِرْقَتِي، ورأيتُ بعده جنديَّيْن آخرَيْن، ومن ثمَّ ثلاثاً، وكانوا جميعهم من فِرْقَتِي. "ما الذي تفعلونه هنا؟"، سألتُ الجندي الذي تعلَّق بباب الشاحنة وهو يوزِّع التَّحيَّات بحبور. "ما الذي نفعل هنا؟!"، كرَّر جملتي بصيغة استفسار.

وأخبرني بأنَّ الفرقة انتقلت إلى تلك المنطقة منذُ خمسة أيَّام.

أعتقدُ بأنَّ نَظْرَتي إليه في تلك اللحظة عبَّرت عن حالة من الهَلَع، إلَّا أن الجندي قرأ فيها فرحاً غامراً، بسبب كونه أوَّل مَنْ يُبلِّغني بذلك الخبر، وهو خبرٌ، يحمل في طيَّاته مغزى بلوغ محطّةَ اقترابٍ أُخرى من ساحل البحر، حتَّى وإنْ كان الساحل ما يزال بعيداً. ابتسم الجندي من دهشتي، وحين نزلْنا أخذَ حقيبتي، ليحملها عنِّي، وصار يُحدِّثني في التفاصيل.

توجَّهْنا صوب دربٍ ضيِّق، وبعد قليلٍ من المسير، ظَهَرَتْ أمامي أولى خيام المعسكر. كان الجندي يواصل الحديث عن العودة إلى البلاد، وكان في ذلك متحمِّساً مثل جميع الآخرين على ما أعتقد، خاصَّة الآن إذْ لم يعد هناك ما يستدعي البقاء. كان الجندي يرغب في معرفة رأيي في الأمر، وما إذا عرفتُ شيئاً عمَّا حَدَثَ في موقع البناء.

"عن أيِّ موقع بناءٍ تتحدَّث؟"

"موقع البناء، هناك في الأسفل عند الجسر"، وبدا في الحال سعيداً لأنَّ يروي لي ما حَدَثَ هناك. لقد هاجم قطَّاع طُرُقٍ الموقعَ، وتعرَّض ثمانيةُ عُمَّال إلى جروح. ولربَّما، كان ذلك هو السبب الذي دَفَعَ قيادة الجيش إلى اتِّخاذ القرار بنَقْل الفرقة. في غضون ذلك كانت "الضَّابطيَّة([15])" قد مَشَّطت المكان، وكان علينا أن نُعسكر هناك لمراقبة وادي النهر بأسره. وبالتأكيد، ستسير دوريات يومية، وتساءلَ أَوَلَمْ تقتربْ فرقتنا من الساحل؟ ألم يكن ذلك المكان أجمل؟ بالتأكيد كان أفضل وأجمل بألف مرَّة من الموقع الأخير فوق قِمَم الجبال، وحيثُ كان القَمْل يتسلَّل إلى الخيام طائراً في الهواء، وبالذات في هذا الموسم الذي سيشهد ارتفاع درجات الرطوبة .. "نعم، بالتأكيد"، قلتُ له.

وكان على حافَّة الهضبة المطلَّة على الوادي جنودٌ آخرون افترشوا الأرض يتحاورون حول العودة القريبة إلى البلاد. ألهبَ ذلك الانتقال الآمال في مُخيِّلاتهم، وتسرَّب إلى دواخل حتَّى أكثرهم تشاؤماً، وكان أحدهم يشدُّ من عزم الآخر بصرخات وهتافات من خيمةٍ إلى أُخرى. كان كلُّ واحد من هؤلاء الجنود يعرف على الأقلِّ سرَّاً واحداً من أسرار الآخر، وكانت تلك هي الفرصة الذَّهَبِيَّة للتلميح إلى ذلك السِّرِّ، والتلويح به، واقتناص الفرصة للحبور على حساب الآخر، أو من أجل آخرين؛ كانوا متشاركين في روحيَّة عائليَّة، ويَعدُّون أنفسهم لحفلات خطوبة قادمة، أو لحفلات الزفاف. كان الجميع يَتواعدون على لقاءاتٍ جديدة بعد العودة إلى إيطاليا، فقد وُلِدَتْ تحت خيام المعسكر صداقاتٌ عميقة، قادرة على أن تصبغ بلون الزَّهْر الوردي ذكرياتهم القاتمة عن هذه الأرض، وستكون تلك الصداقات قادرة، في غضون سنين قليلة، على تحويل العذابات التي

عايشوها إلى ذكريات جميلة، حتَّى وإن كانت ذكرياتٍ عن المشي المتواصل لعشرات الأيَّام، بما رافقها من جوع وعطش وإنهاك وحَرٍّ وخوف.

بقي أمامي أن أتواجه الآن مع الضُّبَّاط، من قادتي ومن الزملاء، وقرَّرتُ بأنَّني سأتواجه معهم جميعاً لمرَّةٍ واحدة مجتمعين. كان ذلك نوعاً من الدهاء الطَّبيعيِّ. فلو ذَهَبْتُ إلى خيمة المُقدَّم أو النقيب، فإنَّ الحديث سيأخذ طابعاً رَسْمِيَّاً، أمَّا في خيمة المَقْصِف، فإنَّه سيتَّخذ منحى آخر، وستتدخَّل في الحالة مُعطيات أُخرى، مثل فرح اللقاء حول مائدة الطعام، والصيحات والهتافات المفاجِئة الصادرة عن بعض الزملاء لمُجرَّد رؤيتي أُمثُلُ أمامهم. كنتُ أحمل معي علبة سجائر، وقنِّينَتَي شراب. وحَمَلْتُ أيضاً كُتُباً كثيرة. وبذا كان الجميع سيعذرونني على ذلك الغياب.

وحين صِرْتُ على مدخل الخيمة، نَظَرَ الجميع إليَّ مندهشين، بالضبط كدهشة رجال الشرطة، وهم يرون أمامهم المجرم الذي لاحقوه لسنين دون أن يظفروا به، وها هو الآن يتقدَّم لتسليم نفسه، الآن بالذات بعد أن أُدرجَت قضيَّته في أرشيف القضايا المحفوظة. ربَّما لم يكونوا يترقَّبون عودتي، أو ربَّما جَعَلَتْ حركة التَّنقُّلات فترة غيابي تبدو قصيرة. أو ربَّما كانوا قد أبلغوا القيادة العليا عن فراري من الخدمة. كَلَّا، ليس كلُّ ذلك معقولاً، إلَّا أنَّني عجزتُ عن استيعاب الوَضْع بشكلٍ جيِّد. لماذا يتلكَّأ أولئك الناس عن الرَّدِّ على تحيَّتي، ويبقون بأفواهٍ فاغرة وملاعقهم مُعلَّقة في الهواء؟ لماذا صَمَتَ الجميع فجأةً؟ واجتازت ذهني في الحال ومضة صاعقةٍ: لا بُدَّ أنَّهم عثروا عليها، أو أنَّني تركتُ ورائي أثراً ما دالَّاً عليَّ. أو ربَّما شاهدني أحدٌ. لكنْ، مَنْ ذا الذي شاهدَني هناك؟ تسمَّرتُ واقفاً على مدخل الخيمة عاجزاً عن الإتيان بأيَّة خطوة.

"طاب مساؤكَ"، قال المُقدَّم بانزعاج واضح، في الحال أدركتُ بأنَّه لم يكن يعرف أيَّ شيء، وأنْ لا أحد من هؤلاء يعرف أيَّ شيء. فقد كانت في ذلك الصوت كلُّ نبرات القائد النزق: ولا شيء غير ذلك.

وانطلق في المكان في الحال سيلٌ من الحبور المرح، ابتدأ بضحكات ومَزْحَات الأصدقاء حين بدأتُ بسَرْد الاستعراض الزَّمنيِّ للأحداث التي وَقَعَتْ لي. وتسبَّبت الضحكات العالية والمتواصلة للملازم (B) في شبه اختناق، فجاءت هذه الحالة المفاجِئة كطوق نجاةٍ لصالحي. بعدها جاءني عَونٌ غيرُ مُنتظَر من الطبيب، الذي هَتَفَ مُعرباً عن اقتناعه المُطلق بأنَّ امرأةً ما أمسكت بي، وجَعَلَتْنِي أتأخَّر عن الالتحاق بالمعسكر. وبما أن الأمور سارت على هذه الشاكلة، لم يعد أيٌّ منهم يتحدَّث عن تأخُّري في الالتحاق ما بعد الإجازة، واقتصر الحديث فقط حول الأسباب التي دَفَعَتْنِي إلى ذلك التأخير. وكان كُلُّ واحدٍ من الحاضرين يُغامر بافتراضاته في هذا الشأن. ويُخطِّط كُلٌّ منهم في ذهنه أن يتأخَّر، هو الآخر، عن الالتحاق بالمعسكر حين تُتاح له الإجازة المقبلة. فقد كَسَرَتْ سابقتي هذه القواعد العسكريَّة الصارمة.

لم يكن النقيب يرى الأمر على هذه الشاكلة، وبقي مُقطِّب الجبين طَوَالَ الوقت، لكنْ، عاجزاً عن وقف حالة الحبور والمرح التي سادت لدى الآخرين، كما عجزَ عن الاشتراك في ذلك الهرج. إلَّا أنَّه قرَّر أخيراً الإفصاح عمَّا في داخله. "بإمكاني أنْ أفترضَ"، قال "بأنَّ ضِرْسُكُم ما عاد يُؤلمكم، الآن". قال ذلك بقَدْرٍ من السخرية وهو يزن كلماته بأناة، واثقاً من أنَّه أجاد التصويب. أخرجتُ محفظة النقود من جيبي: "ها هو!"، قلتُ له، بهدوء مُطلق.

انتصرتُ أنا، وكانت الضحكات العالية تؤكِّد لي انتصاري. وَجَبَ عليَّ أن أجلس إلى المائدة، أن أتناول غدائي، أن أرويَ الأحداث التي تُثير الضحكات. كان لا بُدَّ من كلِّ ذلك، وفيما بعد عندما

دخلتُ إلى خيمتي، وجدتُ على سريري رسالَتَيْن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الثالث

# الذَّهَب

## ١

حين دقَّت ساعة الاستيقاظ، أمرني النقيب بالاستعداد للقيام بدوريَّة تفتيش في الوادي: كنتُ سأقضي النهار بأكمله خارج المعسكر برفقة رَتْلٍ من الجنود. فَتَحَ الخارطة، ورأيتُ بأنَّها لم تكن تلك الخارطة الغريبة التي أعرفها، بل واحدةً أُخرى؛ وأشَّرَ لي بالذات على المكان الذي كنتُ أهابُهُ، قال لي بأنَّ من الأفضل أن أصل حتَّى تلك البُقعة، وأَعْلَمَنِي بأنَّ هناك طريقاً مختصرةً مريحةً للغاية؛ وطَلَبَ منِّي أن أدرس حالة تلك الطريق وما إذا كانت هناك ضرورة لإصلاحها، طالما أنَّه لم تكن لدى جنود الرَّتْل أيَّة التزامات مُحدَّدة سَلَفَاً، وطالما أنَّ الكسل والخمول بدءا يُثيران السأم والضجر في دواخلهم، وعلى أيَّة حال، قد كان علينا إصلاح تلك الطريق المختصرة في العديد من المواقع الصَّخْرِيَّة الوعرة.

وبينما كان النقيب يواصل شروحه، بحثتُ في ذهني عن مبرِّرٍ للإفلات من تلك المهمَّة، دون أن أُفلح في ذلك. لقد كان عليَّ أن أتحمَّل، بشكلٍ أو بآخر، تبعات غيابي، ولم تكن هناك أيَّة أعذارٍ قادرة على تغيير ذلك المسار.

وحين سألَني النقيب ما إذا فهمتُ تفاصيل المهمَّة، افتقدتُ الكلمات، وارتبكتُ بشكلٍ أخرق. "احتفظْ بالخارطة معكَ"، أضاف.

كان الرَّتْل جاهزاً للانطلاق، وقد أُعْلِمَ الجميع سَلَفَاً بالموقع الذي سنُفتِّش فيه، وهذا ما أثار انزعاجي، لأنَّ ذلك يعني بأنَّ النقيب لم يكن يثق بي، وكان يتوجَّه إلى العريف أيضاً، ليتأكَّد من تنفيذ أوامره. كنتُ منزعجاً أيضاً، لأنَّ ما رسمتُهُ في ذهني كخطَّةٍ، لم يَعُدْ قابلاً للتنفيذ. وطالما حَصَلَ العريفُ أيضاً على نسخته من الخارطة، صار من المستحيل تحوير مسار الجنود صوب نقطة أُخرى من النهر، لإتاحة الفرصة أمامهم للاستحمام في مياهه، ومن ثمَّ التَّمتُّع بمَرأى المناظر الطَّبيعيَّة في تلك الأرجاء، وهو ما كان الجنود سيُسعَدُون بتنفيذه دون شكٍّ. كان ذلك العريف مستعدَّاً لتعريض نفسه إلى الموت مقابل تأدية الواجب، وتنفيذ الأوامر، بكلِّ حذافيرها، فقد اعتبرَ التزامه ذاك فعلاً حربيَّاً: كان يسعى للحصول على الترقية، وشَعَرَ بالافتخار والزَّهْو، لأنَّ النقيب شَرَّفَهُ بالثقة. كان بإمكاني أن أقول له: "أنا لن آتيَ معكم"؛ كان سيُسعَدُ، لأنَّ ذلك سيُتيح له تولِّي مهمَّة قيادة الرَّتْل الذي سيُحقِّق به المعجزات. ومخافة أن تُفتَضَحَ أسراري، فقد صار لزاماً عليَّ أن أذهب مع الرَّتْل. سأُراقب الطريق المختصرة، وأُقرِّر النقاط التي ينبغي إصلاحها.

"هل سنعثر على الماء؟"، سأل بعض الجنود.

"نعم"، أجبتُ دونما اهتمام، وأضفتُ فيما بعد قليل، بأنَّني لستُ على معرفةٍ كافية حول ذلك، لكنْ، ربَّما سنعثر على الماء. ثمَّ ابتسمتُ في سرِّي، لأنَّنا سنعثر أيضاً على قطعة من الصابون. أو ربَّما سنعثر على الغِرْبَان أيضاً ...

كان عليَّ العودة إلى هناك، وقد أثار الأمر اشمئزازي بعمق. وأكَّد لي ذلك الاشمئزاز خطأً المعادلة التي تفترض هَوَسَ القاتل بالعودة إلى موقع الجريمة مرَّة أُخرى. أَلَمْ يكن الاشمئزاز الذي أستشعره الآن دليلاً على أنَّ من المُبالغ فيه الحديث عن جريمة قتل؟! وفي حالتي هذه؟ حسنٌ، هذا التساؤل نفسه سببٌ للعزاء، وعلى قَدْرٍ من الإقناع.

وبينما كان الجنود يردِّدون أغانيهم خلال تقدُّمنا باتِّجاه النهر، ابتدأت كلُّ المخاوف التي كانت قد انتابتْني بالزوال التدريجي، أو بالأحرى فقد حلَّ محلَّها قَدْرٌ من الفضول، إنَّه الفضول الشبيه بذاك الذي يضعه القارئ النبيه وهو يتوجَّه لزيارة المواقع التي وَرَدَ ذِكرُها في الرواية المُفضَّلة لديه. كان بمقدوري أنْ أشعر بالاطمئنان، فلا شيء سيحدُث. ثمَّ ما الذي يُمكن أن يحدُثَ لي؟ لم أكُنْ أُغامر بلقاءٍ غيرُ مُنتظَر مع أشرار تائهين. وكنتُ أعرف جيِّداً بأنَّ أولئك الأشرار، إنْ وُجِدوا، فلم يكونوا ليختاروا ساعات النهار لتحقيق مآربهم، وإذا ما فعلوا ذلك، فإنهم سيُقدِمون عليه فقط، في حال وجود ما يمكنهم أن يغنموه. وإذاً، ما الذي بمقدورهم أن يغنموه من رَتْل من الجنود في مهمَّة استكشافية غير الرسائل وبعض الذكريات عن العودة إلى الوطن؟ أمَّا بقدر تعلُّق الأمر بالمرأة، فهي ما تزال راقدةً هناك في هدوء مُطلق، إلَّا إذا كان هناك أحدٌ من ذوي القوَّة الجسديَّة والجسارة ليُقدِم على إزاحة الصخور واحدةً تلوَ الأُخرى. هذا وحده ما يمكن أن يحدُثَ، إلَّا أنَّ الحفرة عميقةٌ للغاية، وقِطَع الصخور والحجارة كبيرة جدَّاً. كَلَّا، كانت المرأة ما تزال هناك، كنتُ واثقاً من ذلك، ولا بُدَّ أن جسدها جفَّ الآن تحت الحجارة التي دَفَنْتُها بها، وقد رتَّبْتُها بحذر وأناة، كما لو أنَّني خشيتُ إيذاءها.

بعد ساعة من المسير، وَصَلْنَا إلى النقطة التي ترقد فيها جيفة البغل النافق. لم يبقَ من ذلك الحيوان إلَّا القليل، لكن الرائحة النتنة كانت تعمُّ الأرجاء، وتزداد عفونة مع ارتفاع درجات حرارة النهار؛ وأكثر من أشجار الغابة والوادي الذي انفتح أمامنا، فقد كانت تلك الرائحة العفنة الأكثر قُدْرَةً على تذكيري بما حَدَثَ في ذلك اليوم، أعادت تلك الرائحة إلى ذاكرتي كلَّ ما حَدَثَ.

كنتُ أتقدَّم الرَّتْل، منفصلاً عنهم قليلاً، لا لأمنح جنودي مثالاً على الجرأة والشجاعة، بل لأستبقَهُم في حال العثور على أيِّ شيء قد أكون نسيتُهُ في ذلك المكان. كنتُ واثقاً بأنَّني لم أترك أيَّ شيء ورائي هناك؛ لكنْ، تمهَّلْ! ماذا عن ذلك المظروف الذي احتوى رسالتها؟ ها كم مثالاً على ما لا ينبغي أن تتركَهُ يتساقط من جيوبكم. كان من الصعب العثورُ على مظروفٍ آخر في ذلك المكان، وبرَغْمِ ذلك، فإنَّ هذه الفكرة أيضاً هي واحدة من الأفكار التي تخطر في ذهنكَ بينما تقطع طريقاً مُختصرةً برفقة جنود مُنشدين.

جاءني العريف، ليقترح عليَّ إسكاتَ الجنود عن الغناء. فسَّر لي أنّ بالإمكان أن نقع فريسة كمين منصوب، ونحن نُعلن عن وصولنا أو مرورنا بهذه الطريقة الاستعراضيَّة. "أنتَ على حقٍّ"، أجبتُهُ "دَعْهم يُقلعون عن الغناء"، فعلتُ ذلك رَغْمَ اقتناعي أنَّ "بإمكان ذلك الغناء أن يُدخِل الحبور في قلب المرأة الراقدة هناك". سَكَتَ الجنود، وأقلعوا عن الغناء مستائين، ذلك لأنَّ الجندي يُبدي احتجاجه مُنشداً، ويخفِّف الغناء من وطأة جميع المصائب التي تُثقِل كاهلَيْه، وعندما يُنشد الجندي لا يسرح ذهنه بفكرة العودة إلى الوطن.

كنتُ أُحدِّق بالمكان عبر أغصان الأشجار. "قفْ"! هتفتُ. كان هناك شيءٌ ما بين الأشجار، يُشبه حقيبةً. لم أكن أتمكَّن من رؤيته بشكل واضح. تقدَّمتُ شاهراً مُسدَّسي بيدي اليمني، بينما سمعتُ الجنود يشحنون أسلحتهم باضطراب واضح. ما هي تلك الحقيبة التي هناك؟ هل كان

رجلاً. لكنْ، كيف بإمكان رجلٍ أن يقف على طول قامته متعلِّقاً بأغصان شجرة؟ هل كان حارساً؟ لكنَّه لا يأتي حَرَاكاً؟ ولمُجرَّد عبوري الاستدارة أيقنتُ بأنَّه رجلٌ مشنوقٌ. مشنوقٌ وهو بزِيِّهِ المحلِّيِّ، كانت جبهته مُتدلِّيةً صوب الأسفل، كما لو أنَّه يتأمَّل في الطالع السَّيِّئ الذي واجهه. كانت ذراعاه ممدودَتَيْن إلى جنبَيْه، ووجهه منتفخاً. لم أكن لأتعرَّفَ عليه لولا أنَّني شاهدتُ عند قاع الشجرة التي شُنِقَ عليها آلته الموسيقيَّة الصارخة مهشَّمةً. كان واحداً من الشباب الثلاثة، العازفُ بالذات.

في الغضون، انتشر الجنود خلفي على مساحة ما، وكانوا صامتين. لم ينبس أيٌّ منهم ببنت شَفَة. كان الصمت ثقيلاً ومزعِجاً، إلَّا أنَّ طلقة من بندقية أحد الجنود كسرت ذلك الصمت فجأةً، وانطلقت الرصاصة إلى ما بين أغصان الشجر، طارت الغِرْبَان مُحلِّقةً في الهواء فيما سَقَطَ طائرٌ كبير على الأرض مرتجفاً، وفاقداً للكثير من ريشه. أمَّا الطيور الأُخرى، وبرَغْمِ كونها مرتعبةً بما يكفي، فقد عادت وحَطَّت على أغصان أُخرى قريبة من المكان كما أنَّ لا شيء قد حَدَثَ. أمرتُ الجنود بإيماءة سريعة من يدي بعدم إطلاق النار. فقد كان تحليق تلك الطيور فائضاً عمَّا نحن بحاجة إليه، ومن الأفضل عدم التَّسبُّب في فوضى.

"إنَّه قاطع طريق دون شكٍّ"، قال العريف.

"نعم، قاطعُ طريقٍ موسيقيّ"، أجبتُهُ دون الحاجة إلى إفهامه، لم يكن ذلك ضروريَّاً.

واكتشف الجنود بعد قليل جُثَّة أُخرى عند قاع شجرة قريبة، وكانوا يُدقِّقون فيها، بعد أن توقَّفوا على مقربةٍ منها دون أن يدور في خَلَدِهِم إزاحة النَّظَر عن الجُثَّة المستلقية على الأرض باضطراب. إنَّها جُثَّة الشَّابِّ الآخر الذي كان يتخلَّف عن المجموعة، بسبب رقصاته وقفزاته البهلوانية هنا وهناك، كان في غاية السعادة رَغْمَ أنَّه يعيش في غابة كثيفة قرب النهر، في مكانٍ دون صالة سينما أو مقهى. حين عاودْنا المسير، ابتدأ أحد جنودي بترديد أُغنيَّة سعيدة النغمات والكلمات، فيما وَاصَلَ الآخرون الاستماع إليه، دون أنْ يتجاوبوا مع المغنِّي أو يتشاركوا وإيَّاه عند لازمة الغناء الجماعية. في غضون ذلك، كنَّا قد اقتربْنا من الجزء اليابس من مجرى النهر، وينبغي علينا أن نُعجِّل بالمسير.

هاكَ، يُفترَض بي أن أُسجِّلَ في مفكِّرة الدَّوريَّة خبر عثورنا على جُثَّتَي الشَّابَّيْن. كان يساورني إحساسٌ غامض بوقوع المسؤولية في موتهما على كاهلي، ها هي مأساة أُخرى تحدث مُجدَّداً بسببي!. وقبل أن أستفسر من العريف، فكَّرتُ في احتمال أنّ اختفاء المرأة عن قريتها أثار حَنَقَ رجالها. أو أنَّ قُطَّاع الطُّرُق الذين هاجموا موقع العمل عند الجسر، لم يكونوا إلَّا رجالاً غاضبين وحانقين بسبب اختفاء المرأة؛ لكنْ، لا، ليس الأمر كذلك. وماذا عن الكهل؟ الرجل العجوز الذي يجول ما بين بيوت الدعارة باحثاً عن امرأة، ويحتسي القهوة التي رفضتُها أنا، ويُدخِّن أعقاب السجائر التي أرميها أنا؟ لا، لم يتحرَّ عن المرأة أحدٌ، غيرُ ذلك الرجل الكهل. ومَنْ يُصغي إلى كهلٍ عجوز مثله عندما يصل إلى أعتاب تلك المنازل متسائلاً عن فتاة؟ عن فتاة هجرت الغابة، لتنتقلَ إلى حياة أفضل، أفضل بكثير، وأكثر دواماً؟

وعندما سألتُ العريف عن رأيه في السبب الذي دعا إلى شَنْق هذَيْن الشَّابَّيْن، أجابني، بأنَّه ربَّما عَثَرَ الجنود في منازلهم بالفعل على بعضٍ من الأشياء المسروقة.

"ربَّما ترك قُطَّاع الطُّرُق تلك الأشياء وراءهم بعد فرارهم من المكان" قلتُ له.

"بالتأكيد"، قال جندي، هو نفسه الذي كان قد أطلق الرصاصة الطائشة قبل قليل، وكان يتابع حديثنا. "وهل كان قُطّاع الطُّرُق سيتركون الغنيمة في منازل هؤلاء بعد أن استولوا عليها؟"وحدَّق فينا بانتظار رَدٍّ، يستفيد منه في إصدار حُكْمه. كان ذلك الجندي يعمل في بلدته سارقاً ومُهرِّباً، والآن يعتلي منصَّة الدفاع عن المشنوقَيْن، ليُصدر حُكمه بحقِّنا. "وما هي مسؤولية هذَيْن الشَّقِيَّيْن في عملية السطو؟" أضافْ "أنتَ تتناسى ضرورات قوَّة المثال"، قال العريف. وأعاد الجملة لمرَّات عديدة، بينما كان يُحدِّق بي كَمَنْ يترقَّب دَعْماً لما يقول، أو يترقَّب الكلمة الأخيرة، أو ربَّما كان يُحدِّق لتذكيري بأنَّ تذكير الجندي بذلك هو واجبي أنا، وبأنَّهُ وَجَدَ نفسه مُجبَراً على الرَّدِّ، وتذكيره بسبب تقاعسي أنا عن أداء واجباتي. كان ذلك العريف رجلاً مثيراً للفضول، لقد طوَّع نفسه على اتِّباع المنظومة والانضباط العسكريَّيْن. لم يكن ينطق إلَّا بمفردات مُستقاة من اللوائح الانضباطية أو للتعبير عن روحية تلك المفردات بكلمات قليلة ومُختزلَة، ونادراً ما كان يستعين باستخدام الصفات خارج ما هو مقبول ومُستخدَم في المؤلَّفات العسكريَّة، فإذا ما أراد أن يصفَ وجبة الطعام المقدَّمة في حانوت المعسكر، فهو طعام "ممتاز"، وإذا ما مرَّت فوق رؤوسنا طائرة قتالية، فهي "إحدى طائرات قوَّتنا الجوِّيَّة العظيمة". وبعد أن زادت جرأته بسبب صمتي، أضاف: "تعني قوَّة المثال بأنَّ السُّكَّان هنا لن يجرؤوا في المرَّة القادمة على اقتراف جريمة النَّهْب".

"واضحٌ أنَّكَ لم تُضطرَّ إلى السرقة أبداً"، عاودَ الجندي المُهرِّب حديثه باستخفافٍ عميق، موجِّهاً صوبي نَظْرَة، عبَّرت عن التعاطف والارتياح. وواصلْنا المسير.

"وإذاً"، فكَّرتُ "فعملية السطو على موقع العمل لم تأتِ كردٍّ على اختفاء المرأة. ولم تكن طلقة مُسدَّسي هي التي أفلتت العنان لانهيار جبل الجليد، وقضية المرأة تخصُّني أنا وحدي". تخصُّنا نحن الاثنَيْن، أنا والرجل الكهل، وسيكون ذلك لحينٍ من الوقت. إذْ لن يُصرَّ ذلك الكهل على مواصلة البحث طويلاً، أو ربَّما سيموت في أثناء ذلك. أبالإمكان أنْ يعيش المرء طويلاً في هذه الغابة؟ لو كنتُ قد وُلدتُ هناك، لتركتُ هذه الأرض، ورَحَلْتُ عنها حاملاً معي بضع صورٍ فُوتُوغرافيَّة للذكرى فحسب. كنتُ سأنسى المرأة، وأخطائي وخطاياىَ جميعها. أوه، لم أكنْ لأُطيق رؤيةَ شبحها ماثلاً أمامي عند نهاية سريري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٢

بعد أنْ عبرْنا الجدول، سلكْنا الدرب الذي ظَهَرَتْ منه في تلك الأُمسيَّة حاملة معها سلَّة الطعام. والآن، وإذْ توحي كلُّ الأمور إلى وجودها أشعر بالهدوء، بالضبط كما لو أنَّني أراها ماثلة أمامي، وأنْ لا شيء قد حَدَثَ على الإطلاق. كان يُفترض للدرب أن يقود إلى تلك البقعة الكَثَّة من الأشجار، والتي أشارَتْ عليها كما لو أنَّها قريتها.

كنتُ قد أعدتُ مُسدَّسي إلى قِرَابِهِ، وشَعَرْتُ بقَدْرٍ من الخَدَر في يدي اليُمنى، بسبب ذات الجُرح الذي لم يندملْ بعد. كنتُ أسير بهدوء، يتبعني الجنود مُنشدين، وكانوا يُنشدون ذات الأغاني التي تبثُّها أجهزة الغرامافون، والأغاني المفعَمَة بذكريات الرحيل، وهي أغانٍ لم تكن هناك حتَّى امرأة واحدة لتُغنِّيها لهم إذا ما عادوا إلى الوطن. كنتُ أسير بهدوء، لأنَّ تلك هي منطقتها وأماكنها، وقد بَدَتْ لي أليفة للغاية، بالضبط كما كانت أليفةً بالنسبة إليها. مَنْ يدري؟! فقد يكون رمل الدرب ما يزال مُحتفظاً ببعضٍ ممَّا نَحَتَتْ قَدَمَاهَا.

على بُعد ثلاثمائة مترٍ منَّا تحرَّك شيءٌ ما بين الأحراش، ورأيْنا رجلاً يفرُّ من المكان، وبالكاد تمكَّنتُ من الحيلولة دون أن يُطلِق العريف رصاصة صوبه، لكنِّي لم أتمكَّن من مَنْعه عن الصراخ صوب الرجل، ولم يكن لهذا الرجل إلَّا أن يُلقِيَ علينا نَظْرَةً عاجلة، ويُواصِلَ ركضته المضطربة، (هل كان رجلاً بالفعل أم أن المسافة الفاصلة بيننا خَدَعَتْ عَيْنَيَّ؟). شاهدْناه وهو يتهاوى في حفرة، ليظهرَ من جديد، باحثاً عن ساترٍ ما بين الأحراش، يُحدِّق فينا، ويُواصِلُ ركضتَهُ.

"لنتركه وحاله"، قلتُ. لكنّ العريف رَمَقني بنَظْرَة ساخرة. فبرأيه، كان عليَّ "أن أُوقفَهُ". حاولتُ إفهامه بأنَّ من الحكمة أن يفرَّ ذلك الرجل منَّا قبل رؤيتنا. فقد أدرك مقدار السهولة التي يتمُّ فيها تعليق جسد إنسان بأغصان شجرة لمُجرَّد سُمرةِ بشرته، وبأنَّهُ كان يسعى بركضته تلك إلى زيادة المسافة الفاصلة ما بين رقبته وبيننا، نحن حاملو الحبل المفترضون. كان يفرُّ كما يفرُّ أيُّ حيوان، دون أن يُسائِلَ نفسه ما إذا كنَّا عازمين على اعتباره مذنباً لمُجرَّد كونه يلوذ بالفرار. كان يُنقِذ نفسه بذلك الفرار، ويحاول النفاذ بجِلْده. ومن غير المعقول أن نُطالبَهُ بأن ينتظر وصولنا إليه، ليُريَنا "بطاقة الولاء" الحاملة لصورته المُلتقطة أمام أعواد القصب في الطبيعة.

كان السُّكَّان الأصليُّون يجولون في هذه البلد حاملين في جَعْبَتِهِم "بطاقة الولاء". كانوا قد مثلوا أمام قيادات المعسكرات منذُ الأيَّام الأولى، لأداء قسم الولاء، أو مُجرَّد قسم الانصياع. كانوا يحلمون في العيش بسلام، وغالباً ما كانوا يُطلبون من أوَّل جندي يلتقونه أن يؤكِّد نواياهم الطَّيِّبة بوثيقة، وذلك لأنَّ الجندي الذي يُلتقَى للمرَّة الأولى هو الأخطر دائماً، وقد استمتع الجنود بإصدار وثائق الطاعة كما يحلو لهم، ولم تكن تلك الوثائق بأقلّ صَلَاحِيَة من الوثائق الموزَّعة من قِبَل القيادات، إلَّا أنَّها كانت أكثر تلويناً من الوثائق الرَّسْمِيَّة المطبوعةِ لهذا الغرض. ولم يكن نادراً أن تلتقيَ أحد السُّكَّان المحلِّيِّيْن وهو يحمل في جَعْبَتِهِ وثيقةَ طاعة، كُتِبَتْ على ظَهْر بطاقةِ مراهنات يانصيب منتهية الصَّلَاحِيَة. كانت تلك هي بطاقاتهم الأكثر قيمة على الإطلاق، والدليل على ذلك هو أنَّهم لم يكونوا ليتعرَّضوا لإزعاجات، بعدما انصاعوا لمشيئة الخالق.

آخرون، من السُّكَّان الأصليِّيْن، كانوا يحملون معهم بطاقات تعريف، تحمل جملاً غير لائقة، وغير قابلة للتكرار هنا، أو توصيةً تدعو قارئ البطاقة بأن يُمطِرَ عَجِيْزَةَ حامل البطاقة بالركلات؛

وهكذا كان هؤلاء الناس يسرحون بثقةٍ في الشوارع الجديدة دون الاضطرار للمرور عبر الطُّرُق المختصرة الوعرة.

رأينا الرجل يواصل الهرب، ومن ثمَّ رأيناه يتوقَّف قَلِقاً. كان ينظر باتِّجاهنا، ويشعر بالضياع. لقد رآنا نتَّبع خَطوَهُ بحزم، وكان مندهشاً من إصرارنا على عدم إطلاق النار عليه، رَغْمَ الإصرار على ملاحقته.

"إنَّه طفلٌ صغير"، هَتَفَ الجندي المُهرِّب.

"طفل؟"

كان قد توقَّف عند أسفل تلَّة واطئة، وحيثُ كان الدرب يتَّسع وينفتح. وعندما رآنا نقترب من موقعه (نعم، لقد كان بالذات "ذلك" الطفل)، عاود الهرب. وبدأ باعتلاء التَّلَّة متشبِّثاً بأعواد العشب النابتة عليها، لكنْ، دون أن يتَّبع مسار الدرب. أثار الرعب الذي كان يستشعره عطف الجنود. "فلنتوقَّف!"، قال أحدهم.

كنتُ قد فكَّرتُ بالشيء ذاته، لكنِّي لم أكن قادراً على التَّوقُّف. عليَّ الآن أن أبلغ ذلك الطفل. أمرتُ العريف بأن يمكث برفقة الجنود، وأومأتُ إلى الجندي المُهرِّب بأن يتبعَني.

"لا تهربْ!"، صرختُ باتِّجاه بالطفل. لكنْ، هل كانت صرختي تنفع في شيء؟ بالتأكيد لم يكن الطفل قادراً على استيعاب كلماتي. كان بمقدور الجندي المُهرِّب أنْ يتجاوزَني ويلحقَ بالطفل، إلَّا أنَّه وَاصَلَ السير خلفي بتكاسلٍ واضح، فقد كان مُقتنعاً بعدم أهمِّيَّة الإمساك بذلك الطفل. ربَّما كانت ذاكرته تستعيد بعضاً من تجاربه الشَّخصيَّة الشبيهة بما يواجه الطفل الآن، وهي التجربة التي عايش خلالها، هو، الآثار الواقعة على كاهل الطرف الأضعف، أي الهارب الذي يشعر خلف ظَهْره بشهقات المُلاحِقين الثقيلة، وبصرخاتهم صوبه، والذين تدفع الدولة لهم الرواتب لقاء ذلك العمل، وهم يُنفِّذونه بكلِّ الحذافير.

توقَّف الطفل، وأسند ظَهْره إلى شجرةٍ، تقع على بُعد بضعة أمتارٍ فوق رؤوسنا. لقد قرَّر الإقلاع عن مواصلة الهرب. رأيتُ جسده النحيل مرتجفاً. مرعوباً غلبَهُ الهَلَع، أدرك أن لا نفعَ في مواصلة الفرار، وبسبب الإنهاك الذي انتابني خلال الصعود لم أتمكَّن من الابتسام له، حتَّى صرتُ على بُعد خطواتٍ قليلة منه. إذَّاك فقط رأيتُهُ يرتدي بنطالي القصير، نفس البنطال الذي أهديتُهُ إلى المرأة.

حسنٌ إذاً، بدأت الأمور تتعقَّد بشكل إضافي. لقد كان ذلك البنطال علامة واضحة ليس بالإمكان تغافلها. وتراءَت لي المرأة لبُرْهَة وهي تبتسم مُحدِّقةً فيَّ بعَيْنَيْهَا الواسعَتَيْن شبه المُغلَقَتَيْن، مُنذرةً إيَّاي، هذه المرَّة، بأنَّ الأمور لم تنتهِ بالمرَّة، كما تمنَّيتُ. كان الطفل يرتدي ذلك البنطال كغطاء وحيد لجسده، وكان يُغطِّي الجسد ابتداءً من الصدر حتَّى قَدَمَيْه، ولمُجرَّد أن رأى بأنَّني أُدقِّق في البنطال خَلَعَهُ، وبقي عارياً، ومَدَّهُ إليَّ. كان يُعيد إليَّ البنطال، ويعترف بأنَّه لم يكن شيئاً عائداً إليه، وكان يستغلُّ تلك الفرصة ليقوم "كأيِّ عبدٍ أمام سيِّده" بإعادته إليَّ.

أفهمتُهُ ببعض الإيماءات أنَّ بإمكانه الاحتفاظ بالبنطال. كان يواصل مَدَّ ذراعه، مانحاً إيَّاي قطعة الزِّيِّ، مُصمِّماً على الاعتراف بحقوقي، شريطةَ أن أُوفِّر حياته. وعندما أدرك في النهاية بأنَّني لم أكن لآخذَ البنطال، وَضَعَهُ على الأرض برفق، وعاود ركضته العاجلة صوب سفح التَّلَّة.

"لنَذهب"، قال الجندي المُهرِّب. لَاحَقْنا الطفلَ، الذي بدا الآن أكثر دهشةً وذهولاً من إصرارنا على ملاحقته. وإذاً فهو لم يُفلِحْ في تهدئتنا؟ رَفَعَ الجندي المُهرِّب البنطال عن الأرض، وصِرْنا بعد قليل نُطلُّ على مساحة مفتوحة.

كان الطفل يقف عارياً في منتصف الساحة المفتوحة يُحدِّق فينا. صَرَخَ ببعض الكلمات غير المفهومة حين شاهدَنا نُطلُّ من هناك، ورأيتُ رجلاً قريباً من حفرةٍ في الأرض، توقَّف عن العمل في تلك اللحظة، استدار صوبَنا، حدَّق فينا، ثمَّ عاد إلى ممارسة عمله كالمعتاد. كان ذلك هو الرجل الكهل الذي سَبَقَ ورأيتُهُ. ولا بُدَّ أن ما كان ما يفعله في تلك اللحظة عملٌ هامٌّ للغاية، إذ لم يدفعه وجودنا إلى التَّوقُّف عنه لإلقاء التَّحيَّة علينا. كان يعمل حول حفرة، ولم يقلْ شيئاً عندما انغرست أبصارنا في داخلها. كان العجوز يعمل على رَدْم الحفرة، ولا يفوه بشيء. أشعلتُ سيجارةً. كان هواء المكان ما يزال مُشبَعاً بالرائحة الثقيلة للجثث التي لم تتغطَّ بالتراب بعد. لم يَبْدُ الرجل العجوز على عجلٍ من أمره، وكان يردم الحفرة بالتراب بهدوء مُحاوِلاً تغطية أماكن الفراغ، ودون أن يُلقيَ إلينا بالاً.

بدا أنَّه لا يخشانا، ولم يَشعر أنَّ من الضَّروريِّ الابتسام لنا، أو تأدية التَّحيَّة التي سَبَقَ أن شاهدتُهُ يؤدِّيها لمرَّات عديدة من قبل. كان يُهيل التراب في الحفرة مستخدِماً المِسْحَاةَ مرَّة وكفَّيْه مرَّات أُخرى. سيظلُّ على هذه الحالة حتَّى إنجاز العمل بكامله، دون أن يستديرَ إلينا، وربَّما فكَّر أيضاً في احتمال وصول ركلةٍ منِّي، تُرقِدُهُ في الحفرةِ بجوار مَنْ كانوا يُدفَنون في تلك اللحظة، كما لو كانوا أشياء ينبغي إخفاؤها عن تطفُّل الحيوانات المفترسة، أو حمايتها من عَسْف الزمان.

كنتُ عاجزاً عن الرحيل. جَلَسَ الجندي المُهرِّب على حجارة بعيدة، مُقتنعاً بضرورة أن تُتاح للبشر الباقين على قيد الحياة فرصةُ دَفْن موتاهم بالشكل المناسب. لم يعتبر أنَّ في أسباب بقائي في ذلك المكان إهانةً لذلك الرجل الكهل. إلَّا أنَّه اعتبرني، بالتأكيد، شخصاً بليداً، أو مُجرَّد ضابطٍ في جيشٍ مُحتلٍّ. ولمُجرَّد عودتنا إلى إيطاليا سنجد نفسَيْنا على طَرَفَيْن مُتضادَّيْن من الخندق، وسيكون هو، مُضطرَّاً من جديد إلى تدبير معيشته اليومية مغامراً بحياته.

كانت شخصية ذلك الجندي الشَّابِّ عسيرةً على الفَهْم، وكان واحداً من الأشخاص القلائل الذين شَعَرْتُ بالاحترام تجاههم. حسنٌ، ها هما على بُعد خطواتٍ، أحدهما عن الآخر، الشخصان اللَذَان احترمتُ أكثر من غيرهما، الجندي المُهرِّب والرجل العجوز. لم يتبادلا أيَّة كلمة. لكن الأفكار التي جالت في خاطرَيْـهما كانت مُتطابقةً، كنتُ أستشعر ذلك، وبما أنَّني أُمثِّل القانون، أو ما يُشبهُ ذلك، فقد كنتُ أنا مَنْ عليه أنْ يدفع الثمن. "صباح الخير"، قلتُ للرجل الكهل. (وما الذي بإمكاني قوله غير ذلك؟)

استدار الرجل صوبي، وحدَّق فيَّ. لم تكن سَحْنَتُهُ تحمل أيَّ تعبيرٍ عن مشاعر، لا وجود لأيِّ اندهاش لتحيَّتي الدَّالَّة على هزيمته، ولا للكراهية التي كان لحضوري أن يُشيعَها في داخله. جَلَسَ مُسنداً ثِقلَه على كاحلَيْه، وبرزت ساقاه من الثوب الذي لَفَّهُ حول خصره النحيل، ليتمكَّن من إنجاز العمل.

"طاب نهاركَ، حضرة الملازم"، أجابني.

كان يُحدِّق فيَّ، لكنْ، دون أن يتمكَّن من التَّعرُّف عليَّ، كنَّا قد التقيْنا مرَّة واحدة بشكل عابر، وكنتُ وقتَها مُغطىً بظلال العتمة الناتجة في زوايا الغرفة بفعل لهب الفانوس. "كانت تلك

الظلال نعمةً إلهية"، فكَّرتُ. كان يُحدِّق فيَّ بإمعان، ربَّما لدهشته من توجيه كلامي إليه. عندها سألتُهُ، مُشيراً إلى الحفرة التي رَدَمَهَا: "أهو أحدٌ من أفراد أُسرتكَ؟".

لم يكن ذلك هزيمة، بل استسلاماً يترك للخصم حقَّ حَسْم الأمر فيه. هزَّ الرجل رأسه، دون أن يفوهَ بشيء، ثمَّ عاودَ رَمْي التراب في الحفرة، وكان يأملُ، بالتأكيد، أن أرحل من هناك وأتركه وشأنه. إلَّا أنَّني قرَّرتُ عكس ذلك، وجَلَسْتُ على صخرة كبيرة، مُواصِلاً نَفْثَ دخان سيجارتي. "أنتَ تتكلَّم الإيطاليَّة؟"، قلتُ له.

أومأ برأسه بالإيجاب، إذَّاك قلتُ له "اروِ لي، إذاً".

نَهَضَ العجوز واقفاً، وحدَّق فيَّ. ولِلَحظة شَعَرْتُ أنَّه سيرميني بالحجارة التي كانت في يده.

"أنتَ تعلم بالأمر، سيِّدي الملازم"، أجاب. ثمَّ هَتَفَ بكلمات صوب الطفل الذي بدأ بحَمْل قِطَع الحجارة إليه. حجارة بعد أُخرى.

كان ذلك الطفل قد اطمئنَّ إلى وجودنا في المكان. وقد جَعَلَهُ حواري القصير مع الرجل أكثر جسارةً، وهو الآن يتحرَّك بحيويَّة أكبر في الساحة، مُتباهياً بمقدرته على حَمْل قِطَع الحجارة، كي أُعرب له عن إعجابي. كان يضع الحجارة إلى جوار الرجل الكهل، ويُـهرع لحَمْل الأُخرى، ويختار الكبيرة من بينها، وبعد بُرْهَة قصيرة من التَّفحُّص كان يتجاهل الحجارة الصغيرة.

لم يشعر الجندي المُهرِّب بالانزعاج، لَفَّ سيجارة، ولم يتشارك معنا في الحوار، كان يعرف كلَّ شيء، وبَدَتْ له تلك القصَّة قديمة، تعرَّف عليها في ما مضى. لم يكن يُحبُّ السُّكَّان الأصليِّيْن، لكنَّه كان يكره أيضاً الإقدام على قَتْلهم. كان قد اضطُرَّ على الفرار إلى جبال الألب دونما سلاح (فلو أمسكوا به مُسلَّحاً، لكانت تلك نهايته)، تعوَّد على كراهية مَنْ يستخدم السلاح ويُصوِّبه نحو الآخرين في أيَّة فرصة، ويُطلق النار لتأكيد وجهة نَظَره. لقد كان أولئك السُّكَّان الأصليون أقرب إليه منِّي، لذا لم يكن يشعر بالحاجة للاشتراك في أيَّة كوميديا. ينبغي النَّظَر إلى الموتى بخشوع وهم يُدفَنُون، ولا نفع من توجيه الأسئلة إلى حفَّار القبور الذي يردم الحفرة. وما النفع من وراء رَسْم علائم دهشة العابرين تلك؟ "كيف حَدَثَ ذلك؟ اروِ لي، أيُّها الرجل الطَّيِّب! يؤسفني ذلك حقَّاً!".

هذا ما كان يجول في خاطر الجندي المُهرِّب، ويكفي أن تُشاهدَ مقدار الغضب الذي لَعَقَ به ورق السيجارة، لتتلمَّس ما كان يساورهُ من أفكارٍ في تلك اللحظة. بالتأكيد لم أكن أؤدِّي في تلك اللحظة دوراً في كوميديا، نَتَجَتْ عن دافع الفضول. إلَّا أنَّه، أي الجندي المُهرِّب، لم يكن ليُدرك حقيقة الأمر.

سألتُ الرجل عن سبب إتقانه لغتي، عندها أخرج من جيبه محفظةً قديمة، ونبش ما بين الأوراق فيها، واستخرج واحدةً، ومَدَّها إليَّ. كانت تلكُم هي وثيقة الراتب التَّقاعديِّ الصادرة عن الحكومة الإيطاليَّة. وإذاً فقد كان الرجل أحد أفراد قوَّة "العساكر" في عصرها الذَّهبِيِّ، بعد ذلك عاد ليعيش في هذا المكان القَصِيِّ. دُهشتُ من قدرته على العيش على سفح تلك التَّلَّة البائسة المحصورة ما بين الوادي وغابة الأشجارٍ المثيرة للقرف كتلك.

كان اسمه يوهانس. وأبديتُ دهشتي لعدم تدخُّله لمَنْع وقوع المذبحة، إلَّا أنَّني أعرف بأنَّه كان تلك الأيَّام فوق الهضبة. ومع ذلك، فقد سألتُهُ عن عدم تدخُّله، وعن عدم قيامه بعرض تلك

الوثيقة التي كان الجميع سيحترمها، "لم نكن في القرية"، قال ذلك مشيراً صوب الطفل. أعتقد بأنَّني شَعَرْتُ في نبرة صوته كلّ الأسى الناتج عن غيابه عن القرية بالذات في اليوم الأكثر احتياجاً لحضوره فيها؛ إلَّا أنَّ ارتياحه لنفاذ الطفل من المجزرة كان يُريحُ نبرة صوته. تُرى كيف كان الجنود سيتصرَّفون معه فيما لو التقوه؟ هل كانوا سيتردَّدون عن تمزيق تلك الوثيقة أمام ناظرَيْه؟

أفراد "الضَّابطيَّة" مستعدُّون على الإقدام على كلِّ ذلك دونما تردُّد. فقد وَصَلُوا، بالتأكيد، مُعتلينَ صهوات جيادهم، من أجل هدفٍ عاجل، وكانوا في الأرجاء، وليس من العسير حَرْق كوخَيْن من القشِّ أو ثلاثاً. وعلى أيَّة حال، فقد كان أفراد الضَّابطيَّة يعرفون جيِّداً ما الذي اقترفتْهُ أيادي العساكر في ليبيا، وكلُّهم، أفراد الضَّابطيَّة والعساكر يتقاضون أموالهم من نفس السَّيِّد، وهذا هو السِّرُّ الخفيُّ الذي تقوم عليه الإمبرياليَّة.

كان يوهانس يُحدِّق بي دونما فضول، وربَّما لم يكن حتَّى ينظر إليَّ أنا الشاخص أمامه، بل أبعد منِّي؛ حدَّق في سفح الهضبة وإلى الوادي الذي ينفتح أمام الشمس في ذلك النهار. "هو ذا الرجل الكهل"، فكَّرتُ "يُصرُّ على العيش هنا، حيثُ ستهبط الضِّباع، هذا إذا لم يكونوا قد هَبَطُوا بالفعل، منجذبةً بروائح الجثث المدفونة في هذه الحفرة"..

"أنتَ، أيُّها الأسمر الصغير"، قال الجندي المُهرِّب، فهُرِع الطفل صوبه جَذِلاً ومطمئنَّاً. ناوله المُهرِّب البنطال، وأمره بارتدائه. ووَاصَلَ بعد ذلك الحديث معه بلهجته المحلِّيَّة، وتمكَّن الاثنان من استيعاب بعضهما، كما يحدُثُ دائماً. "خُذْ"، ومَدَّ إليه نصف حصَّته من الخبز، ولم يوافق الطفل على أَخْذه في البدء، إلَّا أنَّه بدأ في الحال بالتهام الخبز. كان الجندي المُهرِّب يُقيِّمني بشكلٍ سَلْبيٍّ، شَعَرْتُ بذلك. كنتُ أقتصر في سلوكي على أداءٍ أكاديميٍّ للتعبير عن الشفقة، وبرأيه، لم يكن بمقدوري، أن أفعل غير ذلك. أمَّا هو، فقد تمكَّن من الاصطفاف إلى جوارهما بمُجرَّد صيحَتَيْن بسيطَتَيْن، وبتلك الكلمات القليلة قيلَ كلُّ شيء ما بين أولئك الثلاثة، ولم يكن بمقدور الفوضى الناجمة عن اللغات من الحيلولة دون اكتمال التفاهم فيما بينهم، ذلك لأنَّ أحدهم كان يُدرك ما في داخل الآخر، كما لو كانوا مترابطين بجذور مشتركة، ومرتبطين بقَدَرٍ مُبهمِ المآلات وحافل بمجاهيل شرِّيرة. هكذا تمَّت الأمور. "خُذْ"، قلتُ للرجل وأنا أُناوله قطعة من الخبز الذي حَمَلْتُهُ معي. سارع إلى أَخْذ الخبز وإخفائه في جَعْبَتِهِ. كنتُ أقف هناك متسائلاً ما إذا كان الرجل يرى فيَّ نفس شخصية قائد كتيبة الإعدام الذي لا ذنب له، لكنَّه هو مَنْ وَجَبَ عليه إصدار الأوامر، مُقنِعاً نفسه بأنَّ "أحداً ما لا بُدَّ أن يفعل ذلك".

غطَّى يوهانس الحفرة بالكامل، كان يسعى أن يُنهيَ ذلك العمل قبل ارتفاع الشمس في كبد السماء، وقبل ذوبان ظلال الأشجار بفعل ذلك. لم أعدْ أُوجِّه إليه أيَّة أسئلةٍ أُخرى، واقتربتُ من الطفل، الذي كان يَزْدَرِدُ قطعة الخبز. كنتُ عاجزاً عن ترجمة الأسئلة التي تلتهب في ذهني. أكان هو ابن المرأة؟ دُرتُ حوالَيْه، متظاهِراً بتأمُّل الأرجاء، طَلَبْتُ من الجندي المُهرِّب عود ثِقَاب، كي أُوفِّر لنفسي الوقت اللَّازم لمراقبة الطفل بشكلٍ أفضل. ابتسمتُ له آملاً في أن يردَّ عليَّ بابتسامة. فقد كنتُ سأتعرَّف على تلك الابتسامة دونما شكٍّ.

هكذا هو الأمر، كنتُ أُحاول التدقيق في التفاصيل، أتصرَّف بالضبط كباحث في السلوك المجتمعي. أهو ابنها أم شقيقها أم هو ابن أحد إخوانها؟ لكنْ، بماذا يُمكن أن ينفعَ كلُّ ذلك؟ ألم يكن كلُّ شيءٍ جَليَّاً في العَيْنَيْن الخضراوَيْن الرَّماديَّتَيْن، أو ذلك السلوك الممتلئ بالحياء وهو

يحمل قطعة الخبز صوب فمه؟

بعد دقائق من ذلك، غادرتُ القرية شاعراً بسعادة أكبرَ ممَّا كنتُ عليه عندما ابتدأتُ رحلة اليوم.

بَدَتْ خطيئتي وكأنَّها قد تلاشت تقريباً. "كانوا سيقتلونها على أيَّة حال"، فكَّرتُ، "ويا للميتة الرهيبة التي كانت ستتعرَّض إليها! لقد استبقت مصيرها المحتوم ببضعة أيَّام، موفِّراً عليها نهايةً في غاية الفظاعة. لم تشهدْ مقتل أقاربها، ولا إحراق أكواخهم، كما لم تستمع إلى صيحات رجالٍ مَهوُوسين بالقَتْل من أجل القَتْل فحسب". هذا ما رَدَّدْتُهُ مع نفسي بينما كنَّا ننزل الدرب من التَّلَّة. وبَلَغَ بي الأمر إلى الإحساس بالرضا، لكوني أقدمتُ على قَتْلها.

لكنْ، لماذا يُلاحقني الرجل الآن؟ هل يرغب في الحديث معي؟ توقَّفتُ، فتمكَّن هو من العثور على تحيَّته العسكريَّة التي أدَّاها وهو في العشرين، "حضرة الملازم"، قال لي "هل ترغب في أَخْذ الطفل معكَ؟" تبادلْنا، أنا والجندي المُهرِّب نَظَرَات اندهاش.

"إنَّه شاطرٌ وخلوق"، وَاصَلَ يوهانس "سيتعلَّم سريعاً كيف يقوم بخدمتكَ، لا نفع في بقائه هنا".

"يوهانس"، أجبتُهُ "أنا أشكركَ، لكنْ، ليس بإمكاني أَخْذ الطفل معي. أنتَ تعلم جيِّداً بأنَّني لستُ سيِّد القرار فيما أرغب في فعله. إذا ما أرسلتُ الطفل إلى المعسكر، فسنوفِّر له الخبز كلَّ يوم، وربَّما أشياء أُخرى، لكنْ، ليس بإمكاني أن آخذه معي"، وابتسمتُ له.

"أنتَ بإمكانكَ أن تأخذَهُ معكَ"، ردَّ عليَّ، وبما أنَّه كان في تلك اللحظة يُحدِّق فيَّ، فقد أبقى ناظرَيْه مُسلَّطَيْن على وجهي. كان يرمقني بذات الحزم الذي رَمَقَنِي به النقيب في الصباح ذاته. لم يقلْ شيئاً، وابتعد عنَّا.

حين وَصَلْنَا إلى الجدول، رأينا بأنَّ الطفل يتبعنا (هذا ما كان العجوز قد أمره به، على ما أعتقد)، كان يتبعنا بهدوء، وقد اختبأ الآن ما بين الأحراش، بسبب توقُّفنا لننظرَ صوبه، وكان يعسُّ علينا من بين الأغصان. انتابت الجنودَ حالةٌ من المرح، فقد انقلبت الصورة الآن. كان الطفل يتبعنا وسيأتي معنا إلى المعسكر، وسأجده أمام خيمتي بعينَيْه الخضراوَيْن الرَّماديَّتَيْن، وسيُشبعه الحُرَّاس بالركلات. كنتُ على وشك فقدان الصبر. "ما العمل معه؟" سألتُ الجندي المُهرِّب. "ربَّما يسعى إلى الحصول على كِسْرَة خبز أُخرى"، أضفتُ، لكنِّي كنتُ واثقاً بأنَّه لم يتبعْني بحثاً عن الخبز.

"سنرى فيما بعد"، أجاب الجندي المُهرِّب. ذَهَبَ إليه، وقاده ليضمَّه إلى الرَّتْل. لم أعترض، كما لم يجرؤ العريف على الاعتراض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٣

لم يكن الزَّهْو بالذات هو ما يُحرِّك الجندي المُهرِّب، ويُدير سلوكه، فقد كان يجهل حقَّاً ما العمل مع "الأسمر الصغير". كان إنساناً بسيطاً ابتدأ بتدبير قُوْت يومه مُذْ كان طفلاً هو الآخر، ورغب في تلقين الطفل كيفية تدبير قُوْته، وعلَّمه ذلك بالفعل في غضون أيَّام قليلة أشياء كثيرة. كان يُرسله إلى البلدة الكولونياليَّة القريبة لشراء بعض الحاجيات، ويقومان ببيع ذلك كلِّه في المعسكر، ويُحقِّقان ربحاً بسيطاً. وبعد أسبوعَيْن أتقن الطفل جميع الكلمات الضَّروريَّة لتجارته. كان يتناول خبزه، وينام ما بين أكياس وصناديق المخزن، ولا أحد يعترض على وجوده، فقد كنَّا على وشك الانتهاء من هذه المغامرة، شهرٌ أو آخر إضافيّ، وسنشدُّ الرحال صوب الوطن.

وفي الأوقات التي لم يكن فيها منشغلاً بتجارته، كان الطفل يأتي ليجلسَ أمام خيمتي، كما توقَّعتُ منذُ البداية. إنَّه يُنفِّذ ما أمرَهُ به يوهانس. فقد صرتُ أنا بمثابةِ "والده"، وكان يعود إليَّ في أيِّ وقت تبرز الحاجة للسؤال عن شكوكه في بعض الأعمال. كان يفترش الأرض على بُعد مسافة قصيرة من مدخل الخيمة، يواصل التحديق بي حتَّى اللحظة التي أتكرَّم فيها عليه بنَظْرَة. عندها كان يبتسم ويحني رأسه، بحيث يكون واضحاً لديَّ بأنَّه جَلَسَ هناك على أُهْبَة الاستعداد لتنفيذ أيَّة أوامر، أُوجِّهها إليه، وإنّ تلك التجارة أو التهريب ما كانا إلَّا وسيلَتَيْن لقضاء الوقت لا أكثر.

"حسنٌ، إلياس، ما مقدار ما تربحه؟"

كان يردُّ على سؤالي بذِكْر الرَّقْم بدقَّة كاملة حاملاً على راحته قِطَع النقود التي تقاضاها في ذلك اليوم (بالضبط بذات الطريقة التي فعلتْها المرأة)، مؤكِّداً لي أنّ بإمكاني التَّصرُّف بها كما يحلو لي. وكان يمكث في مكانه، جالساً بالاستناد على كاحلَيْهِ، كما الرجل الكهل الذي يجلس الآن بالتأكيد على حافَّة المرتفع حارساً موتاهُ. إلَّا أنَّني لم أكن أُحبُّ ذلك الطفل، وكان حضوره يُزعِجني، بالذات بسبب تلك الابتسامات، وللطريقة التي كان يفتح فيها كَفَّيْه مُقدِّماً إليَّ ما فيها، وبسبب طريقته في التحديق المتواصل فيَّ بإعجابٍ لا نهائي، دون أن يزيل ناظرَيْه عنِّي أبداً. كنتُ أوافق على حضوره كَقِصَاصٍ لي، وكأخفِّ عقاب أُتيح لي اختياره، إلَّا أنَّه كان عقاباً على أيَّة حال.

"كم كان عدد النساء في القرية، يا إلياس؟".

فكَّر الطفل لبُرْهَة، وأجابني بأنَّ عددهنَّ كان ثلاثاً.

"هل كنَّ طاعناتٍ في السِّنِّ؟"

مَكَثَ الطفل لبُرْهَة تفكير أُخرى، وأشَّر لي بأنَّ اثنَتَيْن منهم كانتا طاعنَتَيْن في السِّنِّ.

"وهل قُتلت الشَّابَّة أيضاً؟".

أومأ الطفل بلا. لم تُقتَلْ. كانت قد رَحَلَتْ قبل ذلك بسبعة أيَّام.

"رَحلَتْ؟ إلى أين، يا إلياس؟".

لم يعرف الطفل لذلك جواباً. كان يرفع ذقنَهُ إلى الهواء، ليُخبرني بأنَّه لا يعرف لذلك جواباً. كانت قد رَحلَتْ، بالضبط كما ترحل كلُّ النساء، "لتتزوَّجنَّ" بضابطٍ أو بسائق. ذَهَبَتْ صوب

الهضبة، صوب المدينة الباهرة، وحيثُ ينام الناس في أكواخ بهيَّة، ولديهم كلُّ ما يرغبون فيه.

"وهل كانت هي أُختكَ؟"

هزَّ الطفل رأسه لأكثر من مرَّة، ليقول لي نعم. بالضبط كما كنتُ توقَّعت؟

"حسنٌ، إلياس، هذا يكفينا لليوم، لقد انتهيْنا من الدَّرْس".

وتوجَّه إلياس إلى ربِّ عمله، ليتسلَّم منه الأوامر على ما عليه أن يفعله خلال النهار. كان سعيداً، لأنَّ بعض الجنود أعدَّ له زِيّاً، خِيطَ من بِزَّة عسكريَّة قديمة، وكانوا يُحمِّمُونه دائماً، إلَّا أنَّني كنتُ أراه شاخصاً من جديد أمام خيمتي في الصباح التالي. كبقايا خطايا المساء السابق، والتي لم يكن مرور الزمن قادراً على تهدئتها، لأنَّني صرتُ أشعر بجسامة جريمتي كلَّما ازددتُ معرفةً منه بمعلوماتٍ عن المرأة. صرتُ أعرف اسمها. مريم، وكنتُ أراها تبتسم وتُغنّشي عبر حكايات إلياس عنها، ها هي تتَّجه صوب النهر أو تقوم بإعداد الخبز.

كان إلياس قد أساء تفسير اهتمامي بحياة القرية المُدمَّرة، فَهِمَ بأنَّ أسئلتي المتكرِّرة تسعى فقط إلى إبداء العطف تجاهه. لذا فقد اعتقد بأنَّ الطريقة الوحيدة للرَّدِّ على ذلك العطف تكمن في الولاء الكامل. وقد انتبهتُ في ليلة من الليالي بأنَّه لم يعد ينام في مخزن المعسكر، بل قُرب خيمتي. كنتُ أستمع إلى شهقته العذبة عبر قماش الخيمة، وهو ما كان يمنعني من الخلود إلى النوم. فكَّرتُ بأنَّني سأجعل الجنود يطردونه من المعسكر، ليعود أدراجه إلى قريته، لكنْ، هل كان ذلك ممكناً؟ أَوَ لم تَسِرِ الأمور بالطريقة التي تَحُولُ عليَّ إدارتها أو الإمساك بقيادها؟ أَوَ لَيست مُعجزةً بأنَّ يوهانس نفسه أحجم عن القرار بمرافقة الطفل لينام هو الآخر بجوار خيمتي؟ أَوَ لم يكن بالإمكان أن يفعل نفس الشَّابَّيْن المشنوقَيْن، وجميع سُكَّان القرية الشيء ذاته؟ أو ربَّما حتَّى مريم، طالما أنَّ الأمور بَلَغَتْ هذا المبلغ؟ فليرحل الجميع، بعيداً عن خيمتي وحدودها!.

كنتُ أضغط على رأسي بكفَّيَّ، لأَحُولَ دون انفجار الصرخة من حَلْقي، وكي لا أخرجَ من الخيمة، لأُمطِرَ بالرَّكَلات ذلك الدخيل الذي سَحَبْتُهُ ورائي في لحظة ضعف. كان مكانه الطَّبيعيُّ في قريته، وما هي علاقتي أنا بتربيته وبمستقبله؟ توقَّعتُ بأنَّه سيغادر يوماً ما، لمُجرَّد أن يُدرك أنَّ بإمكانه إنجاز عمله الحالي وحده، ودون الحاجة إلى الجندي المُهرِّب. فلننتظر لبضعة أسابيع، وسيغادر وحده. لقد سَبَقَ لي أنْ شاهدتُ في الطُّرُق أطفالاً في حدود الرابعة من العُمُر يطلبون الصعود على مَتْن الحافلات والشاحنات للانتقال من مكانٍ إلى آخر، والقيام برحلات طويلة بخمسمائة أو ستُّمائة كيلومتر، من أجل بيع علب السجائر والحصول على مقابل ذلك على مبالغ بسيطة. ومرَّة شاهدتُ صبيَّاً سار على قَدَمَيْه لمائَتَي كيلومتر من أجل بَيْع صفيحة الزيوت الفارغة، وليربح مقابلها بضعَ قِطَعٍ من النقود. تسري عادات التجارة في عروق هؤلاء الناس، ويرون في الولاء وسيلةً لنيلِ ثقة الآخر، كي يتمكَّنوا من الإمعان في استغلالها فيما بعد. "لا تَشغل بالكَ" قلتُ لنفسي "سيرحل بالتأكيد. وسيكون هذا عندها الكفَّارة التي دفعتَ مقابل خطيئتكَ".

كنتُ أفتح خيمتي للخروج منها، أرى الطفل يهبُّ واقفاً على قَدَمَيْه، ومبتسماً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٤

في صباح أحد الأيَّام، وبينما كنتُ أفيق من نومي، شَعَرْتُ بقَدْرٍ من الوَهْن في ذراعي اليُمنى: أَزَلْتُ الضِّمَادَ الذي رَبَطْتُهُ على الخَدْش. بدا ملتئماً بالكامل، إلَّا أنَّني رأيتُ الجِلْد منتفخاً شيئاً ما، وكان خشن الملمس، ومصطبِغاً بلون أرجواني. لمستُ يدي، وتفحَّصتُ الانتفاخ، فشَعَرْتُ بها كما لو كانت يداً غريبة، غير مُرتبطةٍ بذراعي. إلَّا أنَّني تغلَّبتُ بعد حينٍ على النفور الذي شَعَرْتُهُ، وبعد أن استحمَّيتُ وأجريتُ بعض التمارين الرِّياضيَّة، شَعَرْتُ بآلامٍ غامضة ومُلحَّة في أصابع يدي. فبعد ليلةٍ من القلق والاضطراب، أعادت الشمس المشرقةُ إليَّ مقداراً من الهدوء، الذي اكتمل لمُجرَّد تناوُل إفطار الصباح. سَكَبْتُ على الجرح سائل اليود، ورَبَطْتُ الجرحَ بضِمَادٍ شفيف، وهُرِعْتُ لأداء مهمَّة تفتيش رجالي المتأهِّبين للمسير صوب الطريق المختصرة، للعمل في تحسين أوضاعها.

كانت تلك الفكرة قد خَطَرَتْ في ذهن المُقدَّم، ليَحُولَ دون إبقاء الرجال في حالة الخمول المتقاعس، إلَّا أن الطريق المختصرة ما عادت ضروريةً لنا الآن على الإطلاق. فقد نَدَرَ مرور البغال، وكان الطريق العامُّ يُتيح إمكانية عبور الشاحنات، ولم يكن هناك إلَّا القليل لإنجازه في الطريق المختصرة. ولكي يُخادعَ الجنودُ ثِقَلَ مرور الوقت، فقد ابتدؤوا بالعمل بعناية استثنائيَّة، وكانوا عازمين على إنشاء شارعٍ حقيقي، وقاموا بتزيين الدَّوَّارات بحجارة مانعة للانزلاق، وقد أنبتوا في الأرض أيضاً إشارات مروريَّة. كان ينبغي تَرْكهم يفعلون ما يُريدون، فقد عثروا في الفائض عن الحاجة قَدْراً من الارتياح مقابل تلك الأشغال الشَّاقَّة المفروضة عليهم.

وكانت تقع على عاتقي وحدي تقريباً مراقبة العمل، لكنِّي، في واقع الحال، كنتُ أستغلُّ الفرصة لتبادُل بعض الأحاديث مع الجنود، أو كنتُ أبتعد عن المجموعة سائراً صوب الجدول، وأُلقي نَظْرَة على القرية. كان المشنوقان قد دُفِنَا تحت الأرض من قِبَل يوهانس.

في بعض المرَّات، وبروحيَّة مَنْ يتحدَّى المخاوف، كنتُ أتوقَّف عند بركة الماء أقرأُ في كتاب، أو أتظاهرُ بالقراءة. وكنتُ في مرَّات أُخرى أتوجَّه صوب الكهف المحفور في الصخرة، والذي استضافَنا، أنا والمرأة في تلك الليلة، أُدقِّق في كلِّ حجارة، وفي كلِّ شجرة، شاعراً بالخيبة، لكون مسرح خطيئتي بائساً إلى تلك الدرجة. لم يكن المكان إلَّا عبارة عن أربع صخور، في حين كانت ذاكرتي تختزن صورة مُغايرة لكلِّ تفاصيل المكان التي اتَّخذت في تلك الليلة مقاساتٍ واسعةً وغابرة القِدَم. في حين كان كلُّ شيءٍ هناك: مخدعنا، الصخرة الضخمة التي احتمى خلفها الحيوان، الأرضية التي امتصَّت الدم النازف من المرأة، الأغصان التي كنتُ قد جَمَعَتْها لإضرام النار، الآن، وبعد أن صرتُ أعرف تفاصيل المكان، رأيتُ حافَّة الهضبة هناك في الأعلى، ولم تكن بعيدةً بمقدار ما بَدَتْ لي في ذلك اليوم. وبينما كنتُ أُدقِّق في المكان بعصا، عثرتُ على خُلَّب رصاصةٍ أُخرى، ووَضَعْتُهُ في جيبي.

لم أكنْ بعد قادراً على اتِّخاذ القرار بشأن إلقاء نَظْرَةٍ على القبر الذي دفنتُ فيه جُثَّة القتيلة، كنتُ أتوقَّع بأنَّ جميع الأمور على ما يرام، بما في ذلك الأغصان والأحراش التي نَثَرْتُها هناك. ربَّما سيمسح المطر أيَّ أثرٍ، حاملاً إلى الشرخ الصَّخْرِيِّ طَمْيَاً آخر، وقِطَعَاً من الحجارة والصخر، طالما أنَّ الشرخ الصَّخْرِيَّ مُتَّجِهٌ صوب المنحدر. وكان غياب أيِّ رائحة عفنة يُطمئنني بأن لا وجود لأيِّ حيوان قد لوَّث المكان بحضوره (وقد كان هكذا بالفعل)، ووفَّر لي هذا الأمر سبباً

إضافيَّاً للارتياح. في أحد الأيَّام، اندفعتُ حتَّى القرية. كنتُ قد التقيتُ يوهانس في الدرب قبل ذلك بثلاثة أيَّام. ورغبتُ في رؤيته، وحَمَلْتُ معي كيساً، وَضَعْتُ في داخله ما قد يكون مُفيداً له؛ وكنتُ أُمنِّي نفسي بأنَّه سيَقبَل ذلك عن طيب خاطر. حين وَصَلْتث إلى القرية، ناديتُ عليه، لكنْ، لا أحدَ ردَّ على ندائي. ربَّما ابتعد يوهانس، ليبحث عمَّا يقتات به، فذَهَبَ إلى ملتقى الجدولين، أو إلى إحدى بلدات الهضبة: كنتُ أجهل الطريقة التي يعيش بها. كانت القرية قَفْرَاً، وفي المساحة المفتوحة كان القبر مُغطَّىً بحجارة كبيرة، وقد بَرَزَتْ من بين فراغاتها شَتْلات حشائش حديثة النُّمُوِّ، مبعثرة ومقيتةَ المرأى.

ناديتُ مُجدَّداً، واقتربتُ من الأكواخ، وتعرَّفتُ على كوخ يوهانس، وكان الوحيد الذي يشي بحضور كائنٍ حَيٍّ. كانت هناك في داخلها حصيرةٌ، وطاولة، وبعض قِطَع الأواني الخزفيَّة، وبعض الثياب. كانت الأكواخ الأُخرى مُهمَلَةً بالكامل، ولم يخطر ببال يوهانس حتَّى الاستحواذ على البعض من الأشياء القليلة التي ما تزال موجودةً داخلها، والتي يمكن أن تكون مفيدةً له بشكلٍ من الأشكال. ترك كُلَّ شيء في الفوضى التي كانت سائدة في اللحظة التي سَبَقَتْ عمليات الإعدام. لم يكن عَصِيَّاً عليَّ تصوُّر ما حَدَثَ. جحافل من النمل اجتاحت خزائن الطعام، وبعدما انتهت من التهام ما كان هناك، فهي تسير الآن باتِّجاه ما تبقَّى لالتهام خِرَق القماش، والأخشاب، وبقايا المجزرة.

كان عدد الأكواخ خمسة، لكنِّي أفترض بأنَّ بعضاً منها لم يكن مأهولاً في ذلك اليوم، ربَّما كانت لأُناسٍ هربوا بجلودهم إلى الجبال قبل الاقتحام. ودن أن أعترف لنفسي، فقد كنتُ أبحث عن كوخ مريم، ربَّما سأتعرَّف عليه، لكنَّه أمرٌ شاقٌّ وصعب، إذْ لم أكن أجرؤ على الولوج داخل تلك الأكواخ البائسة التي تطرد القادم برائحة الهجر الثقيلة. كنتُ أقف عند عتبة أحد الأكواخ عندما ظَهَرَ يوهانس أمامي من جانب الكوخ.

"يوهانس"، قلتُ بحبور مُبالغٍ فيه "أين كنتَ؟".

"هناك"، وأشار صوب النهر. ثمَّ مَكَثَ في مكانه مُحدِّقاً فيَّ دون إضافة شيء. كنتُ أُدرك بأنَّني لن أُحقِّق نجاحاً مع يوهانس، وكنتُ أُكرِّر دائماً خطأ المبادرة بالخطوة الأولى، ولربَّما قاده ذلك إلى استخلاص انطباعات سيِّئةٍ للغاية حول مقدرتي كضابط. أعلم جيِّداً بأنَّ العساكر لا يُحبُّون مَنْ يمنحهم مساحة فائضة من الودِّ، لشعورهم بالحيف، وبأنَّ ذلك الودَّ يُخفِي بين ثناياه إحساساً بالظلم، وهو ما كانوا سيدفعون ثمنه في يومٍ ما. وأعلم أيضاً عن عساكر عُوقِبُوا، وتمَّ الصَّفْح عنهم، إلَّا أنَّهم كانوا يُطالِبون بتنفيذ العقوبة كضمانة لعدم فقدان العطايا والمستحقَّات المقبلة. في حين أنا لم أكن قادراً على التعامل مع أولئك البشر. "إلياس يتطوَّر بشكل جيِّد"، استعدتُ أطراف الحديث "لقد تمكَّن من جمع ما يربو على مائة ليرة خلال هذا الأسبوع".

وَاصَلَ العجوز لا مبالاته.

"إنَّه طفلٌ مُهذَّب، وقادرٌ على جَعْل الآخرين يُحبُّونه".

أخطأتُ مرَّة أُخرى حين حمَّلْتُ كلماتي مودَّة مبالغاً بها، وكنتُ أفعل ذلك ليس فقط لإقناعه بالامتنان لي، بل أيضاً للتعبير عن صداقتي له، وإمكانية اعتماده عليَّ. أخذَ الكيس دون أن يُدقِّق في محتوياته. "شكراً"، قال لي، وذَهَبَ ليضعَها في كوخه. ثمَّ عاد ليرافقَني، رَغْمَ أنَّني لم أُبْدِ أيَّة إيماءةٍ للرغبة في الرحيل.

"إذا ما جئتَ إلى المعسكر، فبإمكانكَ الحصول على ما تشاء من الخبز"، قلتُ له. شَكَرَنِي، لكنِّي أدركتُ في الحال بأنَّه لم يكن ليأتيَ إلى المعسكر، بأنَّني لم أكنْ أبداً لأُشاهده أمام خيمتي وهو يؤدِّي لي التَّحيَّة العسكريَّة، أو يعترف لي بكوني المنتصر. نعم، كان الطفل يُزعجني، لكنّ يوهانس أيضاً يُزعجني، لم أكن أستشعر فيه عداوة تجاهي، لكنَّه عَصِيٌّ على البلوغ، فقد قرَّر أن يحرس موتاه، وقرَّر ألَّا يغفر لي؛ كان هناك شيءٌ يعسر عليَّ إدراكه، ومضات من عَيْنَيْه الداكنَتَيْن، المصفرَّتَيْن، كانت تذهب أبعد ممَّا أرى.

عاودتُ الحديث عن إلياس، لكنّ إحساسي بخيبة الأمل وبالغضب تَواصَلَ بسبب عدم ترحيبه بتلك الزيارة. لم أُوهِمْ نفسي أبداً حول فصاحة يوهانس، إلَّا أنَّني كنتُ أنتظرُ منه إيماءة امتنان على الأقلِّ. ففي خاتمة المطاف، لم أَكُنْ مُجبَرَاً على الاعتناء به، ولم تكن الأسباب التي تدفعني صوب ذلك المكان تعنيه على الإطلاق، أو بالأحرى ما كان له أن يعرفها.

"عليكَ أن تأتيَ لتعيش فوق الهضبة"، قلتُ له. لأنَّ بمقدوره أن يعيش بشكلٍ أفضل، لو قرَّر العيش فوق الهضبة. فقد كان واحداً من العساكر القدماء، ويعرف لغتنا بشكلٍ جيِّد. لم يُجبْني. رافقني حتَّى الجدول، بالضبط كما يرافق صاحب المنزل ضيفه المغادر؛ كان نافد الصبر بانتظار رحيلي عن المكان.

"وداعاً يوهانس"، قلتُ في سرِّي وأنا أتركه "هذه هي المرَّة الأخيرة التي نلتقي فيها. أنا مُعجبٌ بكَ، لكنّ هذا الإعجاب يُتعِبني، يُكلِّفني الكثير من الجهد، وأنا أمقت الضمائر المرتبكة".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٥

لم يمضِ على عبوري الجدول وقتٌ طويل وأنا سائرٌ بخَطْو سريع حتَّى سمعتُ من وراء ظَهْري نداءً. لم أجرؤ على الاستدارة "هَيَّا، فَلنُواصِلِ المسير"، قلتُ في سرِّي "مِمَّ تخاف؟"، ومع ذلك لم أجرؤ على الاستدارة، لكنْ، عندما سمعتُ النداء ثانيةً، استدرتُ برأسي قليلاً، لأنظر من فوق كتفي.

اقترب منِّي الجندي المُهرِّب، الذي وَصَلَ من جهة المنحدر سائراً بخطواتٍ سريعة، كان مهموماً بشكلٍ واضح، ويرغب في الحديث معي، ولا بُدَّ أن يكون ما يريد الكلام فيه أمرٌ جدِّيٌّ للغاية، طالماً أنَّه كان دائم التحديق حوالَيْه، ليتأكَّد من أنَّنا وحدنا في ذلك المكان. حاولتُ أن أبتسم له، وعُدْتُ إلى مواصلة المسير، كنتُ أرغب في الابتعاد عنه، لكن الجندي المُهرِّب لحق بي، وتوقَّف أمامي. أمرتُهُ بعنفٍ أن يتكلَّم. سَحَبَ من جيبه كتلةً ترابيَّةً، ومَدَّها إليَّ دون أن يفوهَ بشيءٍ ما، لكنَّه راقب وجهي، ربَّما متلذِّذاً باستباق الدهشة التي افترض أنَّني سأُبديها.

"انظُر سيِّدي"، قال لي. دقَّقتُ في الكتلة التي بين يَدَيَّ، فرأيتُ بعض أجزائها مُصطبِغاً بلون ذَهَبِيٍّ. كانت هناك ذرَّاتٌ ذَهَبِيَّةٌ تلتمع بفعل أشعَّة الشمس. أعدتُ إليه الكتلة، وعاودتُ المسير (محتفظاً بنفاد الصبر، والرغبة في الابتعاد عن ذلك المكان الذي بالغتُ في تحدِّيهِ)، وقلتُ له، مُحاوِلاً مَنْح نبرات صوتي هدوءاً ما: "أين عثرتَ على هذا الشيء؟".

تردَّد المُهرِّب في ما إذا كان عليه إخباري بالمكان أم لا، إلَّا أنَّه قرَّر في النهاية.

في مخيِّلتهِ الساذجة، صار يرى نفسه ثريَّاً، لكنَّه يعلم أيضاً بوجود خطواتٍ رَسْميَّة قبل الإعلان عن كونكَ صرتَ سيِّداً لكلِّ ذلك الثراء، وكان يرغب في أن أُسديَ إليه بنصائحي. "أنا لا أعرف شيئاً بهذا الخصوص"، قلتُ له "إلَّا أنَّني أعتقد بأنَّ هذا الشيء ليس ذَهَباً".

دامت خيبة أمله لوقت قصيرٍ للغاية، لاعتقاده بأنَّني أمزح معه، أو حتَّى أنَّني أرغب في الاحتيال عليه. قال لي بأنَّه مستعدٌّ، عن طِيب خاطر، للتنازل عن نصف الكنز لصالحي، إذا ما ضمنتُ له مِلْكيَّتَهُ. "لا يمكن لهذا الشيء أن يكون مِلْكاً لنا"، قلتُ له "فنحن جنود، ونؤدِّي خدمةً"، ومأخوذاً بالرغبة في معرفة المزيد، وبعد أن تغلَّبتُ على القلق، طَلَبْتُ منه أن يقودَني إلى المكان التي عَثَرَ فيه على الكتلة الطِّينيَّة.

أكان ذاك هو قبر مريم، ذلك الحرش البائس؟ مَرَرْنا بالقرب منه، لكنِّي لم أكن واثقاً بأنِّي قد تعرَّفتُ عليه. توقَّف الجندي المُهرِّب بعد ما يربو على مائة خطوة، وبالضبط على حافَّة المنحدر، وحَمَلَ من الأرض كتلة طينيَّة أُخرى. "ليس ذَهَباً"، قلتُ له "لم يحتوِ هذا النهر على الذَّهَب أبداً. الجميع يعرفون ذلك، ولا حاجة لخداع الذات. هناك معادن كثيرة تُشابِهُ الذَّهَب، وهذا ليس ذَهَباً". وكنتُ أفكِّر في سرِّي: "لقد أزاحتِ الريحُ الأغصان عن القبر، ينبغي وَضْعها هناك من جديد".

لم يَبْدُ الجندي المُهرِّب مُقتنعاً بما أقول، فأصررتُ. كنتُ على عجلٍ من أمري لمغادرة المكان. لم أكنْ مَعنيَّاً بمعرفة أمورٍ أُخرى، وأرغب في أن يُريح المُهرِّب باله. حاولتُ إقناعه، ودون أن يستمع إلى ما أقول بدأ بحَشْو حقيبته بالكتل الطِّينيَّة، وفي المساء ذاته، خلال العودة إلى المعسكر، رأيتُ كلَّ أفراد الرَّتْل يُعانون من مشقَّة المسير أكثر من المعتاد بسبب الثِّقَل الإضافيِّ

في حقائبهم. لم يقوَ الجندي المُهرِّب على كتمان السِّرِّ.

وهكذا واجهتُ أمراً مُقلِقاً آخر يُضاف إلى الأمور المُقلِقة الأُخرى. كان عليَّ مراقبة الجنود للحيلولة دون أن يذهبوا للعبث بأرجاء الغابة، وأن يعثروا بدلاً من الذَّهَب، على ما كنتُ قد أُخفيه أنا. ثمَّ سخرتُ من مخاوفي "فليعثروا عليها، ليس بإمكانِ أحدٍ أن يتَّهمكَ".

هدأتْ مخاوفي عندما استلمتُ طَلَبَاً من النقيب للمثول أمامه وإعلامه ما إذا كنتُ أعرف شيئاً ما بخصوص الذَّهَب. "لا أعتقد بأنَّ ذلك ذَهَب"، أجبتُ.

"ومع ذلك علينا التَّأكُّد. غداً سأرافقكَ في الجولة بنفسي". وفي المساء. كان الضُّبَّاط الآخرون يراقبونَّني خلال العشاء، وعندما دار الحديث عن الذَّهَب، زاد صمتي من نسبة الفضول لديهم "أنا أعتقد"، قال الطبيب "بأنَّ جزءاً من مِلْكِيَّة هذا الذَّهَب ينبغي أن تعود إلى الفرقة"، وكانت هذه ضربة البداية في نقاش حامٍ وطويل. دافع كلُّ واحدٍ من الحاضرين عن وجهة نَظَره. الذَّهَب مِلْكٌ للدولة. بل هو مِلْكٌ للجندي الذي اكتشفَهُ. ينبغي أن يكون من مِلْكِيَّة شركة، سنؤسِّسها مُقسِّمين فيها الأسهم بالتساوي. "أنتَ، ما هو رأيكَ؟" ونظروا صوبي.

أجبتُ بأنَّه ينبغي في البدء التَّأكُّد من الأمر قبل الوقوع في هُوَّة الإضحاك. "لتُفحَصَ الموادُّ التي تمَّ العثور عليها، ومن ثمَّ سنرى ما الذي ينبغي فعله. ليسَ جدِّيّاً، ومن غير المُجدي على الإطلاق البدء بالحفر". "هل كان صوتي مرتجفاً، وأنا أنطق بالجملة الأخيرة؟" ربَّما كان كذلك، لذا اعتُبِرَ ردِّي فاعلاً للغاية. لم يخطرْ ببالهم، حتَّى لِلَمْحَةِ بصر، بأنَّ كلماتي تلك قيلت لتهدئة مَوَاطِنِ القلق لديَّ، ولوَقْف تيَّار خيالاتهم. فبعد حكايتي مع ضِرْسي، كنتُ قد صَعِدْتُ درجاتٍ في سُلَّم تقييم زملائي لي، كان يحسبون لي طاقات مَكْرٍ ولباقة لم أكُنْ أمتلكهما في الواقع أبداً، وغالباً ما كانت الأحاديث والنقاشات تنتهي عند غيابي الطويل، وتُستَبَقُ دائماً بموجةٍ عالية وشاملة من الضحك. أصبحتُ لديهم مَنْ يُضربُ به المَثَل. فإذا ما كان أحدهم يبتعد قليلاً، يُعلِّق الجميع بأنَّه لا بُدَّ يشعر بوَجَعٍ في ضِرْسه؛ ولم يكن الحديث يجري أبداً عن البحث عن الفتيات، بمقدار الحديث عن البحث عن طبيب أسنان. والآن، أحمل في داخلي، برأيهم، خطَّةً خفيَّة، فأنا أسعى إلى حَرْف اهتمام الآخرين عن ذلك الكنز، الذي يُفترَض أن يكون مِلْكاً للجميع.

وهكذا، في الأُمسيَّة، وخلال لعب الورق تبادل الجميع الدَّوْر في المشاركة بعمليَّة غسيل الكُتل التُّرابيَّة التي جُمِعَتْ من ذلك المكان. كنتُ أستمع من خيمتي إلى الجنود وهم يبذلون الجهد في ما اعتبروه الفرصة الأنسب لإقصاء الحزن والسأم، فيما كان هذان الإحساسان يتزايدان في داخلي.

في تلك الأيَّام، اختفت آلام الجُرح في كفِّي تقريباً، لكنْ، مع بقاء ذلك اللون الأرجواني حول حافَّة الجرح إضافة إلى صلابة المَلمَس، وهما ما كانا يُثيران قلقي. كنتُ أُواصِلُ علاج الجُرح بنفسي، وأنا واثقٌ من أن كلَّ شيء سينتهي سريعاً، وعلى أفضل وجه. فَقَدْتُ بعضاً من وزني بسبب تواصل الأرق لديَّ، وكنتُ أُصاب بالرُّعاف بشكل متواصل، ويسيل الدم من أنفي، وهذا ما كنتُ أضع مسؤوليته على الشمس الحارقة التي تضرب بأشعَّتها منطقة الطريق المختصرة. ولذا استقبل الجميع طَلَبِي لإجازة شهر للعودة إلى إيطاليا بموجة من الضحك. فهل تلك هي محاولة منِّي لاستباق الجميع في إجراء المعاملات والاتِّصالات بشأن استغلال منجم الذَّهَب؟ إلَّا أنّ النقيب لم يشترك في موجة الضحك؛ ربَّما اعتبر الأمر بأنْ لا يستحقُّ إجابةً منه، أو أحجم عن الرَّدِّ لمُجرَّد أن يجعلني أُدرك بأنَّني صرتُ أبالغ شيئاً ما بشأن وَضْعي الصِّحِّيِّ، وربَّما كان يرى بأنَّ

عليَّ، والحالة هذه، أن أطلب التسريح من الخدمة العسكريَّة بالكامل؟

كنتُ منزعجاً للغاية، وأُفضّل البقاء وحدي في الخيمة في الصباح التالي، إلَّا أنَّ القلق حول احتمال تعرُّض القبر إلى النَّبْش دَفَعَنِي إلى التَّوجُّه إلى الطريق المختصرة، وإلى المنحدر بالذات برفقة تلك الثُّلَّة من الضُّبَّاط المازحين.

"من هنا"، قال الجنود وهم يحفرون. أمَّا أنا، اخترتُ البقاء منزوياً عنهم، ومنتظراً دون التشارك وإيَّاهم في الصَّخَب. "هذه هي التجربة الأصعب"، فكَّرتُ "وعليَّ تجاوُزها". كنتُ أجلس إلى جوار قبر المرأة، مُصمِّماً على عدم النهوض منه، إذا ما جاء أحدهم بِنِيَّة الحفر هناك. كنتُ أُحدِّق، شاعراً بالدوار بسبب حالة المرح الشاملة، حينها اقترب منِّي ضُبَّاط آخرون، جاؤوا من المنحدر، وأومأ النقيب إليهم مشيراً إليَّ، مبتسماً. لم أكن قادراً على النهوض. وَصَلَ الضُّبَّاط إلى ناحيتي، وابتدأت التقديمات. كانوا من الكتيبة المراقبة لموقع العمل عند الجسر، وابتدؤوا بتقديم التهاني إليَّ على الحظّ السعيد الذي حالَفَني. كان أحدهم يحمل على ياقة بِزَّته العسكريَّة شارة بلون العقيق، وربَّما كانت تلك شارة للفريق الطِّبِّيّ. لم يكن مُجدياً أن أسأله عن ذلك.

لم يَبْدُ عليهم بأنّهم راغبون في تَرْك المكان سريعاً، فقد افترشوا الأرض بالقرب منِّي، وجَلَسَ الضابط ذو الشارات الطِّبِّيَّة فوق القبر بالضبط (ربَّما كان ضابطاً من الهندسة العسكريَّة أو من قوَّة "المُشاة الجَبَلِيِّيْن"([16]): لكنْ، في الحالة الأولى كان لا بُدَّ للشارة أن تكون على قاعدة سوداء، أمَّا في الثانية، فكان لا بُدَّ لها أن تكون على شكل شُعلة). لم أتمكَّن من منعه من الجلوس هناك، فقد كان جنوده يحفرون بالقرب من المكان، وهم في حالة حبور متزايد ومتصاعد. كان النقيب يرغب في معرفة مقدار اتِّساع منجم الذَّهَب المفترَض.

"هل هذه الشارات"، سألتُهُ "تابعة إلى القطاع الطِّبِّيّ؟"

ردّ عليَّ بالإيجاب. لم أسألْهُ شيئاً غير ذلك. لم أسألْهُ متى وَصَلَ إلى موقع العمل، أم أنَّه جاء منذُ وقت قصير، بعد الاعتداء الذي تعرَّض إليه الموقع لعلاج الجرحى؟ لكنِّي خمَّنتُ بأنَّه جاء إلى هنا منذُ وقت قصير. فقد كانت بِزَّتُهُ العسكريَّة حديثة العهد، وكان ما يزال معتمراً بالنَّظَّارات الشَّمسيَّة فوق قُبَّعته. لم تكن هناك ضرورة للاحتفاظ بجميع الجرحى في الموقع بالذات مَنْ لم تكن إصاباتهم طفيفةً. ربَّما هو ضابطٌ عابرٌ، توقَّف في موقع العمل لبُرْهَة قبل مواصلة طريقه صوب الهضبة المقابلة، وهو غيرُ قادرٍ بالتأكيد على تَرْك منطقة النهر، ليتغلغل داخل المنطقة الخالية من الشوارع، ومن مرور الشاحنات.

"أعتقد أنَّكَ تخرَّجتَ في الجامعة للتَّوِّ"، قلتُ له. كانت سَحْنَتُهُ شبابيَّة، وسيستغلُّ الجنود عاجلاً سهولةَ قيادِهِ، ويبتدعون كلَّ أنواع الأمراض الموجودة في الدنيا. أجابني بأنَّه كان يعمل أستاذاً جامعيَّاً. كان جرَّاحاً.

لم يُبارح الضُّبَّاط المكان، بل الأدهى من ذلك أشعلوا السجائر، وابتدؤوا بالحديث عن العودة. وشارك في الحديث أيضاً الضابط بالبِزَّة الجديدة، تساءلتُ كيف يسمح ضابطٌ بهذه البِزَّة الجديدة لنفسه بالحديث عن العودة إلى الوطن؟! وتساءلتُ أيضاً كيف لا يشمُّ الجالسون في المكان تلك الرائحة الطفيفة التي تتسلَّل في الشَّقِّ الجَبَلِيِّ؟! أَكنتُ أشمُّها أنا لأنَّني مُتعبٌ، جائعٌ وأشعر بالقَرَف أم كان ذلك نتاجاً لخيالاتي وأنا أجلس بالقرب من مدفنها؟! كلَّا، لقد كانت هناك هَبَّةُ رائحة طفيفة، دالَّةٌ على شيءٍ ما بالتحديد. وقد تكون أيضاً رائحة منزل الفَتَاتَيْن، وقد

حَمَلَتْها إلى أقصى مدى، والتحمت مع روائح جيف الحيوانات النافقة تحت الشمس. إلَّا أنَّ ما كان يُسرُّني هو أنَّني كنتُ الشخص الوحيد الذي يشمُّها.

لحُسْن الحظِّ تابع الجنود الحفر في مسارٍ كان يهبط إلى أسفل المنحدر، ليصعدوا بعد ذلك باتِّجاه الهضبة. ولم يخطرْ ببال أيٍّ منهم أن يتَّجه صوبي، ليقول لي "عذراً، سيِّدي الملازم، هل تسمح لنا بالحفر هنا؟".

عند المغيب، في طريق عودتنا إلى المعسكر، سَقَطْتُ أرضاً، ولم أعد قادراً على النهوض، كان رأسي يدور، وأشعر بالغثيان يقبض على حلقي "وَاصِلُوا المسير" قلتُ للجنود "سأرتاح قليلاً".

سمعتُ آخر أصوات الجنود الذين ابتعدوا، وثبَّتُّ ناظرَيَّ على الوادي، وعلى قرص الشمس الغارق في أُفق الغروب، مُحاطاً بهالة شبيهة بالدخان، وهو ما كان يفيق أولى صيحات كائنات الغابة. كنتُ كسيراً وكئيباً بسبب كلِّ تلك الأحداث المتلاحقة، بسبب ذلك الطفل الذي يرقد خارج خيمتي، بسبب يوهانس الذي كان يُقصيني خارج فضائه، والآن بسبب قضيَّة الذَّهَب المضحكة، وبسبب ذلك الضابط ذي البِزَّة الجديدة الذي وَصَلَ بينما صارت المائدة مُعدَّةٌ بالكامل. ابتسمتُ وأنا أتصوَّر تشكُّل كمينٍ غادر للإيقاع بي. لكنْ، ما الذي يريدونه منِّي؟ بأن أرفع عقيرتي بالصراخ كما يفعل القَتَلَة النادمون: أن أقول لهم "تعالوا، احفروا هنا، فهي موجودة هنا!". كنتُ واثقاً بأنَّني لم أكن لأستسلم إلى هذا الوازع، وبأنَّني لم أكن لأستسلم حتَّى إلى الرغبة في رواية الأحداث لصديقٍ ما لأطلب منه، في السِّرِّ، الصَّفْح والغفران لخطيئتي. "فبعد هذا وذاك" كنتُ أُردِّد لنفسي "لستُ نادماً. لم يكن بإمكاني أن أفعل غير ما فعلتُ".

سَارَعَتِ الشمسُ بمسارها صوب الغروب، وكان عليَّ أن أحثَّ الخطى للعودة إلى المعسكر. هدَّأَتْ الوقفة القصيرة من روعي قليلاً، أو بالأحرى أزالت عنِّي كلَّ المخاوف. وبَلَغَتْ درجة النَّظَر إلى خطيئتي بمقدارٍ عالٍ من الجدِّيَّة، ولم أتمكَّن من تحديد قِصَاصٍ مُحدَّد لها. فحتَّى لو اكتشفوا الجُثَّة، وحتَّى لو وَقَعَتِ الشكوك عليَّ، لم يكن ليحدُثَ أيُّ شيءٍ ما لم أصرخ أنا مُصرِّحاً بجريمتي. لقد أدَّيتُ واجبي تجاه الآخرين بإقدامي على دَفْن الجُثَّة، والآن عليَّ مواصلة ذلك الأداء من خلال السكوت عن الحقيقة. لم تكن المرأة تعني شيئاً ما، بل خطيئتي ومسؤوليَّتي إزاء الآخرين هي الأهمُّ. وحتَّى هذان الأمران يتلاشيان منذ اللحظة التي أُحجمُ في التصريح بهما. "هوِّنْ عن نفسكَ" قلتُ في سرِّي "فلديكَ شركاءُ كُثر في الخطيئة، ويعسر عليكَ عَدُّهُم، وهؤلاء جميعاً يُطالبونكَ فقط بالسكوت. لم يكونوا معكَ في تلك الليلة، لكنَّهم الآن معكَ. فلمُجرَّد دفن الجُثَّة لم يعدْ وِزْرُ الجريمة واقعاً على عاتقكَ، فذاك يدخل في سياق اختصاصات أُخرى. شركاء كُثر في الجريمة، لكنْ، دون محاكمة: فنحن في أرض الأعداء، وقد حَدَثَ ما هو أسوأ بكثير، وستكون فعلتكَ خطيئة فقط في اليوم الذي ستُجبَرُ فيه القيادة على إصدار تعميم حربي جديد".

بمواساتي الفَظَّةِ عبر هذه الكلمات التي همستُ بها لنفسي، عاودتُ المسير. وحين لمستُ جبهتي شَعَرْتُ بحرارتي مرتفعةً إلى حَدِّ الاشتعال، وإذاً فقد كانت الحُمَّى هي ما يستثيرني. لا خوف، سأذهب، وستُعينني الحُمَّى نفسُها على نسيان كلِّ شيء، بما في ذلك ضعفي البائس. فهي الشريك الأكثر قرباً، ولم تكن لترتاب من أيِّ شيء.

كان عليَّ أن أعودَ إلى المعسكر، وأواصلَ تلك الكوميديا البليدة، لأنَّ الجميع صاروا على يقين كامل بأنَّ ما تمَّ العثور عليه ليس ذَهَباً، ورَغْمَ ذلك، واصلوا الكلام فيه دون أن يتخلَّوا عن آخر

الآمال. "ها هو قد عاد"، قال النقيب. حتَّى الجنرال كان بانتظاري، إذْ جاء إلى معسكرنا منجذباً من الخبر الذي جال في جميع القطعات. "ها هو المكتشِف".

لم تُجدِ محاولاتي بالوقاية في شيءٍ ما، فقد أخذ الجنرال الأمر على محملٍ من الجدِّ، ولربَّما رَغِبَ في الاشتراك بانتصار الاكتشاف. ونَصَحَنَا بتقديم كَشْفٍ حول الأمر إلى حكومة المستعمرة، إذْ كان سيبعثها إلى القيادة في الليلة ذاتها. كنتُ منهمِكاً في الكتابة عندما أصغيتُ إلى صيحاتٍ، ورأيتُ عدداً من الجنود يُهرعون إلى إطفاء حريق شبَّ في إحدى الخيام.

أُصيب الجنرال بحروق وهو يُشرف على محاولة تذويب بعضٍ من تلك الكتل التُّرابيَّة، كان الحادث تنويعةً، جرى الحديث فيها لأيَّام عديدة، وعندما اكتشف الجميع بأنَّ تلك الكتل الطِّينيَّة خاويةٌ من الذَّهَب، رفَّهوا عن أنفسهم باستذكار الرعب الذي شَعَرَ به الجنرال إزاء خَطَرِ انفجار الفرن المُغذَّى بالبنزين داخل الخيمة. هل لكمْ أن تتصوَّروا على عاتق مَنْ أُلقيَتْ مسؤولية كلِّ ذلك؟ عليَّ أنا. فقد صَمَتُّ، لأجعل الجميع يقعون في الخديعة، أنا مَنْ كَتَبَ الكشف المرسَل إلى قيادة المستعمرة، وأنا مَنْ أقنع الجنرال بأنْ يأمر بالقيام بعملية التذويب.

وأسرَّ إليَّ النقيب فيما بعد بأنَّ "ما أثار فضولي وسروري أكثرُ من غيره في هذه القصَّة بأسرها هو جدِّيَّتكَ المطلقة وأنتَ تستمع إلى الجنرال".

وهكذا ضمنتُ لنفسي شهرة المُخادِع إلى الدرجة التي ما عاد بمقدوري رفضها. وحتَّى المُقدَّم، الذي كان يملك بعض مفردات السُّخط تجاه الجنرال، اعتبر مَزْحَتي تلك جيِّدة الصنيع. ثمَّ إن إيصال البلبلة إلى قيادة المستعمرة كان يُعوِّض الجميع عن أيَّة خَيْبَة. أُفرِغَتِ الخيام من كتل التراب المُجمَّع، كما أُفرِغَتْ حقائب الجنود من محتوياتها التُّرابيَّة، وتمَّ الاحتفاظ ببعض الكتل لغرض استخدامها في الإنارة كالشموع.

"كنتُ أتصوَّركم مختلفين عمَّا أنتُم عليه"، قال لي المُقدَّم يوماً وهو يبتسم: ويُفترَض أنَّه أراد بذلك امتداحي. تحدَّثْنا طويلاً، للمرَّة الأولى منذُ عامَيْن. علمتُ فيما بعد بأنَّه كان يسعى حقَّاً من أجل الحصول على إجازة، تُتيح لي العودة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الرابع
# قروحٌ في غاية الاختلاف
## ١

لم أعدْ إلى الطريق المختصرة بعد ذلك. بالأحرى لم أشعرْ بأيَّة رغبةٍ للعودة إليها، فقد أُغلق ذلك الفصل بالنسبة إليَّ ، وبانتظار وصول الإجازة، حاولتُ علاج الكثير من الأمراض والأوجاع التي رغبتُ في الخلاص منها، وإلقائها وراء ظَهْري حين سأترك هذا البلد، بالضبط كما سأترك هناك أيضاً ذكرى مريم. وبدا لي بأنَّ الشعور الدائم بالنعاس حلَّ محلَّ الأرق الذي لازمَني لوقتٍ طويل؛ وكانت هذه الحالة تسرُّني، إذْ أحَلْتُها إلى الطمأنينة التي باتت تسري في روحي بعد مرحلةٍ من التَّوتُّر العالي. ولولا الصداع الذي يفاجئُني بين الفَيْنَة والأُخرى، لم أكن لأتعمَّق في البحث عن مُسبِّبات ذلك الوَسَن اللذيذ. كنتُ أقضي أيَّامي داخل خيمتي، وأنا أقرأ أو أستمع إلى الضوضاء الناشئة في المعسكر، وهي تصلني خافتةً ومتقطِّعة. وكان النعاس يُغالبني بشكل مستمرٍّ.

جُرْحُ كَفِّي كان يتماثل للشفاء، واختفى الانتفاخ الذي تواجد في الأيَّام الأولى، وبقي تورُّمٌ غير ذي أهمِّيَّة، لكنْ، نَبَتَ في منتصفه نتوءٌ أصغر بقليل من حبَّة الحُمُّص، دون أن يُولِّد لديَّ أيَّما إزعاج، أو بالأحرى، لم أكن أشعر به حتَّى لو مَسَسْتُه. كنتُ أواصل شدَّ لِفَافَة الضِّمَاد حول كفِّي فقط للحيلولة دون تعريض الجرح إلى التَّلَوُّث. ومع ذلك لم أشعر بالارتياح، وعندما استشرتُ الطبيب، طمأنَني، وأعطاني مرهماً، مُحيلاً جميع اضطراباتي إلى نَقْصٍ في تناول الطعام الطازج، وهو ما كنَّا نعاني منه منذُ شهور. وقد بحثتُ عن العلاج لاستياءاتي العنيدة في الراحة التَّامَّة.

نعم، فقدتُ شهيَّة الأكل، ونادراً ما كنتُ أذهب إلى المَقْصِف، وحيثُ كنتُ أرى الآخرين ينكبُّون على التهام الوجبات بنهمٍ غير معقول. كان حلقي ينقبض، ويتوجَّب عليَّ اجتراح الأعذار لغرض الابتعاد عن المكان.

كلُّ شيء سينتهي، فقد كانت آلامي ناتجةً عن أسباب وَقْتِيَّة، وهي لا شكَّ ستزول، وتتحسَّن أوضاعي خلال رحلة العودة إلى إيطاليا، وحين أتنشَّق هواء البحر على مَتْن السفينة التي ستحملني خارج تلك الأرض التي تلاحقني. في تلك الفترة، بدأ موسم الأمطار التي ستستمرُّ حتَّى شهر سبتمبر، أي ما يعني ثلاثة شهور. سنواجه الأمطار في كلِّ يوم، وفي ساعة مُحدَّدة، وبرَغْمِ ما كانت تُسبِّبه الأمطار لنا من إزعاجات، فقد كنَّا نتلقَّاها بترحاب، وهي تُبلِّل الأرض العطشى. (بعد شهورٍ من لَفْح الشمس). كان الجنود يلوذون إلى أماكن رُقادهم مُردِّدين أُغنيَّاتهم المحلِّيَّة بإيقاعات حزينة، تأتيهم بفعل زَخَّات المطر. وحين كان المُعسكر يرقد تحت غِلاَلَة شفيفة من الضباب، يسرح كلٌّ منَّا بخياله صوب مدينته. وفي الليل، كانت قطرات المطر المنسابة على سطح الخيمة تُصالحنا مع الراحة، وتُطلق العنان لخيالاتنا. أنا كنتُ أفكِّر بها([17])، وبما كانت عودتي ستُمثِّل بالنسبة إليها، كنتُ أُعيد قراءة رسائلها، وأعثر فيها دائماً على ما هو جديد، يُضاف إلى شَغَفي الكبير للقائها. لقد كان كلُّ شيءٍ مُهيَّئاً هناك لاستقبالي.

كان إلياس يجول منذُ أيَّام في عدد من مُدُن المستعمرة القديمة، ولم أعد أشعر بحضوره بجوار خيمتي. كنتُ أشعر بقَدْر من الارتياح لذلك الغياب: وإذا ما عاد، فسيَحُولُ المطر الهاطل دون مرابطته في العراء بجوار خيمتي، وسيعود بالتأكيد إلى النوم في مخزن المعسكر، كما كان يفعل في البداية. لكنْ، خلال أُمسيَّة، (وبينما كنتُ مستلقياً على السرير سارحاً بخيالاتي) تناهى إلى سَمْعي شهيقه الذي لا أُطيقه. في البدء اعتقدتُ بأنَّني أُصبتُ بهلوسة ما، إلَّا أنَّه وَجَبَ عليَّ الاقتناع بأنَّه كان هو، إلياس. كان بجوار الخيمة، وقد غطَّى نفسه بأفضل ما يستطيع، واستلقى ليستريح.

"إلياس". ناديتُهُ.

"أوامركَ"، وانفتح باب الخيمة فجأة، ومَثُلَ الطفل أمامي. سألتُهُ عن الساعة التي وَصَلَ فيها.

"قبل ساعةٍ من الآن، سيِّدي الملازم"، وأبرز لي على راحة كفِّه ما كان قد حَصَلَ عليه من مال. انتظرَ أن أستفسر منه عن شيءٍ ما. كان واقفاً تحت زخَّات خفيفة من المطر، متجاهلاً الماء الذي بَلَّلَ وجهه. لم أطلب منه الدخول، وتركتُهُ واقفاً في مكانه. "هاكم، انظروا إليه"، كنتُ أقول لنفسي "ها هو العنصر الأصغر في الانتقام، والأشدُّ قسوة". وعاد إليَّ كلُّ اضطرابي الذي اختفى خلال أيَّام غيابه، وبدأتُ بالارتجاف غضباً، بسبب مرأى ذلك الطفل الممتثل، الطائع للأوامر، والمخلص للغاية. كان شبَهُه بالمرأة يتوضَّح يوماً بعد آخر. كنتُ أرى وجهها في قسماته.

لم يتحرَّك إلياس من مكانه. كان بانتظار أيَّة إيماءةٍ منِّي "تعال هنا"، قلتُ له. وعندما صار على مقربةٍ منِّي، انفجرتْ كراهيَّتي بأكمله "اغرُبْ عن وجهي" قلتُ له "إذا ما وجدتُكَ هنا مرَّة أُخرى، فسأُصدر الأوامر بحبسكَ".

دُهِشَ الطفل للوَهْلَة الأولى، ثمَّ ابتسم ومَدَّ يده، ليمُسَّ بها يدي، فقد توقَّع أنَّ ما أقوله له ليس إلَّا مُزاحاً، أي ما يعني أنَّني أمزح معه! أمسك بيدي، ووَضَعَهَا على رأسه، كعلامةٍ للولاء المطلق، وليُنبئني بأنَّ لديَّ مطلق السلطات عليه. وانتهت تلك الحركة الملآى بالثقة من قِبَلِه إلى إغراقي في بُحيرة من الغضب. معمياً بذاك الغضب، دفعتُ إلياس إلى خارج الخيمة، وأَسْقَطْتُهُ أرضاً، وأمرتُهُ بالانصراف. هَوَى الطفل على الأرض، وكان يواصل التحديق بي مبتسماً، ظانَّاً بأنَّ المَزْحَة ما تزال متواصلة. ثمَّ رأيتُ شَفَتَيْه ترتجفان، وكأن العالم بأسره انهارَ على رأسه، لم يعدْ يستوعب من الوَضْع شيئاً، وانفجر بالبكاء؛ إلَّا أن صرخاتي أَسكَتَتْهُ في الحال، نَهَضَ ليتَّجه خارجاً صوب الدرب، فخرجتُ من الخيمة، وناديتُهُ. "تعال إلى هنا"، قلتُ له.

عاد أدراجه وكأنّ شيئاً لم يكنْ أبداً، إلَّا أنَّه كان يرتجف قليلاً، بسبب الرطوبة التي امتصَّها جسمه تحت زخَّات المطر، على ما أعتقد، ولم تستعِدْ شَفَتَاه ابتسامتهما. أشَّرتُ له إلى الصندوق الخشبي بجوار سريري، (وَجَبَ عليَّ أنْ أُزيل عنه صورة زوجتي)، فجَلَسَ الطفل صاغراً، بعد أن اعتقد أنَّه استوعب الأمر الذي وجَّهتُهُ إليه بإيماءتي.

أردتُ منه أن يُحدِّثَني عن القرية، لكنَّه أخفق في أن يُخبرَني بأيِّ شيء، ربَّما نسيَ القرية بالكامل. كان يُحدِّق فيَّ، عاجزاً عن وَقْف ارتجاف رُكبَتَيْه. "ما الذي كنتَ تفعله طَوَالَ النهار هناك في القرية؟"، سألتُهُ.

أخفض ناظرَيْه، وأتى بإيماءة رَمَتْ إلى قول: لا شيء، أو أيضاً للتعبير عن اللَّامبالاة بما فعل حتَّى وقتٍ ما، وتبدو له الآن أفعالاً بائسة لا قيمة لها.

"أَلَمْ تكن تلعب، ألم تذهب إلى النهر كي تستحمَّ؟"

"نعم"، ابتسم سعيداً، ثمَّ استعاد جدِّيَّته في الحال، وأخفض رأسه. "كنتَ تذهب وحدكَ؟"، سألتُهُ.

"كَلَّا، برفقة الآخرين". لماذا كنتُ راغباً في القسوة على تلك الذكرى، لماذا رغبتُ في معرفة كلِّ شيءٍ عنها؟ ومع ذلك كنتُ أشعر بقدرتي على كراهية تلك الذكرى، وشَعَرْتُ بأنَّ الوادي قادرٌ على طَمْس السِّرِّ، وبأنَّني صرتُ قادراً على تجاهله. لم يعد ذلك السِّرُّ ينتمي إليَّ، بل إلى أرضها، إلى تلك الأرض التي سأتركها نهائيَّاً خلال شهر أو شهرَيْن. كان بإمكاني أيضاً إقناع نفسي بأنَّني لم أرتكبْ فعلاً يخرُقُ قوانين هذه الطبيعة، وربَّما كنتُ سأقتنع، مع مرور الوقت، بأنَّني لم أقتلْها، إذْ أواجه الآن صعوبات في تذكُّر تفاصيل المشهد، أو أنَّني كنتُ أراها كما لو أنَّها رُويَت لي من قبل آخرين. كان مشهداً مُضطرباً للغاية، ودون حضور إلياس أمامي الآن، ما كان بمقدوري تذكُّر لون عَيْنَيْهَا. بهدوء كبير سألت الطفلَ أيّ الأشخاص كان يُحبُّ أكثر من الآخرين داخل القرية. لم يُجبْ عن سؤالِي، كانت تلك الكلمات جديدة عليه، وقد عجِزتُ عن تفسيرها له. "مع مَنْ مِنْ ناس القرية كنتُ تُحبُّ قضاء غالب الوقت؟".

أعاد فَتْح ذراعَيْه، ليعني بذلك: الجميع، أو لا أحد بعينه. وعندما سألتُهُ عمَّا إذا كانت مريم تذهب إلى النهر، ابتسم الطفل، وهزَّ رأسه نافياً، وأضاف "كانت تخاف".

"وممَّنْ كانت تخاف؟".

"من الهيرغيز"، ونَطَقَ بهذه الكلمة بعُجَالَة مُذهلة، بقَرَفٍ ورُعب، لكنْ، برفقة ابتسامة. سألتُهُ ما إذا كان هو أيضاً خائفاً. هزَّ رأسه بقوَّة؛ كان يؤكِّد خوفه هو أيضاً.

"أنتَ الآن بحاجةٍ إلى النوم؟"، ودون انتظار إجابته، سَحَبْتُ قطعة من قماش الخيمة، ورتَّبْتُهُ بشكلٍ، يحمي المكان الذي كان إلياس اختاره مكان رُقادٍ لنفسه، وأخذتُ قطعة أُخرى، فَرَشْتُها على الأرض الرطبة، وفَرَشْتُ فوقها بطَّانيَّة. "نَمْ هنا"، قلتُ له.

وَلَجَ إلياس داخل كيس القُنَّب، أدَّى لي التَّحيَّة، واستلقى في المكان. بعد دقائق كانت شهقته هي الشيء الوحيد الذي أستمع إليه في المكان، بالضبط كما المحكوم بالإعدام، يستمع، من بين جميع أصوات العالم، فقط إلى دقَّات الساعة في جيب الراهب الذي جاء لاستنطاقه بالخطيئة الأخيرة، ليمنحه غُفران التوبة، تلك الساعة التي تُؤشِّر لمرور الوقت كتيَّارٍ، لا يتوقَّف.

كنتُ حانقاً على نفسي (ولمُجرَّد استعادة تسلسل الأحداث التي وَقَعَتْ في الدقائق الأخيرة) ركلتُ الصندوق الخشبي بقوَّة، وحطَّمْتُهُ.

حين رنَّ منبِّه الاستيقاظ كان إلياس قد رحل عن المكان. كان قد تَرَكَ قطعة القماش والبطَّانيَّة ملفوفةً، بالضبط كما يفعل الجنود، ورحل. دُهشتُ، وخشيتُ بأنَّه كان يُخفي، برحيله المبكِّر ذاك دسيسة طفلٍ، يسعى إلى زيادة إشفاقي عليه، ولأرتبط به أكثر فأكثر. سألتُ عن إلياس. لم يُشاهِدْهُ أحدٌ من الموجودين. قال لي الجندي المُهرِّب: "ليسوا أُناساً يشغفون بالآخرين".

خفَّفَتْ هذه الكلمات من انشغالاتي قليلاً، ولم أعدْ أفكِّر بالطفل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٢

عندما وَصَلَتْ إلينا أوامر نَقْل المعسكر إلى مدينة "A" كانت فرحة الجنود غامرةً، وأنا نفسي شَعَرْتُ بقَدْرٍ كبير من الارتياح، واستعدتُ بعضاً من آمالي.

لم يكن إلياس قد عاد إلى المعسكر، وبذا كان سيفقد آثارنا، ربَّما سيتمكَّن من اللحاق بنا، كان الجندي المُهرِّب يتوقَّع ذلك، لكن مُجرَّد عدم الإحساس به مُلاصقاً لي، كان يمنحني قَدْراً من الطمأنينة، نوعاً ما من الحبور الغريب غَمَرَني، وأبدى زملائي الفرح، وضحكوا لما تمكَّنت أن أرويه لهم من حكايات. وكرَّر لي المُقدَّم بأنَّه يسعى من أجل حصولي على الإجازة، وبأنّ عليَّ أن أطمئنَّ بهذا الخصوص. وبعد ستَّة أيَّام كنَّا نُعسكر على بُعد كيلومترَيْن من مدينة "A" بالقرب من فوجٍ آخر، وهناك التقيتُ بالملازم الثاني من جديد.

لم يكن لقاؤنا الأوَّل ودِّيّاً على الإطلاق. ولم أقوَ على التظاهر بالودِّ تجاهه، بالضبط ككلِّ شيء، وككلِّ الأشخاص الذين يُذكِّرونني بمريم. وكان للملازم الثاني، برأيي، قسطٌ من الخطيئة. وكنتُ أيضاً شاعراً بالضيق من تواصُل آلامي، التي لا تبدو أنَّها تنوي الانتهاء، بل، بالأحرى، فقد زادت في الآونة الأخيرة، وقد ظَهَرَتْ على ذراعي وفي بطني بقعٌ رماديَّة وزَهْرِيَّة اللون، وكنتُ دائم التدقيق بها، دون أن أُقرِّر عرض الحالة على الطبيب مخافة أن أحصل على الرَّدِّ الذي أخشاه، والذي لم أكن قادراً حتَّى على تصوُّره. كنتُ أرى نفسي واقفاً أمام الطبيب شبه عارٍ، وأرتجف في لحظة الانتظار التي تلي عمليَّة الفحص، من النَّظْرة الجدِّيَّة والصارمة التي كان سيُلقيها عليَّ قبل الإفصاح، بكلمات مُرعبةٍ، عمَّا أعاني منه. "لا شيء، لا شيء خطيراً على الإطلاق. إنَّه نتيجة طبيعيَّة لهذه التغذية اللعينة". وبشكلٍ عامٍّ، لم يكن الجنرال "خَسّ" مُخطئاً في الكثير ممَّا كان يفكِّر فيه.

كانت لحظات القلق المُثبطة للعزيمة تتناوب مع لحظات ارتياحٍ وتفاؤل، كنتُ أُرفِّهُ عن نفسي بالتفكير أنَّه يكفي أن أعود إلى إيطاليا بشكلٍ عاجل، إذْ سأعالج كلَّ ما أشعر به من آلام واضطرابات، دون الحاجة إلى البدء بعلاجاتٍ عاجلة وسطحية هنا. فماذا لو أخطأ طبيب الفرقة في تشخيص حالتي؟ سأنتهي إذَّاك إلى المستشفى، لأتحوَّل إلى عيِّنة اختبارات للأمراض المداريَّة. لم يكن الأمر يتجاوز التَّأنِّي لبضعة أسابيع، وسأعود. ولذا كان عليَّ أن أعالج نفسي وأُضمِّد الجرح بيدي، وأن أتحمَّل الآلام. ولم تعد البقع الرَّماديَّة الزَّهْرِيَّة تُوجِعُني. وغابت الأوجاع حتَّى من يدي، رَغْمَ أن النتوء الحُمُّصي لم يبْدُ في نِيَّتِهِ الزوال، أو بالأحرى، أوه، لقد نما وكبر قليلاً.

"إلى أين أنتَ ذاهب؟"، كان ذاك هو صوت الملازم الثاني. كانت التَّحيَّات ما بيننا تزداد جفافاً بالتدريج، وتفتقد إلى الودِّ، لم نعدْ إلى حالة الفترة السابقة التي تعايشْنا خلالها لبُرْهَة من الوقت، رَغْمَ أنّ تلك الفترة كانت تتقاطع مع ذكرياتي. وانسُدِلَ فيما بيننا ستار قاتم، كنَّا نتردَّد في التَّعرُّف على بعضنا، ويتجاهل أحدنا الآخر، لكنْ، لم يكن لنا أن نتجاهل بعضنا في ذلك اليوم الذي وَجَبَ علينا أن نترافق في نفس الطريق إلى مدينة "A"، وكان من الأفضل أن نتجاذب أطراف الحديث معاً، إذْ لم أكن أُطيق الصمت، بل إنَّني كنتُ آملُ في الاستماع إلى حكاياته. "أكلُّ الأمور سائرةٌ على ما يُرام؟" سألتُهُ.

"كلُّ شيء على ما يُرام"، أجابني. مشيْنا ونحن نبحث عن الجُمل المناسبة، كما لو أنَّنا نمارس لُعبةً، أَنْهَكَتْنا، وبَلَغَتْ نهاياتها بعد أنْ هَزُلَتْ أرقام رهاناتها.

ها هي ساحة مدينة "A"، كما هي على بهائها، إنَّها محروسةٌ كالعادة من قِبَل المُقدَّم ذاته، وهو واقف على عتبة كوخه، منزعجاً من عجزه عن كيفيَّة قضاء الوقت لبلوغ الليل الذي سيحمله إلى منزل الفَتَاتَيْن. حين رآني تَسلَّلَتْ من بين شَفَتَيْه ابتسامة عاجلة: "لقد لُذْتَ بالفرار، في المرَّة الأخيرة"، لم يكن لديه ما يشغله في تلك اللحظة، وأراد أن يلتحق بنا. لماذا عليَّ أن أجد هذه الشَّخصيَّة ماثلةً أمامي في كلِّ مرَّة، وأنْ أتحمَّل وطأة نبرات صوته المقرف؟ ليس بمقدوري النجاة منه، فقد صارَ ممسكاً بذراعي، وطوى عليه بذراعه الأُخرى. كانت ملامحه ودِّيَّةً، وكنتُ أندهش في كلِّ مرَّة للسببِ الذي يدعوني إلى أن أعتبره مثيراً للقرف. لم يكن غامضاً، بل مُغلَّفاً بخبايا، أعجز عن إدراك كُنْهِهَا؛ ولذا كنتُ أتحاشى نَظَرَاته. التي أراها مُثقَلَةً بأسرار بليدة، أو ربَّما عَصِيَّة على الكشف. كان رجلاً عالي القوام ضخم الجُثَّة، سعيداً بحياته ومُولَعاً بفَتْح القناني أو علب السجائر بحركات واسعة واستعراضيَّة. متحمِّساً للحديث معي والاستماع إليَّ، ومستعدَّاً لأنَّ يغفر لي اندفاعاتي الشَّبابيَّة. قال لي في الحال بأنَّه مَدينٌ لي بشيء: "أشكركَ، لأنّكَ عرَّفتَني على رحابات".

"رحابات؟ ومَنْ هي رحابات"، سألتُهُ.

"أَوَلا تَذْكُر؟" أومأ المُقدَّم بيَدَيْه إلى استدارات مُتخيَّلة لجسد امرأة، كان غارقاً في التفكير، فأضاف بأنَّها مخلوقة استثنائيَّة: إنَّها امرأة لا تعاني من وطأة الإحساس بمرور الوقت. أغلق عَيْنَيْه لبُرْهَة، ربَّما كان قد سمع هذه الجملة من شخصٍ آخر، لكنَّها صارت مِلْكَهُ الآن: وواصل موضِّحاً لي محاسن رحابات. كنتُ أمقتُهُ في تلك اللحظة، أو بالأحرى، كنتُ أشعر بالغَيْرة من سعادته، ومن طمأنينة وجوده. كنتُ أعتبره قادراً على الذود بوقاحة عن كوخه، عن منازله، عن أمواله ومصالحه، فواضح أنّ لديه أعمالاً ومصالحَ كثيرة في هذه البلاد. كان عليَّ السير على خُطاه إذا ما أَردْتُ النأي عن الانهيار تحت وطأة مشاكلي. عليَّ أن أعتبر العالم والبشر متحالفين ضدِّي، وبأنّ عليَّ إلحاق الهزيمة بهم بفطنة ومكْر. يعتقد هذا المُقدَّم جازماً بأنَّني مُعجبٌ به، ولم يكن مُجافياً للحقيقة، بالكامل. كنتُ مُعجباً بعيوبه، التي، ربَّما، كانت ضروريّة لي لمواصلة العيش. هذا ما استشعرتُهُ.

إنَّه الآن يتحدَّث بصوت العسكري الذي يستخدم رُتبته العليا لفَرْض رأيه الشَّخصيِّ في جميع القضايا: وكان له رأيٌ في أيِّ موضوع. يمقتُ تلك الأرض، يكره جميع سُكَّانها (باستثناء رحابات)، أو بالأحرى يحتقر الجميع، وبما أنّ موضوعاته كانت تُثير اشمئزازي، فقد بدأتُ بمعارضته.

استمع إليَّ بجدِّيَّة (أمقتُ جدِّيَّته الزائفة). وفي النهاية هزَّ رأسه مبتسماً. "متفائلٌ أنتَ!"، قال لي "لكنْ، أَلْقِ نَظْرَة على هؤلاء الناس. أيبدون لكَ بشراً متحضِّرين؟". أجبتُهُ بأنَّ لدى هؤلاء الناس خصالٌ، صارت تُفتقَدُ في البلاد المتحضِّرة، فما كان منه إلَّا أن أطلق ابتسامة واهية، وبادرني إلى القول بسخرية، أُدِّيَتْ على طريقة ممثِّل سيِّئ. "أبإمكانكَ أن تُحدِّد لي بعضاً هذه الخصال؟".

قلتُ له بأنَّ من بين هذه الخصال الإيمانُ والعزم، وبعضٌ آخر من خصال الكائنات البسيطة. ومن ثمَّ الرصانة والجرأة. فرَغْمَ كلِّ شيء، فقد حافظوا على معتقدهم المسيحي.

"أنا أيضاً مسيحي"، شدَّد المُقدَّم مندهشاً.

"وليست لديهم تلك المطامح التي تجعل حياة الفرد الاعتيادي في بلادنا قاسيةً وتعيسة. إنَّهم لا يُكافحون من أجل حياةٍ زائفة. لا يُكافحون من أجل الصندوق وما يحتويه".

"لا أموال لديهم"، أضاف الملازم الثاني مازحاً "ولم يتعرَّفوا على تعاسة التوفير".

"صحيح، ولربَّما"، ختمتُ "لو أنَّنا لم نأتِ إلى هنا، فلربَّما لم يكونوا ليشكُّوا إطلاقاً بإمكانية العيش في ظروف أقلّ عُسراً، مقابل فقدان قيَمِهم، والنَّظَر إلى الأشياء بعيونٍ تُشبه عيوننا".

"وهكذا فأنتَ تُحبُّ هؤلاء الناس، حضرة الملازم الأوَّل؟"، سألَ المُقدَّم. فكَّرتُ بمريم، ولم أُجب عن سؤاله، بدا لي فائضاً عن الحاجة. تظاهرتُ بالانزعاج.

"إنّ لديهم تبجيلاً حكيماً لنَظَريَّة بَذْل الجهد الأدنى"، قال الملازم الثاني "إنَّهم يُعيدون إلى ذهني سُكَّان مدينتي. لكنّ الفارق هنا هو أنَّهم مُقِلُّونَ في الغناء".

ضحك المُقدَّم بتساهُلٍ مُفاجِئ، وأطلق الخرطوشة التي كان ما يزال محتفظاً بها: "C'est[18] la faute à Jean Jacques"، قال وانتهى لفظه الفرنسي إلى زيادة درجة الغيظ لديَّ، ثمَّ أضاف: "هذا بلد لم يكن فيه حتَّى شارعٌ واحد".

"كما لم تكن لديهم حوادث سيَّارات"، قال الملازم الثاني بسرعةٍ خارقة. إذَّاك شَعَرْتُ بأنَّ هذا الحوار سيتَّخذ شكل كلام سَبَقَ لنا الاستماع إليه، وبأنَّنا سنستمع إليه مرتبطاً بأحداث واهية المعالم في ذاكرتنا. فكَّرتُ "لماذا تُثير هذه الكلمات لديَّ القلق؟"، لكن الملازم الثاني بادر إلى الإضافة "إلَّا أن هذا البلد كان، وما يزال، يمتلك الطُّرُق المختصرة". بعد ذلك أشعل سيجاراً آخر. كنتُ أشعر بمَقْتٍ كبيرٍ تجاهه أيضاً، وتجاه سجائره التي كان يستدعي إعدادها للتدخين زمناً طويلاً، وكنتُ أمقتُ أجوبته أيضاً.

كنَّا قد بَلَغْنا مدخل الكنيسة بينما كنَّا نتحاور، فأشار لنا المُقدَّم إلى كوخَيْن بفناءَيْن أماميَّيْن، بالقرب من مدخل الكنيسة، وأعلمنا بأنَّ ذلك هو المستشفى، ودعانا، بسخرية، إلى إبداء الإعجاب به. نَظَرْتُ إلى الكوخَيْن، وسألتُهُ ما إذا كان المرضى يُقيمون في ذلك المكان. "بالتأكيد"، أجاب المُقدَّم مُتَّخذاً هيئة الوقار، "يعيشون هناك دون الحاجة إلى التَّعرُّف على بؤس توفير الأموال".

ازددتُ اضطراباً، ربَّما بسبب الكآبة التي صارت ترْشَحُ من الأُمسيَّة، وسألتُ المُقدَّم "وهل يعيشون هناك معتمدين على الصدقات؟"، كنتُ أعرف الجواب سَلَفَاً. كنتُ أُحدِّق بالكوخَيْن، وإلى أولئك الرجال الذين كُوِّموا فيهما كما الحيوانات، غارقين في خمولهم اليائس.

"بالتأكيد"، كرَّر المُقدَّم، وأضاف الملازم الثاني: "واضحٌ أنْ ليس للفقر حدود. فها هو شعب من المتسوِّلين يجود بالصدقات على فقرائه". وضحك هو نفسه على ما قاله. كنتُ أرغب بالابتعاد عنهما، وقد شَعَرْتُ بجاذبيَّة لا تُقاوَم للتَّوجُّه نحو الكوخَيْن؛ إلَّا أنَّني لم أُرد الانفصال عن الضَّابطَيْن اللَّذَيْن كانا يمنحاني في تلك اللحظة الثقة والحماية الأخويَّة. وحين رأيتُهُما يواصلان السير تبعتُهُما، إلَّا أنَّني لم أعدْ أستمع إلى حواراتهما التي صارت تبلغني مشوَّشةً. فضولٌ لعين كان يدفعني باتِّجاه المدخل، وكانت الساحة تنفتح أمام ناظرَي، وتبدو أوسع بكثير. ما الذي كان يتحاور فيه ذانك الضابطان، لِمَ يضحكان؟ وممَّنْ يضحكان؟ رغبتُ في التشارك معهما، وأن أشعر بأنَّني حَيٌّ، وأنّ أؤكِّد برفقتهما كينونتي. "إنّهما يتركانني وراءهما"، فكَّرتُ. "تُرى ما الذي يتحاوران فيه؟".

كانا يتبادلان التَّحيَّات فحسب. ابتعد المُقدَّم منَّا، ورأيتُهُ يصعد على مَتْن حافلة، توقَّفتُ في تلك

اللحظة أمام كوخه. وَجَبَ عليَّ الإمساكُ بنفسي، كي لا ألحق به، كي لا ألحق بذلك الرجل ذي الوجه السمح، رَغْمَ كونه وجهاً مُضبَّباً بما هو مَخفيٌّ، يتسلَّل من انتباهاتي، وأرغب في إماطة اللِّثام عنه، والتَّعمُّق في معرفته. استدار إلينا، وأومأ بيده، بينما كان يصعد على مَتْن الحافلة: لم أَرُدّ على تحيَّته. "هَيَّا بنا"، قلتُ للملازم الثاني "لنَزُر الكنيسة".

للوصول إلى الكنيسة، كان علينا أن نمرَّ من أمام الكوخَيْن المجاورَيْن، فلمحتُ تلك الكائنات البائسة التي تفترش الأرض. لقد انسدلتْ على وجوههم أوشحةُ استسلام رهيب. شيبٌ وشبابٌ، اختلطوا فيما بينهم دون القدرة حتَّى على على التَّأوُّهِ (أعرف جيِّداً بأنَّه مسموحٌ لهم إطلاق مسارات الدَّمْع من عيونهم في الليل فحسب)، وكانوا عاجزين عن العثور على السكينة والراحة، يتحرَّكون داخل ذلك المكان الضَّيِّق كما الديدان المطرودة من مخزنٍ قديم، يُلاطِم أحدُها الآخر، تاركين أطباقهم القذرة تهوي على الأرض، فيما يتلصَّصون بفضول على المارَّة في الخارج، دون أن يتوقَّف أحدٌ من هؤلاء المارَّة بالقرب منهم. وفي الساحة كان موكب النساء المتوجِّهات إلى خزَّان الماء يتواصل بهدوء. هناك، في المَقْصِف، كانت المرأة ذات الرداء الزَّهْرِيِّ تخدم زبائنها بصمت.

كان الملازم الثاني يتقدَّمني ببضع خطواتٍ، بَلَغْنا عتبة الكنيسة بعد أن تجاوزْنا باحة، نَمَتْ على أطرافها أشجار الكَاْلِبْتُوْسْ. يا لغرابة العُجَالَة التي حلَّ فيها المساء! لم ندلُف إلى داخل الكنيسة، إذْ استهوانا الهدوء الذي ساد في الباحة التي تجول جنباتها بعضُ النساء اللواتي بدَوْنَ وكأنَّهن سابحات في صلاة للتَّأمُّل. وربَّما كانت التجربة تكمن في التَّعرُّف على قيمة بعض الكلمات التي تكشف لنا الحياة عنها بأناة، وليس عن عَبَث في بعض المرَّات. وإزاء ذلك المرأى المُهدِّئ للنَّفْس، تعرَّفْتُ على مغزى الكلمات التي جَعَلَتْ تلك الظلال ترتكن إلى الكنيسة، التي صارت بالنسبة إليها بمثابة المطهرُ الذي مسَّه الجلال. وبرزت ظلال المُصلِّين الجائلين في الباحة بوضوح ما بين ظلال الأشجار القاتمة. وفوق ذلك كلِّه كانت السماءُ قريبةً صافيةً ومصطبغةً بأرجواني عميق. بَدَتْ السماء أقربَ بكثيرٍ ممَّا كنتُ أتوقَّع؛ وبما أنّ السماء في هذه الأرض تتحوَّل، في بعض الأحيان، إلى فكرةٍ، فإنَّ أصحاب تلك الظلال المتحرِّكة كانوا يختزنون الفكرة في قلوبهم، بالضبط كما كنتُ أشعرُ بذلك أنا في تلك اللحظة. خَطَرَتْ مريم ببالي، ورغبتُ في الرحيل في الحال. كنتُ سأعود إلى المخيَّم.

"يا لجمالهما!"، قال الملازم الثاني، وأشار بأصبعه إلى فَتَاتَيْن كانتا واقفتَيْن ومستندتَيْن إلى شجرة، تتحاوران فيما بينهما بهدوءٍ، ووقفْنا نُدقِّق النَّظَر إليهما. "انظرْ إلى ثوبَيْهما، يا لنصاعتهما وأناقتهما!".

لم ألحظْ ملامحهما بدقَّة، لأنَّ ظلَّ المساء كان يهبط بسرعة مفاجِئة. "لنقتربْ منهما"، قلتُ، وقد غَلَبَنِي قلقٌ، عجزتُ عن تجاهله. عبرتُ الباحة، وتوقَّفتُ على بُعد بضع خطوات من الشَّابَّتَيْن. ولمُجرَّد إحساسهما بأنَّهما مراقبتان أدارتا ظَهْرَيْـهما. كانتا تُذكِّراني بمريم، وعجزتُ عن إدراك السبب، واعتقدتُ بأنَّ ذلك ليس إلَّا نتاجاً لإحدى حبائل مُخيِّلتي المُنهَكَة. "سترى مريم في كلِّ مكان، وقد آنَ الأوان في أن تكفَّ عن ذلك"، قلتُ لنفسي. ومع ذلك فقد كانتا تُذكِّراني بمريم. ملامحهما تشي بذات الجمال، لكنَّه جمالٌ مُلفَّعٌ بمئات السنين من الظُّلمة. كنتُ، إذَّاك، أعوم في ذات المياه العميقة التي رميتُ نفسي في لُجّتها للحظة، ويحدوني الأملُ الآن في أن لا أراها ثانيةً. كانتا تنظران إليَّ بصمت، دونما ابتسام، ورأيتُ الملازم الثاني يتظاهر بإلقاء نَظْرَة على واجهة الكنيسة، كما لو أنَّ عمارتها فاجأتْهُ وجَذَبَت انتباهه. "إنَّها عمارةٌ بسيطةٌ للغاية"، فكَّرتُ.

عندما ألقيتُ التَّحيَّة، ردَّتْ عليَّ الفتاتان بإيماءة برأسَيْهما وبابتسامة. إذَّاك ناديتُ الملازم الثاني. "اسأل هاتَيْن الشَّابَّتَيْن إذا ما كانتا تملكان منزلاً"، قلتُ له.

"بالتأكيد لهما منزلهما"، ثمَّ أضاف "وسيكون خالداً، والأفضل من جميع المنازل". وتبع ذلك بترجمة سؤالي للفَتَاتَيْن، فردَّتا بإيماءة بالإيجاب، وابتسمتا من جديد، وهما تنظران إلينا. فكَّرتُ بمريم مُجدَّداً، فقد كانت في تلك الفَتَاتَيْن ذات الكآبة التي اكتشفتُ في عَيْنَيْهَا، وفي غفوتها.

"وما الذي تُريدني أن أسألهما الآن؟ أهما راغبتان في دعوتنا؟"، ابتسمتُ وقلتُ له "هي فكرةٌ لا بأس بها"، وفكَّرتُ بأنَّ الأمور هنا أسهل بكثير ممَّا قد يتخيَّل المرء.

تحاور الملازم الثاني مع الفَتَاتَيْن مُطوَّلاً، وكانتا تهزَّان رأسَيْهما باسمَتَيْن، لكن ابتساماتهما بَدَتْ لي مختلفةً عمَّا أتوقَّع، وهو ما أثار لديَّ هَلَعَاً مفاجِئاً. فلماذا تبتسمان بدلاً من الإسراع في إرشادنا إلى طريق بلوغ منزلهما؟ لماذا تكتفيان بهزَّاتٍ من رأسَيْهما؟

"لا حلَّ، ولا أمل"، قال الملازم الثاني. وفي تلك اللحظة، ظَهَرَ المُقدَّم من وراء ظهورنا، فما كان من الفَتَاتَيْن، للتخفيف من وطأة رَفْضهما، مَدَّتا باتِّجاهنا يَدَيْهما.

كانت يداهما متآكلَتَيْن بالقروح والجروح الرهيبة، وكانت تلك هي أسباب رَفْضهما الانصياع لطَلَبِنا. وبقيتا على ذات الوَضْع، جادَّتَيْن، كطفلَتَيْن مُطيعَتَيْن، تمدَّان أكفَّهما إلى المعلِّمة، للتَّأكُّد من نظافة ما تحت الأظافر.

نَظَرَ الملازم الثاني إلى تلك الأيادي، أنا أيضَاً حدَّقتُ فيها مَليَّاً، واستدار نحوي بابتسامة كان يحاول بها تغليف اضطرابه: "الجُذَام"، قال بصوتٍ خفيض. إذَّاك تركت الفتاتان أذرعهما تتهاوى، ولاحقتانا بالنَّظَرات حتَّى اللحظة التي تجاوزْنا فيها مدخل الكنيسة صوب الساحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٣

لماذا تتقوَّس أصابعي الآن مُتَّجهةً صوب ظاهر الكَفِّ؟ "غيرُ معقول"، كنتُ أقول في سرِّي، فيما كنتُ أشعر بنفسي كالسائر الذي لا يُبصر شيئاً. كنتُ أشعر بجفافٍ في حلقي، وسيلٌ من العَرَق ينساب فوق ظَهْري. "غيرُ معقول"، وعلى أيَّة حال، كانت تلك الأكفُّ التي عرضتْها الفتاتان، ما تزال أمام ناظرَي.

"لنتوقَّفْ". قلتُ. جَلَسْنا فوق درجات سُلَّم كشك الهاتف. جنديَّان جَذِلان كان يُعلِّمان طفلاً قيادة الدَّرَّاجَة الهوائية، كانا يفعلان ذلك ليلهيا أكثر من الرغبة في تعليم الطفل شيئاً ما. رأيتُ تلك الدَّرَّاجَة تقطع الطريق، ورأيْتُهَا تأتي نحويَ، ثمَّ تُغيِّر مسارها لتعودَ أدراجها. كنتُ أسمع كلمات الجنديَّيْن وصرخات الطفل.

إذَّاك قرَّرتُ أن أُبعِدَ عن ذهني فكرة الاستخفاف تلك، مُحمِّلاً أسبابها على حالة القلق التي ساورتْني في الأيَّام الماضية، وحمَّلتُها أيضاً على مَرأى الساحة التي ابتدأت بالانغلاق كزهرة تبتلعُنا على عجل في مكابدتها الحزينة: لأنَّ النهار كان يموت هناك، ولم تكن كلمة الغد إلَّا واحداً من الافتراضات أكثر خُلُوَّاً من أيِّ نفع. لم يبدؤوا بعدُ بإضاءة المصابيح، ولم يزدْ وصول المارَّة الساحةَ اكتظاظاً، ولم تكنْ هناك كتابات ضوئية تدعو الناس إلى المقاهي، لا شوارعَ ولا مسارح. كنتُ أفكِّر بأضواء شوارعنا، وبزخَّات المطر التي تُضاعف من التماعاتها، أفكِّر بينابيع الماء الصافي، وبباعة الصُّحُف الهاتفين بصدور الطبعة الأخيرة من الجريدة، بالسَّيَّارات العابرة، وبالابتسامات التي تتراءى لعينَيْكَ بشكلٍ عابر منعكسةً على زُجاج واجهات المحلَّات. "لا تحشرنَّ أفكاراً بليدة في رأسكَ ذاك"، فكَّرتُ "فيَدُكَ المُصابة ستُشفى، وليس فيها أيُّ ما يربطها بتلك الأكفِّ التي شاهدتَها قبل حين".

"أترغب بتدخين سيجار؟"، قال الملازم الثاني، ومَدَّ إليَّ أحد سيجاراته، وبينما كنتُ أُشعله أسندتُ ذراعي بالأُخرى برفق، ولأنِّي عجزتُ عن احتمال ذلك الصمت، قلتُ له "يا للفَتَاتَيْن المسكينَتَيْن"، كرَّر الملازم الثاني كلماتي، ثمَّ أضاف: "لو عُدْنا بعد أربعين سنةً، فسنجدهما قرب تلك الشجرة. سنجدهما قد شَاخَتَا، وصارتا مثيرَتَيْن للرعب، ومُقطَّعَتَي الأوصال، لكنَّنا سنجدهما".

سألتُهُ ما إذا كانت تلك الباحة مستعمرة للمصابين بالجُذَام. لكنّ الملازم الثاني كان يتأخَّر في الرَّدِّ كما لو أنَّ ذلك الحوار يبدو له في غاية العُسر. كان يتجنَّب الرؤية إليَّ مباشرة، أو ربَّما لم يكن بمقدوره أن يفعل ذلك، لأنّنا كنَّا جالسَيْنِ على نفس الدرجة، ولكي ينظر إلى عَيْنَيَّ كان عليه أن يستدير برأسه نحوي بالكامل. "لا وجود لمستعمرة مُصابين بالجُذّام. إنّهما هناك. لديهما، على الأقلِّ، عزاءُ الدِّيْن. تصوَّر، إنّهما على بُعد خطوتَيْن من الكنيسة".

"هو عزاءٌ على أيَّة حال" قلتُ له. صَمَتْنا عن الكلام، وكنتُ مندهلاً من الهدوء الذي تجري في ظلِّه الحياة في تلك الساحة. سمعتُ حتَّى ضحكات صاحبة المَقْصِف. "لو حَدَثَ لي أنا، فسأُطلق النار على نفسي"، قال الملازم الثاني بصوتٍ خفيض.

"وأنا كذلك". لكن الملازم الثاني هزَّ رأسه، وقبل أن يردَّ عليَّ أشعل سيجارَهُ، مُستهلِكاً عدداً كبيراً من أعواد الثِّقَاب. "نحن معتادون على امتلاك الأمل".

"إلَّا أنّ الأمل في حالات مثل هذه غير ذي جدوى"، قلتُ له. كنتُ هادئ البال، بدَّدْتُ من داخلي جميع الأفكار المُؤسِيَة، ولمستُ يدي، شاعراً بالفرح، لأنَّها لم تؤلمني. كان عليَّ أن أعود إلى المعسكر، فلربَّما وَصَلَتْ حافلة البريد.

"غير ذي جدوى بالفعل. فقد يُشفَى أحدهم، لكن الأمر يعود إلى حاله بعد عشر سنوات"، قال الملازم الثاني.

"وإذاً، ينبغي العثور على الحزم والجرأة الكافيَتَيْن للانتحار بطلقة"، اختزلتُ. أومأ الملازم الثاني بالإيجاب بهزَّةٍ من رأسه، ثمَّ قال بأنَّه يتحرَّق شوقاً إلى ذلك اليوم الذي سيعود فيه إلى إيطاليا. "إنّ ذلك المُقدَّم، المُعبَّأ بالمواقف المُسبَّقة، على حقٍّ. فهذا البلد حزينٌ ومثير للكآبة. حزينٌ للغاية. فعندما تُولَد الضِّباع في أرضٍ ما، فلا بُدَّ أنَّ فيها ما هو فاسد".

"نعم، بالتأكيد هناك شيءٌ ما فاسد"، كرَّرتُ. وثَمَّةَ ما فسد أيضاً في أعماق أفكاري، ولم يكن بإمكان أحدٍ أن يستوعبه، ولا حتَّى هي(19).

"أتحرَّق اشتياقاً إلى يوم العودة إلى إيطاليا"، وَاصَلَ الملازم الثاني "أن أفعل ما كنتُ أفعله في ما مضى. بما في ذلك اقتراف الحماقات، أو، بالأحرى، الحماقات بالذات. الكفّ عن تحمُّل أحكام هذه الأرض، هذه الأشجار، هؤلاء البشر الشائخين في نُعاسهم المتواصل".

"أنتَ على حقٍّ"، قلتُ له. عليَّ الآن أن أعود إلى المعسكر، فلربَّما وَصَلَ بريد ما بعد الظُّهْر.

كانت الساحة ما تزال أمام ناظرينا، تلك الساحة الكئيبة والمُثيرة للذهول، والتي تهاوتْ هي الأُخرى في وَسَنِ القرون. تُرى ما الذي ترويه الفتاتان لبعضهما؟ أبإمكاننا نسيان نَظَرَاتهما عندما ابتعدنا عنهما بحذرِ مَنْ لا يرغب في التَّورُّط بشيء؟ أَكنتُ سأنسى يَدَيْهما؟ لقد عَرَضَتَا علينا أكفَّهما، كما لو كانت أكفَّ أناسٍ آخرين، وكما لو أنّهما رغبتا في إدانة أحدٍ ما. (لكنّهما كانتا داخل باحة الكنيسة، أيْ أنّهما ما تزالان تأملان في شيء، لم يكن للأمل أن يغادرهما أبداً)، ومع ذلك، فها هي هناك، أربعة أكُفٍّ مُتآكلة، ببعض الأصابع التي استدارت بعنفٍ صوب باطن الكفِّ، وتلك القروح الداكنة المصطبغة بذلك الأحمر اللعين. أيْ نعم! هلمُّوا انظروا، فتلك أكفُّنا، وستكون أسوأ بكثير بشكل مُطَّرد، وربَّما ستنفصل عن أذرعنا، وتسقط على الأرض، عندها سيتوجَّب على البعض أن يُطعِمَنا اللقمة، وسيفعل ذلك على مَضَضٍ وبحلقٍ منحبسٍ للقَرَف الذي سيستشعره، بسبب تورُّطه بالعيش تحت هذه السماء الثقيلة والصافية التي تُخيِّم علينا. وثَمَّةَ أُناسٌ آخرون انجذبوا بجمالنا، سيُديرون ظهورهم مُرسلين إلينا ابتساماتٍ عاجلة، وقد غالبهم الخوف الأناني لما رأوه، وسيكونون سعداء بتجاوُز عتبة الكنيسة حتَّى وإنْ شعروا بحُرْقَة نَظَرَاتنا خلف رقابهم.

"لماذا؟"، سألتُ "لماذا تعيش تلك المرأتان بشكلٍ طليق على تلك الشاكلة؟". استدار الملازم الثاني نحوي للمرَّة الأولى مُذْ جَلَسْنا هناك. "يعلم الجميع بأنّهما مُصابتان بالجُذَام"، قال "وأنا أيضاً كنتُ أعرف ذلك".

"لكنْ، لا شيء يُفصح عن حالتهما. وقد يحدُث أن يقترب منهما بعضهم"، قلتُ له، وبالتأكيد قد يكون هناك مَنْ يحاول الارتباط بعلاقةٍ معهما، على الأقلِّ لإكرام جمال عيونهما التي كانت تتشرَّب بألوان المساء. لكن الملازم الثاني أشعل سيجاراً آخر، وما عاد ينظر إليَّ، وقال: "لا، لن يحدُث شيءٌ من هذا القبيل"، وبما أنَّني بقيتُ صامتاً، كرَّر قوله: "لا، لن يحدُثَ، ليس بالإمكان

أن يحدُثَ، فهما محظورتان عن اللَّمْس".

"محظورتان؟"، وتمكَّنتُ من إطلاق ضحكةٍ، وأنا أستمع إلى تلك الكلمة.

"نعم، هما محظورتان على اللَّمْس، ولهما شارةٌ يعرفها الجميع، ولذا لا يقترب منهما أيٌّ كان، باستثناء الأمل".، ثمَّ أضاف "أو بالأحرى لا ينبغي أن يقترب منهما أحد".

كان المساء يُبطِئ الخَطْو، ليترك الفضاء لِلَّيل الذي صار يحثُّ الخطى عَجِلاً، وكما الوطواط اللَّيليّ، كانت الكآبة تتمثَّل أمامي كما لو أنَّها على موعد ليلي معي، دون أن تترك لي أيَّ مجال لمراوغتها. كنتُ خائفاً من طَرْح السؤال، وأعتقد بأنَّني تكهَّنتُ بالجواب، إلَّا أنَّني استجمعتُ قوايَ، ومَنَحْتُ سؤالي صيغة البساطة الأكبر التي كانت بمقدوري، وسألتُهُ عن الشارة التي يعنيها. نَهَضَ الملازم الثاني وهو ينوي الرحيل. "لهنَّ ذات الشارة المميَّزة للرهبان"، قال "شيءٌ يُشبه العِمَامَة البيضاء. له اسمٌ خاصٌّ، لكنِّي لا أتذكَّره"، وأضاف "أنا عائدٌ إلى المعسكر، وأنتَ؟".

"أنا أيضاً"، أجبتُ.

توقَّفتُ بعد خطوات قليلة، وقلتُ للملازم الثاني بأنَّني نسيتُ شراء شيءٍ ما. أجابني "سأنتظرك، إنْ أردتَ".

لم يكن ذلك ضروريَّاً، ولربَّما سأتوقَّف في المدينة.، قلتُ له، إذَّاك وَاصَلَ سيره مُجرجراً قَدَمَيْه على طريقة مَنْ تعوَّد التجوال في الطُّرُقات القائظة. كان يسير بتراخٍ ودونما تعجُّل، ورفضتُ تخيُّل ما كان يدور في خَلَدِهِ في تلك اللحظة. وددتُ لو أنَّني ناديتُهُ، فقد كانت الوحدة تُثقِل كاهلي، وإذا ما ناديتُهُ الآن، فسيُدرك في الحال شيئاً ما لمُجرَّد النَّظَر إلى عَيْنَيَّ، أو ربَّما هو أدرك بالفعل شيئاً ما. رأيتُهُ وهو يبتعد، وشَعَرْتُ بأنَّني فَقَدْتُ الشخص الوحيد القادر على تحقيق قَدْرٍ من الارتياح لي، بدأتُ الآن بتفهُّم لحظات الصمت لديه، فقد كانت وليدة هدوءٍ افتقدتُهُ، لحظات صمت نابعةٍ من قلبٍ حسَّاس. ولم تكن جلافتُهُ الوقحة إلَّا وسيلة للحيلولة دون التراخي والانهيار.

صَعِدْتُ حتَّى الموقع الذي يتوقَّف فيه خزَّان الماء الصالح للاستعمال، ومكثتُ هناك أُراقب النسوة وهنَّ يملأنَ الصفائح المعدنية بالماء، لكنّ المساء كان يُبعد حتَّى آخر المتخلِّفات عن هذه المهمَّة العائليَّة، وبعد قليل من الوقت، وجدتُ نفسي وحيداً هناك. لم أعرف ما الذي سأفعل، ودون أن أرغبَ في ذلك، وجدتُني أقف أمام مدخل الكنيسة، ومن ثمَّ داخل الباحة. كنتُ أتحرَّى عن الفَتَاتَيْن، ورأيتُهُما جالسَتَيْن عند شجرةٍ، تتناولان عشاءهما بصمت وهدوء، كانتا تجلسان هناك كراحلَتَيْن تخلَّفَتا عن قافلةِ من الغجر، وفيما أطبق الليل بسواده كانت الفتاتان مستسلمَتَيْن إلى ذلك السواد، وهما تتحاوران بصوتٍ خفيض، وبَدَتْ عِمَامَتَاهُما كالنُّقطة الرَّماديَّة الوحيدة في ذلك البحر من الظُّلمة.

تعرَّفتا عليَّ، وسَكَتَتَا عن الكلام فجأة. إحداهما فقط، تلك التي نَظَرْتُ إليها مطوَّلاً، أومأتْ لصديقتها، مُثَبِّتةً ناظرَيْـها في الظُّلمة، وعلى مُحيَّاها ابتسامة طفيفة؛ ثمَّ عادت إلى تناوُل عشائها دونما استعجال، ودونما شعورٍ بالانزعاج لحضوري. صرتُ على بُعد بضع خطواتٍ منهما، واقفاً. "طاب مساؤكما"، قلتُ. أجابتا على تحيَّتي بصوتٍ خفيض، وضحكتا.

ما الذي بإمكاني قوله غير تلك التَّحيَّة؟ بركتُ على رُكبَتَيَّ، وكنتُ على استعداد للبقاء هناك. كانت المرأتان تبتسمان الآن باستحياء، بالضبط كأيِّ فَتَاتَيْن تنتشيان حين تشعران بأنَّ أحداً ما يُعنى بهما. ثَمَّةَ ما لم يمُتْ في داخلهما بعدُ وهو قادرٌ على المقاومة والحياة لوقتٍ طويل إزاء انهزام الجسد. تلك التي راقبتُها أكثر من الأُخرى عدَّلتْ ثوبَـها بغُنْجٍ عاجلٍ، فأُتيحَتْ لي رؤية تلك اليد لمرَّة أُخرى.

في الغضون كان حارس المكان قد توجَّه نحو باب الباحة لإغلاقه، وعندما رأيتُهُ قرب الباب بمفتاحه الكبير، أفزعتْني فكرة أن أبقى حبيسَ ذلك المكان، وخفتُ بأنْ يمتنع الحارس العجوز عن السماح لي بالخروج بعد إغلاق الباب، فهُرعتُ صوب الباب. صَرَخَ بي العجوز بكلمات لم أفهم معناها، ومَنَعَنِي صوته الخشن والصادر من عُمق الحلق عن الاستدارة إلى الخلف. وعُدتُ إلى المعسكر سالكاً الطريق نفسها التي كانت قد قادتْني إلى الساحة.

كان الجنود يُنشدون أغانيهم. فقد كان صفاء الليل وجماله يحول دون سكوتهم. كان الحديث يدور منذُ أيَّام عن اقتراب موعد انتقال جديد، ولتبديد احتمالات الإقامة الطويلة في ذلك الموقع، فقد كانوا يُمضون جُلَّ الوقت في الراحة مستَبِقينَ بهاء العودة إلى البلاد. ذلك البهاء والفرح يتماثلان بحيويَّة في مخيِّلاتهم إلى الدرجة التي كانت تملأ خيماتهم بالأحاديث وبانفجارات الضحكات، وهو ما لم نكن نشهده منذُ شهورٍ طويلة.

دخلتُ خيمتي، وأغلقتُ فَتْحتَها، وفَكَكْتُ رباط الجُرح. ربَّما ساء قليلاً. كانت اليد متورِّمةً، وحين مَسَسْتُهَا شَعَرْتُ بظلٍّ بعيدٍ للألم، كصوتٍ قادمٍ من أعماق زِنْزَانَة سجن. "ربَّما بالغتُ في شَدِّ الرِّبَاط". فكَّرتُ، "فَساءَ وَضْع اليد. ليس بإمكاني القبول بأيِّ افتراضٍ آخر. أعصابي مُهتزَّة، وأنا على قَدْرٍ كبير من التشاؤم".

تذكَّرتُ، بعد ذلك، البقع الرَّماديَّة على بطني وذراعَيَّ. تعرَّيتُ من ثيابي، وراقبتُ جسدي مُطوَّلاً، وشَعَرْتُ بحلقي ينغلق، لكنِّي عجزتُ عن إطلاق التَّنهُّدات. استلقيتُ على سريري شبه عارٍ، فحلَّ محلَّ الألم إحساسٌ بالهدوء، كان أكثر فراغاً من أيِّ أمل. كنتُ وحيداً، وسأبقى وحدي لسنين طويلة، حتَّى حلول النهاية.

كانت الأفكار المُحرقة تحملني إلى مريم. تذكَّرتُ جسدها المتناسق، البهيَّ، المضمَّخ بذلك الدم المتخثِّر. "أيمكن هذا؟"، ردَّدتُ لنفسي. ورَغْمَ كلِّ شيء، فقد كانت تلك الفتاتان جميلَتَيْن أيضاً. حاولتُ استعادة الأحداث، وكلَّما فَعَلْتُ اعترتْني مشاعر الإحباط أكثرَ فأكثر. تذكَّرتُ المقاومة التي أبدتْها مريم، كانت مقاومة ضعيفة للغاية، لم تكن حتَّى هي تؤمن بفاعليَّتها، تبعها استسلام كامل، واهتياج عارم لجسدها الذي كان قد أدرك وَحْدته في تلك اللحظة، وطالَبَني بما لم يكن سيحظى به لو فاتت تلك اللحظة. وتلك اليدان اللتان كانتا تضغطان على جسدي، وتُعربان عن وحدتهما الرهيبة بالتأكيد، وكان كلُّ ذاك يجذبني إليها بعنف. ثمَّ تذكَّرتُ رَفْضها الحاسم بمرافقتي حتَّى الجسر، ورغبتَها في أن أنامَ هناك، في الغابة، معها بعيداً عن عيون مَنْ كان بمقدوره إشعاري، وأخيراً، تذكَّرتُ تلك الفوطة البيضاء التي لفَّتْ بها رأسها.

لقد غطَّيْتُ بقطعة القماش تلك وجهها، كي لا تقرأ في عَيْنَيَّ قراري بقَتْلها. وكنتُ قد لَفَفْتُ يدي الجريحة الحاملة للمُسدَّس بثوبها المضمَّخ بالدم، كي يُخفِّف من صوت الإطلاقة. كانت مشاعر الندم قد اجتاحتْني بالكامل. "آهِ، يا مريم، أنتِ المُنتصرة!"، ردَّدتُ مع نفسي "لقد حرَّرتُكِ من عبءٍ، وها أنت تَرمينه على كاهلي. هي مَزْحَة فائقة التَّحقُّق إلى درجة لا جدوى من

الغضب تجاهها. فلنقبل بها بالكامل".

بعد ذلك، قفزتُ من فراشي فجأة، ووقفتُ في منتصف الخيمة. كنتُ أُحدِّق في الأرجاء كَمَنْ تاه خاطره. رأيتُ صورتها([20])، واستمعتُ إلى ضحكات الجنود، واجتاحني اليأس القانط، ووَجَبَ عليَّ أن أخنق صرخاتي، وأدفنَها في الوسادة، كي لا يسمعها الآخرون. كنتُ أعضُّ الوسادة تاركاً فوقها علامات أسناني.

سَحَبْتُ مُسدَّسي، وحشوتُ ماسورته: "سأنتحر بطلقة"، قال الملازم الثاني. كانت تلك النصيحة الوحيدة التي استطاع أن يُسديها إليَّ، أو بالأحرى هو نَصَحَنِي بها، وأنا أُثمِّن الآن القسوة المُصطنعة التي كانت تَقطُر من كلماته، أُدرك الآن أسباب انزعاجه من الحوار الذي دار بيننا، ونصيحته لي بعدم الوثوق بالأمل. لقد أدرك كلَّ شيء. أَوَلم أرتجف مرتعباً أمام تلك الأيادي؟!

كنتُ أُداور المُسدَّس من يدٍ إلى الأُخرى. كان يكفي أن أضغط بالكاد على الزناد، أن أُصوِّب بدقَّةٍ، إلَّا أن الأصابع لم تستجِبْ لاندفاعاتي، وبقيت فُوَّهة المُسدَّس فوق صدري، جاهزة، وغيرُ مبالية في آنٍ. "ومع ذلك"، قلتُ لنفسي "فإنَّه ينبغي أن تُطلقَ النارَ على مَنْ هو مُشرِفٌ على موتٍ مؤكَّد، أو أنَّه سيموت بعد لحظات، أو أنَّه مات وانتهى. لِمَ هذه الحَيْرة؟". وكانت ضحكتي تتحوَّل إلى شهقة بكاءٍ، وفكَّرتُ بأنَّ عليَّ أن أكتب رسالة إلى زوجتي. وكنتُ في كلِّ مرَّة أبتدئ بالرسالة أُمزِّق الورقة، لم تكن الكلمات تأتيني. نعم، هذا هو الوَضْع، ما كان عليَّ أن أُخبرها بأيِّ شيء، وبذا لم تكن لتشعر بالتَّقزُّز من شخصي ما بعد موتي.

كان ينبغي أن تبدو الحادثة ناتجة عن خطأ: ينبغي أن تقع بينما أُنظِّف مُسدَّسي. ولذا أخرجتُ من صندوقي قَنِّينَة البترول وخِرْقَة قماش، وعزلتُ مشطَ الطلقات، مُبقِياً داخل الماسورة الطلقة التي كنتُ قد حمَّلتُها. ذاك سيُظهِر بجلاءٍ إهمالي وتجاهلي القواعد. كلُّ شيءٍ في الخطَّة يسير على ما يُرام. لكنْ، أليس عليَّ أن أفعل شيئاً آخر؟ أن أكتب إليها للمرَّة الأخيرة، على الأقلِّ؟ سأُحدِّثها عن عودتي الموشكة، أو عن الانتقال المقبل إلى مكانٍ آخر. أُحدِّثها عن الرُّزم التي استلمتُها، وسأطلب منها كُتُباً أُخرى. بمقدوري أن أكتب لها عن كلِّ هذا.

كتبتُ الرسالة، بتوقُّفات طويلة، لأنَّ شهقاتي صارت أكثر عُسراً: إلَّا أنَّني عجزتُ عن البكاء.

وحين انتهيتُ من الكتابة، وأعدتُ قراءتها، طَوَيْتُها، ووَضَعْتُها في المظروف، لكنِّي فكَّرتُ، بأنَّها رسالة مَسَسْتُهَا بيدَيَّ. لا، ليس بإمكاني أن أبعثَها إليها. والأُخريات؟ ماذا عن الرسائل الأُخرى؟ لم تكن فكرة الاستمرار بإرسال الرسائل صائبةً.

أحرقتُ الرسالة، وحملتُ المُسدَّس، إلَّا أنَّني كنتُ أُلاعِبُ نفسي. كنتُ أشعر بأنَّني لا أمتلك القوَّة والحزم الكافيَيْن للضغط على الزناد. إذَّاك، وفي خاتمة اليأس المطبق، حلَّ ما كنتُ أخشاه: الأمل.

كنتُ أحكم على الأمور دونما مفردات كافية. نعم، لقد كانت المرأة تعتمر عِمَامَة بيضاء، لكنَّها كانت تستحمُّ، فلربَّما جَمَعَتْ بالعِمَامَة خُصْلات شَعْرها، كي لا ينالها البَلَل. لم أرَ فوق جسدها أيَّة جروح. وماذا عن مقاومتها الغامضة؟ كانت ترغب في أن تُهزَم، هذا كلُّ ما في الأمر، كي لا يعتريها الإحساس بالخطيئة إزاء ما هي مُقدِمةٌ عليه. تذكَّرتُ ابتسامتها، عندما أزلتُ عنها في الليل جميع مشاعر الندم.

إضافة إلى كلِّ ذلك، فإنَّ عليَّ أن أستشير طبيباً، وأن أتعرَّف على حالتي. ولم أكن قادراً على التَّخلِّي عن إمكانية تمتُّعي بإجازة، وهي سبيل الخلاص الوحيد الذي بقي لديَّ. فبمقدوري الحصول على العلاج المناسب في إيطاليا، وفي اليوم الذي سأفقد فيه كلَّ الآمال، سأنتحر. سأنتحرُ مُقتنِعاً. لكنْ، ليس بمقدوري الآن المغامرة باحتمال إدخالي في عنبرٍ رهيب في مستشفى هنا في هذه الأرض، وحيثُ لا شيء يجري كما ينبغي، وحيثُ ترنُّ الأجراس دون أن يحصل أصحابها على أيِّ ردٍّ، وحيثُ لا تسمع إلَّا قهقهات الممرِّضات في الممرَّات، وتخفت لمُجرَّد وصولهنَّ على أعتاب الرَّدْهَة. أَعليَّ أن أبقى هنا لأترقَّب ضمور أصابعي واحداً بعد الآخر، وأن تضمر يدي بعد ذلك، وأن يتشقَّق بطني، وأن ينشقَّ حلقي؟ عليَّ أن أُهدئ من روعي، وأن أعود إلى زوجتي، أن أحاول العودة. فثَمَّةَ أيضاً احتمال بأنَّ الأمر ليس بتلك الخطورة، ولا شيء يدعو إلى كلِّ ذلك القلق الوسواس، عليَّ أن أستعين حتَّى بأقصى الاحتمالات الإيجابيَّة والأكثر بُعداً، حتَّى لو كان الاحتمال المُضيء الوحيد. كنتُ قد انتهيتُ للتَّوِّ من مداورة هذه الأفكار داخل رأسي، عندما ابتدأتْ حالة اليأس بالتَّسيُّد عليَّ، وعُدتُ إلى الوسادة، لأخنقَ فيها صرخاتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٤

كنتُ مستلقياً ووجهي على الوسادة، وبدوران مؤلم في رأسي أُوزِّع نَظَرَاتي ما بين لهب الشمعة والبقع المتراكمة على سطح الخيمة، حين شَمَمْتُ رائحة طفيفة.

لم تكن رائحة نتنة، لكنْ، رائحة تبلغ الخياشيم بالكاد، فيها من النتانة ما يُذكِّرني بشيءٍ ما، وتُذكِّرني أيضاً برائحة حجرة الفَتَاتَيْن اللَّتَيْن التقيتُهُما برفقة المُقدَّم، وبالذات الفتاة التي جَلَسَتْ بجواري. غير أنَّ هذه الرائحة كانت من القوَّة بما لا يُطاق، وذلك لكونها شبه غائبة، وأشبه برسالة عليَّ تلقِّيها. كانت رسالة انتصار، رائحة جسورة ونزقة، فها هي صرخة الانتصار تصعد أخيراً من الأعماق.!. شَمَمْتُ البطَّانيَّة والوسادة، وكنتُ ما أزال دائخاً من الألم، لكنِّي لم أُفلِحْ في تحديد مصدر تلك الرائحة وأصلها، أو ما كانت تتشكَّل منه. كانت هناك رائحة فطريَّات تشكَّلت في غرفة قائظة. كنتُ أشمُّ تلك الرائحة بوضوح كبير، رَغْمَ أنَّها تصل إلى أنفي بشكل مُتقطِّع، ثمَّ تذكَّرتُ رائحة شَعْر الكلاب السائبة، وشيئاً ما شبيهاً بالبخور ذي الرائحة النَّفَّاذة، العتيقة والقويَّة، كانت بخوراً اختلط بالفانيليا، التي يُمكن أن تهزمها فقط رائحة الأرض المُبلَّلة التي حُرِثَتْ للتَّوِّ. هَطَلَ المطر قبل ذلك بقليل، لذا كان من الطَّبيعيِّ أن تكون الأرض مُبلَّلة، لكنْ، لماذا ينبغي أن تُحرَثَ تلك الأرض؟ أشعلتُ سيجارة، وعلى الرَّغْمِ من ركود الدخان في داخل الخيمة، فإنَّ رائحته انهزمت أمام هبوب تلك الرائحة التي تزداد ثِقلاً وانتشاراً، وزادت عليها الآن رائحة الزنابق، رائحة مزهرية الزنابق عندما تُغيِّر ماءها، لم تكن تلك الرائحة واضحة المعالم، بل كانت أكثر مُخاتلةً وتستُّراً، رائحة لم تكن تشي بالعبق النَّقيِّ للزنابق، بل بالأحرى برائحة جُثَّة قدِّيس الزنابق. تُرى أيُمكن أن تكون تلك الرائحة ما يصعد من الشرخ الصَّخْرِيِّ في المنحدر، وحيثُ الأغصان الجافَّة تُغطِّي القبر؟ كانت أغصاناً جافَّة، قلتُ لنفسي ولم يكن بمقدورها أن تبثَّ أيَّة رائحةٍ. لكنْ، لماذا صرتُ أشمُّ الآن رائحة الكاكاو التي تزيد من مرارة الجرعة؟

قد يكون جُرح يدي هو مصدر هذه؟ قرَّبْتُ يدي من أنفي، فَشَمَمْتُ، بالإضافة إلى تلك الرائحة، ما كان يصدر عن دواء اليود. لم تكن الرائحة آتيةً من الجرح. كَلَّا، هي رائحة أرض محروثة للتَّوِّ، بالذات، وبرفقة زهورٍ آيلة إلى تعفُّنٍ، بَلَّلَهَا ندى الفجر بعد أن نسيَها هناك أصدقاءٌ مُشفقون. "آه، نعم"، قلتُ في سرِّي "هذا كثيرٌ، يا مريم".

فَتَحْتُ قَنِّينَة من ماء الكولونيا، ونثرتُ محتوياتها على السرير، وأنا أُردِّد مع نفسي "مريم، يا مريم، هذا كثيرٌ جدَّاً".

لم يكن بالإمكان تحمُّل الرائحة، فلقد تحالف ماء الكولونيا مع ذلك العفن المختلط والسائد في المكان، وكذلك فَعَلَ الدخان والبترول، امتزج كلُّ شيءٍ ببعضه. "لم أتناول عشائي"، قلتُ "ومعدتي تخونني"، شَمَمْتُ في الأرجاء من جديد، ولأنَّني اعتقدتُ بأنَّ بِزَّتي العسكريَّة قد تشبَّعتْ بتلك الرائحة، أو ربَّما كانت هي مصدر الرائحة، فقد قرَّرتُ إحراقها.

أنعشَني هواء المساء، والنار التي أضرمتُها لحَرْق الرسالة أوقدتْ ذهني أيضاً. عندما عُدتُ إلى خيمتي شاهدتُ صُرَّة، الصُرَّة ذاتها: كان إلياس ينام هناك مُلتحفاً أكياس القُنَّب، وكان هو مَنْ حرَّك تراب الأرض حول الخيمة، ليتجنَّب البَلَل. "خيالاتكَ الغبيَّة"، قلتُ. وأيقظتُ الطفل، وأمرتُهُ أن يدخل إلى الخيمة.

كان يؤدِّي التَّحيَّة كعادته، مبتسماً، وبإمكاني الآن أن أرى مقداراً من الرضا للمَزْحَة التي تمكَّن منها بشكل فاعل. وبزفرة طويلة، أطلقتُ سراح الغضب الذي كان على وشك أن يعتريَني، لينفجر من عَيْنَيَّ. "اجلسْ"، قلتُ له. افترشَ إلياسُ الأرضَ، مُهذَّباً، كعادته، دون أن يُزيح ناظرَيْه عن وجهي أبداً، وعلى استعداد لأيَّة إيماءة منِّي. سألتُهُ أين أمضى كلُّ ذلك الوقت؟ "عند يوهانس"، أجابني.

"وماذا هو فاعلٌ حفَّار القبور العجوز ذاك؟ هل بدأ بإعداد القبر لي أيضاً؟". كنتُ أُطلق الكلام على عواهنه، ولم يكن بمقدور إلياس أن يفهم ما أرمي إليه. وَاصَلَ الابتسام خافضاً رأسه قليلاً. "أسألكَ عمَّا يفعله يوهانس"، كرَّرتُ عليه.

"لا شيء"، أجابني. لقد كان سؤالي فائضاً عن الحاجة حقَّاً. فما الذي بمقدور ذلك العجوز أن يفعل عدا حراسة قبور موتاه، وأن يترقَّب الموت هو أيضاً؟ لكنِّي لم أكن مَعنِيَّاً بيوهانس إلَّا قليلاً، وكنتُ قد ناديتُ إلياس، لأنَّ ثَمَّةَ أملاً جديداً يسعى للانضمام إلى الآمال الأُخرى. فلربَّما كان هو على علمٍ. "اسمع"، قلتُ له "حَدِّثْني عن مريم".

رَفَعَ كتفَيْه، ولم يقل شيئاً. "أنتَ قلتُ بأنَّ مريم كانت فَتِيَّةً. لماذا كانت تعيش في القرية بدلاً من العيش في أسمرا أو غوندار؟".

"لا أعلم"، ثمَّ أضاف "لكنَّها لا تعيش الآن في القرية".

"ربَّما كانت تعيش في القرية، لأنَّها كانت مُصابةٍ بمرضٍ"، نَظَرَ الطفل إليَّ مطوَّلاً عابس النَّظْرة، ثمَّ ابتسم. "لا أعلم"، قال. وقد بدا لي هذا الجواب أيضاً مُعَدَّاً منذُ وقتٍ طويل. "ألم يتناهى إلى سمعكَ أنَّها كانت تُعاني من مرضٍ ما؟"، ألححتُ عليه بالسؤال.

"لا أعلم"، كان من العسير استخلاص شيءٍ ما منه. لقد أرسلوه إلى هنا بهدف تمكينِ واحدٍ من صُنَّاع المؤامرة أن يكون شاهداً على الانتصار. بدا لي وكأنَّني أرى يوهانيس ومريم، وهما يُقهقهان لسماع أجوبته. "أنتَ لا تعلم أيَّ شيء"، قلتُ له. ابتسم لي رافعاً كتفَيْه مرَّة أُخرى كالمعتاد. وكالمعتاد استمعتُ بعد وقتٍ قصير إلى شهقاته العذبة والوئيدة كشهقات مريم. أمَّا تلك الرائحة، "عليك أن تعتاد عليها"، قلتُ لنفسي. استلقيتُ على السرير، وقد انتابَني هدوءٌ كان خاوياً أكثر من ذي قبل.

عند الاستيقاظ، أدركتُ بأنَّ الليل قد هدَّأ من روعي، واحتلَّ هدوءٌ خاملٌ مكان الدُّوَار في الرأس. كنتُ هادئاً إلى الدرجة التي أحسستُ فيها أنَّني صرتُ مستعدَّاً لكلِّ شيء. وإذاً، فهذا هو استسلام المحكوم عليه بالموت؟ الآن عليَّ أن أعرف حقَّاً، كان عليَّ أن أعرفَ، وأن أعود إلى إيطاليا. كنتُ أرفض بكلِّ ما أُوتيتُ من عزمٍ فكرة البقاء هناك، في أفريقيا. لا شيء يمكنه الإمساك بي هنا، ولا حتَّى الثقة المُطلقة في شفاءٍ عاجل ومؤكَّد، وكان هذا افتراضاً لا معقولاً، لأنَّ مرضي في بداياته. ثمَّ لا أحد ينبغي أن يستشفَّ ذلك من خلال مظهري، لذا فقد حَلَقْتُ ذقني في ذلك اليوم بعنايةٍ فائقة، وارتديتُ البِزَّة الجديدة، وقد كانت الوحيدة التي تبقَّتْ لي.

ناديتُ مرافقي "من الآن فصاعداً"، قلتُ له "أرغب في الاعتناء بخيمتي بنفسي، أفهمتَ؟"، لم يفهم بالطبع. ابتسم لي بروحيَّة مَنْ يتَّفق معي. ربَّما فكَّر بأنَّني أنوي استضافة امرأة ما في خيمتي ليلاً، وأن أُخفيَها هناك.

كان عليَّ أن أعرف، مررتُ من أمام خيمة الطبيب، راودتْني الرغبة في الدخول إليها، إلَّا أنَّني تردَّدتُ. كان بالإمكان أن أخرج بنتائج سلبيَّة. رآني الدكتور، فناداني: "كيف حال أسنانكَ؟".

"جيِّدة للغاية"، أجبتُ. كنتُ هادئاً عندما غادرتُ المعسكر مُتَّجهاً إلى المدينة. كنتُ قد جدَّدتُ رِبَاطَ الجُرح، إذْ أضفتُ قماشاً بلون القميص الذي كنتُ أرتديه للتمويه على رِبَاط الجُرح. سِرْتُ بخُطى سريعة.

كان الباعة والتُّجَّار الجوَّالون قد اجتاحوا الساحة في تلك الساعة. جُلتُ طويلاً ما بين الأكواخ، مُلقِياً على ما يبيعون نَظَرَاتٍ سريعة لعابرٍ مستمتع، لن يشتريَ شيئاً. لكنّ مُبتغى جولتي تلك كان أمراً آخر: عليَّ أن أعرف، لذا فقد كنتُ أبحث عن جُرحٍ تشبه قروحه جُرحي، فمن المؤكَّد سأعثر بين جميع أولئك الحبشيِّيْن على مَنْ فيه جُرحٌ يُشبهُ جرحي، كنتُ متأكِّداً من هذا. ولو أنَّني عثرتُ على تلك الجروح لدى أحدهم في السوق. فإنَّ السعادة ستغمر قلبي، كنتُ سأُهرع إلى الطبيب: "عَالِجْ لي هذه القذارة"، كنتُ سأقول له. لذا كنتُ أبحثُ عن الجُرح، ولم يكن العثور عليه أمراً هيِّناً. كنتُ قد رأيتُ، في بعض المرَّات، عدداً من السُّكَّان الأصليِّيْن يرتادون خيمة الطبيب، ليُعالجَهُم، وكان المُضمِّد المعاون يُعالج جروحهم وهو يصرخ بلهجته المحلِّيَّة غاضباً من العمل لصالح أولئك المتطفِّلين، لكنَّه، كان في الوقت ذاته، سعيداً وشاعراً بالزَّهْو، بسبب التَّحيَّات ومشاعر الامتنان والابتسامات التي يُبدونها له بتواضعٍ أَخَويٍّ بعد الانتهاء من وَضْع الضِّمَادات.

كانت تلك الجروح مختلفةً للغاية، عليَّ الإقرار بأنَّها كانت جروحاً مختلفة، أوسع بكثير من جُرحي، كان أغلبها أوسَع بكثير، لكنْ، بمرأى اعتيادي، جروحٌ تحتاج إلى بعضٍ من الوقت لتُشفَى. وستُشفَى بالتأكيد لو أنَّهم عقَّموها ونظَّفوها كلّ يوم. رأيتُ طفلاً بجُرحٍ في كاحله. وبالطبع، كان يمشي حافيَ القَدَمَيْن، فيتلوَّث الجُرح بغبار الطريق، في حين كان انتعالُ الحذاء أو النِّعال ضرورياً لشفاء الجُرح. لم أعثر على مُصابين بجروح في اليَدَيْن.

كان البائع يرمقني متخوِّفاً. وجال في ذهنه أنَّني أتجولُ في السوق لمصادرة البضائع المزيَّفة، أو المشتراة من مخازن الفرقة، أو تلك المُسرَّبة إليهم من المُقدَّم؟

"أنتَ، أرنِي يَدَيْكَ". عَرَضَ عليَّ يَدَيْه، وحدَّق فيهما هو الآخر مَليَّاً، كما لو أنَّه يشاهدهما للمرَّة الأولى، وأنَّه اكتشف فيهما شيئاً جديداً لم يخطر على باله من ذي قبل. كانتا مُتَّسخَتَيْن، لكنْ، سليمَتَيْن. يدان مليئتان بالندوب والعُقَدْ، وحتَّى أكثر وساخةً من قَدَمَيْه اللَّتَيْن كانت تنتهيان في بعض المرَّات دون علْمه في بِركٍ راكدةٍ، لكنّهما كانتا يَدَيْنِ سليمَتَيْن. ومع أنَّني رأيتُ في عضلة ساقه جُرحاً، فقد كاد الأمل موشِكاً على التلاشي. كنتُ عاجزاً عن فعل أيِّ شيء. لكنِّي لم أغادر الساحة، فتَّشتُ من جديد ما بين الأكواخ، اقتربتُ من تقاطع الطُّرُق، ومن الناس الذين اجتمعوا للتحاور فيما بينهم، وَصَلْتُ حتَّى المستوصف. كلَّا، جميع أولئك كانوا مرضى "مختلفون". كانوا مرضى، لكن الناس يقتربون منهم، ويحاورونهم. امرأة شابَّة تحمل الطعام لشيخ عجوزٍ، كانت تنتظر جالسةً على حافَّة سُلَّم الكوخ وهي تهزُّ ساقَيْها بحبور. رأيتُ في ساقها جُرحاً. لكنَّه كان جُرحاً سليماً، ومختلفاً. وحين شاهدتْني أُراقب الجُرح، حدَّقت فيه هي الأُخرى، كما لو أنَّه حليةً ثمينة.

لِمَ لا أعود إلى الفَتَاتَيْن؟ لِمَ لا أطلب منهما أن تعرضا لي أكفَّهما مرَّة أُخرى؟ كنتُ إذَّاك سأدَّخر كلَّ التعب. لكنْ، ربَّما لم تكنِ الفتاتان هناك، في الباحة، في مثل هذه الساعة. بالتأكيد، لم تكونا لتُعسكرا هناك طَوَالَ اليوم في انتظاري! لم تكونا هناك بالتأكيد. ثمَّ، لأتركهما في سلام. لماذا

ينبغي عليَّ إهانتهما بفضولي المريض؟ تذكَّرتُ الانزعاج الذي كنتُ أستشعره في أيَّام المدرسة حين كنَّا نعرض على المعلِّمين دفاتر الامتحانات. كنتُ أُفضِّل عدم الذهاب إلى السُّبُّورَة، وكنتُ أُفضِّل أن يُفصح لي مَرأى زملائي الآخرين عمَّا حَدَثَ. فقد كنتُ أتكهَّن بالحالة عبر ما تُبديه وجوههم. لم تكن الفتاتان هناك خلال الصباح، كان عليَّ أن أعود مساءً، في وقت الصلوات على ما أعتقد.

جُلتُ في الساحة مُجدَّداً، وصَعِدْتُ إلى حيثُ يقوم خزَّان الماء. هناك أيضاً رأيتُ الكثير من الجروح، لكنّ غالبها كان في القَدَمَيْن. بعضها كان مفتوحاً بشكلٍ مخيف، وبتخثُّرات دم سميكة، لكنِّي توقَّعتُ أنّ تلك الجروح نتجت عن التَّعرُّض إلى أشعَّة الشمس الحارقة، وإلى الحرارة الملتهبة، سوء التغذية، وبسبب المشي بأقدام حافية. إلَّا أنَّني لم أعثر في أيدي مَنْ كانوا هناك على أيِّ جُرح.

وفي المَقْصِف الذي وَلَجْتُ إليه وجدتُ الإثيوبيَّة البدينة التي ترتدي الثوب زَهْرِيَّ اللون، حدجتْني بنَظَرَات قاسية. فما الذي أفعله في ذلك المكان؟ هل أرغب في شرب البيرة الحامضة في كأس من كؤوسها؟ أنا، "السَّيِّد"؟ "صباح الخير، أيُّها الملازم"، قالت لي الإثيوبيَّة ذات الرداء الزَّهْرِيِّ. ودَعَتْني إلى الجلوس، ابتسمتُ، وأومأتُ إليها بأنَّ عليَّ الذهاب. إلَّا أنَّني بقيتُ واقفاً في مكاني داخل تلك الغرفة، مُحدِّقاً في الأكفِّ المفتوحة. لا وجود حتَّى لجُرح واحد.

كان هناك، قرب كوخ الهواتف، عددٌ من باعة العطور، والسجاجيد المُزيَّفة والمظلَّات، والمطبوعات المصوَّرة بكتابات عربيَّة، تُظهر بطولات صليبيِّيْن ومسلمين. كان الصَّليبيُّون في الصور على قَدْرٍ كبيرٍ من دمامة وقذارة المظهر، فيما بدا المسلمون ممشوقي القوام، وبملبسٍ نظيف. لم يكن لدى البائع أيُّ جُرح، فيما أنا أحمل في يدي جُرحاً، ولم تكن تلك الرائحة التي شَمَمْتُهَا إلَّا نتاجاً للعطور السَّيِّئة التي عَرَضَهَا البائع للمشترين تحت وَهْج الشمس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٥

خَلَتِ الساحة من الباعة والمشترين، لتعود إليها الحياة مُجدَّداً. سلكتُ الطريق المعاكس لاتِّجاه المعسكر، نحو الدرب الذي يقود إلى غابة أشجار الكَاْلِبْتُوْسْ. كان الطبيبُ جالساً على كرسيِّ الاستلقاء، وعلى بُعدِ خطواتٍ قليلة منه، كان الجندي يُعدُّ العدَّة للرحيل.

حين اقتربتُ منه استدار الطبيب نحوي، لكنَّه ردَّ على تحيَّتي بتكاسل. لم يَبْدُ عليه أيُّ نوعٍ من الارتياح لمَرآيَ، كما أنَّني لم أتوقَّع استقبالاً مُغايراً، كنتُ قد تعرَّفتُ على سُمعته: كانَ من الكسولين الذين يعشقون الوَحْدة، ويُجيدون الذَّود عنها. اختار ذلك المكان، نائياً عن الجميع، لأنَّ أفريقيا ولَّدَتْ لديه الشيء المخيف الوحيد: الخوف من أن يُزعِجَهُ الآخرون. كان يذود عن سأمه العذب، ويعمل من أجل تنميته وحمايته، ويُقصي عنه كلَّ أشكال المخاطر، كان يقرأ في صُحُفٍ، يعود تاريخها إلى شهرٍ سابقٍ على الأقلِّ، ولربَّما لم يكن حتَّى يترقَّب يوم العودة إلى البلاد، فلا تباينَ لديه بين جميع الأشياء. وبَدَتْ زيارتي له مثار قلقٍ كبير. أمَّا أنا، فلم أكن لأقضيَ لديه وقتاً طويلاً، بل ما يكفيني للسؤال عن كُتيِّبٍ. لكنْ، ينبغي عليَّ اجتراحُ مُبرِّرٍ لذلك الطَّلَب. وعندما سلَّمني أنبوبة أقراص الأسبيرين، قال لي بأنَّه كان عليَّ أن أطلب ذلك من مستوصف الوحدة التي أنتمي إليها. أخبرتُهُ بأنَّ وحدتي تُعسكرُ في مكانٍ آخر، ولأنَّه كان دائم الصمت، ويركِّز نَظَرَهُ على جريدته القديمة، نادماً لكونه مَنَحَنِي تبريراً لمواصلة الحديث، فقد أضفتُ: "إنَّ وحدتي تُعسكر ما وراء غوندار، وعليَّ أن أسير لأيَّام". وأتْبَعْتُ ذلك بابتسامة.

لم يكنْ مَعْنِيَّاً أو مُهتمَّاً بها لا من قريبٍ ولا من بعيد، كان يرغب فقط أن يُترَك بسلام. لكنِّي كنتُ أحتاج للحديث معه، "هل لي أن أَجلس؟"، سألتُهُ.

لم يُجبْ عن سؤالي، بل أشار إلى مقعد قريب، وَجَبَ عليَّ إفراغه من أشياءٍ كثيرة تراكمتْ عليه. مرَّة أُخرى الفوضى ذاتها التي شاهدتُ في السابق، إذا استثنينا الدَّرَّاجَة البخارية، التي كانت الآن دون عجلات. "اسمحْ لي أن أُقدِّم إليكَ نفسي"، ونطقتُ باسمٍ مُختلَقٍ، لكنَّه لم يستوعبه في أيِّ حالٍ من الأحوال، ففكَّرتُ بأنَّه الشخص المثالي الذي أبحث عنه. إلَّا أنَّه كان لزاماً عليَّ العثور على التبرير.

قبل أن يُغادر المكان، جاء الجندي الممرِّض متمايلاً ليسأل عمَّا إذا كان الطبيب بحاجةٍ إلى أيِّ شيء. أومأ إليه الطبيب بإشارة عَنَتْ بالنَّفْي؛ في حين ابتدأ بحديث طويل ومُفصَّل، هو ما كان يُفترض أنّ الجندي يعرفه عن ظَهْر قلب: المراجعات، والأشياء التي عليه أن يشتريَـها، بعض الرسائل التي يجب أن تُرسَل، أن يستفسر من القيادة عن هذا الأمر، ومن المستشفى عن ذاك. كان يبتدئُ بالحديث، دائماً، من أوَّله شارحاً بأناة وهدوء، خالطاً بين الأمور، مُضطرباً، فيما كان الجندي يقف على بُعد خطوَتَيْن يومئُ برأسه: لم يكن لينفِّذَ أيَّاً ممَّا أمره به الطبيب. وفي النهاية، حيَّاه الطبيب بجفاء، وعاد إلى قراءة جريدته القديمة.

أكان بمقدوري كسر حالة الصمت؟ "الحياة هنا لطيفةٌ للغاية"، قلتُ. أجابني بأنَّه وَضْعٌ لطيفٌ بالفعل، كان يُكرِّر نفس كلماتي، منزعجاً من ضرورة البحث عن كلمات أُخرى غيرها: وإذا كان سيعجز عن العثور على كلماتٍ أُخرى، فإنَّ الحوار بيننا سيموت في محلِّه. لذا كان عليَّ أنا أن أبحث عن موضوعات أُخرى للحديث. "بمقدور المرء هنا أن يمارس هواية الرَّسْم"، قلتُ. لم يُجِبْ على كلامي، "أو بإمكانه ممارسة الكتابة. إنَّه المكان المثالي لذلك". كان يُحدِّق في الجريدة

دون أن يرفع ناظرَيْه نحوي، وحين قلتُ له: "أعتقد بأنَّكَ لا تُحبّ الصيدَ"، ردَّ عليَّ ب. "لا" جافَّة، يُفترَض بها أن تكون خاتمةً للحوار بيننا.

لكنْ، لم يكن بمقدوري الرحيل. "هل أنتَ الطبيب الأقدم في المستشفى؟"، سألتُهُ. ولأنَّني لم أحصل على جوابٍ منه (كان يرفض الرَّدَّ، يرغب في تجاهلي، ويرحل بنَظْرَته صوب الشارع، ربَّما متأمِّلاً بفكرة الفرار من هناك) سألتُهُ ما إذا كان بمقدوري إلقاء نَظْرَة على الجريدة التي يقرأ فيها، فقد مرَّت شهورٌ طويلة دون أن أُشاهد واحدة منها. فقراءتي للجريدة ستُبرِّر بقائي هناك لفترة أطول. تصفَّحتُ الجريدة الأولى التي وَقَعَتْ تحت يدي، كانت الصفحة تحتوي على موضوعاتٍ ساخرة. عندها قلتُ له بأنَّني أعتبر الاستهزاء بالعدوِّ أمراً في غاية الحطَّة والابتذال.

بعد قليل انتبهتُ بأنَّ الطبيب كان يتفحَّصني عبر عدستي نظَّارَتَيْه الملوَّنَتَيْن. كان يزمُّ شَفَتَيْه، يُمسك بزفيره فيما يتفحَّصني من رأسي إلى أخمص قَدَمَيَّ، بعَيْنَيْن عادتا حيويَّتَيْن على حين غِرَّة .. وبدا رأسه الصغير، القائم فوق جُثَّة هائلة، وكأنَّه استُنير فجأةً. ربَّما يُخطِّط لطردي من هناك. كنتُ على وشك القيام، عندما حرَّر الطبيب فجأة كلَّ الهواء الذي احتبسه في رئَتَيْه، وقال ببطء محسوبٍ للغاية: "نعم، إنَّها دُنُوٌّ في الذوق وحطَّةٌ حقيقيَّة".

لقد أجاب. وعاد من جديد ليغرقَ بقراءته في جريدته، كما الخَرْتِيْتِ الذي يقفز داخل بركته الراكدة بعد هديَّة السائح. وباستعداد جاهز، أجبتُهُ، بأنَّ أولئك مارسوا، في خاتمة المطاف، حقِّهم في الدفاع عن أرضهم. أومأ إليَّ برأسه موافقاً. وصرتُ أرى عَيْنَيْه شبه مُغلَقَتَيْن وراء العدسات الملوَّنة، بسبب ذلك الضجر القَسْرِيِّ، ما ولَّد حول شَفَتَيْه تكشيرة، وَسَّعَتْ فتحة فمه، زَفَرَ مُجدَّداً، وقال: "القضية بما فيها مسألة ذوق".

"بالضبط"، قلتُ بحيويَّة.

وحين سمعتُ تنهيدته، أضفتُ بأنِّي سأُسعد لو سمعتُهُ يُدلي برأيه في الموضوع. مرَّر كفَّهُ على جبهته، وتكلَّم جاعلاً الكلمات تبدو زاحفةً ومُجرجَرةً، لأنَّه أعاد التفكير فيها، ونطق بها في بعض الأحيان بلُغة الخطابة. كلُّ ذلك أنْساني حتَّى سبب الزيارة، وحين سألني عمَّا كنتُ أعمل "في الدار[21]"، لمستُ في نبرات صوته مقداراً من المجاملة الصّداقيَّة. أجبتُهُ بأنَّني لم أكن أفعل شيئاً. لكنِّي تذكَّرتُ بأنَّ عليَّ استغلال لحظة التجاوب هذه، فأضفتُ بأنَّني أفكِّر بممارسة الكتابة لمُجرَّد العودة إلى إيطاليا. سأكتب عن تلك الأماكن، وعن الخبرة التي تراكمتْ لديَّ. "أو بالأحرى، فقد بدأتُ بالكتابة بالفعل"، قلتُ "أنا الآن أكتب ...".

انتبهتُ بأنَّه لم يعُدْ يُنصت إليَّ. انشغل عنِّي، وبدا رأسه وكأنَّه صغُرَ أكثر، أو ربَّما غرق في داخل عنقه. فكرَّرتُ له بصوت أعلى، وبنبرة مَنْ نفدَ صبره "أنا الآن بصدد كتابة قصَّة طويلةٍ، ولمَّحتُ له بفكرتها: مهندسٌ يُرسَل إلى هنا، فيصاب بمرضٍ، كانوا قد وصفوا له البلد على أنَّه نبعٌ للثراء، في حين لا يعثر فيه إلَّا على الموت".

قال لي بلُطفٍ بأنَّ الفكرة جميلة. ولكوني تشجَّعتُ من ردِّه عاودتُ الحديث: "فكَّرتُ أنّ بإمكاني الاستفادة منكَ، لتُعرِّفني على بعض الأمراض والأوبئة، التي يمكن أن يُصاب بها المهندس. مرضٌ استوائيٌّ، مثلاً". وهنا صمتُّ، وَجَبَ عليَّ أن آخذَ شهقةً هواء طويلة وأزفرها، وقلتُ: "أتعتقد إمكان أن يكون ذلك المرض هو الجُذَام مثلاً؟".

زمَّ الطبيب شَفَتَيْه، ولاعبهما: "نعم"، قال. لم يكن واثقاً للغاية. كنتُ أشعر بقلبي ينبض بعنف

آملاً بألّا يُدرك الطبيب ارتجافاتي الدَّاخليَّة، كما كنتُ أشعر بها أنا نفسي. سألتُهُ بعد قليلٍ ما إذا كان لديه كتابٌ ما عن هذا المرض، بإمكانه إعارته لي.

"أعتقد بأنَّ لديَّ شيئاً ما"، قال ذلك، لكنْ، دون أن يُحرِّك ساكناً. ظلَّ جالساً يتفحَّصني، وألقى مرَّة أُخرى نَظْرَة على الشارع العامِّ، كَمَنْ يُخطِّط لفرارٍ مستحيل. ربَّما لم يكن قد نَهَضَ عن مقعد الاستلقاء منذُ زمنٍ طويل. كان يستمع إليَّ بإحدى أُذُنَيْه، ويواصل استلقاءه على قماش المقعد، مُسترخياً. فكَّرتُ بأنَّ المقعد سينهار "أنا أتخيَّل"، قلتُ له "بأنَّ عدوى الإصابة بالمرض انتقلت إلى شخصيَّة قصَّتي، المهندس، لأنَّه نام في فراش أحد السُّكَّان الأصليِّيْن. أبالإمكان أن يحدُث أمرٌ كهذا؟".

لمَّحَ إلى الطابع الوراثي للإصابة، وإلى احتمال انتقالها إلى الآخرين بالعدوى. كان الجميع يُشيرون إلى إمكان انتقال العدوى. ومبتسماً (بابتسامةٍ طفولية زادت من وضوح ضخامة جسده)، أضاف: "بالإمكان أن يُصاب الإنسان بالجُذَام، بالضبط كما يُصبح المرء طاغيةً: بالوراثة أو بانتقال العدوى".

تمكَّنتُ من إطلاق ابتسامة. "أبالإمكان أن تنتقل العدوى إلى المهندس لمُجرَّد أن نام في ذلك البيت ليلةً واحدة؟". قلتُ ذلك بصوتٍ هادئ أدهشني أنا نفسي. كان هو شارد الذهن، أجابني أن ليس بإمكانه الرَّدّ على هذا السؤال قبل فَحْص ذلك المواطن الأصلي. وباهتزاز في الصوت أضاف: "أو فَحْص مهندسكَ".

كان الآن يُحدِّق فيَّ بعَيْنَيْن مختلفَتَيْن. كان هناك في عَيْنَيْه ثَمَّةَ ما يستثير قلقي. أهي السخرية هي ما مَنَحَتْ صوتَهُ نبرةَ الغَرْغَرَة تلك؟ هل حقَّاً سيُصدِّق بحكاية المهندس تلك؟ بقيتُ فاقد اليقين لبُرْهَة، ومن ثمَّ أدركتُ بأنَّه كان غارقاً بارتياح في مقعد الاستلقاء ذاك. لم يكن يُطالبُ أفريقيا بأيِّ شيء، غير أن يُترك بسلامٍ لحاله. في النهاية أخبرني إنْ كنتُ أرغب في الحصول على الكتاب، فسيذهب لإحضاره لي. قام بتثاقلٍ، وتوجَّه إلى داخل الكوخ، وعاد يحمل في يده كُتيِّباً صغيراً، وبدلاً من أن يناولَني إيَّاه عاد وجَلَسَ على مقعده، وابتدأ بتصفُّحه بصمت طويل. صرتُ أُوَبِّخ نفسي على الخفَّة التي تعاملتُ فيها معه. وبهدوءٍ وحَذَرٍ، خَلَعْتُ من جُبَّتي العسكريَّة شارة الكتيبة التي أنتمي إليها. لم ينتبه إلى شيء، كان يقرأ، قد تناساني تماماً. "هل نام مُهندسكَ في منزل مُصابٍ بالجُذَام؟".

جَفَلْتُ. "نعم"، أجبتُهُ كما لو كنتُ شاهداً في محاكمة.

"هل نام في فراش المريض؟". ( لماذا كان يتحدَّث بتلك الطريقة التي تُبدي وكأنَّ الأمر قد وَقَعَ بالفعل؟ فلم يكن الأمر إلَّا قصَّة مُتخيَّلة). أومأتُ برأسي بالإيجاب. "يبدو لي في غاية السذاجة أن تجعل مهندساً ينام في فراش حبشي".

وبينما كنتُ أواصل في داخلي توبيخ نفسي حول التبرير الذي طرحتُهُ. كان هو صامتاً بانتظار أن يُقرِّر إعطائي الكُتيِّب، إلَّا أنَّه كان يُصرُّ على ذلك الحديث: "هل سَبَقَ لكَ أن رأيتَ فراش حبشيٍّ؟".

وبما أنَّني أجبتُ بصبرٍ بأنَّني رأيتُ ذلك الفراش، سألني ما إذا كنتُ مُقتنعاً بالفعل بإمكان وجود مهندس واحدٍ في العالم يقبل الاستلقاء في ذلك الفراش.

ربَّما كان يرغب فِي ممارسة نوعٍ من النَّقْد الأدبي المنطلق من الحقيقة الواقعة.

"إنَّه افتراضٌ أدبي"، قلتُ له. كان مناسباً، وبما أنَّنا كنَّا فِي دائرة الافتراضات، لذا كان من المناسب جَعْل ذلك المهندس يرقد فِي منزل مواطنة من السُّكَّان الأصليِّيْن. وأشرتُ إليه بأنَّ هذا الافتراض استُخدِم مرَّات أُخرى. ابتسم وقال لِي بأنَّ هذا الافتراض أكثر معقوليَّة. "نعم، أكثرُ معقولية". كرَّر.

إذَّاك ألححتُ فِي شَرْح الموضوع الخاصِّ بمهندس يذهب إلى مكانٍ بمثابة الأرض الموعودة، ولا يعثر فيها إلَّا على الموت. ليس ضروريَّاً كيف يحدُث ذلك الموت. كان ذلك أمراً ثانويَّاً. كنتُ أتكلَّم مُحاوِلاً تهدئة قلقي؛ الآن أرغب فقط فِي الرحيل من ذلك المكان، لكنّ فراري سيُثير الشكوك التي صارت تزدحم فِي ذهن الطبيب، فِي الغضون كان هو يُمسِّد شاربَيْه بأصابعه، بصفاءٍ مُطلق، قال لِي حين غِرَّة بصوت فخمٍ وحازم بأنَّ "المهندس" (وبدا لِي الآن يحاول الضغط على بعض الكلمات، ليؤكِّد لِي بأنَّه صار يلعب اللعبة بنفس قواعدي، وبأنّه سيكون المنتصر فِي النهاية)، أشار إلى أنّ "المهندس" إذَّاك سيموت بعد وقتٍ طويلٍ للغاية. وعاد إلى تصفُّح الكُتيِّب، لكنْ، دون القدرة على العثور على الفقرة التي أراد الاستشهاد بها، أو ربَّما كان يتظاهر بعدم العثور عليها. وبعد صمت لا نهائي (كان يُبلِّل أصابعة بلُعابه، ويُعيد التَّصفُّح مرَّات ومرَّات)، تمكَّن من العثور على الفقرة "هنا يقول الكتاب بأنَّ بإمكان المُصابين بمراحلَ متقدِّمة من المرض البقاءُ على قيْد الحياة لعشرين، ثلاثين أو حتَّى لستِّين عاماً، وحتَّى اللحظة التي لا ينقضُّ عليهم مرضٌ آخر، ويضعُ حدَّاً لعذاباتهم". مسَّد شاربَيْه من جديد. "وإذاً"، خَتَمَ قوله "مهندسكَ سيعيش طويلاً حتَّى فِي هذه الأرض الموعودة، ولأنَّه عجز عن رَفْض استضافة المواطن فِي هذه الأرض لليلة واحدة، فإنَّ عليه القبول بالمرض طيلة حياته". ثمَّ وَاصَلَ مبتسماً "إلَّا إذا قرَّر المهندس ممارسة الطقس القديم الغابر لهذه الأرض".

اعتراني فِي الحال أمل بليد، فسألتُهُ على عجل: "وما هو؟".

"نعم"، أجابَني "إنّ على مهندسكَ هذا أن يُبلِّل جسده كلَّ عامٍ بدماء طفلٍ وليد. إنَّه رمز مناسب لإنهاء قصَّتكَ تلك".

كنتُ قد نَهَضْتُ من المقعد أُبصِرُ الشارع، عاجزاً عن وقف اهتزاز ساقيَّ. حين انتهى من الكلام (لا أذكر أيَّ شيء ممَّا قالَهُ قطعاً)، التقط الطبيب من الأرض كيس التبغ، وابتدأ بلَفِّ سيجارة. حدَّق بورقة اللَّفِّ فِي مواجهة شعاع الشمس، مزَّقها، وأخذ واحدة أُخرى، أدخلها فِي الكيس، وأخرجها مُعمَّرة بالتبغ الأشقر. لم يكن يُقرِّر مواصلة الحديث، كان كَمَنْ باغتتْهُ فكرة مفاجِئة. لم أعلم ما الذي عليَّ قوله، رَغْمَ أنَّني كنتُ أشعر بأنَّ صمتي ذلك كان أكثر فصاحة من أيِّ اعتراف. وقفتُ جامداً فِي مكاني منذهلاً من يَدَيْه البدينتَيْن اللَّتَيْن تُنهَكان فِي الإمساك بورقة السيجارة. خيوطٌ من التبغ تساقطت فوق قميصه. صار كلُّ شيء بمثابة تعذيب لا يُطاق. أصابعه التي تُحاول والتبغ كان كثيراً، أو أنَّه كان أقلَّ ممَّا ينبغي، وانتهى الأمر إلى تمزُّق الورقة. عرضتُ عليه علبة سجائري. رَفَضَهَا: كان يُدخِّن التبغ الحلو فحسب. عندها قلتُ له بأنَّني قرَّرتُ الإقلاع عن ملاحقة مأساة بطلي حتَّى موته. "يكفيني أن أعلم بأنَّه محكومٌ عليه"، ومن ثمَّ، وبهدوء كبير، كما لو أن الأمر لا يعنيني كثيراً. "بإمكاني اختيار وباءٍ آخر، لكنْ، أيّ وباءٍ؟"، ودون أن أترك له مجالاً للرَّدِّ: "حسنٌ"، قلتُ "ما يُهمُّني هو معرفة كيف يكتشف المهندس إصابته بالجُذَام".

هنا أدركتُ بأنَّني ارتكبتُ خطأً. فقال لي بصوت جادٍّ، وبأخويَّة مفاجِئة: "أفترضُ أنَّه سيعرض نفسه على طبيب".

"لكنَّه سيكتشف قبل ذلك بعض الأعراض"، أجبتُهُ "وفي هذا الإطار يفيدني كتابكَ هذا. سأُلقي عليه نَظْرَة، وأعود في الغد لإرجاعه إليكَ".

"لا يهمُّ. أُهديكَ الكتاب"، قال بعُجَالَة. وبحركة خالية من اللياقة رمى الكتاب أمامي، ولبُرْهَة شَعَرْتُ بأنَّ عَيْنَيْه النَّاعسَتَيْن تراقباني دونما اكتراث كعينَيْ قطَّة، وكما لو أنَّهما تخشيان التَّوقُّف طويلاً على شخصي. تعرَّفتُ، إذَّاك، على نَظْرَتي أنا عندما شاهدتُ الفَتَاتَيْن.

شكرتُهُ. كان الطبيب ينهض من مكانه، ويتوجَّه نحو الكوخ. ودخل بخطوات عاجلة، وسمعتُهُ يغنِّي. انتعل حذاءه، وشدَّ على خصره الحزام الحامل للمُسدَّس، وسألَني بصوتٍ عالٍ ما إذا كنتُ مُتَّجهاً إلى المدينة. كان سيرافقني.

شَعَرْتُ باحتباس في حلقي. ربَّما كان يسعى إلى الإبلاغ عنِّي، أو ربَّما لا، لكنْ، إذا ما قرَّر الابتداء بالتَّحرُّك، فذلك يعني نِيَّتَهُ بالإبلاغ عنِّي. وبما أنَّه كان يتظاهر بالبحث عن شيءٍ ما فوق الطاولة، شَعَرْتُ بدافعٍ قويٍّ للفرار من ذلك المكان: لم يكن ليُطلِقَ النار عليَّ؛ لم يكن من أصحاب القدرة على التهديف الدقيق. كانت الأرض تدور حول رأسي، وشَعَرْتُ بفقدان القدرة على التَّحرُّك حتَّى خطوة واحدة. كان الكُتيِّب قد تبلَّل بعَرَق كفِّي. وعندما خَرَجَ من الكوخ، وباشرْنا المسير، وعلى مدى الدرب، عاودتُ الحديث. كان مُعجَبَاً بفكرة القصَّة، وقدَّم إليَّ نصائحه بأنْ لا أُحوِّل الشَّخصيَّة إلى حالة مَرَضِيَّة. ولم يكن بإمكاني إلَّا أن أُثمِّن اقتداره. "المهندس"، قال لي "سينتبه إلى إصابته بالجُذَام فحسب". ستكون له جروح، بثورٌ، فقاعات مائية، وعُقد"، وبما أنَّني بقيتُ صامتاً أضاف "حين تلمس العُقد لا تشعر بأيَّة آلام، لكنْ، أقترح عليكَ أن تبقى في العموميَّات. فالكاتب الجيِّد لا يُفصح أبداً عن طبيعة كلِّ الأشياء".

أجبتُهُ بأنَّ تلك بالذات هي نِيَّتِي. كان حلقي قد تيبَّس، وكنتُ أرى الدرب بالكاد. كانت يدي داخل الجيب قد تحوَّلت إلى ما يُشبه كومة من الرصاص، "الذا"، وَاصَلَ "اتركُ مرض بطلكَ لوعي القارئ وذكائه"، ومرَّة أُخرى شدَّد على الكلمات "خُذْ في اعتباركَ بأنَّ الجُذَام، حتَّى تظهر أعراضه، يحتاج في بعض المرَّات إلى عشر سنوات أو حتَّى عشرين سنةً".

شَعَرْتُ بركبَتَيَّ تنطويان، لكن الطبيب، وبذكاءٍ محسوب، وَاصَلَ كلامه قائلاً بأنَّ هناك حالات تمَّ التَّعرُّف فيها على الإصابة السريعة : "ثلاثة شهور، أو شهراً واحداً، أو حتَّى أسبوعاً. وأعني بذلك في الأشخاص الأكثر شباباً، فإنَّ الإصابة تنتقل في تلك الحالات عبر جُرحٍ".

شَعَرْتُ بأنَّ أحداً ما كان يُقَهْقِهُ وراء ظَهْري، بعيداً. استدرتُ، فرأيتُ جندياً يسير في الدرب، ويرمي الحيوانات المختبئة بين الأحراش بالحجارة. توقَّفتُ. رغبتُ في أن يواصل الجندي طريقه، ويتركنا وحدنا. "إنَّه مُثيرٌ للرعب"، قلتُ.

"نعم هو مُرعبٌ حقَّاً"، كرَّر الطبيب باسماً "أنا لستُ طبيباً للأمراض الجِلْدِيَّة، لكنَّه وباءٌ مُرعب حقَّاً".

كان يرمقني بثبات. وكان يُحدِّق بالذات في يدي. التي أبقيتُها حتَّى تلك اللحظة داخل جيبي. لماذا دَفَعَتْنِي الغريزة إلى وَضْعها ثانية في جيبي؟ لم يقلْ شيئاً. بل بالأحرى كنتُ واثقاً بعد لحظات

بأنَّه لم يلحظ ربطة الضِّمَاد حول كفِّي، لأنَّه انشغل في النَّظَر إلى عقربٍ كان يعبر الدربَ. كان هادئاً "ثَمَّةَ ما هو فاسدٌ في هذا البلد"، قلتُ له. كنتُ أفكِّر بالملازم الثاني، وأعتقد بأنَّه، هو الآخر "يعلم ما أُعاني منه".

"إنَّها إمبراطورية مُعْدِيَة"، أضفتُ، وتمكَّنت حتَّى من إطلاق ابتسامة. كان عليَّ أن أُواصِلَ الحديث معه، وأن أفرضَ عليه ثقتي بالنَّفْس. أتى بحركةٍ يائسة، وقال بأنَّ الإمبرياليَّة، تُشبه الجُذَام، يمكن الخلاص منها بالموت. كان يسعى بأن يلعب لُعبتي، لكنِّي رأيتُ في ناظرَيْه رأفة مُفاجِئةً إزاء الألم الذي قَلَبَ حياتي. قواي تكاد تُفارقني، وقد اقترفتُ خطيئة عدم العودة إلى المعسكر، ولم أذُقْ طعاماً منذُ الصباح. عندما استندتُ إلى الطبيب، انزاح عنِّي كما لو أنَّه يحاول الدفاع عن نفسه إزاء ضربةٍ منِّي، وسرعان ما اصطبغ وجهه بالحُمرة، واتَّخذ مظهراً كئيباً. صرتُ مُعجباً به. جُثَّته الضخمة المُتوَّجة برأس طفولي، بشَعْر أشقر، جَعَلَني أعتقد بأنَّ كلَّ شيء سينتهي على ما يُرام، كما لو كانت نُكْتَة أو مَزْحَة. كنَّا، حتَّى تلك اللحظة، قد تبادلْنا إشارات صداقة، وكان كلانا يُدرك بأنَّ لحظة النهاية باتت آيلة الحدوث. كان كلانا يتردَّد في الإقدام على الخطوة التي لا رجعة منها، والتي ستفصل بيننا بشكلٍ نهائيٍّ.

والآن، قد أُضيف إلى التوبيخات التي كنتُ أُلقيها على كاهلي، توبيخاً آخر لتعرُّفي على صديقٍ قد أفقده بالذات في لحظة الإفصاح عمَّا فيه. وعلى ما أعتقد، فإنَّ ذهنه هو أيضاً، كان منشغلاً في ذات الأمر، إلَّا أنَّه لم يكن قادراً عن التَّخلِّي عن واجبه اتِّجاهي كطبيب. كان لدى كلٍّ منَّا واجبٌ مُحدَّد عليه القيام به إزاء الآخر. "هَيَّا" كنتُ أفكِّر "لماذا لا تدعو هذا الجندي المارَّ، وتطلب منه أن يُساعدكَ في حملي إلى المستشفى؟ عليكَ أنتَ أن تُقرِّر".

ابتعد الجندي وهو يُصفِّر بنغمات أُغنيَّة.

عُدْتُ إلى الكلام، كنتُ راغباً في أن أُظهِر له بأنَّني لم أكن متأثِّراً، لكنَّه يتهرَّب الآن من ناظرَي، ويبدو شارد الذهن منشغلاً بفكرةٍ مؤلمة. في تلك اللحظة شَعَرْتُ بأنَّني أُحبُّه بشكلٍ أخوي. لقد قلنا كلُّ شيء، وما كنَّا سنقوله بعد ذلك ليس إلَّا تكراراً لما سَبَقَ أن قيلَ، ولم نكن نجرؤ على المواصلة، لأنّنا كنَّا عاجزَيْن عن الإقدام على تضحية. سلَّمتُ عليه: "شكراً جزيلاً، يا دكتور". وددْتُ معانقتَهُ: كان عليه هو أن يُقرِّر بأنَّ المحكوم عليه الوحيد هو أنا أم لا.

"وإذاً لن تأتِيَ إلى المدينة؟". سألني.

"أُفضِّل أن أتجوَّل بين هذه الحقول قليلاً"، ونَظَرْتُ إليه بثبات. كنتُ أُوفِّر له المخرج الأخير: هدوئي. كنتُ أتضرَّع إليه بألَّا يتصوَّرني مُصاباً بالجُذَام، وهو يراني بهذا الهدوء، وبأنْ يتخلَّص من أيِّ نوعٍ من أنواع الشكوك. فكَّر الطبيب لبُرْهَة، وقال ما كنتُ أخشى سماعه "إنْ أردتَ الحقيقة أنا أيضاً لا أشعر بالرغبة في الذهاب إلى المدينة. لقد تأخَّر الوقت. أو بالأحرى. لِمَ لا ترافقني لنتناوُل العشاء معاً؟".

لم يكن ذلك أمراً مُوجَّهاً من رئيس، بل دعوة. دعوةٌ للتَّثبُّت من إصابتي، ودعوة إلى التَّخلِّي عن عنادٍ لا أملَ فيه. لم يكن بمقدوري قبول تلك الدعوة، لأنَّني كنتُ أرفض الاقتناع بسوء طالعي ومُصابي قبل مغادرتي لتلك الأرض. لم أكن مريضاً، ولم يكن من حقِّ أحدٍ أن يُعنى بالتَّأكُّد من إصابتي بمرض. كرَّر الطبيب الدعوة، بصوتٍ أخفض من ذي قبل. كان يرغب بالظهور في هيئة مَنْ لا يُبالي. كان يحاول تأطير كلماته في تلك الكوميديا المُؤدَّاة بشكلٍ سيِّئ، بقَدْرٍ من الحبور. لِمَ

لا يضعُني في مواجهة الحقيقة في الحال؟ ها هو تكاسله الوقح ينهار، وهو يتصرَّف إزائي كشقيق، لكنْ، للأسف كان يُعاملني كشقيقٍ أصغر، وكانت قناعته بكوني أقوى وأكثر حزماً منه تستلب كلَّ ما يمتلكه من جرأة. كان يدعوني إلى تناوُل العشاء معه، مُدركاً بأنَّ عليه بعد حينٍ تكسير الأواني والصحون والكؤوس، ليُمسك بي، وليطلب تدخُّل أحدٍ ما من القيادة أو المستشفى. العشاء الأخير، بتحصيل الحاصل، في صداقتنا القلقة. لماذا كان يدور حواليَّ، مُستنْفَد الصبر، لكنْ، دون أن ينظرَ في عَيْنَيَّ مباشرةً؟ كان يعلم بأنَّ عليه أن يلعب دور الشِّرِّير، وكان يلتمس منِّي العذر، دون أن يُدرك بأنَّني كنتُ مستعدَّاً للإتيان بما هو أسوأ، ودون أن أنصاع إلى أيَّة اشتراطات. "وَضْعي جيِّد"، فكَّرتُ "سأكون الأقوى في هذه اللعبة"، لكن الطبيب كان قد عاود السير نحو كوخه في اللحظة ذاتها. كان يسبقني واثقاً فيَّ. كان من الهدوء إلى درجةِ أنَّني لحقتُ به.

لم أعُد أُعنى بأيِّ ما سيحدُث، فليأخذوني إذاً. كان ذلك الإحباط يُهيمن عليَّ دائماً في لحظة الغروب، ذلك الإحساس المُسبَّق بالموت، واللَّا جدوى المؤكَّدة للمقاومة وكفاح الضِّدِّ. تبعتُهُ بصمت، كما لو كنتُ سجيناً. دَخَلَ إلى الكوخ، ليخلع بِزَّته العسكريَّة، دَوَّنَ شيئاً على ورقةٍ هناك. خَلَعَ عن خصرِهِ الحزام الحامل للمُسدَّس. ثمَّ رأيتُهُ يستخرج المُسدَّس من قِرَابِهِ. إذَّاك فررتُ من المكان.

جريتُ قاطعاً مسافة طويلة من الطريق دون أن أستدير، ثمَّ اختبأتُ خلف شجرةٍ. كان الدم يدقُّ في عروق صُدْغَيَّ، كنتُ أفكِّر بأنَّه لو أبلغ عنِّي، فإنَّ ذلك الإبلاغ سيكون نهايتي. ولمُجرَّد الإمساك بي، فلا إجازة، ولا عودة إلى إيطاليا.

كان عليَّ الآن أن أُحافظَ على هدوئي، أو بالأحرى كنتُ هادئاً. لم يكن هناك في ذلك الكوخ أحدٌ غير ذلك الطبيب. كان الجندي في المدينة، ولم يكن، في جميع الأحوال، ليحمل إلى القيادة تلك الورقة التي دَوَّنَ عليها الطبيب شيئاً ما. لا ينبغي له أن يحملها إلى القيادة، وبالذات كان ينبغي الحيلولة دون القيام بتحقيقات وتحرِّيات، وعرقلتُها في حال انطلقت، بشكلٍ من الأشكال. تذكَّرتُ قَنِّينَةَ البترول وخِرقَةَ القماش: نعم، تلك بالذات عندما نظَّفتُ مُسدَّسي.

كان الطبيب يقتفي أثري، ويبحث عنِّي. ربَّما اعتقد بأنَّني ما أزال قريباً من المكان، وقد بدا نافد الصبر. وعندما نادى عليَّ، أجبتُهُ، فبدا وكأنَّه استعاد هدوءه "هل تركتَ كتابكَ هناك؟"، صرختُ، "كَلَّا"، ردَّ عليَّ.

"ربَّما سَقَطَ منِّي، سأبحث عنه في ما بعد"، وعُدتُ أدراجي. كنتُ هادئاً، إلى درجة الاندهاش والزَّهْو معاً. جَلَسَ الطبيب، وبدا متماهياً مع عتمة الغروب المتزايدة. "ربَّما"، فكَّرتُ "لو كان في موقعي، لَفَعَلَ الشيء ذاته. أرغب في معرفة ذلك على الأقلِّ".

وَصَلْتُ بالقرب من الكوخ، ولم يسمع الطبيب وَقْع خُطاي. اقتربتُ بهدوء القَتَلَة المحترفين. كنتُ قريباً منه، لكنَّه لم يتمكَّن من رؤيتي. كنتُ مختبئاً وراء أَكَمَةٍ. "أيُّها الملازم"، قال الطبيب. كان قد رَفَعَ رأسه، وصار يُحدِّق نحوي بعَيْنَيْن ثابتَتَيْن: إذَّاك، أطلقتُ النار على عجلٍ.

رأيتُهُ يتقافز، كان قد تحرَّك من مكانه قبل الإطلاقة بلحظة، هو الذي كان يقضي نهارات بطولها مُستلقياً على ذلك المقعد المريح يقرأ في جرائده القديمة، ودون أن يُحرِّكَ حتَّى أهداب عَيْنَيْه. صوَّبتُ، وضغطتُ على الزناد ثانيةً، إلَّا أنَّ المُسدَّس لم يُطلِق الرصاصة.

كان الطبيب قائماً، وقد هُرع صوب الكوخ، بتلك الحيويَّة المفاجِئة التي يمتلكها الكسالى وحدَهم. فررتُ صوب الشارع، ورميتُ نفسي في حفرة، ثمَّ واصلتُ الجري فيما بعد، وعبر الحقول، بَلَغْتُ الشارع الدَّائريَّ حتَّى لا أجد نفسي مُجبَراً على دخول المدينة. توقَّفتُ على مسافة بعيدة جدَّاً، ولم أعد أستمع إلى أيِّ صوتٍ أو ضوضاء مثيرة للشكوك، ربَّما أقلع الطبيب عن فكرة ملاحقتي، أو ربَّما لم يخطرْ ذلك بباله أبداً. ربَّما كان لديه هاتفٌ داخل الكوخ.

صرتُ داخل مصيدةٍ. سيُمسكون بي لا محالة. إذَّاك فحسب، تذكَّرتُ بأنَّ المُسدَّس لم يُطلِق النار. تفحَّصتُهُ بيَدَيَّ المُرتجفَتَيْن. كان يفتقد إلى مخزن الطلقات. لكنْ، كيف؟ لم أكنْ أتذكَّر. انفجرتُ بالضحك فجأةً، كانت ضحكة يابسة، عاجلة تهزُّني، وأجبرتْني على الاستلقاء فوق العشب. لقد تركتُ مخزن الرصاص فوق الصندوق الخشبي داخل خيمتي إلى جانب صورتها([22]) وقنِّينَة البترول، خلال محاولتي المضحكة للانتحار. وبعد قليل، انتبهتُ بأنَّني كنتُ أشهق بالبكاء، كانت تأوُّهات طويلة، لم أتمكَّن من حَبْسها، وكانت تصعقني. "لقد تحقَّق انتحاري بشكلٍ تامٍّ". ردَّدتُ مع نفسي.

عاودتُ الجري نحو المعسكر. كان عليَّ أن أتدبَّر عُذراً، على الأقلِّ، أو أن أفرَّ. أعدتُ التفكير طويلاً، إلَّا أنَّني اقتنعتُ على عجل بأنَّه لا وجود لأيَّة خطَّة تخلو من الهرب، أو بالأحرى الفرار من الخدمة. بماذا يُمكنني الرَّدُّ خلال الاستجواب؟ كان بمقدوري أن أُكذِّب مسألة الإطلاقة، أو أن أدَّعي بأنَّ الرصاصة انطلقت بالخطأ (من السذاجة الاعتقاد بأنَّني سأتمكَّن من إقناع مَنْ يستمع إليَّ). لكنّ ما كان يظلُّ ثابتاً فيما سأقول هو إنكار إصابتي، ومن البلادة أن يكون بمقدوري ذلك. وإذاً لا خيار غير النهاية أو الفرار من الخدمة.

كان ما يزال أمامي قليلٌ من الوقت، لم يكن رجال الدرك ليصلوا إلى معسكرنا في الحال، كانوا سيتحرُّون ما بين الضُّبَّاط المُستضافين في قيادة الموقع، وسيُوقِفُون عدداً من شاحنات الجنود. لو كان لديَّ فارق ليلةٍ واحدة، فإنَّ خطَّة فراري قابلة للنجاح. سأُغادر المعسكر ما بعد العشاء، أي ما بعد الساعة التي لم يكن يخطرْ على بال أحدٍ البدء بالبحث عنِّي، وكان غيابي حتَّى الصباح مُبرَّراً. لكنْ، إلى أين سأذهب؟ "ورَغْمَ كلِّ شيء"، قلتُ "عليَّ الفرار".

أصابتْني هذه الكلمات، وشَعَرْتُ بها كأنَّ شخصاً آخر قد نَطَقَ بها، واضطُررتُ على الجلوس مُجدَّداً، مهيض الجناح. ها هي خطَّة مريم تبتدئ بالظهور، وبإبراز ملامح المكيدة الغادرة بوضوح. كانت تُريد "عَزْلي"، في حالٍ أسوأ ممَّا كنتُ فيها. "لا بُدَّ أن يكون هناك بلاغٌ صادرٌ من القيادة بشأني"، فكَّرتُ. مُضطرباً من الغضب وجَّهْتُ قبضتي المضمومة نحو الوادي، الذي شَعَرْتُ به بعيداً، في أسفل الجبال العارية من الشجر، والتي كانت ترسم لناظرَيَّ حدود السماء المصطبغة بالأرجواني، ولعنتُ مريم.

الفرار إذاً. وبتجنُّب الشوارع الرَّئيسة، وَصَلْتُ إلى المعسكر، أعددتُ حقيبة الظَّهْر، وأضفتُ إلى محتوياتها بطَّانيَّة، وعندما توجَّهتُ إلى الحانوت لتناوُل العشاء، لأُزيحَ الشكوك، أَعْلَمَنِي النقيب بحصولي على الإجازة. ورَغْمَ استيائهم من الخبر، فقد هنَّأني الأصدقاء على ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الخامس

# النَّرْدُ والحياة

## ١

في اليوم التالي، كنتُ في بلدة مُصوَّع. كانت السفينة البخاريّة مستعدَّة للإبحار في ساعةٍ متأخِّرة من الليل؛ كانت راسيةً على الرصيف الرئيس، وشاهدتُ اسمها مكتوباً بحروف بيضاء، بصَبْغٍ لم يجفَّ بعد. "ربَّما سأتمكَّن"، فكَّرتُ. كان عليَّ أن أصعد على ظَهْر السفينة، والأهمُّ من ذلك ألَّا أدعهم يقبضون عليَّ. كرَّرتُ هذه الجملة لنفسي مرَّات عديدة.

لكنْ، أبالإمكان إدراكُ شيءٍ ما في أجواء ذلك الحَرِّ القاتل دون أن تُكرِّرَهُ لنفسكَ لمرَّات ومرَّات؟ هيمَنَتْ على ذهني لا مبالاة فارغة، وبقيتُ واقفاً في مكاني لأكثر من ساعة لإعادة النَّظَر في الحالة البائسة التي أَوْلَجْتُ نفسي فيها. بَدَتِ الإجازة بالنسبة إليَّ بمثابة المصيدة. كانوا سيقبضونني إمَّا خلال الصعود إلى السفينة أو على مَتْنها خلال الرحلة أو في لحظة النزول في نابولي. لكنْ، ورَغْمَ كلِّ شيء. كان عليَّ أن أصعد على مَتْن السفينة، وأن أختبئ، أن أرشوَ أحداً ما من طاقمها. كان عليَّ أن أصل إلى نابولي.

ينبغي أن أَحُولَ دون وقوعي في قبضة الشرطة العسكريَّة. تذكَّرتُ رحيلي من المعسكر ليلاً، وتوقُّفي أمام كُشك الطبيب. هناك، على حافَّة غابته المُكتظَّة بأشجار الكَالِبْتُوْس، كان الطبيب مُستلقياً في سريره النَّقَّال، الجرائد المبعثرة على الأرض وغَلَّاية القهوة فوق المائدة. ربَّما كان مُسدَّسه مَخفِيَّاً تحت الوسادة، أو ربَّما كان يَقِظَاً وغارِقَاً في التفكير. يفكِّر بي، دون شكٍّ. بقَدْرٍ من الإشفاق، لكنْ، أيضاً بسُخطٍ إزاء محاولتي بقَتْله. لم يكن الطبيب ليعلم أنَّني كنتُ أقف على بُعْد أربع خطواتٍ من مكانه، وقد حاولتُ قَتْلَهُ قبل ساعةٍ من الآن. لكنْ، ما الذي سأستفيد من قَتْلِهِ؟ فبعد أن أَبْلَغَ السلطات عنِّي، فَقَدَ كلَّ ما كان يمتلكه من أهمِّيَّة بالنسبة إليَّ، وقد نجا من القَتْل؛ لكنْ، لو مات خلال العملية، فإنَّ ذلك سيبدو انتقاماً بليداً، اتِّهامات أُخرى، ونُقصان متواصل في عدد المتورِّطين في عملية الاغتيال. ومع ذلك. فقد تردَّدتُ في الابتعاد عن مكانه، مُفكِّراً "ماذا لو أنّ تكاسله العظيم جَعَلَهُ يُقرِّر إرجاء التبليغ إلى اليوم التالي؟". كَلَّا، ما كان عليَّ أن أُوهِمَ نفسي كثيراً فيما يخصُّ كَسَلَ الطبيب. "وإذاً"، قلتُ لنفسي "فَلْيَنْعَمْ بنومه في سلام صديقي الدكتور ذاك، الذي يُحرِّك رأسه الآن باضطراب".

في الفجر، وبعد مسيرٍ متواصل طَوَالَ الليل في الأحراش، أوقفتُ شاحنةً، وبعد مُضيٍّ بضع ساعات شَمَمْتُ عَبَقَ ريح البحر الدافئ والمشبَع بالملوحة. "أهو البحر؟".

"نعم، هو البحر" أجابَني سائق الشاحنة. إذَّاك شَعَرْتُ بانتشاءٍ في جميع آمالي المتحرِّرة من أيِّ منطق. لقد وَصَلْتُ إلى مُصوَّع متغنِّياً. كانت المدينة تنفث ما فيها من رطوبة، والسفينة هناك جاهزة باسمها الذي كُتِبَ بالصَّبْغ الذي لم يجفَّ بعد، لكنْ، لم تكن تصدرُ من داخلها أيَّة نَأَمَة دالَّةٍ على الحياة. بل كانت تُبدي ريحاً شبيهة بريح الهَجْر الذي يدفع إلى التَّكهُّن بتأخُّرٍ في الانطلاق. نَظَرْتُ إلى أريكة بَدَتْ لي الأكثر جِدَّة من بين أرائك العالم. كانت هناك أرائك كثيرة، ورأيتُ فوق إحدى الطاولات صينيَّة، فيها ثلاثة كؤوس من الكريستال. حَمَلْتُ واحداً من

الكؤوس، كان طويلاً وخفيف الوزن، وحين مرَّرتُ أناملي على حافَّة فمه، أصدر الكأس نغمةً، لم أعُدْ أستمع إليها منذُ زمنٍ طويل، كانت نغمة احتفاليَّة، تُلمِّح إلى الكثير من الوعود.

وكما لو أن تلك النغمات استدعتْهُ، دخل رجلٌ شبه عارٍ، وسألني عمَّا أفعل هناك على مَتْن السفينة. كان بالتأكيد يشتغل "وقَّاداً" لمِرْجَلِ السفينة، فقد كانت هناك بقايا لزيوت المكائن بالقرب من صُدْغِهِ، وقد بدا على قَدْرٍ من الإنهاك والنُّعاس. ربَّما كان الشخص الوحيد اليَقِظ على مَتْن السفينة بأكملها، أمَّا الآخرون، فلا بُدَّ أنَّهم نائمون في أَسِرَّتهم داخل عنابر السفينة. أخبرتُهُ بأنَّني مستعدٌّ للصعود على مَتْن السفينة، وبأنَّني تمتَّعُت بإجازة. أخبرني بأنَّ الوقت ما يزال مبكِّراً للصعود، وبأنّ عليَّ الهبوط في الحال: فليس مسموحاً لأحدٍ الصعود قبل الساعة المُحدَّدة.

"أنا ضابط"، قلتُ له. أخطأتُ هنا أيضاً، فلكوني ضابطاً سعى وقَّادُ مِرْجَلِ السفينة إلى التعامل معي بتلك الطريقة الفجَّة. "لديَّ إجازة قانونية"، أضفتُ.

ألقى نَظْرَة على الورقة دون أيِّ فضول، ثمَّ قال لي "وماذا عن الأختام؟، اذهبْ على الأقلِّ، لتدعْهُم يختمون على هذه الورقة. ولا تصعدنَّ قبل الساعة المُحدَّدة".

"ومتى هي هذه الساعة المُحدَّدة؟"، سألتُهُ. لم أكن قادراً على البدء بالحوار الذي أعددتُهُ منذُ لحظة اتِّخاذي قرار الهروب.

"لا أعلم"، وانتصب على رأس السُّلَّم بينما كنتُ أهبط من السفينة. خَتْمُ ورقة الإجازة؟ بقيتُ واقفاً على الرصيف تحت وَهْج الشمس، قبل أنْ أُقرِّر نهائيَّاً بالتَّوجُّه إلى مكتب قيادة الموقع على نفس الرصيف. فضولٌ أكبر بكثير من كلِّ المخاوف كان يدفعني باتِّجاه ذلك المكتب.

مكتب قيادة الموقع مفتوحٌ، وكان هناك جنديٌّ ببنطال قصير، قد مدَّد ساقَيْه منتعِشاً بهواء مروحة السقف، وعيناه مُرَكَّزَتان على السفينة. كان يُحدِّق فيها بنَظَرَاتٍ تائهةٍ، تُسبِّبها الحرارة المرتفعة، حين يختلط الوَسَنُ بارتجافات السراب، كان يُحدِّق بالسفينة دون أن يراها. وعند الباب أيضاً جَلَسَ واحدٌ من رجال الدرك، يستظلُّ بالسفينة وهو يُحدِّق بها. كان يرفع ناظِرَيْه حتَّى أعلى مدخنة السفينة، ثمَّ يحسب عدد الشبابيك البيضوية لمقصورات السفينة، وعدد قوارب الإنقاذ، ليعود ثانيةً إلى النَّظَر إلى المدخنة وهوائيات الاتِّصال الإذاعي والعَلَم المُتَّسخ والمنطوي. واحدٌ آخر من رجال الدرك ببنطاله القصير كان مستنداً إلى جدارٍ، يُرطِّب الهواء بمروحة ورقية. كان ينظر هو الآخر إلى السفينة، إلى السلاسل الحديديَّة للمرساة، والمياه القذرة حوالي السفينة، وكان اسم السفينة المكتوب بصَبْغٍ أبيضَ، يتَّضح بشكلٍ أفضل بفعل قذارة تلك المياه.

لم يكن على الرصيف في تلك الساعة أحدٌ غير أولئك، فقد كانت الحمولة قد رُفِعَتْ على مَتْن السفينة، واستكان الحمَّالون الأثيوبيُّون في أماكن نومهم، ولذا لم يكن على الرصيف غيري والجندي الذي وسَّع ما بين ساقَيْه، واستلقى تحت المروحة، ورَجُلَي الدرك. كنَّا، جميعنا، نُحدِّق بالسفينة بذات الشَّغَف والحنين. هَبَطَ عامل السفينة، وذَهَبَ ليتحدَّث مع رجل الدرك، لكنِّي عجزتُ عن الاستماع إلى ما كان يقوله، ثمَّ توجَّه صوب البار بخطواته الوئيدة المترنِّحة بفعل حرارة الطقس.

ربَّما كانت تلك هي اللحظة الأنسب للدخول إلى مكتب قيادة الموقع، لأطلب منهم أن يختموا

على ورقة إجازتي، والتي لم يكونوا حتَّى ليقرؤوا ما كُتِبَ فيها. اقتربتُ من المكتب، مُحاوِلاً عدم حرف انتباه الدركي عن السفينة، لكنْ، ما إن صرتُ على بُعد عشر خطوات حتَّى رأيتُ الدركي ينهض فجأةً، ويتوقَّف عن مراقبة السفينة، ويتَّجه صوب مكتب قيادة الموقع، ربَّما كان يرغب في تجاذُب الحديث مع الدركي الآخر والجندي. توقَّفتُ، وتظاهرتُ بأنَّني أتأمَّلُ السفينة. هل كان الدركيان هناك في انتظاري؟ وإلَّا فما الذي يفعلانه هناك؟ لم أعتدْ رؤية رجال الدرك أمام باب مكتبٍ كهذا. بالتأكيد كانا بانتظاري، ويعرفان جيِّداً بأنَّني سأصل إلى هناك في نهاية المطاف، منجذباً من الأختام التي تعني وصولي إلى إيطاليا بعد ثمانية أيَّام.

أرى الآن دركياً آخر ينزل من سُلَّم الباخرة، وينضمُّ إلى زميلَيْه الآخَرَيْن اللَّذَيْن بدآ بالتحاور فيما بينهما. حَمَلْتُ حقيبة الظَّهْر، وابتعدت عن المكان، متظاهراً بالبحث عن شيءٍ سَقَطَ منِّي. ها هي السفينة جاهزةً، مصيدةٌ كبيرة للغاية في الواقع لجُرذٍ صغير جدَّاً، وبالتأكيد ثَمَّةَ دركي رابع بانتظاري في مقصورة الضُّبَّاط، وهو يقرأ في جريدته، ويكرِّر النَّظَر إلى ساعته، مندهشاً من تأخُّري في الوصول. وكان الجندي الذي فَتَحَ ساقَيْه تحت المروحة يعرف اسمي، ولو أنَّني دخلتُ إلى مكتبه، كان سيُلمِّح للدركيين بإشارة مُتَّفقٍ عليها، ليمنعاني من ارتكاب حماقات. ثمَّ هناك سيَّارة الإسعاف واقفة على استعداد خلف مكتب الجمارك، وعلى مَتْنها السائق الذي ينام كما القتيل. المُمرِّض أيضاً يعرف اسمي، الجميع يعرفون اسمي.

لم يكن بإمكاني أن أُغامرَ. من السهل جدَّاً التَّعرُّف على ضابط، ولن ينفع في شيءٍ أَنْ تحلق شاربَيْكَ، وحتَّى إن فعلتَ ذلك، فستظلُّ يدكَ المربوطةُ بلِفَافَةِ ضِمَادٍ ولون شَعْرِكَ، والسِّمات الأُخرى التي دقَّق الطبيب الكسول في ملاحظتها، وقد فَعَلَ ذلك بالذات بسبب كسله. كان عليَّ أن أتجنَّب الصعود على مَتْن تلك السفينة بأوراق قانونيَّة دَالَّة على شخصي، بل بأوراق مزيَّفة مختبئاً ومختلطاً بالجنود الذين ستُقلُّهم السفينة. إنَّها عمليةٌ محفوفةٌ بالكثير من المخاطر، لكنْ، ينبغي محاولتها، وبينما كنتُ عائداً صوب السفينة، رأيتُ بحَّارَيْن يسحبان السُّلَّم إلى الأعلى، وذلك ليَحُولا دون صعود ضُبَّاطٍ عجولين آخرين إلى السفينة قبل حلول الساعة المحدَّدة للصعود.

ذَهَبْتُ إلى المقهى، وجَلَسْتُ إلى إحدى طاولاته، وكنتُ سأعود إلى مكتب قيادة الموقع في غضون ساعة بعد أن يكون الإنهاك والهزيمة قد نالا منِّي، كنتُ سأعود لأُسلِّم نفسي، لولا أنَّ وقَّاد مِرْجَلِ السفينة ابتسم لي وهو يمرُّ من أمامي. بالتأكيد فَعَلَ ذلك للاعتذار عن صفاقته في التعامل معي قبل قليل. توجَّه إلى السفينة بخطواتٍ واسعة. كان مصفَرَّ الوجه وقد انتابه شعورٌ بالاختناق بسبب الحَرِّ القاتل. ربَّما كان يبحث عن منزل يقضي فيه تلك الساعات بعيداً عن الحرارة القاتلة، قبل أن يعودَ ليغرق داخل تلك البوتقة الملتهبة: وحين اقتربتُ منه دقَّق في ملامحي بريبةٍ مفاجِئة. دخلْنا معاً إلى منزلٍ، كان وقَّاد مِرْجَلِ السفينة يحتاج إلى البقاء بمفرده مع المرأة (التي رأيتُهَا تتجوَّل ما وراء الباب شبه عارية. ابتدأتْ بالاستحمام بعد أن أنهكتْها حرارة الطقس، وكانت لا تُنصِتُ إلى ما يدور بيننا من حوار). واجهتُ صعوبةً كبيرةً لإقناع وقَّاد مِرْجَلِ السفينة أن يستمع إليَّ. بقيَ طويلاً غارقاً في التفكير، لم يكن يشعر بالثقة تجاهي، وفي النهاية قال: "مستحيل".

كانت المرأة تغتسل وتنظر إليَّ من وراء الساتر الخشبي داخل الغرفة. ابتسمتُ لها، كان وجهها الداكن قد امتلأ بالحيويَّة بفعل الاحمرار الملتهب لشَعْرها، وكان وجهاً هادئاً، قاوم انحطاط الجسد الذي بَدَتْ عليه علائم الكهولة. ابتسمتُ لها، وعُدتُ إلى محاولة إقناع وقَّاد مِرْجَلِ

السفينة، الذي كان يستمع إليَّ. كنتُ أرى عَيْنَيْه، الخاليَتَيْن من أيِّ تعبير، تضيعان في الجهد الذي يبذله لمنافحة الضجر. "مستحيل"، كرَّرَ مُجدَّداً، وهو يُطلق تثاؤباً متكاسلاً. لم يكن راغباً في مواجهة متاعب، وعليه، إنْ أقدمَ على تلك الخطوة، أن يرشوَ الكثيرين.

جاءت المرأة، واستلقتْ على السرير، شبه عاريةً. كانت من السُّكَّان الأصليِّيْن، استلقتْ، وصارتْ تستمع إلى أحاديثنا في هدوء. لم يطلبْ منها أيٌّ منَّا أن تتركَنا وحدنا، وفكَّرتُ بأنَّها تجهل لغتنا. حرارة الغرفة كانت مرتفعة إلى درجة أنَّها أقدمت على التَّعرِّي بالكامل، وظلَّتْ في مكانها دونما حَرَاك، بنَظْرَتِها الثابتة المُحدِّقة في السقف. وعندما انتهيتُ من الكلام، سمعتُ المرأة تقول دون أن تأتيَ حَرَاكاً (أَدْهَشَنِي صوتها كواحدة من التداخلات غير المنتظَرَة على الإطلاق)، قالت: "هَيَّا، افعلْهُ، ما الذي يمنعكَ عن ذلك؟"

لم يردّ وقَّادُ مِرْجَلِ السفينة على كلامها، ولم يستلقِ إلى جوارها، وخشيتُ إذَّاك أنَّه صار على وشك الغرق في النوم. إذَّاك أخرجتُ المال من جيبي، ورأيتُ أنَّه صار مهتمَّاً بالأمر، لكنْ، دون أن يستقرَّ على قرار. "عليَّ أن أستشيرَ أصدقائي قبل الإقدام على هذه الخطوة"، قال أخيراً، إلَّا أنَّه بدا لي، في الحال، نادماً، لأنَّه قَطَعَ لي وعداً، حتَّى وإنْ كان ذلك الوعد واهياً. وحين مرَّرتُ له بعض الأوراق النَّقْدِيَّة، انفرجت أساريره، وصار أكثر استعداداً، وَعَدَ بأنَّه سيحاول. أو بالأحرى قال لي بأنَّ عليَّ أن أتواجد في بداية الرصيف في الحادية عشر ليلاً. كانت سَحْنَتُهُ هادئة ومسترخية، وكان يتحدَّث كالمعتاد عن انشغالاتٍ وأمورٍ أُخرى من هذا القبيل. وحين جفَّفْتُ العَرَق المُتصبِّب منِّي، رأيتُ المرأة تُبتسم للسقف وهي غارقةٍ في التفكير (أو ربَّما أُخطِئ؟). سلَّمتُ عليها، فانتابتْها حالة مفاجِئة من الحشمة، وسارعت إلى تغطية جسدها بالروب.

اشتريتُ مؤونة تكفي لثمانية أيَّام، وفي العاشرة مساءً، كنتُ على الرصيف.

شاهدتُ كتيبةً من الجنود يصعدون على مَتْن السفينة، كانوا يرتقون سُلَّم السفينة فَرِحِين. وكان على الرصيف أُناس آخرون يتجوَّلون، فقد كانت تلك هي البقعة الوحيدة التي تهبُّ فيها نسائم رهيفة. هناك عاملان حَمَلَا سريرَيْـهما النَّقَّالَيْن إلى هناك، وكانا يتحاوران بهدوء.

وحين جاءني وقَّادُ مِرْجَلِ السفينة في الثانية عشر ليلاً، ليُكرِّر لي كلمته الأثيرة "مستحيل"، رأيتُهُ كما لو كان ضائعاً يبحث عن مفردات الاعتذار. قال بأنَّه سيُعاود الحديث مع الأصدقاء. استمعتُ إليه، وتذكَّرتُ الجندي الذي تركتُهُ وحيداً برفقة الشاحنة المنقلبة عند المنحدر الأوَّل صوب النهر: كان وقَّاد مِرْجَلِ السفينة ينطق بذات الكلمات مُدرِكاً بأنَّه لن يعود، ولن يكرِّر المحاولة، بالضبط بذات المفردات التي نطقتُ بها أنا للجندي. عندها حمَّلْتُهُ رسالة إلى زوجتي، ليرميَها في صندوق الرسائل في إيطاليا، رسالةٌ كَتَبْتُهَا بعناية كبيرة، تجنَّبْتُ الإمساك بالورقة. كنتُ أطلب منها ألَّا تقلق، مؤكِّداً لها بأنَّه أيَّاً كانت الأحداث التي سأواجهها، فإنَّها لن تَحُولَ دون عودتي إليها. استلم الرجلُ الرسالة، ووَعَدَ بأنَّه سيحاول إقناع الأصدقاء: بتحصيل الحاصل، لم يكنْ يُبقي لديَّ أيَّة آمال. في الواحدة ليلاً، انفصلت السفينة من الرصيف بهدوء، مرَّتْ من أمامي، وقرأتُ مرَّة أُخرى حروف اسمها المكتوب بصَبْغٍ أبيضَ، لم يجفَّ بعد. كانت السفينة تبدو لي الآن ضخمة، وبَدَتْ فارغة من الناس، بسبب الصمت المُطبق الذي لفَّها. كان الجنود يُلوِّحون بأكفِّهم لمَنْ توقَّف على الرصيف، لكنْ، دون صياح. كانت وداعات صموتة، مُلفَّعَة بظُلمة الليل، بالحَرِّ وبغَيْرة مَنْ مكثوا على اليابسة. وعبر كُوَّات عنابر السفينة رأيتُ أُناساً منشغلين بفرح وحبور، وهم يستعدُّون لقضاء الليلة الأولى في عرض البحر الأحمر. شابٌّ أطلَّ برأسه،

وهتف صائحاً: "وداعاً، يا أفريقيا".

ولمُجرَّد خروجها إلى البحر المفتوح، حيَّت السفينة الميناء بإطلاق ثلاث صَفَّارات. عندها أفاق العاملان الغافيان في سريرهما على الرصيف، وبدآ بإطلاق الشتائم واللعنات التي لا تخلو من الحنين، مُستديرين صوب السفينة التي ابتدأ ظلام الليل بابتلاعها.

بقيتْ لي الآن مهمَّة قراءة الكُتيِّب. فَتَحْتُهُ باشمئزاز وشعور بالقَرَف، وبَدَتْ الصورة الأولى مثلَ كفِّي. "كنتُ أعلم ذلك"، قلتُ. ولأنَّني كنتُ قد قرَّرتُ ألَّا أسمح لأيِّ شيء بتثبيط عزيمتي، وَضَعْتُ الكُتيِّب في جيبي. وعُدتُ إلى منزل المرأة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٢

وجدتُها مُستلقيةً على ذلك السرير المتأرجح، وحيثُ تركتُ آثار بساطير ونعال، وآثاراً واضحة لبِزَّة رماديَّة. كانت تقرأُ في مجلَّة حكايات مصوَّرة، رَمَتْهَا على الأرض لمُجرَّد رؤيتي أدخل عليها، ربَّما كانت تترقَّب منذُ وقتٍ أنْ أعود إليها. رويتُ لها المغامرة التي عشتُ خلال الساعات الماضية، وكانت الكلمات تخرج من شَفَتَيَّ مقطوعةً وعاجلة كسيلٍ جارف. في النهاية، رميتُ حقيبة ظَهْري في زاوية من الغرفة، وسألتُها إنْ كان بإمكاني المكوث لديها. انتظرتُ ردَّها فيما كنتُ أراقب الغرفة التي بَدَتْ لي بائسةً حقَّاً: ترك الرجال في كلِّ جزء منها آثاراً لمرورهم، صورٌ حُشِرَت في زوايا المرآة، ورأيتُ على مَشْجَبِ الثياب معطفاً جِلْدِيَّاً بُنِّيَّاً، ربَّما نسيَهُ رجلٌ ثَمِلٌ. وكنتُ أشمُّ روائح الأرجاء، وتناهي إلى خياشيمي عطرٌ مريحٌ لماء الكولونيا.

كان بمقدوري أن أنام في العَرَاء، على رصيف الميناء، إلَّا أنَّني قرَّرتُ المجيء إلى هذا المنزل. لِمَ أقدمتُ على ذلك؟ هل جئتُ لأطلب حمايتها أم لأتحدَّى تلك الحماية؟. لم أكن بعدُ قادراً على التحديد بالمطلق.

"حسنٌ"، قلتُ "هل بإمكاني المكوث هنا؟".

ظلَّت حائرةً لبُرْهَة طويلة، ربَّما كانت تترقَّب وصول زبائن آخرين؛ أو ربَّما كانت خطوتي تلك تُربكها. في النهاية، وافقتْ على بقائي هناك، لكنْ، عليَّ أن أرقد في الطرف الآخر، في غرفة الحمَّام. كان هناك سرير مهترئ. "ذلك يناسبني جدَّاً"، قلتُ لها.

فرشتُ الشرشف على السرير، واستلقيتُ. "لا بُدَّ أن يحدُثَ شيءٌ ما"، قلتُ لنفسي. لكنْ، سرعان ما حال الإنهاك وحرارة الطقس دون أن أتمكَّن من التفكير، وكان الانزعاج من الإخفاق بالصعود على مَتْن السفينة يُثير وَجَعَاً في صدري، إنهاكٌ وضيقٌ حُبِسَا لوقت طويل. لكنْ، لم يكن مسموحاً لي أن أكبوَ أو أتراجع، كنتُ أعلم بأنَّ الكبوة أو التراجع سيعنيان النهاية، إذْ كنتُ سأتراخى بفعل الإشفاق على نفسي، وسأُهرع في اليوم التالي إلى المستشفى متضرِّعاً. اقتنعتُ بأنَّ التراخي سيغلبُني فيما لو غَلَبَتْني الدموع؛ في حين كان لزاماً عليَّ أن أتعامل مع وَضْعي بأعصابٍ باردة، وأن أتشبَّثَ بأيَّة وسيلةٍ للعودة إلى إيطاليا. كنتُ أُقلِّبُ الأمور في ذهني حين سمعتُ الباب الخارجي يُفتَح، وثَمَّةَ صوتٌ ينادي على المرأة. "ميمي"، كُرِّرَ الصوت، وبعد بُرْهَة هَبَطَتِ المرأة من سريرها متنهِّدةً بِجَزَع، وأَدْخَلَتِ القادم إلى المنزل، وتحاورتْ معه. ربَّما كانت تُعْلِمه بأنَّ هناك أحداً ما في الغرفة الأُخرى. "أبهذه السرعة؟"، فكَّرتُ وتمكَّنتُ حتَّى من الابتسام.

ردَّ الرجل عليها بأنَّه ليس مَعنِيَّاً بالأمر، لكنِّي استطعتُ أن أستوعب من التَّردُّد والقلق اللَّذَيْن ميَّزا حركته داخل الغرفة أنَّه لم يكن قادراً على الخيار ما بين البقاء أو المغادرة في الحال؛ في الغضون عادت المرأة لتستلقيَ على سريرها، كانت قد أضاءت الأباجور، وابتدأتْ بتصفُّح مجلَّة القصص المصوَّرة.

"لا تبقَ واقفاً هناك كالعمود"، قالت. جَلَسَ الرجل على حافَّة السرير، ودَمْدَمَ قائلاً بأنَّه سيرحل طالما أن الأمور صارت بذاك الشكل.

ردَّتْ عليه المرأة ب. "طابتْ ليلتُكَ" منزعجة، وواصلتْ تقليب صفحات مجلَّتها، وأمضيْنا بضع دقائق على هذا المنوال في صمتٍ مشحونٍ بالرّيب، إلى أن سمعتُ صوت صفقة كفٍّ تضرب

الأُخرى. ""قَرِّرْ إذاً" قالت المرأة بهدوء، فردَّ عليها الآخر بأنَّه سيُغادر. لا بُدَّ أنَّه شَعَرَ بجُرحٍ في كبريائه، أو ربَّما هو يتظاهر بذلك فحسب؛ أو، الأدهى من ذلك، ربَّما كانا يتندَّران عليَّ بغمزات من أعينهما، ويُجاهدان أن يُمسِكا، بالكاد، بالضحكة قبل انفجارها. وحين تظاهرتُ بالشخير، شَعَرَ الزائر بخيبة مؤكَّدة، وبالغضب الذي دَفَعَهُ إلى النهوض من طرف السرير، وكرَّر بأنَّه راحل بالفعل. إذَّاك فقط سألتْهُ المرأة عن تاريخ عودته إلى مدينة جنوة.

ابتسامات أُخرى، وكان كلُّ شيء يجري كما توقَّعتُ بالضبط! هَيَّا إذاً، فلتنطقا بكلماتكما دون ضحك. "خلال عشرة أو خمسة عشر يوماً، لمُجرَّد الانتهاء من تحميل السفينة"، أجاب الرجل. كان صوته هادئاً ورخيماً في نبرة لهجته الصِّقليّة. استقمتُ مُسنداً مَرْفِقَيَّ على السرير، وبقيتُ في مكاني، أستمع إلى الحوار، كانت المرأة تتحدَّث بصوت خفيض، وبعد صمتٍ طويل، قال الرجل بأنَّ من الضَّروريِّ التَّعقُّل في أمرٍ كهذا، والتفكير بشأنه لأكثر من مرَّة. "بالطبع"، فكَّرتُ. في الغضون كانت المرأة قد أَجْلَسَتْهُ إلى جوارها، وسألتْهُ: "ما هو المبلغ الذي تطلبه لإنجاز هذا العمل؟".

"لا بُدَّ له، كي يظلَّ أميناً لمخطَّطاته، أنْ يطلب كلَّ ما أملك في جيبي، أو أقلَّ من ذلك بقليل"، فكَّرتُ. حَبَسْتُ أنفاسي. سأل البحَّار عمَّنْ يكون الشخص الذي يرغب في الصعود على مَتْن السفينة، وبما أنّ المرأة واصلت الصمت، معتبرة الجواب غير نافع (ما أسوأ أداءهما التَّمثيليَّ)، قال "ستُّون ألفاً".

استلقيتُ على السرير مُجدَّداً، فقد أشعرني ذلك الجواب بالارتياح، وضحكتُ من الخيالات الفارغة التي كنتُ أُمنِّي بها نفسي. لا أملك إلَّا عشرون ألف ليرة، وإذا ما كان الرجل يُطالب بستِّين ألفاً، فلا بُدَّ أن يكون بحَّاراً بالتأكيد. لم يرفضْ، وقد كان هذا مؤشِّراً لا بأس به، وبدا أيضاً شخصاً تعوَّد على مغامراتٍ من هذا النوع. ولكونه لم يطلب تسعة عشر ألف ليرة، فقد كان ذلك مؤشِّراً جيِّداً. نعم، كان من العسير إقناع بحَّارٍ بقبول مبلغ ما كمُقدَّمٍ، بانتظار النزول في ميناء الوصول، لكن ردَّه الحازم كان دليلاً على الجِدِّيَّة. نَطَقَ بالرَّقْم المطلوب بنبرة لاعب البوكر الذي يزيد على الرهان المعروض من قِبَلِ خصومه حول طاولة اللعب.

عندما جاءت المرأة قرب سريري، وأومأت لي بالذهاب، همستْ في أُذُني قائلة "إنَّه رُبَّان سفينة"، داعبتُ خصرَها ممتنَّاً لها. وبسرعةٍ خارقةٍ، ارتديتُ بنطالي والقميص، لكنِّي بادرتُ قبل الخروج من الغرفة إلى نزع الرتبة العسكريَّة من كتفَيَّ.

قدَّمتْنا المرأة إلى بعضنا بإيماءة من يدها، وردَّ خصمي في اللعبة بمَسَّة على طرف البيرية التي يعتمرها على رأسه. قرَّرتُ أنّ بإمكاني الوثوق به، فقد وجدتُ فيه الشخص الذي يهوى حياة المخاطِر: وجه ضخمٌ بأخاديد عميقة، وفم واسعٌ، نهم، عينان تلتمعان على حين غِرَّة، لكنّهما تُفضِّلان الإشاحة عن عَيْنَي الناظر. بقيَ ثابت الحَرَاك عابس الوجه حين تكلَّمتُ. كان يعتمر على رأسه بيرية بيضاء بواقٍ للشمس، زُيِّن بصورة المرساة، واحدةٌ من تلك البيريات التي يعتمرها باعة المحار في نابولي، لكن تلك البيرية كانت تُظهِرُهُ كما لو كان صبياً يافعاً.

كانت تلك البيرية تُسرِّبُ إليَّ ثقةً شفيفة، وكان الرُّبَّان قد جَلَسَ مُسنِداً ظَهْره إلى رأس السرير، فيما يُمسِّد بإحدى يَدَيْه رُكبةَ المرأة، برقَّة، كما المُقامر حين يُمسِّد بكفِّه على القماش الأخضر الذي يُغطِّي طاولة اللعب، بانتظار أن يُقرِّر الخصم لُعبته اللَّاحقة. لم يَجُل في خَلَدِهِ أبداً أيُّ شيءٍ عن مقدار الآمال الجديدة والثقةَ الوليدة التي كانت تمنحني إيَّاها بيريته البيضاء تلك.

وعندما انتهيتُ من طَرْح الموضوع، قال لي بأنَّه لن يستفيدَ من المال الممنوح إليه بعد النزول من السفينة في نابولي، وخَتَمَ قوله: "إذا ما حَصَلْتُ على المال هنا، فسيكون بإمكاني شراءُ الحاجيات".

أجبتُهُ بموافقتي على العرض. كنتُ سأُسلِّمه المال في لحظة الصعود على مَتْن السفينة. حدَّدْنا اليوم والساعة والمكان: في تلك اللحظة شَعَرْتُ بأنَّ العوائق لتدبير المال اللّازم لم تكن لتُشغل بالي، فأنا سأرحل من هنا أيّاً كانت الظروف، وأمامي عشرة أيّام لتدبير ما أحتاج إليه.

عُدتُ إلى السرير، سعيداً. لم تُنبس المرأة ببنت شَفَة، ورافقت الرجلَ إلى الباب. سمعتُ وَقْع خُطى البحَّار على أرضيَّة الشارع، وبعد قليل سمعتُهُ يطرق باب منزلٍ مُجاورٍ، وهو ما زاد من طمأنينتي. لا وجود لأيِّ كمين، وقد وضحتِ الأمور بالكامل. حين عادت المرأة إلى الغرفة بقيت واقفةً عند قَدَم السرير، مُسنِدةً ظَهْرها إلى النافذة، وبقينا صامتَيْن للحظات. شَعَرْتُ بالارتياح لكوني وثقتُ بها. وقد أَصَبْتُ في الاختيار بالعودة إلى ذلك المنزل.

بقيت المرأة صامتةً. كانت تكفُّ عن الكلام حين تتوقَّف عن المشي داخل الغرفة، وكان وجهها ما يزال كما هو، على حاله ساذجاً ومنغلقاً، كوجوه النساء القابعات في المنازل. كانت مساحيق التجميل تُغلِّف سَحْنَتَهَا بغِلَالَةٍ شفيفةٍ ومتصابية؛ ذكَّرتْني ببعض الصبايا اللّاتي يُطلينَ وجوههنَّ بمساحيق وموادّ التجميل للمرَّة الأولى في الحياة، وهنَّ شاعرات بالقلق والعُجَالَة في التأكيد على ولوجِهنَّ عُمُر المراهقة، وشاعراتٍ أيضاً بالقلق لتحدِّي التعليقات الأولى. لكن جسد هذه المرأة الواقفة أمامي أنهكتْهُ السُّنُون، باتِّساقٍ تامٍّ مع مساحة سريرها الواسع، الذي كان يشغل الغرفة بأسرها، ولم يكن بالإمكان تجاهل ذلك السرير بأيِّ شكلٍ من الأشكال. فإمَّا أن تجلس فوقة أو تظلَّ واقفاً، مُلتصِقاً بالجدران التي ارتسمتْ فوقها، هي الأُخرى، آثارُ مرور أزمنة مليئة بالنجاسة.

كانت واحدة من السُّكَّان الأصليِّيْن المتطوِّرين، تقرأ مجلَّات للقصص المُصوَّرة، ولا بُدَّ أن تلك القراءة كانت تُمثِّل بالنسبة إليها مفردةَ زَهْوٍ، فهي تحتفظ بالمجلَّة على الكومودينو الصغير المجاور للسرير، لتُطالعَها بين الفَيْنَة والأُخرى. وكانت هذه فُرصة جيِّدة بالنسبة إليها، فهي الآن مُقدِمةٌ على توفير الحماية لرجلٍ، لم تتشكَّك أبداً حول الأسباب التي دَفَعَتْنِي إلى الالتجاء إلى منزلها، أيُّ دافع قاسٍ ولامعقول، ذلك الذي أجبرني إلى الالتجاء إليها، هي بالذات، تلك المرأة التي تنطق بالكلمات على طريقة البطلات الشقراوات في القصص المصوَّرة التي تقرؤها، والتي تعلَّمت من خلالهنَّ مغزى الوقت والقضايا الرُّومانسيَّة. لم أكن، حتَّى أنا نفسي، قادراً على تحديد تلك الأسباب، أو بالأحرى، بدلَ أن تكون أسباباً، فقد كانت دوافع، وصرتُ أتساءل ما إذا لم تكن حرارة الطقس الهائلة هي ما أوقعتْني في فخاخ مكيدة لعينة. كانت المرأة تقف هناك صامتةً مَزْهُوَّةً بإمكانها استضافتي. "نعم"، فكَّرتُ "فتلك النَّظْرة المُعلَّقة في السقف ليست إلَّا نتاجاً للضجر ممَّا حَدَثَ مع وَقَّاد مِرْجَل السفينة، وممَّا تلى مغامرتي التي تجهل، هي، تفاصيلها".

كانت امرأة طيِّبة القلب، أَنهكَتْها الحرارة المرتفعة، ولا شيء غير ذلك. ربَّما كانت تفكِّر في تلك اللحظة في ما اقترفتُ من أخطاء، لأجد نفسي في حُلكة ذلك الطريق المسدود. لم تكن تعرف أيَّ شيء. وحين سألتْني ما إذا كان المال المطلوب جاهزاً لديَّ، أجبتُها بنعم، وشكرتُها. تُرى هل بالغتُ في تحدِّي المنطق حين وثقتُ كثيراً بقدرتها على مراقبة خيالاتي؟ ها أنا ذا أجد نفسي أمام احتمال خَطَرٍ جديد، صار لزاماً عليَّ أن أَحُولَ دون وقوعه. فانسجاماً مع روحية الاقتصاد

والتوفير الملازمة للنساء، كانت المرأة ستطرح الموضوع في اليوم التالي على بحَّارِين وربابنة آخرين، حتَّى اللحظة التي سيحضر فيها رجلان من الدرك يرتديان زِيَّ البحَّارة، ليعرضوا عليَّ السعر الأفضل لصعودٍ ممكن على مَتْن إحدى السفن. وكانت المرأة ستقع في الفخِّ مبتلعةً الصِّنَارة كسمكة بليدة.

كان فضاء الغرفة مُفعَماً بعطر ماء الكولونيا المُنعِش، وبالتأكيد هو عطرٌ يفوح من جسد امرأة، تشعر بالحاجة إلى الاستحمام المتواصل، لا لقضاء الوقت، بل لمقاومة حرارة الطقس.

وها أنا، مُجدَّداً، بسطحيَّةٍ مُطلقة، سطحيَّتي المُطلقة أنا، للظَّفَر بوقت إضافيٍّ مُتخيَّلاً اقتداري على قلب موازين حبائل ومؤامرات مُتخيَّلة أو إخفاق خططٍ، ورَّطتُ نفسي من جديد. كنتُ قد أعددتُ بيَدَيَّ كميناً غامضاً لنفسي. ربَّما عليَّ أن أتحدَّث مع المرأة في الحال. لكنْ، لو شرحتُ لها الأمور الآن، وحيثُ تعاطفتْ معي، أوَلم تكن لتشعر بقلقٍ ما أو بالندم وتأنيب الذات إزاء ما شَعَرَتْ به من تعاطف تجاهي؟

في النهاية أخبرتُها بأنَّني أقلعتُ عن فكرة السَّفَر السريع، فبإمكاني الصعود بالمجَّان على مَتْن سفينة راحلةٍ إلى إيطاليا، إذا ما انتظرتُ لبضعة أسابيع. وبما أنَّها لم تكن تردّ على ما أقول، أضفتُ لها بأنَّني لستُ لصَّاً هارباً أو قاتلاً يسعى من أجل الفرار. ولستُ حتَّى عسكرياً عاصياً لقوانين الخدمة. "أنا مهندس"، قلتُ لها "أشعر بالضجر هنا. فَسَخْتُ عقد العمل، وأُريد الرحيل. لذا فقد رفضت الشركة التي أعمل فيها دَفْع تكاليف سَفَري".

"ولماذا تشعر بالضجر؟"، سألتْني. كان ذلك هو السؤال الوحيد الذي لم أترقَّبه. "وأنتِ! ألَّا تشعرين بالضجر والتعب؟ أتحبِّين العيش هنا؟". رفعت المرأة كتفَيْها. بالتأكيد يُعجبها العيش هنا. لقد بَلَغَتْ موقعاً، يحسدها عليه الآخرون، فهي تسكن في منزل فيه دُشٌّ للاستحمام، لديها زبائنها، تُجيد القراءة، تقرأ قصصاً مُصوَّرة، تتزوَّج خلالها الشقراوات من المهندسين. ولم تتعرَّف من قبل على مهندس، ما لم يكن بثيابه الدَّاخليَّة.

رَفَعَتْ كتفَيْها من جديد. كانت تعاني من شِدَّة الحرارة، ومن الانزعاج الذي تُولِجُهُ أضواء مدينة مُصوَّع في عظام المرء. "وما هو حقل الهندسة الذي تعمل فيه؟"، سألتْني. وإذاً فإنَّ بمقدورها التمييز ما بين مهندسين. "أنا مهندس معادن"، أجبتُها، ولم أتمكَّن من الحيلولة دون إطلاق بسمة. سأُغادر بالتأكيد، أطلقت المرأة ابتسامة صوب سقف الغرفة وهي تستعيد صورة وَقَّاد مِرْجَل السفينة الذي أفاق من ثُمَالَتِهِ لمُجرَّد التفكير بمَرأى المال. ترى ألم يبتسم هو الآخر؟

نَهَضَتِ المرأة من جواري، ودَعَتْني أن نذهب إلى سريرها، فهناك سنشعر براحة أكبر. كنتُ على وشك النهوض، عندما خَطَرَ ببالي أن أقول لها بأنَّ الطقس حارٌّ جدَّاً وأنا مُنهَك. عندها عادت إلى غرفتها: شَعَرَتْ بالإهانة لرَفْضي اللحاق بها، وفي نَظَرها لم يكن مُجدياً على الإطلاق الانشغال بمساعدة مهندس، والذي كان في واقع الحال عسكريَّاً فارَّاً من الخدمة يريد الاختباء. بعد قليل، عادت إلى مكاني حاملة في يدها قنِّينَة فيها عصير برتقال، وجَلَسَتْ على حافَّة السرير المتنقِّل، وهي تشرب العصير. مسكينةٌ هذه المرأة. تعلَّمتِ القراءة، صارتْ ترتاد صالة السينما، لم تعد تستحمُّ في بِرَك الماء الراكد، لم تكن ترفض قَطْع العملات الفضِّيَّة، وصارت القرية بالنسبة إليها مُجرَّد ذكرى بعيدة. كان بمقدورها أن تظلَّ عارية طَوَالَ الوقت، ليس لبراءةٍ ما في داخلها، بل لأنَّها اخترقت جميع الموانع الأخلاقيَّة. وإذا ما كانت تُغطِّي بطنها بالروب على عجلٍ، فإنَّ ذلك لم يكن خشيةً من مُسدَّسي، بل لغُنْجٍ تعرَّفتْ على ضرورته في وقتٍ متأخِّر. كان

الروب الذي تستعمله قد جاءها من نابولي. المجلَّة التي تقرأ فيها القصص المصوَّرة طُبِعَتْ في ميلانو. لكنِّي لم أكن راغباً في أن تمسَّني بأيِّ شكل من الأشكال.

لم تكن نَظْرَتها الثابتة والهادئة تُزعجُني إطلاقاً، إلَّا أنَّني عجزتُ عن تذكُّر مَنْ حدَّق فيَّ بتلك الطريقة وبذلك الإلحاح. ليس مريم بالتأكيد. فَمَنْ إذاً؟

كانت المرأة هادئةً، ولا تأتي حَرَاكاً، ولا تعبير يرشح من وجهها، لكنّ عَيْنَيْهَا، اللَّتَيْن صرتُ أراهما الآن بوضوح، بَدَتَا وكأنَّهما لا تنتميان إليها. شَمَمْتُ ظلَّ رائحة مُنفِّرة ( ربَّما قرَّبْتُ يدي إلى فمي لخلال شُرب الماء، فاختلطتْ رائحة اليود بالعَرَق المتصبِّب من وجهي، أو ربَّما ألقى أحدُهم في باحة المنزل وروداً)، تشبَّع هواء الغرفة بتلك الرائحة المُنفِّرة، وتساءلتُ باندهاش كيف لا تتمكَّن المرأة من استنشاق تلك الرائحة، في حين كانت تواصل النَّظَر إلى وجهي بثباتٍ وصمت دون أنْ تُزيح نَظْرَتها عنِّي؟ "يوهانس"، فكَّرتُ، وأدركتُ، منذُ تلك اللحظة، السبب الذي دَفَعَنِي إلى الالتجاء لذلك المنزل، أحسستُ بأنَّ المكيدة ما تزال متواصلة، ولم يكن بمقدوري إخفاقها. رميتُ القَنِّينَةَ خارج النافذة بكلِّ ما أُوتيتُ من قوَّة، ما دعاها إلى أن تنزاح عن إحداثيَّتها. تصوَّرتْ بأنَّني أردتُ إصابتَها. "عُذراً"، قلتُ. وأضفتُ "هل رَمَى أحدُهم بورود في باحة المنزل؟".

أطلَّتْ من النافذة، وقالت: "كَلَّا". اقتربتْ تلك الرائحة المُنفِّرة منِّي كثيراً، وصارت كما لو أنَّها تُؤطِّر أطراف السرير المتنقِّل الذي أستلقي فوقه: الكلاب السائبة مغسولةً بأناة، والورود لم تذبلْ بعد، لكنّ هناك ثَمَّةَ احتمال بأنَّ تذبل على حين غِرَّة. "ربَّما سأُجَنُّ"، همستُ في سرِّي. ولم تستمع المرأة إلى ما قلتُ، ذَهَبْتُ إلى غرفتها، وفتحتُ دُرجاً، ثمَّ عادتْ إلى الغرفة التي أنام فيها، وبيدها علبة للبسكويت، كانت تحفظ في داخلها كلَّ ما هو ثمينٌ لديها، وثيقة سجلِّ الفحوصات الطِّبِّيَّة، بعض الحلى الفضِّيَّة، عقودٌ وأساور وصورٌ فُوتُوغرافيَّة. عَرَضَتْ عليَّ دفترَ توفيرها في دائرة البريد الذي كان يحتوي على ادِّخار بثمانية آلاف ليرة. "ليست بكافية"، قلتُ (لا طائل من وراء التلفيق)، "وحتَّى لو كانت كافية لا أعلم ما الذي يمكن أن أفعل بها. غداً سأعود إلى موقع العمل".

كانت عيناها تقولان لي: "لِمَ كلُّ هذه المهزلة؟"، لكنْ، كان عليَّ الإصرار على ذلك، عليَّ إقناعها بأنَّ تلك هي الحقيقة، ولا غير ذلك؛ كان مُفيداً لي بأن تُدرِك بأنَّ تلك هي الحقيقة. وقلتُ لها أيضاً بأنَّني سأعود إليها بعد بضعة أيَّام. بقيتْ صامتةً. ثمَّ خَلَعَتِ الروب عن جسدها، وذَهَبَتْ وراء الستار الخشبي، وفَتَحَتِ صُنْبُورَ الدُّشِّ. وعلى الرَّغْمِ من أنَّني لم أكن أراها، فقد أحسستُ بأنَّها تقف تحت مساقط الماء بثباتٍ، لكنْ، بإنهاك. "ما ينقص هذا المشهد هو وجود غُراب"، فكَّرتُ، "إذَّاك سيكتمل المشهد بحضور جميع أبطاله. إلَّا أنَّني، ورَغْمَ ذلك، عجزتُ عن الابتسام. حين خرجتْ من وراء الساتر الخشبي، ظلَّتْ واقفة أمام النافذة، تُجفِّف جسدها بنسيم المساء الساخن من بَلَل الاستحمام، وتضع على وجهها مساحيق بفرشاة ضخمة. "ألَّا ترغب في الاستحمام؟"، سألتْني. أجبتُها بلا، وأنا أضغط على فكَّيَّ، كي لا أصيح في وجهها أَنْ تتركَني وشأني، أن تذهبَ إلى سريرها الرَّماديِّ، وأن تغربَ عن وجهي. كنتُ أرتجف مخافةَ أن تعود إلى الجلوس على حافَّة سريري، ولأشمَّ من جديد، دون مناص، ذلك العطر المُنفِّر. شكرتُها على كلِّ شيء، بما في ذلك كلّ ما لم يكن يخطر لي على بال، وبأنَّني سأنطلق في اليوم التالي ذاهباً صوب أعلى الهضبة. "سأعود إلى موقع العمل"، ختمتُ بجفاء، "لقد قرَّرتُ الإقلاع عن فكرة الرحيل، سأعاود عملي". وكنتُ أرغب في أن أُضيفَ: "هل هذا أمرٌ يبعث على السعادة لديكم، سيِّدتي؟".

جاءت المرأة من جديد، لتجلس على حافَّة سريري، ولَمَسَتْ جبهتي. "لستُ مريضاً"، قلتُ لها، وأبعدتُ يدها. لكنْ، لماذا قرَّبَتْ يدها من أنفها؟ نَهَضْتُ على الفور بقفزة، وصرتُ قرب النافذة، لم تكن هناك في باحة المنزل أيَّة ورود ذابلة، كما لم يكن هناك وجود لأيَّة قمامة. لا عجب، فالمنزل قريبٌ جدَّاً من الميناء، ولا بُدَّ أنَّه الماء الآسن الذي يبعث تلك الرائحة الكريهة، ويملأ فضاء الغرفة بأكملها الآن، وينسدل كملاءةٍ شفيفة على كلِّ شيء. "الماء الآسن، بالتأكيد"، فكَّرتُ "وتكفي جُثَّة فأر نافق، في ظلِّ هذا الطقس الحارِّ لإثارة الروائح الكريهة". كنتُ ما أزال واقفاً قرب النافذة، عندما جاءت المرأة صوبي، ومدَّت يدها لتُعانقَني. "هَيَّا بنا"، قالت. أوقفتُها عن المحاولة. "لا تلمسيني!".

ابتعدتْ عنِّي كما لو أنَّني صفعتُها. صارت ملامحها أكثر قتامة، ربَّما صارت الآن تفكِّر أنَّها أخطأت في استضافتي، وحين عَرَضَتْ عليَّ مدَّخراتها، التي وفَّرتْها بالكثير من عَرَق الجبين أو ربَّما فكَّرتُ بأنَّني لم أكن أغفر لها كونها مختلفة عن النساء التي تقرأ عنهنَّ في قصصها المصوَّرة؟ "لماذا؟"، سألتْني. وعندما أدركتْ عدم رغبتي في النقاش، انفجرتْ بالضحك، ومدَّت ذراعها من جديد، لتُعانقَني. أوقفتُها من جديد. فكَّرتُ أنَّه جاء دوري الآن بأداء دور مريم. ماذا لو أنَّني وافقتُ وانصعتُ إلى إلحاحها؟ ألم يكن كلُّ شيء مرسوماً بأدقِّ التفاصيل؟ ماذا لو أنَّني أصبتُها بالعدوى، طالما أنَّه ليس نافعاً في شيء أن أرفض ما تعرضه عليَّ، أَوَلا ينبغي عليَّ استغلال الظرف قبل فوات الأوان؟ أم أن المكيدة كانت تترقَّب منِّي فعلةً حسنَةً واحدةً، على الأقلِّ؟ حسنٌ، أبعدتُها عنِّي، فعادت المرأة إلى غرفتها، لتستلقيَ على ذلك السرير المُرقَّط بالبقع الرَّماديَّة، والمتأرجح كالعوَّامة في عرض البحر. تَمْتَمَتْ بصوتٍ أجشّ ببضع كلمات لم أفهمها، تصفَّحتْ مجلَّتها بسرعة دونما قراءة، وواصلت التمتمة.

بعدها بقليل، أطفأت المصباح.

لم أسمع زفيرها، لم تكن نائمةً. كانت عيناها المفتوحتان في ظُلمة الغرفة تُثيران قلقي ..

"ما اسمكِ؟"، سألتُها. ردَّت عليَّ بأنَّ اسمها هو ميمي.

"حسنٌ، لكنّ اسمكِ الحقيقي هو مريم، أليس كذلك؟".

"نعم، مريم". "حسنٌ"، قلتُ في سرِّي، "وأين الغرابة في الأمر؟ فأسماءُ جميع النساء هنا هو مريم". "طابتْ ليلتكِ، مريم"، وقد حبستُ ضحكة، كادت تخرج من حلقي. لم تقل شيئاً، وربَّما كانت تبتسم، هي الأُخرى، مُحدِّقة في سقف الغرفة، بذات الابتسامة التي حاولت بها إقناع وقَّاد مِرْجَل السفينة.

حدَّقتُ طويلاً في السماء المثيرة للمَلَل في ظُلمة الليل عبر فراغ مستطيل النافذة. نجومٌ نادرة تُمكِّن المرء بالكاد من التَّغلُّب على الضجر الضاغط على النَّفْس. وحين تناهى إلى مَسمَعي صوت صَفَّارة السفينة الأُخرى التي تُحيِّي المدينة وهي راحلةٌ، عجزتُ عن النوم، وغَلَبَني الإحباط. لم أكن لأعود إلى إيطاليا أبداً، فكَّرتُ في سرِّي، لا جدوى من المحاولة، كنتُ سأعبر من أملٍ إلى آخر، لأنَّني أشعر بالإخفاق في الإقدام على الخطوة المناسبة الوحيدة. كان عليَّ أن أموت، كانت الزهور تواصل الذبول منتظرة موتي، فيما أنا كنتُ متردِّداً عن الإقدام على الخطوة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٣

بعد مرور أكثر من ساعة، قرَّرتُ الخروج. كنتُ سأتَّجه صوب المرتفعات الأولى. هناك حيثُ الريح البَحْرِيَّة تُخفِّف من وطأة الحَرِّ الشديد الراكد ما بين المنازل. كان الحَرُّ شديداً في الدروب العسيرة والقذرة كما القمامة. سفينة أُخرى شَغَلَتِ الرصيف الذي شَغَرَ بعد رحيل السفينة السابقة من الميناء، وكان الحمَّالون الأثيوبيُّون يُفرِغون حمولَتَهَا، وهم يصدحون بأغانيهم، ليمنحوا أنفسَهم الجرأة على احتمال الإنهاك والحَرِّ الشديد، وكانوا يتحرَّكون بعشرة أشخاص، لأداء عمل يكفيه شخصان فحسب؛ هكذا كانوا يعملون دونما اقتناع، وكأنَّهم سُكَارَى ثَمِلُون.

سَلَكْتُ طريق محطَّة القطارات، واتَّجهتُ صوب المرتفعات الأولى، وتوقَّفتُ عندما ظَهَرَتِ المدينة بأسرها أمام ناظرَيَّ. كانت الشمس موشِكَةً على الشروق، لذا فإنَّ الحرارة ستبلغ درجة لا تُطاق. جَلَسْتُ على مرتفعٍ، بالقرب من منزلٍ مهجور، ومحاطٍ بأحراش، يتآكلها الغبار المتراكم. فَتَحْتُ الكُتيِّب من جديد، وحدَّقتُ في الصورة. إنَّها شبيهة بيدي، وما تلك البقع إلَّا بُقعٌ شبيهة بالتي على يدي، وابتدأتُ بالقراءة:

" ... ونجد في تاريخ القدِّيسة إليزابيت دي هنغاريا مونتالامبيرت تفاصيل حول طقوس إقصاء المصابين بالجُذَام إلى "محجر المجذومين". وكان ذلك يُقام بحضور دائرة توثيق الموتى؛ فبعد مباركة الأدوات والأواني الضَّروريَّة لاحتياجات المريض اليوميَّة في وَحْدته، وبعد قيام الحاضرين بالتَّصدُّق على المريض، كان الراهب يتقدَّمه الصليب، ويتبعه المؤمنون، يقود المريض إلى المحجر المعزول الذي خُصِّص له كمنزل. وكان الراهب يُنشِد فيما يرمي فوق سقف ذلك المنزل تراباً، حَمَلَهُ معه من المقبرة:

"هوذا العالم يموتُ، لتستمرَّ الحياة مرَّات ومرَّات".

"هذا يكفي"، فكَّرتُ، وأعدتُ الكُتيِّب إلى جيبي.

كان الميناء مزدحماً بالسفن، رَسَى بعضها بجوار الأرصفة، سفنٌ من جميع الأحجام، ومن بينها كانت هناك السفينة التي يُفترَض أن تُقلَّني إلى جنوة، إذا ما تمكَّنتُ من العثور على ستِّين ألف ليرة، لأُعطيها إلى رُبَّانها. كان الأمر جدِّيّاً، إذْ لم يجرِ الحديث مع شخص عادي، يعمل وقَّاداً لمِرْجَلِ سفينة بخاريَّة، بل مع رُبَّانٍ مُهرِّب، يحتاج إلى المال. رُبَّانٌ قسا عليه الدهر. لكنْ، أيٌّ من بين السفن هي سفينته؟ ربَّما هي تلك السفينة باللون الأحمر والرَّماديِّ القريبة من المَرسَى؟ هي، بالتأكيد، تلك، فهي سفينة رَثَّة، برُبَّانٍ، تمكَّن في الظفر بالعمل فقط، بسبب الطَّلَب الواسع على أصحاب هذه المهنة، وقد ركب البحر هذه المرَّة عاقداً العزم على الإثراء.

أخرجتُ المُسدَّس من قِرَابِهِ، وتفَّحصتُهُ، وفي الغضون، فكَّرتُ بالرُّبَّان الذي سيستضيفني في مَقْصِف سفينته، وسأنزل بهدوء في جنوة، وبأنَّنا سنُحيِّي بعضنا كصديقَيْن منذُ وقتٍ طويل. لكنْ، لا جدوى للبحث عن ثلاثين ألف ليرة، هذا إذا افترضْنا بأنَّ مريم عازمة على الإيفاء بما وَعَدَتْ به، وهو الوعد الذي أجهل أيَّ مكيدة يخفي تحت الرماد.

كان البحر هناك في الأسفل بلونٍ رماديٍّ أكثر قتامةً من السماء الحارَّة، والمُلَفَّعَة بما يُشبه الدخان، بحرٌ اعتاد على المُعجزات، والتي لم تكن لتتحقَّق في هذه المرَّة لشخص مثلي، "غير قابل للمساس به". رفعتُ صمَّام أمان المُسدَّس، بالذات في اللحظة التي شَرَخَتْ صمت المكان

نغمة بوق، يدعو الجنود النائمين إلى النهوض. لكنْ، أين هو المعسكر؟ لقد كان هناك في الأسفل، حيثُ كان المرتفع ينتهي بسهلٍ فسيح.

هناك صفٌّ من الأكواخ المصبوغة بدهانٍ رمادي، ولم أنتبه إليها حتَّى تلك اللحظة. وكانت تلك هي المساحة المفتوحة المخصَّصة للملعب الرِّياضيِّ، الذي لا يُمكن أن تُخطئ في التَّعرُّف عليه عبر السياج المحيط به، والمنحدر الذي يحدُّ أحد أطرافه غير الأساسيَّة. وشاهدتُ، بعد إطلاق بوق الاستيقاظ، خروجاً عَجِلاً لرجال عُراة، يُهرعون صوب المغاسل، لكنْ، دون أن أتمكَّن من الاستماع إلى صيحاتٍ ونداءاتٍ صادرةٍ عنهم. بعد قليل اختفى الجميع، وتلا ذلك مشهدٌ آخر.

في البدء جاءت سَرِيَّة من الجنود المدجَّجين بالسلاح، وربَّما كانوا في حدود عشرين عسكريَّاً، يقودهم ضابطٌ. ثمَّ حَضَرَ رجال "الحَرَس"، برفقة ضابطهم. كان على هؤلاء أن يتولَّوا مهمَّة رَفْع العَلَم. ما أثار استغرابي هو الوشاح الأزرق الذي ارتداه الضابط، وهو الوشاح الذي لم أُشاهِدْهُ مُذ غادرتُ إيطاليا. ومن ثمَّ تتالت السرايا، حتَّى اجتمعتْ ثمان سرايا من الجنود، وعلى رأس كلِّ واحدةٍ منها ضابط. خَرَجَ الجنود من الأكواخ ببناطيلهم الطويلة، وبالجِبَابِ العسكريَّة. ربَّما سيحتفلون بذكرى تأسيس الكتيبة، أو بأيِّ احتفال عسكريٍّ آخر، هذا ما لم يكن اليوم هو الأحد. لم يكن اليوم هو الأحد، ولم يكن الاجتماع للقدَّاس. بَلَغَتْ مسامعي أوامرُ حازمة، بعدها عَزَفَ الجنديُّ "البوَّاق" نغمةَ الاستعداد، وابتدأ جندي آخر برَفْع العَلَم على السارية. وبينما كان الضُّبَّاط يقدِّمون جنودهم إلى القيادة، ظلَّ العَلَم ملفوفاً حول السارية دونما رفرفة.

بَلَغَتْ أسماعي أصوات أوامر أُخرى. ابتدأت السرايا المصطفَّة في الجانب البعيد من الساحة بالتَّحرُّك لإتاحة المساحة فارغةً. وحين رنَّ بوق "الاستراحة"، بقي الجنود في مواقعهم في صمت، فيما تجمَّع الضُّبَّاط حول بعضهم خارج إطار الملعب، وبدؤوا بحوارٍ مُبهَم، لكنْ، دون غَضِّ الطرف عن جنودهم، صارخين صوبهم بين الفَيْنَة والأُخرى بأوامر مُحدَّدة، كانت تُنفَّذُ في الحال، بسرعةٍ خارقةٍ مُثيرة للاستغراب.

"طالما أن الأمور تسير على هذه الشاكلة الدقيقة، فلا بُدَّ أن تكون الكتيبةُ قد وَصَلَتْ إلى هذا المكان منذُ وقت قصير"، فكَّرتُ.

كان الوقت يمرُّ دون أن يحدُثَ أيُّ شيء، كنتُ أشعر بالرغبة في الذهاب، لكنَّ الإنهاك دَفَعَنِي إلى البقاء في مكاني، وأبعدتُ عن ذهني فكرة العودة إلى منزل تلك المرأة. المعبَّأ بزفيرنا اللَّيليِّ الحارِّ، هي وأنا.

كان الجنود واقفين متسمِّرين في أماكنهم. ولم يطلبْ أحدٌ منهم الذهاب إلى أيِّ مكانٍ، كما يحدُث في العادة حين يطول وَضْع "الاستراحة". لم يجلس أيٌّ منهم على الأرض، ولم يخلعوا غطاء الرأس، كانوا واقفين في أماكنهم بصمت، الضُّبَّاط وحدهم اجتمعوا في أحد الممرَّات يتجاذبون أطراف حديثٍ طويل، لكنْ، بصوتٍ غير مسموع، ودون أيَّة استثارة. وانقضى وقتٌ طويلٌ آخر. ورأيتُ أنّ ما بين الأكواخ ثَمَّةَ بعض الجنود الذين ما يزالون بثيابهم الدَّاخليَّة، إلَّا أنَّهم انسحبوا إلى داخل الأكواخ على عجلٍ مُدركين ضرورة ألَّا يراهم أحد من المسؤولين. أولئك كانوا الطَّبَّاخين بأدواتهم المطبخية أو الجنود المرضى.

لا أحد يتحرَّك من مكانه، وبعد قليلٍ سيغمر وَهْج الشمس اللَّافح سفينةً تُغادر رصيف الميناء الآن، (وليست تلك هي السفينة الحمراء والرَّماديَّة). أطلقت السفينة صَفَّارة التوديع الطويلة

لثلاث مرَّات. لم يتحرَّك الجنود، بعضهم أدار بالكاد رأسه صوب الميناء. وبعد قليل خَرَجَ كلبٌ من بين الأكواخ، وصار يعدو جَذِلاً صوب الجنود المُصطفِّين، هُرِعَ أحدهم صوبه، وصارَ يقذفه بحجارة، إلى أنْ قرَّر الكلب أن يعود أدراجه، متوقِّفاً بين الفَيْنَة والأُخرى، ليتأكَّد من أنَّه كان هو بالفعل الهدف الذي تتوجَّه صوبه تلك الحجارة، وأنَّهُ هو مَنْ حظيَ بذلك الاستقبال الغريب. وحين أصابتْهُ إحدى الحجارة في ظَهْره، قرَّر الفرار النِّهائيَّ، ولم يعُد إلى الظهور بعد ذلك. "لا بُدَّ أن يكون العقيد كارهاً للكلاب"، فكَّرتُ في سرِّي.

بعد بُرْهَة دخل أحد الضُّبَّاط إلى وسط الميدان، مُهروِلاً من طرف الكوخ الرئيس، وتناهت إلى مسامعي أوامر أُخرى أكثر حزماً، ومن تلك التي تُستخدَم للمناسبات الكبرى، فلربَّما كان هناك جنرال يزور القاطع، ليُفتِّش فرقته، لكنّ التوقيت بدا لي غريباً شيئاً ما، إلَّا أنَّني غيَّرتُ تقييمي للأمر، فقد يكون الطَّقْس المائل إلى الارتفاع في درجات الحرارة هو ما جَعَلَ الأمور تسير وَفْقَ هذا التوقيت.

وشاهدتُ خروج ثُلَّة صغيرة من الضُّبَّاط من الكوخ الرئيس، يُصاحبهم راهب المعسكر، وهو يرتدي زِيَّ الصلاة. ربَّما كان عليه أن يُباركَ الراية الجديدة للفرقة، والملفوفة داخل صندوقٍ خشبِي بجوار ساريةِ العَلَم، واتَّخذ مكانه في مواجهة الحشد المُصطفِّ. واتَّخذ ضابط ضخم الجُثَّة موقعه في مواجهة القيادة تاركاً الطرف المطلَّ على المنحدر وراء ظَهْره، واستلَّ وثيقةً من حافظة أوراق، وابتدأ بالقراءة. لم أتمكَّن من الاستماع إلى أيِّ شيء. كان الجنود واقفين بثبات في وَضْعِيَّة "الاستعداد" الدقيق. أمَّا الرجال الذين ما يزالون في ثيابهم الدَّاخليَّة، فقد تجمهروا معاً بين الأكواخ دون الإتيان بأيَّة حركة.

انتهى الضابط من قراءته، ومَكَثَ في مكانه دون أن ينضمَّ إلى ثُلَّة الضُّبَّاط. وُجِّهَت الأوامر إلى الجنود باتِّخاذ وَضْعِيَّة "الاستراحة"، إلَّا أن الجنود لم يأتوا بأيِّ حَرَاك ملموس، ولم ينقطع الصمت الذي كان سائداً، ولم تَسْرِ أيَّة همسات. إذَّاك فقط انتبهتُ بأنَّ جندياً عاري الرأس كان يقف في المنتصف من ثُلّة الضُّبَّاط.

الغريب في الأمر هو أنَّني لم ألحظْهُ للوَهْلَة الأولى. كان عاري الرأس، ويداه مُقيَّدتَيْن وراء ظَهْره، وكان إلى جوار الراهب جنديان آخَران. ابتدأتُ بالشعور بألمٍ حادٍّ في أحشائي، لأنَّني استوعبتُ ما يجري هناك. أردتُ النهوض، إلَّا أنَّني بقيت مُسمَّراً في مكاني، عاجزاً عن الذهاب، آملاً في امتلاك العزيمة بأنَّ لا أنظر إلى ما سيحدُث بعد قليل، رَغْمَ أنَّني أدركتُ استحالة إحجامي عن النَّظَر.

تحرَّك الجنود الثلاثة برفقة الراهب نحو الطرف المُطلِّ على المنحدر. كان الراهب يهمس في أُذُن الجندي، الذي كان يسير دون أن يتمكَّن من رؤية أيِّ شيء، ذلك لأنَّ الراهب كان يسنده بين الحين والآخر، ويقوده.

وبينما كان الأربعة يسيرون صوب حدود المنحدر، تحرَّكتْ كتيبة من الجنود بهدوءٍ مُطلق، وأتى الضابط بحركة مُحدَّدة، فَأَعَدَّ الجنود البنادق، لم أستمع إلى أيِّ صَخَب تحميل الرصاص في مواسير البنادق، ربَّما لأنَّ البنادق كانت قد أُعدَّت سَلَفَاً. وما بين الأكواخ انسحب بعض الجنود عائدين إلى مخادعهم.

يقف الضُّبَّاط الآن جميعهم في ذات المكان. كان الراهب يواصل الهمس فيما الجندي يهزُّ رأسه موافِقاً. عَرَقٌ بارد بدأ يتصبَّب منِّي، ويُبلِّل صدري وظَهْري، وينزل على امتداد ساقَيَّ. رميتُ بنفسي

على الأرض بالقرب من كومة من الأحراش، لم أكن راغباً في رؤية وسماع ما سيحدُث. ابتدأتُ بالارتجاف، وخبَّأتُ نَفْسي بين الأحراش. كنتُ أُريد الاختباء فعلاً. فقد كانت تلك العملية هي إعدامي أنا، هكذا سيكون إعدامي، كنتُ قد استيقظتُ في الوقت المناسب، وسلكتُ ذلك الطريق، وقد كان خياري هو الأسلم.

كان الجندي يواصل الإيماءة المُوافِقَةَ برأسه، والراهب يُعانقه، وفي النهاية جَعَلَهُ يُقبِّل الصليب، وتراجع إلى الوراء دون أن يُزيحَ عنه ناظرَيْه، وتراجع الجنديان الآخران بدورهما. كان الجندي خليع الرأس، يُحدِّق بالراهب، ثمَّ رَفَعَ رأسه بالكاد صوب التلال. إلَّا أنَّه لم يكن قادراً على رؤيتي، فقد كنتُ مُختبئاً ما بين الأحراش، ولم يكن ليدورَ في خَلَدِهِ بأنَّ هناك في تلك الساعة شخصاً ما يختبئُ فوق التلال. كان الجنود يُصوِّبون بنادقهم إلى رأس الجندي، وهو يُحدِّق في التلال، وفجأة رأيتُهُ ينهار إلى الأمام، كما لو أنّ أحداً ما لكَمَهُ في بطنه، وسمعتُ أزيز الرصاص.

أطلقتُ صرخة مريرةً، لكنْ، لا أحدَ سمعها. بقيتُ هناك، مُختبئاً بينما اقترب بعض الضُّبَّاط من الجندي، ورَسَمَ الراهب إشارة الصليب.

حَمَلَ جنديان الصندوق الخشبي الذي كان بجوار سارية العَلَم صوب نهاية الميدان، وأراحوا داخله جُثَّة الجندي المعدوم. أغلقا الصندوق، وانتحيا جانباً، دون أن ينبسا ببنت شَفَة. وبَرَزَتْ من بين الأكواخ شاحنةٌ تدوس الأرض الوعرة للميدان.

النَّظْرة الأخيرة التي ألقاها الجندي كان باتِّجاه التلال، لكنْ، يبدو لي أنَّه لم يتمكَّن من رؤيتي: كنتُ مُغطَّى بثُلَّة كثيفة من الأحراش. لا أحد رآني، ولا حتَّى الجنودُ الذين بدؤوا بالانسحاب الآن إلى الأكواخ، بانتظام اعتيادي؛ لم يَرَني حتَّى الضُّبَّاط الذين انسحبوا الآن إلى أكواخهم لشُرب كأس من الكونياك أو كأس من القهوة؛ لم يرني حتَّى الراهب الذي بقي واقفاً بالقرب من الشاحنة، بانتظار الصعود على مَتْنها.

استلقيتُ على الأرض مُحدِّقاً في السماء مُحاوِلاً تهدئة الهَلَع الذي احتواني، لا، لم تكن تلك هي عمليَّة إعدامي أنا، فأنا لستُ فارَّاً أو خائناً: لستُ إلَّا مريضاً. وليس بالإمكان إعدامُ مريض. كنتُ أحمل في جيبي ورقةَ إجازة من الخدمة، وفيما يتعلَّق الأمر بالطبيب، فقد كنتُ سأنفي روايته بالمطلق، وبحزم. وماذا بعد؟ وما الذي يُهمُّ ما سيحدُث في ذلك ال "ما بعد"؟. "أنا مريض"، كنتُ أُردِّد "ليس بإمكانهم الإقدام على إعدامي، ليس بإمكانهم قَتْلي، أنا أرغبُ في العيش". ثمَّ كنتُ أقول لنفسي: "وإذاً لماذا عليَّ تمثيل ملهاة الانتحار؟ أنا أرغب أن أشيخ، وأن أعيش حتَّى اللحظة الأخيرة، ليس بإمكاني أن أترك السماء، حتَّى وإن كانت سماءً ممتقعة ورماديَّة بلون الرصاص، كهذه السماء، ليس بإمكاني القبول بالتنازل عن أيِّ شيء، حتَّى لو كان ذاك هو الحرش الذي أختبئ خلفه الآن، ولا حتَّى الأيَّام الأكثر بلادة، أو الأشخاص الذين أكرههم: لا شيء.

بقيتُ مُستلقياً في مكاني حتَّى صارت حرارة الأرض لا تُطاق، نغماتٌ أُخرى للبوق أَنبَأتْني بأنَّ حياة المعسكر استأنفت عاداتها اليوميَّة. عاد الكلب ليُهروِل بارتياح ما بين الأكواخ، وكان هناك بعض الجنود الذين ينظرون إلى المنحدر بتكاسل. حينها ابتدأتُ بالهبوط صوب السهل. كنتُ أشعر بالسعادة، فقد قرَّرتُ أن أعيش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٤

انقضى ذلك النهار. حلَّ الليل، ولم أعُدْ إلى منزل المرأة. حين تَغَلغَلْتُ داخل المدينة وجدتُ أنَّ هناك بعض الأكواخ الموضوعة في خدمة القطعات التي ينبغي أن تصعد على مَتْن السفن، وكانت فارغةً في ذلك الوقت. وَلَجْتُ إلى الكوخ الذي فيه دُشُّ الحمَّام، وبقيتُ هناك لأُقاومَ الحَرَّ الشديد والقاتل في الخارج. أمضيتُ ساعاتٍ طويلةً مُستلقياً على بلاط الأرضيَّة، باحثاً في الاستحمام المتواصل عن قَدْرٍ من الارتياح من ألم وانزعاج الحَكَّة التي تتسبَّب فيها البقع على جِلْد بطني وذراعَيَّ. لقد ساءت حالة تلك البُقع.

مرَّات، كنتُ أبتسم لفكرة قيام رجال لدرك بالتَّحرِّي عنِّي، بينما هم يجهلون بأنَّني لستُ إلَّا على بُعد بضع خطواتٍ منهم. لكنّ تلك لم تكن إلَّا لحظات تفاؤل قصيرة للغاية، ينقضُّ عليها قلقي حول الرحيل، ويُجبرني على البحث عن آلاف الطرائق والمبرِّرات لأُهدِّئَ بها من روعي. ما يزال لديَّ وقت طويل لأتمكَّن من جَمْع المال الكافي للرحلة، وفكَّرتُ بالعودة في اليوم التالي إلى منزل مريم، كنتُ سأقبل عرضها بمَنْحي مدَّخراتها دَيْناً، وكان عليَّ أن أُحرِّر ذهني من الخيالات البليدة التي تُعذِّبني.

وهكذا ترقَّبت الفجر، ومع الفجر نِمتُ عدداً قليلاً من الساعات بعد أيَّام طويلة من الأرق المتواصل. خرجتُ من الليلة أكثر ارتياحاً، وكنتُ أُردِّد مع نفسي بأنَّني سأكون في إيطاليا بعد عشرين يوماً، عشرة منها لتدبير المال اللَّازم للرحلة، وقد يكون ذلك الوقت أقصر بكثير. سأفعل شيئاً ما بالتأكيد، وبقَدْر جهلي بما سأفعل بالضبط، كنتُ أشعر بأنَّني لم أكن لأفتقد الفرصة لتدبير اثنَيْن وثلاثين ألف ليرة التي أحتاج إليها.

حين ذَهَبْتُ إلى منزل مريم، لم يكن ليخطرَ ببالي أبداً أن ألتقيَ أحداً ممَّنْ سَبَقَ التقيتُهُم هناك. لكنْ، أَوَلم أكن أنا مَنْ دلَّه على ذلك المكان؟ لقد وجدتُ أمامي المُقدَّم من مدينة "A"، المُقدَّم ضخم الجُثَّة والواثق من نفسه، وقد كان يستحمُّ تحت الدُّشِّ.

"وما الذي تفعله في هذه الأرجاء؟"، سألَني في الحال، متضاحِكاً. لم أتمكَّن من الانسحاب بعد أن رآني. لكنْ، لِمَ يتضاحك؟ وإذاً فهو لا يعلم أيَّ شيء عن قضيَّتي مع الطبيب، أو ربَّما لم يَروِ له الطبيب شيئاً. حاولتُ أنا أيضاً إطلاق ضحكة، وقلتُ له إنَّني في إجازة، وعرضتُ عليه الورقة. انفجر في ضحكةٍ قويَّةٍ، وأضاف بأنَّني قضيتُ غالبَ هذه الشهور في فُسحة متواصلة. ثمَّ سألني ما إذا كنتُ أنوي الذهاب إلى إيطاليا؟ فأجبتُهُ بنعم. خَرَجَ من وراء الساتر الخشبي، شبه عارٍ، وقد لَفَّ منشفةً حول خصره، وبواحدةٍ أُخرى كان يُنشِّف ظَهْره وصدره. كان شاحباً، لصدره ملامح أُنثويَّة، وساقاه نحيفتان، فيما وجهه يُعبِّر عن لُغزٍ دفين، لم أرغبْ في فَكِّ أسراره. كرشه الذي لم يكنْ مضغوطاً بالحزام، كما العادة، هو الآن مندلق بزَهْو. جَلَسَ على حافَّة سرير مريم، وعاد إلى تنشيف جسمه. كان فيه قَدْرٌ من الارتياح والرضا للقائي في ذلك المنزل، الذي صار عائلياً بالنسبة إلينا. كنَّا أشبه ما نكون بعائلة. إلَّا أنَّه يشعر الآن برضا أكبر عن الذات.

سألتُهُ إنْ كان غائباً عن مدينة "A" منذُ وقتٍ طويل، أجابني بأنَّه جاء من هناك منذُ يومَيْن أو ثلاثة. وإذاً لم يكن بإمكانه أن يعرف شيئاً، وتبدَّد الأمل الواهي الذي توسَّدتُ عليه في لحظات. وبقيتْ أمامي الآن مهمَّة أن أَحُولَ دون أن يعرف أيَّ شيء عمَّا حَدَثَ قبل صعودي على مَتْن السفينة. لم تكن مهمَّة عسيرة: فهو لا يعرف اسمي، فقد تبادلْنا التَّحيَّات التَّعريفيَّة على عجل،

وليس بإمكانه أن يتذكَّر الاسم بالضبط. كنتُ سأعطيه اسماً آخر. عليَّ أن أكون لطيفاً معه وخفيف الظِّلِّ على قلبه. فأنا لستُ، بالنسبة إليه، إلَّا واحداً من أولئك الضُّبَّاط الذين تُروى الأقاصيص عن افتقادهم للمقدرة على الإتيان بأيِّ شيء، أولئك الذين يغرقون في النوم بينما يقوم الجنرال بتفتيش القطعات، أو يتسبَّبون بانفجار مخزنِ العتاد بسبب الاستسهال أو شرود الذهن. لقد كان على مقدار كبير من الرضا عن الذات، ويجدني خفيف الظِّلِّ. "أنتَ أيضاً تعرف ميمي؟"، سألَني.

"ليس بالمقدار الذي تعرفها فيه حضرتكَ"، أجبتُ مبتسماً. في تلك اللحظة دخلت المرأة إلى الغرفة، كانت في جولة في الحَيِّ لشراء بعض الحاجيات. وإذْ شاهدتْنا نتحاور، ابتدأت بترتيب أشياء الغرفة. "هذا هو فندقُكَ الصَّباحيُّ"، قلتُ للمُقدَّم مؤشِّراً إلى تلك الغرفة مُضطربة الأثاث، وحيثُ آثار الرجال في جميع زواياها تؤطِّر تواجُدنا داخلها في تلك اللحظة بغموض كبير. ضحك باسترخاء هازّاً رأسه. هو عابرٌ من هنا: ضربة صيدٍ عاجلة، وحمَّام مُنعِش. كان لديه إحساسٌ بكونه شابّاً، محبوباً من قِبَلِ الآخرين، وأنا بالذات من دَلَّهُ على طريق شبابه المفاجِئ. قال لي بأنَّ ميمي فتاةٌ طيِّبةُ القلب، لا تعترض أبداً، وداعب ظَهْرها بأناة. إلَّا أنّ المرأة لم تفكِّر حتَّى بالالتفات صوبي، واستشعرتُ في صمتها التالي قَدْراً من الجفاء والعداء تجاهي. بعد قليل خرجتُ مع المُقدَّم، وتوجَّهنا لتناوُل الغداء. كانت رفقته بالنسبة إليَّ عُذراً قانونياً غيرَ مُنتظَر.

كان المُقدَّم في غاية الحبور. وقد اكتشفتُ فيه جانباً جديداً. كان يشعر بسعادة غامرةٍ، لا لشيء إلَّا لكونه موجوداً في هذا العالم. وبعد أن وَضَعَ جانباً شكليات الزَّهْو التي تفرضها الرُّتَبُ العسكريَّة، وهي ذات الشَّكليَّات التي دَفَعَتْهُ إلى مطالبتي بحلاقة ذقني في المرَّة الأولى التي التقيْنا فيها، فقد بدا لي الآن وكأنَّه متواطِئٌ مع صِغَر سنِّي، ويشعر بأنَّ في مقدوره أن يُعاملني كصبيٍّ، بذات التواضع الحامي الذي يُميِّز الأشخاص العمليِّيْن والمحظوظين في التعامل مع الشباب المختلفين عنهم، بعد أن تحرَّر من أيِّ صنف من أصناف الحسد والغَيْرة. فكَّرتُ بصندوقه الخشبي ذاك، والذي يمنعه جشعه عن اعتباره قد امتلأ بما يكفي. كان يلمس كتفي بضربات حميميَّة من كفِّه، وهو يتسامح مع اقترافي الخطيئة بكوني غيرَ مشابهٍ له، لأنَّني لم أُصادف الحظوظ التي اقتنصَها، تلك الحظوظ التي يُقدِّرها حقَّ قَدْرها. أخبرني عن شاحنته. وإذاً فهو يمتلك شاحنةً خاصَّة، غير تابعةٍ للجيش، بل شاحنة حقيقيَّة بكلِّ ما تعنيه هذه الكلمة من معنى. كان يُتاجِر. ولم يكن هو الوحيد الذي يفعل ذلك. ولذا فقد كان يُعاملُني كما لو كنتُ صبيّاً عليه أن يتعلَّم الكثير من الحياة، صبيّاً متفائلاً، ويُحبُّ السُّكَّان الأصليِّيْن في هذا البلد، لأنَّه عَثَرَ لديهم على خصال إيجابيَّة، باتت شعوبٌ أُخرى تفقدها بالتدريج. وبرأيه فقد كان لديه الكثير ممَّا يمكنني تعلُّمه، وكان مُقتنعاً على أنَّنا لا بُدَّ أن نكون مُتَّفِقَيْنِ حول هذا الأمر.

نعم، أعتقد أنَّه بدأ يستلطفُني. "أنتَ"، قال لي "أنتَ واحدٌ من أولئك الضُّبَّاط الذين إذا ما قادوا سَرِيَّة للحراسة، فإنَّ المعسكر سيخلو من كلِّ جنوده، وسيخرج منه حتَّى المرضى، ولا يعود إليه أحد مع حلول الليل". قال ذلك، وضحك، بتعاطف. في بعض المرَّات كنتُ أُدرك بأنَّ أناقته الواثقة تلك تضطرب كلَّما تواجد ضمن جوٍّ فيه من العائليَّة شيءٌ ما، وبأنّ سلوكه يفقد جميع تلاوين الحِطَّة. لكنَّه بدا لي، في تلك اللحظات بالذات، أكثر كهولةً ممَّا هو عليه بالفعل، ولهذا السبب انطبعتْ على وجهه ضحكة دائمة، وبَرَزَتْ من عَيْنَيْه ومضات مَكْر. كان المُقدَّم يكافح ضدَّ انحطاطه وتفسُّخه.

كان يُحدِّق بالميناء بطريقة مختلفة عمَّا كنتُ أُحدِّق فيه أنا. أنا أرى الميناء كمحطَّةٍ للفرار، أمَّا

هو، فقد كان يراه مثل سفينة أكبر من غيرها من السفن. كانت الصناديق تصل إلى تلك الأرصفة، لتُحمَّلَ على مَتْن شاحنته الزرقاء شَذْرِيَّة اللون. لم تكن هناك حاجة لبذل مجهودٍ كبير، مُجرَّد الجهد الذي يُبذَل لحَمْل صندوق، كي يُوضَع على مَتْن شاحنة ما. ولم يكن ذلك الفعل يندرج تحت طائلة السرقة، وكنتُ أنا الوحيد الذي أماط له اللِّثام عن أسرار جميع ال "رحابات" الخارجة عن أيِّ منطق لقضاء الوقت. ابتسمتُ وأنا أتذكَّر صورة زوجته في الإطار الموضوع على طاولته في كوخ المؤَن. وإذا ما عاد إلى إيطاليا، فإنَّ المُقدَّم سيواصل استخدام شبابه الثاني، مُستفيداً من الثروة التي راكمها هنا عبر التجارة والتهريب. ولربَّما ستبقى الزوجة صورةً داخل ذات الإطار، لأنَّ ذلك هو مكانها الطَّبيعيّ منذُ وقتٍ طويل، وهي لم تكن تبدو حزينةً بسبب المكان الذي وُضِعَتْ وأُطِّرَتْ فيه. لقد كانت الزوجة باسمةً في الصورة.

أمَّا أنا، فتنقصني اثنتان وثلاثون ألف ليرة، أو بالأحرى، فإنَّني بحاجةٍ الآن إلى أربعين ألفاً.

وبعد أن تناولْنا الغداء معاً، خَطَرَتْ في ذهني فكرة أن أطلبَ منه ذلك المال. ذَهَبْنا إلى البار، لنتَّقيَ حرارة ساعات ما بعد الظُّهْر عبر شرب كؤوس من عصير البرتقال. فكَّرتُ بأنَّه لم يكن ليرفضَ إعطائي ذلك المبلغ دَيْناً: أو بالأحرى ما كان له أن يرفضَ. فيما بعد فقط، أدركتُ سبب مطالبتي اللَّامعقولة هذه: كنتُ أعتبر نفسي دائنه الأساسي، فما الذي سيُكلِّفه ذلك المبلغ؟ فمعرفتي بطرائق حصوله على الأموال تمنحني الصَّلَاحِيَة في اعتبار نفسي شريكاً له في الجُرم. سأحاول أن أجعلَهُ يعتقد بأنَّ ذلك الدين سيُوفَّى، لأنَّني أمنحه كلمة شرف، وبأنَّني سأُودِعُ المال في البنك الذي سيمنحني هو اسمه. سأستخدم كلَّ فصاحتي وحماستي، وبكلِّ ما أُوتيتُ من عزم، سأُظهِرُ له كلَّ الإعجاب. إلَّا أنّ كلَّ ذلك لم يكنْ إلَّا مُجرَّد وَهْم ساذج، تغذَّى بحرارة الطقس التي لا تُطاق في نهارٍ قاسٍ، وأسهمتْ ملامح وجهه الناعسة بشكلٍ مفاجِئ في تغذية خيبة الأمل. "أيُّها المُقدَّم"، قلتُ له "عليَّ أن أطلب منكم مبلغاً من المال كقرض".

"بكلِّ سرور"، أجابني "وكم هو المبلغ الذي تحتاج إليه؟"، كنتُ على وشك إعلامه بالرَّقْم، فيما أدخل هو كفَّهُ بجيبه، وأخرج منه بعضاً من أوراق المائة ليرة. كان يُفركها بين أصابعه فيما يمدُّها إليَّ كَمَنْ يعشق سماع حفيف الورق المفروك ببعضه حتَّى آخر نغمة. أدركتُ في الحال بأنَّ طَلَبِي سيُفاجِئُهُ، ربَّما لتردُّده أو لارتيابه من أمرٍ ما. عندها ابتسمتُ، وقلتُ له بأنَّني لستُ في حاجةٍ إلى شيء، وبأنّ ما حرَّكني هو نوعٌ من الفضول للتَّأكُّد من صداقته لي.

ولأنَّه اطمأنّ بعد كلماتي هذه، ألحَّ المُقدَّم على أن آخُذَ ذلك المبلغ، كان يحاول وَضْعه في جيبي، وأنا أُكرِّر له بأنَّ الأمر لا يعدو عن كونه مَزْحَةً. "بماذا يمكن أن يفيدَني المال؟"، قلتُ له "أنا ذاهب في إجازة". ولطمأنتِهِ أكثر عرضتُ عليه ما أملك من مال. إذَّاك فقط أعاد المُقدَّم أوراقه النَّقْدِيَّة إلى جيبه، وكان سعيداً لكونه برهن لي على المودَّة تجاهي. وبينما كنتُ أُحدِّق فيه متبصِّراً عذاباتي القادمة، فقد تصرَّف هو بشهامة، وَاصَلَ أحاديثه المعتادة، فيما صِرْتُ أدرك أنّ من العسير عليَّ العثور على المال المطلوب. لم أعدْ أُنصِتُ إليه. كانت السفن الراسية في الميناء تُلسع بسياط ألسنة الشمس الحارَّة. حدَّقتُ فيها بقَدْرٍ عالٍ من الحسد والغَيْرة. كنتُ أحسد البحَّارين المستلقين في حُجراتهم الضَّيِّقة على مَتْن السفن، كسيري القلوب وعاجزين عن تثمين فكرة أنَّهم على وشك الرحيل والعودة إلى إيطاليا، "بينما عليَّ أن أبقى وأتعفَّن هنا"، فكَّرتُ. لعنتُ أولئك البحَّارة. ترى إلى متى سأتمكَّن من الإفلات من الوقوع في براثن رجال الدرك؟ صِرتُ أرى في المُقدَّم عدوِّي الطَّبيعيَّ، وكانت ثقته بنفسه تُغضبني، وتُهينُني.

رأيتُهُ من جديد حين جال أمام منزل الفَتَاتَيْن، بزَهْو الشائخين الذين يُخفون شهواتهم المتراكمة من حيواتهم العائليّة الخالية من أيِّ مغزى. رأيتُ خزانته الخشبيّة، ورأيتُ يَدَيْه وهما تعبثان بما تحت ثياب الجسد العاري للفتاة التي ما يزال الوَسَن مهيمناً على عَيْنَيْهَا.

كان يُثرثر، وكان صادقاً حينما رَبَّتَ على كتفي وهو يُحيِّيني ويقول لي: "اطلبْ منِّي كلّ ما تحتاج إليه". وكان، حين يعرض عليَّ ذلك، يفتح عَيْنَيْه على اتِّساعهما، وكان وجهه المحمرُّ والمكتظُّ بالشَّاربَيْن الكَثَّيْن وببعض أخاديد العُمُر، يُضاء بابتسامة. فكَّرتُ أنَّنا حيوانان من جنسَيْن متمايزَيْن عن بعضهما. ودون وعيٍ منِّي (بأيِّ صوت نطقتُ بذاك) قلتُ له: "أحتاج أن ترافقَني إلى أعلى الهضبة. هنا أشعر بأنَّ الحَرَّ يُزعجني، وسيقتلني. وسفينتي ستُبحر بعد أسبوع".

هتف مُعتبراً ذلك الطَّلَب فكرةً رائعة، وأعرب عن سعادته لاستعدادي أن أكون رفيقه في الرحلة. ونبَّهني بأنَّه سيُغادر، في اليوم التالي، إلى بلدة "D".

وكانت "D" منطقة تقع ما وراء النهر. وبرَغْمِ التَّقزُّز الاعتيادي من فكرة الاضطرار إلى المرور بالأماكن ذاتها، أبلغتُهُ بشعوري بالسعادة أن أُشاهدَها للمرَّة الأخيرة. فابتسم المُقدَّم: فلستُ، برأيه، إلَّا رومانسيَّاً ميؤوساً منه. وبذا أَعلَمَني عن يوم الرحيل، ويوم العودة إلى مُصوَّع؛ هو أيضاً كان يرغب بالعودة قبل انطلاق السفينة. "سنتبادل فيما بيننا مهمَّة سياقة الشاحنة"، أضاف.

"نعم، بالتأكيد"، أجبتُ. وبينما كان يتحدَّث، نَظَرْتُ إليه شاعراً بدوران في رأسي، مندهشاً من وضوح الصور التي راحت تتشكَّل في مُخيِّلتي، والتي صارت تنعكس الآن بعيداً، ما وراء كتفَي المُقدَّم، وتَتَابع بسرعة دقيقة. كنتُ أرى في مُخيِّلتي شيئاً ما يتدحرج إلى عمق الشرخ في الوادي، وكانت تلك الصورة تتكرَّر مُجدَّداً منذُ البداية، كما لو كنتُ عاجزاً عن إيقاف مسارها وتتابعها. كنتُ مُصاباً بذلك الدُّوَار، عندما شكَّكَ المُقدَّم في الصمت الذي لَفَّني، وهو يسألني: "أَوَلَيست منطقة "D" بعيدة شيئاً ما؟".

"كَلَّا"، أجبتُهُ "لكنَّها تقع في منطقة عالية للغاية". لم يكن بمقدوره التَّبيُّن ممَّا عنيتُ بذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٥

وَصَلْنَا إلى "D"، كنَّا سنغادرها في اليوم التالي، لنُقفل عائدين إلى مُصوَّع. وعلى طول الطريق أنهى المُقدَّم الكثير من معاملاته وصفقاته، وسَحَبَ الأموال الناشئة عنها، وكان يحتفظ بها في حقيبةٍ جِلْدِيَّة. يحتفظ بتلك الحقيبة، برفقته دائماً ممسِكاً بها دون إفلاتها أبداً. كان علينا أن نُغادر في الفجر، ولم تكن لديَّ أيَّة لحظة فائضة قابلة للإضاعة.

استرخى المُقدَّم ما قبل العشاء لقيلولة قصيرة، فاقتربتُ من شاحنته. كنتُ أعرف جيِّداً ما عليَّ فعله، فَكَكْتُ بُرغياً من شريط النَّقْل في عجلة القيادة. كانا اثنَيْن لكلِّ إطار من إطارات الشاحنة، فَفَكَكْتُ البرغي من الإطار اليساري، تاركاً الصَّامُوْلَة مُعلَّقةٍ في موقعها بمقدار دورةٍ أخيرة، لذا سيكون من السهل عليَّ خَلْعها لإكمال العمل وأنا نازل من على مَتْن الشاحنة. فَكَكْتُ الصَّامُوْلَة فحسب، وسأخلعها من مكانها في اللحظة المناسبة. بعد ذلك عُدتُ إلى الخيمة، ومتظاهراً بأنَّني أعبث في حوائجي داخل الحقيبة، أخذتُ حزام المُقدَّم، ولم ينتبه هو إلى الأمر متصوِّراً بأنَّه حزامي الشَّخصيُّ. أخرجت مُسدَّسه من قِرَابِهِ، وأفرغتُهُ من الرصاصات، وأعدتُهُ إلى القِرَابِ. أمَّا الآن، فإنَّ عليَّ أن أُحافظَ على هدوئي، وأن أترقَّب الفجر التالي. ففي الفجر سنتوجَّه صوب النهر، بالضبط كما كنتُ قد بدأتُ رحلتي قبل أربعة شهور، لأخلعَ ضِرْسي.

كان المُقدَّم جَذِلاً وسعيداً خلال الرحلة، فقد تمتَّنت صداقتنا، وبَلَغَ به الأمر بأنَّه لم يُخفِ عنِّي طبيعة مشاعره تجاه زوجته: كان يبغضها، وأكَّد لي سعادته الكبيرة لكونه بعيداً عنها. كانت الرَّفاهيَة الاقتصادية الجديدة التي رَاكَمَهَا تجعل المرأة في الصورة المؤطَّرة تبدو في عَيْنَيْه كعقبة كأداء أمام مستقبله. تَبِعتُهُ في حديثه الساقط حول النساء، فيما كان تفكيري منصبَّاً عليها([23])، وغارقاً في التَّأمُّل في ما خطَّطتُ للإقدام عليه في تلك اللحظات، كي تُتاح لي فُرصة رؤيتها ثانيةً. كنتُ أُحبُّها كما يُحبُّ المراهقون، ويشعرون بوخزات مُفاجِئة في القلب، ويحدُث لي الآن، في كلِّ مرَّة أرتاب فيها من إخفاقي بتحقيق مأربي، وبالتالي إخفاقي في العودة إلى إيطاليا. وفي الساعات الطويلة على مَتْن الشاحنة، وحين يكفُّ المُقدَّم لبُرْهَة من الوقت عن ثرثراته، كنتُ أستعيد لحظات الفرح في حياتنا حتَّى لحظة الرحيل صوب أفريقيا، وعندما رأيْتُهَا وهي تفرُّ من رصيف الميناء باكيةً، وتواصل الاستدارة إلى الوراء لتوديعي بإشارات من يدها دون أن تتمكَّن من تحديد مكاني على مَتْن السفينة، كانت تفعل ذلك بابتسامات غارقةٍ في الدمع.

تماثلتْ أمام ناظرَيَّ الآن حركاتها تلك أكثر من أيِّ وقت مضى، كنتُ أراها تغيب بين الجموع، لتظهرَ من جديد قرب فرقة الموسيقى النُّحاسيَّة، مُعتقدةً بأنَّني لم أعدْ أتمكَّن من رؤيتها. ومع ذلك، فقد كانت تُلوِّح بيدها بتحيَّات وداع متسارعة. ثمَّ اختفت، بعد أن اصطدمت بحمَّالي الميناء وبرجال الجمارك، ولم تتوقَّف إلَّا عند الجدار المانع عن التَّقدُّم أكثر من ذلك، كانت تواصل التحديق بالسفينة المنسابة بجوار الرصيف، وعجزَتْ عن العثور على منفذٍ للخروج. بقيتْ في مكانها دونما حَرَاك حتَّى اللحظة التي انفصلتْ فيها السفينة عن الرصيف في جوٍّ من التَّحيَّات وصرخات الوداع الصاخبة. ولم يكن بمقدور صيحاتي الوداعيَّة بلوغ أسماعها، بسبب ارتفاع صَخَب عَزْف الفرقة النُّحاسيَّة.

كان عليَّ أن أراها من جديد، وبدا لي بأنَّ كلَّ ما أُخطِّط له وأفعل بديهيَّاً بالمطلق، وبأنَّهُ لو أُتيحَت الفرصة للمُقدَّم بالتَّعرُّف عليها ما كان ليشعر بالمهانة إزاء فِعْلَتي. كان المُقدَّم والطبيب

عبارة عن حَجَرَتَيْن، عليَّ إزاحتهما من الطريق، ورَمْيهما صوب قبر مريم، صوب ذلك القبر الذي بدا وكأنَّه صار مدفناً لآمالي.

إبتدأ إعجابي بالمُقدَّم يزيد من تعلُّقي به، فلو استثنيت غروره وزَهْوه المتخلِّفَيْن، فهو رجلٌ طيِّب القلب، وقد بادلَني مشاعر مودَّة، معتبِراً إيَّاي شخصاً، ينأى بنفسه عن حياة المرح واللهو الهانئ. كنتُ قد أقصيتُهُ من دائرة حياتي، وكنتُ، في مرَّات، أُحدِّق فيه كضَحيَّتي المُصرَّة على الثرثرة والضحك المتواصل، وعلى الإعراب عن المشاغل اليوميَّة البليدة. لمرَّةٍ واحدةٍ فحسب، ساءلتُ نفسي ما إذا كان ما أنا مُقدِمٌ عليه عادلاً. "إذا ما ابتدأتَ"، أجبتُ على تساؤلي بنفسي "فإنَّ عليكَ الإقدام على إنجاز ما ابتدأتَهُ، فإنَّ ما تفعله الآن ليس فصلاً جديداً، بل إكمالاً مُتقَناً لما ابتدأتَ به". لم يكن أمامي خيارٌ آخر، وكانت تلك الرصاصة التي وَضَعَتْ حَدّاً لعذابات مريم، قد قتلتُ المُقدَّم أيضاً. وشاء القَدَر في أن يكون جميع ضحاياي ذوي حضورٍ لطيف، وبأنَّهم يرون فيَّ شاباً لطيفاً وودوداً: أو بالأحرى فقد كانت صفاتي هي المفردة الأساسيَّة في آصرتي مع تلك الضحايا. تذكَّرتُ الطبيب (شَعَرْتُ بالارتياح لكوني أخطأتُ إصابته بتلك الطلقة)، ذلك الطبيب الخامل الكسول الذي أشعَرَتْني الأقوال المأثورة التي يوردها بمذاق القهوة، ورائحةُ نَعْلَيْه بصداقةٍ مفاجِئةٍ، بالضبط كما تستشعر حلول الربيع، وأنتَ تجولُ ما بين الأشجار في يوم باردٍ من أيَّام الشتاء. أَوَلَم يقبل، كارهُ البشرِ ذاك، بالحديث معي لساعةٍ كاملة، فقط عندما اكتشف بأنَّني مُصابٌ بمرضٍ ما؟

أمَّا الآن، فهذا المُقدَّم ما يزال يعتبرني شابّاً قابلاً للإنقاذ ومُستحقّاً للثقة، ويستشعر في كلِّ كلمة أنطق بها إعجابي بحظوظه ونجاحاته.

لم يكن بمقدوري الانسحاب من العملية إطلاقاً، فكلُّ ما يحدُث يقع خارجاً عنِّي، وبتوافقٍ لم أستحثّه أبداً. أو بالأحرى، فقد كانت تلك الجرائم قد اقتُرِفتْ في زمانٍ آخر، ولم أكنْ أفعل شيئاً إلَّا استنساخها. إنَّها عملية ترميم فحسب. وتذكَّرتُ بأنَّني أدركتُ ذلك، منذُ اللحظة الأولى للقائي مع المُقدَّم في ساحة مدينة "A". فثَمَّةَ هناك ما جَعَلَني أتكهَّن بأنَّ في قصَّة حياة هذا الضابط الكبير ثَمَّةَ شيئاً ما ذا صِلةٍ بحياتي أنا (ربَّما كانت طريقته في المشي، أسلوبه في تعديل حزام المُسدَّس، تقطبيه العبوس الذي يُخفي خلف قناعه شَبَقاً ما)، أو أنَّني سأكون، بشكلٍ ما، جزءاً من قصَّة حياته.

ونحن قادمان من جهة النهر لاحظتُ وجود قطعات أُخرى من جيشنا تُعسكر على الطرف الجنوبي، على مقربةٍ من نقطة الهبوط الأولى، ولذا أخبرتُ المُقدَّم بأنَّني سأتوقَّف قليلاً للسلام على ابن عمِّي، وهو أيضاً ضابطٌ، لم ألتقِ بهِ منذُ وقت طويل.

وأخبرتُهُ بأنَّني سأُغادر في اليوم التالي، برفقة أيَّة شاحنةٍ من هناك. كانت ما تزال هناك أربعة أيَّام على موعد انطلاق السفينة (وستَّة أيَّام من موعد انطلاق قارب الصيد المتهالك).

"كما تريد"، أجابني، "إذا كان الأمر يتعلَّق بساعة واحدة، فإنَّ بإمكاني انتظاركَ". أجبتُهُ أنَّني أرغب في البقاء مدَّة أطول. لم يُبدِ اعتراضات أُخرى، إلَّا أنَّني لاحظتُ بأنَّه صار أقلَّ دفئاً من المعتاد. فمنذُ وصولنا إلى مدينة "D" كان سلوكه قد تغيَّر بقَدْرٍ ما، ربَّما كان ذلك بسبب اختلالٍ في سَيْر معاملاته وصفقاته التِّجاريَّة. كان بالي منشغلاً بأمورٍ عديدة، إلَّا بالمال، فقد قرَّرتُ أن أسرقه منه، ولم تعدْ تلك الكلمة تُرعِبُني، لكنْ، من العسير عليَّ الاقتراب من ذلك المال، من دون إثارة شكوكه، فقد كان يُمسك بالحافظة معه دائماً، ولم يكن الوصول إليه يسيراً، كما لم يكن

بمقدوري أن أبلغَ الشاحنةَ إذا ما هَوَتْ في قاع الوادي، أو أن أتمكَّن من تخليص الحافظة من ألسنة النار التي قد تشتعل فيها وهي تسقط في الوادي. عليَّ أن أستوليَ على المال الآن، لكنْ، كيف؟ وبأيَّة طريقة؟ أقنعتُ نفسي بأنَّني سأجترح حَلَّاً ما في اللحظة المناسبة، رَغْمَ أنَّني كنتُ أؤنِّب نفسي على الحلول المُستسهلة، مُعانياً من وطأة التفكير بالمناورات الأنسب، وتخيُّل تنفيذها.

بقيتُ على هذه الحال، ولم أنَمْ ليلتي، كانت الحافظة موضوعةً على الطاولة، لكنْ، لم يكن بمقدوري المساس بها دون الاصطدام بسرير المُقدَّم.

وفي الفجر، لم يكن قراري قد استقرَّ بعدُ على ما سأفعله، وبينما كنَّا مُستَعِدَّيْن للانطلاق، قلّبتُ في ذهني فكرة الإقلاع عن ذلك المُخطَّط وإعادة شدِّ البرغي الذي فَكَكْتُهُ حتَّى الدورة الأخيرة، والعودة إلى مُصوَّع، والمكوث في ضيافة مريم بانتظار الرحلة الأقلِّ تكلفةً. وبعد أن وَضَعَ المُقدَّم حافظة المال إلى جواره، هَبَطَ من على مَتْن الشاحنة لِلَحظة ليُدقِّق في متانة إطاراتها، وفي تلك اللحظة بالذات (واعتقدتُ خلالها بأنَّ قلبي سيتوقَّف عن النبض) فتحتُ الحافظة، وأخذتُ رُزمة من الأوراق الماليَّة (كانت رُزمة من فئة خمسمائة ليرة) وأخفيتُها في حقيبتي، وأشعلتُ سيجارة: جرى كلُّ شيء في غضون الوقت الذي استغرقه المُقدَّم للاطمئنان على إطارات شاحنته، وليصعد على مَتْنها من جديد.

كان يُفترَض أن تكون الخطَّة فاعلة، فالبرغي مفكوك الصَّامُوْلَة لا بُدَّ سيقاوم للبقاء في مكانه بسبب الشحوم الموضوعة حواليه، حتَّى اللحظة التي سأُزيل الصَّامُوْلَة عنه، بينما ستُطيِّرُ الاستدارات الحادَّة والحُفرُ الموجودة في طريق النزول الإطار من مكانه، ولأنَّ الطريق كان خالياً من العوازل الحجرية الجانبيَّة على جانب الوادي السحيق، فلم يكن بمقدور المُقدَّم الخلاص من الكارثة. سيتهاوى إلى عمق الوادي على مَتْن شاحنته شذريَّة اللون، وسط تلك الأشجار التي تبدو مصنوعة من الورق المُقوَّى. ولم يكن ليخطر ببال أيِّ سائق مارٍّ من هناك أن يتوقَّف ليستطلع ما إذا كانت الشاحنة فارغةً من الرُّكَّاب، سيَّما وأنَّها فارغة من أيَّة حمولة. ستسقط الشاحنة في الوادي، بالضبط كما تسقط لعبةٌ صغيرة عند بلوغها طرف المنضدة التي يلعب الأطفال حولها. وحتَّى لو قرَّر أحدهم الذهاب لاستكشاف الوَضْع ( وكان هذا احتمال نابع من رغبتي في مَنْح اعتبار إضافي إلى فضول عابرٍ طارئ من ذلك المكان)، فإنَّه كان سيعثر على حافظة ملآى بالمال، وجُثَّة ضابطٍ ميِّت. مُقدَّم ميِّت دون أن يكون مُصاباً بأيِّ طلقٍ ناري. وسينتهي الأمر في أرشيف حوادث السير، وببرقية مُرسلة إلى زوجته.

تعمَّدتُ إبطاء استعدادتي للرحلة، وذلك لأُوفِّر الوقت لمرور الشاحنات والمركبات الأُخرى قبلنا. لم يعدْ هناك أيُّ خَطَرٍ من أن تتبعنا مركبةٌ أُخرى (فقد كان ذلك الطريق ينتهي في مدينة "D"، كما لم يكن هناك أيُّ احتمال في أن تتقاطع معنا مركبةٌ قادمة من الطرف الآخر: وبسبب ضيق الطريق التي لا تُتيح مرور أكثر من مركبةٍ واحدة، فقد كانت الحركة مُنظَّمةً بطريقة، تَحُولُ دون تقاطع المركبات. انطلقْنا، وكنتُ عازماً على الثرثرة حتَّى اللحظة التي هَبَطْتُ فيها من على مَتْن الشاحنة: وبما أنّ نَفْسِيَّة المُقدَّم بَدَتْ لي على غير عادتها وأقلَّ استعداداً لتلقِّي مزاحي، فقد كان هذا هو الجهد الأكثر إنهاكاً، ولم تكن دعاباتي تُثير لديه إلَّا ابتسامةً واهيةً. حين طَلَبْتُ منه التَّوقُّف لبُرْهَة، تجمَّدتِ الشاحنة في مكانها، وبدا راضياً وسعيداً بفاعلية الفرامل. تُرى هل كانت تدور في رأسه شكوكٌ؟ هَبَطْتُ من الشاحنة في الحال، وأسقطتُ بالقرب من إطاراتها علبة أعواد الثِّقاب، وبينما كنتُ أحملها عن الأرض مُطلِقاً حسرة طويلة، أزلتُ الصَّامُوْلَة المفكوكة من

مكانها، ووَضَعْتُها في جيبي. "إلى اللقاء سيِّدي المُقدَّم"، قلتُ له.

ردَّ بعُجَالَة على تحيَّتي. أجل، كانت لديه شكوك بشيءٍ ما. وحين حَمَلْتُ حقيبة ظَهْري، أغلق باب الشاحنة: أحسستُ بأنَّ خطَّتي قد نُفِّذَت بشكلٍ جيِّد. شجَّعني ضجيج إغلاق الباب بتلك الضوضاء الجافَّة، لكنْ، لبُرْهَة قصيرة. كان الضجيج يُشبه صوت إغلاق تابوتٍ، وكنتُ قاب قوسَيْن أو أدنى من القفز على مسند القَدَمَيْن والصعود على مَتْن الشاحنة، لأعترف له بكلِّ شيء. أوقفَني عن ذلك خيال زوجتي الباكية. لقد أقدمتُ على الفعلة، وقُضي الأمر. "وداعاً، سيِّدي المُقدَّم"، قلتُ، ثمَّ أضفتُ دون أيِّ ظلٍّ للسخرية: "وشكراً على كلِّ شيء"، كنتُ راغباً في الإعراب عن امتناني له بالفعل؛ وكان وجهه المحمَرُّ جادَّاً، وقد بدا لي أكثر شيخوخةً وانطفاءً. إلَّا أنّ هدوءه الكبير دَفَعَنِي أن أُزيح عن ذهني في الحال تلك الصورة الأولى التي أوحى بها إليَّ وجهه.

هَمَمْتُ بالمسير، وكانت ساقاي تتحرَّكان بوقاحة غير جديدة، نفس الحماسة الوقحة التي ارتسمت على وجهي حين وجَدْتُني حيَّاً أُرزق على حافَّة الوادي داخل الشاحنة المنقلبة والغارقة في بحرٍ من الرمل زَهْرِيِّ اللون. لم أكنْ قد خطوتُ إلَّا بضع خطوات حتَّى سمعتُ نداء المُقدَّم. كان شاحب الوجه. "عُدْ إلى هنا!"، قال لي. كنتُ على وشك الفرار. سيُلاحقني، فكَّرتُ، في حين كان يُفترَض أن تسير جميع الأمور في هدوءٍ تامٍّ. كان قد هَبَطَ من الشاحنة، هو أيضاً، حاملاً حافظة المال، وينتظرني وهو يغلي حانقاً، وسَحْنَتُهُ شاحبةً بفعل ذلك الحَنَق. "ثَمَّةَ مال ناقصٌ هنا"، قال لي "هل تعلم شيئاً عن ذلك؟".

رفعتُ كتفَيَّ مندهشاً، إلَّا أنَّني عجزتُ عن قول أيِّ شيء، فقد كان شحوبه يُفقِدُني الجرأة، ومن جديد استشعرتُ الرؤية السابقة، المزعجة والبعيدة. لم أكن قد توقَّعتُ هذا المشهد، هذا كلُّ ما في الأمر. لِمَ لا يستسلم المحكوم بالاقتناع إلى حُكم القضاء؟

"أَخْرِج المالَ"، قال لي بجفاء. عندها أدركتُ بأنَّ تنازلي سيعني نهاية كلِّ شيء، وهو ما دَفَعَنِي إلى الازدراء به، وأخبرتُهُ بأنَّني لست على علْمٍ بماله، وبما أنَّه كان يومئُ إليَّ بخَلْع الحقيبة عن ظَهْري، أضفتُ له بعُجَالَة "آه، أجل، لقد أخذتُ أنا ذلك المال، وسأحتفظ به معي".

كانت تلك هي الضربة المناسبة، لأنَّه ذُهل من كلماتي، وبقي جامداً وعاجزاً عن الرَّدِّ، وكان الحَنَق والمفاجأة يخنقانه. إذَّاك زِدْتُ العيار قليلاً. أحتاج إلى ذلك المال الآن، وسأُعيده إليكَ في إيطاليا. أمَّا الآن، فأنا بحاجةٍ إليه.

لو أنَّه أقدم على رَفْع دعوى ضدِّي، كنتُ سأفعل ذات الشيء معه. "ثمَّ، وَفِّرْ على نفسِكَ عناء سَحْب مُسدَّسِكَ"، وأضفتُ "فهو مُفرَغٌ من الطلقات".

الموت وحده مَنْ يستطيع رَسْم هذا الذبول على وجه إنسان كذاك الذي ساد على وجهه. "أنتَ وغد"، تمتمَ، ورأيتُهُ يُقلع عن فكرة فَتْح قِرَابِ مُسدَّسه. أجبتُ عليه بأنَّني لستُ مِعنيَّاً بتقييماته، وبأنْ يترك المال معي، لأنَّني. بعكس ذلك، سأشي به، وربَّما كان مسؤولوه سيعتبرون تلك الوشاية فرصة ناجزة لإعطاء الآخرين مثالاً على معاقبة الفاسدين: كنتُ ألمس في كلماتي كمَّاً هائلاً من قدرة الإقناع التي تدفعه إلى التَّأمُّل والتفكير العميق فيما أقول. جَلَسَ على مسند القَدَمَيْن في باب الشاحنة، وضحك. ابتسم للمرَّة الأولى، كَمَنْ يواصل انتصاره. "حسنٌ"، قال لي أخيراً "ليكن لكَ ذلك. لكنّكَ لن تُغادر على مَتْن أيَّة سفينة أو قارب".

ولأنَّ سخريته كانت تُثير انفعالاتي، أجبتُهُ "ثَمَّةَ الكثير من السفن الراحلة".

"لا سفينة ستُقلُّكَ" كرَّر، مواصلاً الابتسام، ومُشدِّداً على مخارج الكلمات. "ولا حتَّى القارب الأكثر اهتراءً". وأطال التحديق فيَّ بهدوء، مُنتظِراً أن أفتح حقيبتي، وأنْ أُسلِّم إليه المال.

لقد عَنَتْ كلماته تلك، بالنسبة إليَّ ، أنَّه كان يعلم بما أُخطِّط له، وبأنّه تلكَّأ من إعلامي فقط بسبب عدم اقتناعه بأنَّني سأُقدِم عليه. وصارت لديه الآن البراهين القاطعة. وإذاً فإنَّ مريم هي مَنْ أفشت إليه بالسِّرَّ. الآن أُدرك كُنْهَ الكلمات المُتمتم بها. ها هي جميع الأمور تلتقي في نقطة واحدة، وكلُّ النساء اللّاتي يحملنَ اسم مريم مُتَّفقات على هذه النتيجة. إلَّا أنَّني، أنا مَنْ كنتُ أحمل صَامُوْلَة برغي إطار الشاحنة في جيبي.

وَاصَلَ المُقدَّم الانتظار. "حسنٌ"، قلتُ له "هل أنتَ راغب في تقديم شكوى ضدِّي؟"، أومأ برأسه بالإيجاب، بحزم، وهو يرمقني بنَظَرَاته. ثمَّ أضاف "لقد اعتقدتُ بأنَّ ما تناهى إلى أسماعي ليس إلَّا خُبثاً من قبل الآخرين. لقد كنتُ ساذجاً، لكنْ، لا يهمُّ. أعرف اسمكَ جيِّداً، وأعرفكَ بأفضل ممَّا تتوقَّع".

وبما أنَّني بدوتُ متردِّداً، فقد استُضيء وجهه بمقدار من المكر، ذلك المكر الذي كنتُ أمقتُهُ، والذي كان يعجز عن إخفائه بسبب كونه ممثِّلاً سيِّئاً، وقال: "أنتَ تترك الكثير من الرسائل في الأرجاء؟".

"افعلْ ما تشاء، سأرفع أنا الآخر شكوى ضدَّكَ"، إلَّا أنَّني قلتُ ذلك بصوت واطئ، متظاهِراً بأنَّني قلقٌ، كي أجعلَهُ يتصوَّر بأنَّ لُعبتي كانت مُصاغةً بشكلٍ دقيق "لكنّكَ لن تُقْدِمَ على رَفْع شكوى ضدِّي"، أضفتُ "ستكون لديكَ صناديق بضاعةٍ أُخرى، وستُعالج الأضرار برحلة واحدة، فحسب"، وقد قلتُ له ذلك بطريقة مَنْ يتضرَّع.

"كلَّا"، قال بعناد، "سأرفع شكوى ضدَّكَ"، ومَسَسْتُ صَامُوْلَة البرغي تحت قماش جيب قميصي، "فكِّرْ في ذلك قبل الإقدام عليه"، قلتُ له. ووَجَبَ عليَّ الإمساك بنفسي، لأنَّني كنتُ على وشك الانفجار بالضحك. كان يهزُّ رأسه، ويرفع كتفَيْه. "ولِمَ عليَّ أن أُمعن في التفكير بذلك؟". وعندما قلتُ له بأنَّ الشكوى لن تكون لصالحه، نَهَضَ واقفاً، وقال "سنرى". ثمَّ رأيتُهُ يتَّجه نحوي بشكل سريع، فتوقَّعتُ أنَّه ينوي الاشتباك معي، وقد بدا بالفعل عازماً على إنهاء هذا الأمر بطريقته، إلَّا أنَّه أحجم، على حين غِرَّة: "وغد"، صاح بي. لم أُجِبْ على شتيمته، بل على العكس اعتبرتُ أنّ من الضَّروريِّ أن يُنفِّس عن الحَنَق المختزَن في داخله.

صَعِدَ على مَتْن الشاحنة بشكلٍ سريع، أغلق بابها، وقال لي: "يملؤني الفضول بمعرفة المكان الذي ستلتجئ إليه". ومن ثمَّ، ودون انتظار أيِّ جوابٍ منِّي، انفجر ضاحكاً، وأضاف "استمتعْ بعطلتكَ الصَّيفيَّة".

عندها ضحكتُ أنا أيضاً بدوري، وعندما انطلقت الشاحنة، أدَّيتُ، بشكلٍ تِلقائيٍّ، التَّحيَّة العسكريَّة. وواصلتُ الضحك، وقد غَلَبَتْني حالة من الحبور المُرفِّهة عن النَّفْس. وقد بقيتْ في ذهني عن المُقدَّم، تلك الصورة الباسمة، وتلك التَّمنِّيات التي تُتوِّج الانتظارات الطويلة للقطارات، أو الوداعات الكثيرة المرافقة للعناق والتوصيات. كان المُقدَّم، إذْ يرحل بتلك الطريقة، يُحقِّق انتقامه الخاصَّ ضدِّي.

رأيتُ شاحنته تزيد من سرعتها، ولم أقوَ على رَفْع ناظرَيَّ عنها، تصوَّرتُ أنَّها ستهوي في قاع الوادي عند أوَّل منعطف، تلك التي انقلبتْ عندها شاحنتنا قبل أربعة شهور. كانت تلك

مُصادفةً أترقَّبها. ولأنَّ الشاحنة كانت فارغةً وهيِّنة الأثقال، فقد كانت تبتعد متراقصةً على حُفر الطريق وحصاها. كانت شاحنةُ المُقدَّم في نفس الوَضْع الذي كنَّا عليه على مَتْن شاحنتنا، لذا ترقَّبتُ أن تواجه ذات المصير في أوَّل منعطف، وأن تهوي إلى القاع .. كانت الشاحنة تحثُّ الخطى مُسرعةً، وكان المُقدَّم واثقاً من فاعليَّة الفرامل، وقد كانت تعمل بشكلٍ جيِّد بالفعل. لكنّ الإطارات لم تكن لتحتمل ذلك الإيقاع، وستبقى الشكوى التي يفكِّر بتقديمها إلى القيادة ضدِّي ضمن الأفكار التي جالت في رأسه، أو بالأحرى في آخر تسلسل الأفكار، وهي ما كانت الديدان ستلتهمها على مدى الأيَّام المقبلة "وداعاً، أيُّها المُقدَّم". كنتُ حزيناً.

رأيتُ الشاحنة تقترب من المنعطف، أبطأ المُقدَّم السرعة، حَذِراً، ومن ثمَّ رأيْتُهَا تغيب ما وراء المنعطف ببطء. "وإذاً ستهوي في القاع في المنعطف المقبل"، فكَّرتُ. وبما أنَّني كنتُ عاجزاً عن العودة أدراجي، وعازماً على مشاهدة السقطة في الوادي، فقد هُرِعْتُ صوب المنعطف. كانت الشاحنة ما تزال تعدو على الطريق، وكانت المسافة البعيدة تُحيلها إلى شيءٍ ما يُشبه لُعبةً صغيرة للغاية. كانت تتقافز على الحفر في الأرض، لكنَّها تواصل العَدْوَ، تاركةً وراءها غَمَامَة عالية من الغبار زَهْرِيِّ اللون. رأيْتُهَا وهي تختفي وراء منعطفٍ آخر، مُغلَّفة بغبارها اللَّاحق.

ابتدأتْ تنتابني الشكوك، ولأتأكَّد من أنَّني فَكَكْتُ صَامُوْلَة البرغي، أخرجتُ القطعة من جيبي، فيما كنتُ أواصل التساؤل حول الأسباب التي تُمكِّن الشاحنة من مقاومة وعورة ذلك الطريق. ثمَّ أقنعتُ نفسي بأنَّ الأمر سيحدُثُ لا محالة؛ فقد كانت تلك الطريق، حتَّى النهر، حافلةً بالاستدارات والمنعرجات، وبعضها أخطرُ بكثير من الاستدارات الأولى. لا بُدَّ للبرغي أن يطيرَ من مكانه. لم يكنْ للشاحنةِ أن تصل حتَّى النهر. فإذا ما تمكَّن من الوصول إلى هناك، فبمقدور المُقدَّم إبلاغ نقاط الحراسة وقيادة الموقع عنِّي بالهاتف. كنتُ واثقاً من أنَّه سيفعل ذلك لا محالة، ولذا لم يبقَ لي، كملاذٍ أخير، إلَّا الغابة وأحراشها. لكنْ، كم يوماً عليَّ أن أتمترس هناك؟ كم من الوقت بإمكان ضابط أن يجول بين أشجار ومجاهل هذه الغابة معتمداً على خارطة، تعود إلى القرن الماضي؟ أعليه أن يجول في مجاهل الهضبة أم أنْ يهبط إلى القاع مُستجيراً بضيافة قُطَّاع الطُّرُق، أو النَّعَام أو الرعاة العابرين أو حتَّى الضِّباع؟ إذا لم تسقط شاحنة المُقدَّم في الوادي، فإنَّ بإمكاني التَّوجُّه إلى أقرب قيادة موقع، وتسليم نفسي. على الأقلِّ، سأنجو بحياتي، عليَّ أن أنجوَ بحياتي. ومع ذلك، فقد كنتُ واثقاً من احتمال سقوط شاحنة المُقدَّم.

بقيتُ واقفاً على حافَّة الطريق كسيراً بسبب هذه الأفكار، مُترقِّباً رؤية الشاحنة وهي تهوي إلى القاع. ومن موقعي في الأعلى كانت تلك الشاحنة والغبار الذي ترفعه تُشبه كشريطٍ زَهْرِيِّ اللون خُطَّ على ظَهْر وحشٍ نائم. مكثتُ منتظراً هناك لساعة كاملة، ولأنَّني لم أعد أراها تخرج من المنعطف، فقد تخيَّلتُ أنَّها سَقَطَت، وابتدأتْ قناديل الأمل تبعث بنورها. لا بُدَّ أنَّها سَقَطَت. سأُمضي هنا عشر دقائق أُخرى، ومن ثمَّ أرحل، أو بالأحرى سأسلك الطريق المؤدِّية إلى النهر، مُحدِّقاً في الممرَّات الضَّيِّقة، وسأصل إلى إطلالة الطرف الآخر، عبر الطريق المختصرة. "عشرُ دقائق فحسب، وسأكون في أمان"، كنتُ أفكِّر "إذا لم تظهر الشاحنة، فذلك يعني أنَّها سَقَطَت في الوادي، وهو ما يعني أنَّني في أمان، وأنّ بإمكاني الصعود على مَتْن تلك السفينة". لم تعدْ الشاحنة إلى الظهور. وقد مرَّ الوقت الذي كنتُ أراقبه عبر ساعتي.

رأيتُ عجوزاً من السُّكَّان المحلِّيِّيْن يقترب منِّي عند حافَّة الوادي. كانت مُتَّجهاً صوب النهر، وقد توقَّف على بُعد خطواتٍ منِّي، مُنتظِراً أن أنتبه إلى وجوده. كان يحمل على رأس العصا التي يستند إليها وثيقة الولاء، ابتسمتُ له، فواصل مسيره كئيباً، وحيَّاني بثقةٍ واضحة. لم أشمَّ منه

أيَّة رائحة. "حسنٌ"، فكَّرتُ. انشغلتُ عن مراقبة الوادي للحظات، وأنا أتابع العجوز بنَظَرَاتي، وإذ بي أرى الشاحنة تظهر من جديد في العمق صغيرة كفأرة شذريَّة اللون، تتراكض على طول ذلك الشريط الزَّهْرِيِّ. كانت تسير بتُؤدَةٍ، كما لو أنَّها فأرة تسير على حبلٍ معلَّق في الهواء، فأرة متوازنة ومتماوجة في الغبار. كانت تسير ببطءٍ، بدا بالنسبة إليَّ السخرية الأشدّ وطأةً على الإطلاق. وقد عنى ذلك التأخير في الظهور بأنَّ المُقدَّم اكتشف الضرر اللَّاحق بعربته، بسبب اختفاء صَامُوْلَة البرغي، وحاول إصلاحه.

كانت الشاحنة تتقدَّم، ببطء، (بالتأكيد ليَحُولَ دون وقوع مفاجآت أُخرى)، ثمَّ اختفت ما بين أغصان أشجار الغابة.

بِمَ يمكن أن ينفعَني المال الآن؟ حسبتُ ما كان في الرزمة. كانت خمسون ألف ليرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل السادس

# الكوخ الأفضل

## ١

كانت الشمس عاليةً في كبد السماء حين أفقتُ من نومي. كان ماء النهر المصفرّ يجري بفيضٍ على بُعد عشرين متراً منّي. وقد أعاد هذا المنظر إلى ذاكرتي النهر الآخر الذي كانت مياهه دائمة الصُّفرة، وكان اللقاء به أشبه بلقاء صديق قديم على رصيفٍ في مدينةٍ مجهولة. لكنَّه صديقٌ ينظر إليكم بعَيْنَيْن شاردَتَيْن، لا يتعرَّف إليكم (أو يتظاهر بأنَّه لم يتعرَّف إليكم)، ويواصل طريقه محمولاً بسَيْلٍ جارفٍ من المارِّين.

كنتُ أشعر بالإنهاك، وببعض الآلام، بسبب المشي المتواصل على مدى اليوم السابق، وحين تمكَّنتُ من التركيز لتحديد ما كنتُ أفعله في ذلك المكان، انتابتْني لامبالاة قاتمة. وكانت تلك الحالة هي العائق الأوَّل الذي ينبغي عليَّ تجاوُزه، لأتمكَّن من الوصول إلى مُصوَّع. أمضيتُ الليلة الفائتة مُحدِّقاً بالنهر فحسب، وبالاستماع إلى هديرة المتواصل كالتَّذمُّر الذي كان الصوت الوحيد وسط الصيحات الهيستيرية التي تُطلقها حيوانات الغابة. عليَّ الآن أن أعبر النهر سباحةً، ولم يكن الأمر يُخيفُني، إذا ما قيس باحتمال مواجهة تمساحٍ، قد يُخفِق محاولتي. لكنّ ما أثار مخاوفي أكثر من غيره هو تأكُّدي من خَوَاء محاولاتي في منافحة القَدَر، ذلك القَدَر الذي أصاب منِّي مقتلاً، ويواصل الآن الهُزءَ بي من خلال وَضْعي بشكل متواصل أمام مصاعب وعوائق عسيرة. ولأنَّ حوافَّ النهر كانت تنكسر بشكل حادٍّ، فقد استبعدتُ وجود التماسيح في مياهه، ولأنَّ التماسيح تُفضِّل الضفاف المستوية، لتزحفَ عليها، فقد لا أتواجه مع تلك الزواحف الرهيبة هنا.

انتبهتُ إلى أنَّني أُحادِث نفسي بصوتٍ عالٍ ومسموع، وشَعَرْتُ بالهَلَع إزاء ذلك: تلك هي الإشارة الواضحة على أنَّني أصبحتُ موشكاً على الاستسلام، والإقلاع عن المواجهة، إذا ما عجزتُ عن القيام بخطوةٍ ما. عليَّ أن أفعل شيئاً ما، وألَّا أُتيح لهم الإمساك بي إلَّا وأنا مُنهَك بالكامل أو مشرفٌ على الموت، لكنْ، عليَّ، أوَّلاً، المُقاتلة والكفاح. بدأتُ بتوجيه السُّباب والشتائم إلى نفسي، وحين استمعتُ هذه المرَّة إلى صوتي، شَعَرْتُ بارتياح كبير: استعنتُ بالطاقة الطارئة التي مَنَحْتُها لنفسي لاختيار النقطة التي عليَّ عبور النهر منها. وحين تمكَّنتُ من تحديدها، فكَّرتُ أن من الأفضل أن أتناول فطوري قبل البدء بالمواجهة مع النهر. كنتُ أحمل في حقيبتي عُلبة أجبانٍ وقِطَعاً من البسكويت (كنتُ قد اشتريتُ كلَّ شيء لرحلة العودة المخفقة)، لذا لم أكن لأُعاني من الجوع لبضعة أيَّام. أمَّا فيما يتعلَّق بالعطش، فإنَّ مياه النهر داخل وعاء السوائل لم يكن أصفر موحِلاً، أعددتُ القهوة، شربتُ منها، وملأتُ قارورتي، ثمَّ خَلَعْتُ ثيابي. بَحَثْتُ عن جِذْعٍ تالف، سَقَطَ من تلك الأشجار اللعينة، وبعد قليل كان لديَّ ما يُشبه العوَّامة، وَضَعْتُ فوقها حقيبة الظَّهْر. ربطتُ الجِذْعَ العائم بحبلٍ إلى مِعْصَمِي الأيسر، دفعتُهُ إلى الماء، وتبعتُهُ مُحاوِلاً بألَّا تمسّ قَدَمَاي قاع النهر، وذلك لأَحُولَ دون أن يُعطِّلَ الوحل اللزج حركتي: كان عليَّ. إذَّاك، أن أترك تيَّار النهر يفعل فعله، وأنْ أتدخَّل فقط في الأماكن التي يتسارع فيها التَّيَّار نفسه،

في منتصف النهر.

كانت عملية البقاء طافياً فوق سطح الماء تُصبح عسيرةً بشكلٍ متواتر، لم يخطرْ ببالي، عندما قرَّرتُ العبور، بأنَّ الماء العذب يُعيق من إمكانيات البقاء طافياً، واعتقدتُ بأنَّني تهوَّرتُ قليلاً في الإقدام على رَبْط جِذْع الشجرة إلى مِعْصَمِي، إلَّا أنّ عليَّ الآن مواجهة الوَضْع والخروج منه. وسأخرج منه بشرطٍ واحد: أَنْ أترك للنهر يفعل فعله. إنّ بقائي داخل مياه النهر يزيد من احتمالات التَّعرُّض إلى هجمةٍ من قِبَلِ التماسيح، لكنّ اللُّهاثَ وراء الخروج المُتسرِّع، سيُقلِّل من احتمالات تمكُّني من الخروج أصلاً. كان الجسر يُبعد عنِّي بحوالي كيلومترَيْن، وكنتُ أرى حركة انسياب مياه النهر قياساً إلى ضفَّته سريعة بشكلٍ يُثير الهَلَع، فيما الجانب الآخر من النهر ما يزال بعيداً. وفجأة حُمِلْتُ إلى مسافة بضعة أمتار، ومن ثمَّ سَحَبَنِي التَّيَّار إلى الوراء من جديد، وقادني إلى منتصف النهر.

فكَّرتُ بتحرير مِعْصَمِي من الجِذْع العائم، وبينما كنتُ أُحرِّك قَدَمَيَّ، شَعَرْتُ بأنَّني صَدَمْتُ شيئاً رَخْواً، شديد المقاومة، وربَّما كان حَيَّاً. عندها بدأتُ بالصراخ، وابتدأتُ مياه النهر بإغراق فمي وملئه، عندها قرَّرتُ، بعد أن اجتاحَنِي الهَلَع، إنقاذ حياتي، وابتدأتُ بضرب الماء بقَدَمَيَّ ويَدَيَّ بعنف، لكنِّي لم أذهب أبعد من شرب كمِّيَّات إضافيّة من الماء، وأن يجتاحني هَلَعٌ أكبر.

شَعَرْتُ بحيفٍ بالغٍ في أن أترك لمياه النهر العارمة أنْ تبتلعَ حياتي، وأحسستُ بالخجل المُريع من الهَلَع الذي استشعرتُهُ في هذه اللحظة. وحين أُنهِكْتُ تماماً، تركتُ لمياه النهر أن تحمل جسدي. غطَّتْني المياه للحظات، إذَّاك فقط استقرَّ رأيي على إنقاذ نفسي، لكنْ، دون صراخ، وبعد أنْ تمكَّنتُ من الإمساك بالجِذْع العائم، دَفَعْتُ قَدَمَيَّ صوب الأسفل، ومَسَسْتُ القاع.

كان مستوى الماء يصل حتَّى رقبتي. وبعد وقت قصير من السباحة والمشي في النهر، بَلَغْتُ الضِّفَّة الأُخرى من النهر، وبقيتُ جالساً على الأرض هناك عارياً مُفرِغاً أمعائي ممَّا تناولتُهُ لإفطار الصباح. بقيتُ مستلقياً على الرمل حتَّى اللحظة التي بدأ فيها النمل بإزعاجي. مرَّات كنتُ أرى الجسر (وفوقة أرتالٌ من قطعات جيشنا العابرة) وحين حاولتُ التَّعرُّف على النقطة التي انطلقتُ منها على الجانب الآخر، انتبهتُ أنَّني قَطَعْتُ ما يربو على نصف كيلومتر. وبينما كنتُ أُحدِّق في النهر، رأيتُ سطح مياهه يتجعَّد بشكل مخيف، وعلى بُعد بضعة أمتار منِّي اصطبغ الماء بقتامة مثيرة للرعب.

عندها سارعتُ إلى ارتداء ثيابي.

كانت الثياب قد جَفَّتْ، كما جَفَّتِ الأوراق النَّقْدِيَّة أيضاً، لم أفقدْ منها شيئاً، كما لم أفقد رغبتي في الحياة وفي إنقاذ نفسي. وبرَغْمِ أن ذلك العوم أعادني إلى الواقع (إذْ وَجَبَ عليَّ أن أُعيد رَبْط ضِمَاد كفِّي)، فقد اعتبرتُ عدم إضاعة ثيابي علامةً لفألٍ حَسَنٍ، إذْ لم يكن بمقدوري مواصلة المسير، وأتجاوز قيادة الموقع الأوَّل في طريقي وأنا عارٍ. وأعادت هذه الفكرة إليَّ أيضاً قليلاً من روحيَّة المرح، إذْ فكَّرتُ بالسخرية ستبثُّها حالتي، إذا ما وَصَلْتُ إلى المعسكر عارياً لتسليم نفسي.

وهكذا، بهذه الرُّوحيَّة الساخرة، واجهتُ مراحل الصعود الأولى دون الإحساس بالإنهاك. كان عليَّ بلوغ الطريق المختصرة، وأن أسير فيها حتَّى بلوغ حافَّة الهضبة، ومن ثمَّ قَطْع المزارع متحاشياً الشوارع الرئيسة. وكنتُ، لمُجرَّد بلوغ قمَّة الهضبة، سأقتفي آثار طريق البغال الأثيوبيَّة

القديم، وصولاً إلى "A": وهي مسافة تبلغ تربو على ثمانين كيلومتراً، يمكن قَطْعها في يومَيْن، متحاشياً نقاط التفتيش والمعسكرات والقرى. لم أُسائل نفسي كيف سيُمكنني أفعل كلَّ ذلك، إلَّا أنَّني كنتُ عازماً على القيام به. مَنَحَنِي العوم في النهر ما كنتُ أحتاج إليه من التفاؤل الضَّروريِّ، وكنتُ أتوق إلى الخروج من ذلك الوادي الذي صرتُ أعرفه جيِّداً.

صار النهر ورائي، ومَنَحَنِي إحساسي بأنَّني تجاوزتُ العقبة الكأداء الأولى، الثقة بأنَّني سأتجاوز العوائق الأُخرى، وسأصل، بالتأكيد، إلى مُصوَّع. لم أكنْ على عجلٍ من أمري، لكنِّي أعرف أنَّني لو توقَّفتُ، فسأُواجه صعوبة في معاودة المسير، لذا كنتُ أُكرِّر لنفسي بأنَّ جميع العقبات الأُخرى ليست إلَّا أموراً مُتخيَّلة، مُتخيَّلة كالتمساح الذي شَعَرْتُ به تحت قَدَمَيَّ في منتصف النهر، والذي ربَّما لم يكن، في الحقيقة، إلَّا تشابكاً لكومة من الأعشاب النَّهْرِيَّة، أو جُثَّة حيوانٍ نافقٍ، أمسكت به الطحالب النَّهْرِيَّة والأغصان، وأبقتْها مشدودةً إلى القاع.

ووصلتُ إلى الدرب الذي يقود إلى الطريق المختصرة، وبالذات المكان الذي وَجَدْتُ فيه الشَّابَّيْن المعدومَيْن، اللَّذَيْن تعرَّفتُ على قبرهما الذي حَفَرَهُ يوهانس، ودَفَنَهُما تحت ترابه. استدرتُ متوجِّهاً صوب الطريق المختصرة، التي بَلَغْتُها بعد قليل. هنا، كانت الطريق سالكة، بفضل سهام إشارات المرور التي وَضَعَهَا الجنود في المسار ساخرين ومازحين، إلَّا أنَّها كانت تؤشِّر، على أيَّة حال، على الدرب الذي ينبغي سلوكه. في هذه المرَّة، ودون مخاطر أو غموضٍ، استعدتُ في ذهني فصول الكوميديا التي عشتُها، والتي طالت كثيراً. كان فكري يعود دائماً إلى فتاة النهر مريم، وإلى الموت الذي مَنَحْنَاه لبعضنا بعضاً، كلٌّ منَّا، نحن الاثنَيْن، متَّبعَيْن خطَّته السِّرِّيَّة الغامضة: أنا من خلال بقائي وحيداً بالمطلق؛ وهي من خلال سَحْبي إلى وَحْدتها. "مؤسفٌ"، قلتُ في سرِّي "أنَّني لم أستطعْ رأي الطبيب في هذا الافتراض الأدبي"، وضحكتُ، فقد كنتُ قد بَلَغْتُ مرحلة الاقتدار من الضحك إزاء كلِّ شيء.

"المهندس والمواطنة الأثيوبية، عزيزي الدكتور، يقتلان بعضهما بعضاً، وكلٌّ منهما بالسلاح الذي في حوزته. المهندس يقتل من موقعه كإنسانٍ عملي، لا زمن لديه للتَّأكُّد من ظاهرةٍ، جرَّبتْها الخبرة البشرية بشكلٍ كافٍ، ودون أن يُسائِلَ نفسه عن التداعيات الناجمة عن فِعْلَتِهِ. أمَّا المواطنةُ، فهي تَقتل بذات الطريقة التي تُقْتَلُ فيها أرضُها، بكلِّ الزمن الذي بحوزتها، والذي لا تمتلك عنه إلَّا فَهْماً خاطئاً".

وفيما كنتُ أتخيَّل الرَّدَّ المُتعب والكسول من قِبل الطبيب، سمعتُ صوت إطلاقة بندقية، كَسَرَتِ الصمت السائد في المكان. هُرعتُ إلى الغابة، واحتميتُ ببعض الصخور، وترقَّبتُ. لكنِّي لم أعد أسمع أصواتاً أُخرى، وفيما كنتُ عازماً على الخروج، سمعت أصواتاً قادمةً من الغابة، ورأيتُ جنديَّيْن متوجِّهَيْن صوب قمَّة الهضبة. كانا يتقدَّمان بتُؤدَةٍ، وقد بَدَتْ عليهم علائم التعب، يتحدَّثان بلهجاتهم المحلِّيَّة التي أجهلها. كان أحد الجنديَّيْن مُمسِكاً بالبندقيَّة بين ذراعَيْه، وكان يتحرَّى عن الفريسة التي استحقَّت إنفاق الرصاصة عليها، كطائرٍ مثلاً أو سنجاب: أمَّا الآخر، الأكثر إنهاكاً. فقد كان يتقدَّم زميله، ويُجفِّف عَرَقَهُ المتصبِّب، داعياً إيَّاه بأن يُسرِع في مسيره. وعندما اقتربا منِّي، رأيتُ أنَّهما من الدرك وقد أطلقا النار كي يكسرا الصمت المُطبق الذي كان سائداً خلال جولة الحراسة التي يقومان بها.

"هَيَّا، أَسْرِعْ"، قال الجندي المتقدِّم.

تباطأ الثاني أكثر من المعتاد، ثمَّ صوَّب فُوَّهَةَ البندقيَّة نحو أغصان كَثَّة، لكنْ، دون أن يُصيب

أيَّ شيء، لأنَّني سمعتُهُ يُدمدم بكلمات غاضبة، بعدها ابتعد على عجلٍ.

كنتُ سأنتظر لعشرين دقيقة على الأقلِّ قبل معاودة المسير. نَظَرْتُ في ساعتي. كان عليَّ أن أمنحَهُما هذه المسافة: فقد كانت الطريق المُختصرة تنفتح للناظر في مناطق واسعة منها، وكان بمقدورهما أن يرياني. وبعد انقضاء الدقائق العشرين عاودتُ المسير ملتزماً بطرف الدرب، أصعد فقط في المناطق التي يُصبح فيه الدرب شديد الوعورة. تقاطعتُ مع الشارع العام، في نفس النقطة التي انتظرتُ فيها الشاحنة قبل أربعة شهور، وقد أشعرني الهدير الأصمُّ من العمق بأنَّ رَتْلاً من المركبات يصعد من الأسفل. مرَّت الشاحنات، وأثارت غَمَامَات من الغبار. ولحُسْن الحظِّ لم أُشغِلْ ذهني بها كثيراً، وتمكَّنتُ من مشاهدة رَجُلَي الدرك يُهرعان من الدرب، ويقفزان، ليتعلَّقا بالشاحنة المارَّة، وليتمكَّنا من بلوغ هدفهما في أسرع وقت. مرَّا من أمامي، على بُعد بضع خطوات دون أن يريَاني، وقفزا على مَتْن إحدى الشاحنات متضاحكَيْن.

بعد مرور الرَّتْل، تركتُ الطريق المختصرة، وتوجَّهتُ صوب أعلى الهضبة، وكنتُ سأصل إلى هناك متحاشياً أيَّة مفاجأة. وَصَلْتُ إلى المكان بعد ما يربو على ساعَتَيْن، لكنِّي لم أتمكَّن من مواصلة المسير، فقد كان الدرب يقود إلى المعسكر القديم بالذات، ولم تكن هناك وسيلة للدوران حوله دون أن يلحظَني عابرٌ ما أو أحد حُرَّاس المعسكر.

وَعَدْتُ نفسي، حين ابتدأتُ هذه الرحلة، بأنْ لا أمنح الآخرين فرصة الانتباه إليَّ. فقد كانت ريبةُ وشكوكِ حارسٍ ما يجد نفسه على حين غِرَّة في مواجهة ضابطٍ، ستعني خسراني لفُسحة المسافة التي تمكَّنتُ من تحقيقها. كان عليَّ، بالتأكيد، أن أُزيلَ من ذهني فكرة أن جميع رجال الدرك في المنطقة يقتفّون آثاري، لقد وفَّر لي تمكُّني من عبور النهر مسافة زمنيَّة لا بأس بها، وليس مسموحاً لي إضاعتها بسبب استسهالٍ من هذا القبيل في الحذر. ربَّما هم يتحرُّون عنِّي، لكنَّهم سيبحثون في الجبال أو في مناطق أسفل الهضبة، عند وادي الجسر. ورَغماً عنِّي، ودن أيَّة رغبة، عُدتُ أدراجي، وسَلَكْتُ الطريق المُختصرة، ما وراء النهر. تناولتُ إفطاري، وأعدتُ التفكير في سهولة احتمال وقوعي في براثن الجنود الذين يتعقَّبون آثاري. ومع ذلك، فقد قرَّرتُ البقاء على مَنأى من مواقع المعسكرات والقرى. فكَّرتُ أن الوصول إلى مدينة "A" لن يكون ممكناً بأقلّ من مسير أربعة أيَّام. وماذا عن بلوغ مُصوَّع؟. أنا مستعدٌّ لتمضية شهر، أو حتَّى شهرَيْن، إذا ما اقتضى الأمر. لأنَّ الوصول إلى مُصوَّع مبكِّراً سيعني أنَّني سأُسلِّم نفسي لُقمة سائغةً بين براثن المُقدَّم. إذا مرَّ شهر أو شهران، فقد ينسى المُقدَّم حتَّى وجودي، أمَّا الآن، فإنَّ روحيّة الانتقام ما تزال متَّقدة في داخله، وهو الآن يسعى إلى تحويل مُصوَّع بأسرها إلى مصيدة واسعة للإمساك بي. تذكَّرتُ كلماته: "أشعر بفضولٍ كبير لمعرفة المكان الذي ستلتجئ إليه"، وطمأنتُ نفسي على خياري الأخير. هل أفترض حقَّاً بأنَّني لن أُجبَر على عبور النهر ثانيةً؟ هل أفترض بأنَّني سأمكث مختبئاً بين الجبال؟ هكذا، واجهتُ اللعبة، بينما كنتُ أتناول إفطاري على هذا الجانب من النهر متوجِّهاً نحو مصيدة المُقدَّم، والتي ستفقد فاعليَّتها بعد مضيِّ شهرَيْن.

وماذا عنها، عن زوجتي؟ كان التفكير بها يعاجلني بالسعي في الوصول إلى مُصوَّع، لذا قرَّرتُ بأنَّني سأُشكِّك بفاعليَّة وصَلَاحِيَة جميع القرارات التي سأتَّخذها تحت ضغط من الانفعالات النابعة من ذِكْراها. لم يكن هدفي النِّهائيُّ هو الوصول إلى مُصوَّع، بل بلوغ الأراضي الإيطالية، أو بالأحرى الوصول إلى منزلي. وكان عليَّ، حتَّى اللحظة التي سأصل فيها إلى ذلك المنزل وأطرق بابه، أن أتعاملَ مع الأحداث برَوِيَّةٍ ودونما وقوعٍ في شَرَكِ التأويلات العاطفيَّة والانفعاليَّة غير المُجدية. كنتُ في صدد إنجاز مهمَّةٍ. لم يكن مسموحاً لي، على الإطلاق، الوقوعُ في شَرَكِ جاذبيَّة مُصوَّع،

وبجاذبيَّة البحر الذي صرتُ أراه الآن كيقين للخلاص. ولأنَّني تذكَّرتُ الأيَّام التي قضَّيتُها في مُصوَّع، فقد رأيتُ تلك المدينة كما لو كانت عبارةٌ عن حُلْم جميل، وكنتُ أشعر بالحنين إليها. تكاسلُ الحياة في مقاهي المدينة وفي أكواخ الحمّامات، وجه مريم الجميل والغدَّار، المرسوم لِلَّهو فحسب، ومَرأى تلك السفن الراسية (والتي سأعثر من بينها واحدة تُقلُّني إلى إيطاليا، لو تدرَّعتُ بالصبر والأناة). كانت جميعُ تلك المشاهد جزءاً من عالمٍ ضائع، سأعثر عليه فقط بالصبر، وبمرور الوقت. "إذا لم تتَّعظْ من هذه الأرض بدرس الزمان!"، شاورتُ نفسي "فسيتوفَّر لكَ كلُّ ما تحتاجه من وقتٍ، لتموت بالجُذَام الذي صار الآن يُحرِقُ الأرض تحت قَدَمَيْكَ؛ أترغبُ في أن ينتهي بكَ الأمر إلى فراشٍ بائس في مشفى هنا، في هذا البلد، مع سيف قضيَّتَيْن قانونيَّتَيْن، مُسلَّطاً على رأسكَ، ويتسبَّب في إرجاءِ عودتكَ إلى الوطن لما لا يقلُّ عن ثلاثة أعوام؟".

كنتُ هادئاً حين عبرتُ من أمام قبر فتاة النهر، مريم، لم أتوقَّف ولو للحظة واحدة، كنتُ متَّجهاً صوب رافد النهر، لأصعد الهضبة، وأبلغ المناطق المتاخمة لبلدة "A". اتَّخذتُ هذا القرار بعد الاطِّلاع على الخريطة. كان الرافد ينبُعُ من جنوب "A"؛ وإذاً كان الدرب يُحاذي أحد جانبيه، ولذا فإنَّني سأوفّشر الكثير من الوقت، وأتحاشى كلَّ أنواع اللقاءات غير المرغوب فيها، وقد كانت تلك المنطقة خاليةً بالفعل من المعسكرات، ومن رجال الدرك، تغلغلتُ ما بين أدغال الغابة المُكتظَّة بأكوام النمل، وبَلَغْتُ الرافدَ: كان هناك، ينساب هادئاً ونقيَّاً، كما لو كان ذاك هو اليوم الأوَّل في تاريخ الكون.

كان الحلق الجبلي الذي يقود إلى "A" يمرُّ عبر جدارَيْن جبليَّيْن، يبعد أحدهما عن الآخر في البداية بما يربو على كيلومترٍ واحد، ويضيق بالتدريج في نهاياته، فيما كان النهر يُصبح أكثر صَخَبَاً، ببعض الشلالات الصغيرة، التي كنتُ سأراها فيما بعد تتحوَّل إلى تيَّار جارف، ومن ثمَّ يعود ويتحوَّل إلى مزراب بسيط. ولشديد الأسف كانت الشمس في النصف الثاني من دورتها صوب الغروب، ولم تكن تروق لي فكرة مواجهة ظلام الليل في تلك البقاع. وفيما كانت الخريطة، تلك الخريطة المتفائلة، تُقدِّر الطريق بطول ما يربو على خمسين كيلومتراً، فقد قدَّرتُ أنّ في مقدوري أن أقطع مسافة عشرين كيلومتراً قبل حلول الظلام، لو أنَّني حَثَثْتُ الخُطى بإيقاعٍ ثابتٍ وسريع. قرَّرتُ إذَّاك بأنَّني سأمكث ليلتي في المكان الذي سأعثُرُ فيه على مأوى في غارةٍ أو كهفٍ، وعكس ذلك، فسيتوجَّب عليَّ أن أعودَ أدراجي. لكنْ، إلى أين؟

ولكي أحظى بلحظة تفكير، جَلَسْتُ على الأرض، وأشعلتُ سيجارةً.

لم أعد قادراً على ممارسة خداع الذات، وأَعدْتُ التفكير في احتمال الخوف من إضاعة المسار هو ما ينصحُني بالعودة أدراجي، وإذا ما كان الأمر كذلك، فإنَّ لهذه الأعذار ما يُبرِّرها. أمَّا إذا كان ذلك الخيار يفرض نفسه عليَّ بفعل أسبابٍ أُخرى كالهَلَع من ظلال الليل، ومن الحيوانات المفترسة مثلاً، فليس كلُّ ما أختلقُهُ إلَّا مبرِّراتٍ واهية وسخيفة. لم يكن مسموحاً لي الترف بتبذير الوقت ما بين المخاوف المفترضة، فلو افترضنا وجود الحيوانات المفترسة، فإنَّ عليها هي أن تخافَ منِّي، أنا الذي لا شيء لديَّ أفقده في هذه المرَّة. ثمَّ، ما هذا الهُرَاء حول الحيوانات المفترسة؟. حين عاودتُ المسير كنتُ واثقاً من أنَّني لم أكنْ لأُعرِّض نفسي إلى عرض الخوف البائس، إلَّا أنَّني أدركتُ، بعد دقائق أنَّه ليس بإمكاني خداع ذاتي إلى تلك الدرجة، وأنْ أُصرَّ على مواجهة عمليَّةٍ محفوفة بالعديد من المخاطر. كانت أعصابي مشدودةً تجفل لأيِّ حفيفٍ مهما كان طفيفاً.

بعد مسير نصف ساعة، شاهدتُ بغلاً. كان بغلاً أبيضَ، مستلقياً على الأرض بكرشه إلى الأعلى، إلَّا أنَّني لم أشمَّ أيَّ ظلٍّ لرائحة عفنة.

اقتربتُ منه، فأدار البغلُ رأسَهُ، ليُحدِّق فيَّ، ونَهَضَ بتكاسلٍ، ليقفَ على قوائمه الأربعة، ثمَّ ابتعد عنِّي. بغلٌ أبيض اللون، أو بالأحرى ببياضٍ مُصْفَرٍّ. بغلٌ حَمَلَ المؤونة للجنود، كان حبل اللِّجَام ما يزال مُعلَّقاً برقبته، يُجرجرهُ معه في تراب الدرب.

تُرى هل يوجد هنا، في الأرجاء، مُعسكرٌ ما؟ وإذاً كانوا سيربطون البغل إلى شجرة. كَلَّا، كان البغل دونما سرجٍ، ورَغْمَ كونه مشرفاً على الموت، فقد كان يسير حُرَّاً طليقاً، لكنْ بعناءٍ كبير. ربَّما تركوه وحيداً في دروبٍ أُخرى، ولم يمتلك الجندي المُكلَّف به الجرأة في أنْ يُطلِق عليه الرصاصة ما بين عَيْنَيْه، أو أن يُزيلَ من رقبته اللوحة النُّحاسيَّة التي تحمل المعلومات عنه، كدليل على موته. لقد تَرَكَ الجنديُ البغلَ ما بين الأشجار، وها أنا أراه شاخصاً أمامي، خائفاً من أنْ أُقلِقَ سلامه الذي ناله بعد زمنٍ طويل من الجهد والتعب والإنهاك، ومن الأمراض.

"هَيَّا بنا، لنذهبْ"، قلتُ للبغل، "سنقطع قِسطاً من الطريق معاً". شَعَرْتُ بالسعادة لعثوري على رفيقٍ للرحلة، رفيق جاء من إيطاليا، مثلي، وربَّما كان، مثلي، يرغب بالعودة إلى إيطاليا. مَنْ يدري صورة أيَّ مراعٍ كانت تدور في خَلَدِهِ؟ تبعني برفقٍ، لكنَّه، حين حاولتُ وَضْع الحقيبة على ظَهْره، ابتعد عنِّي مهرولاً، ثمَّ توقَّف، ليُحدِّق بي، غير واثق من فكرة متابعتي.

ومع ذلك، اقتربتُ منه، وربطتُ حقيبتي على ظَهْرِه بالحبل. عندها استدار، وسلك طريق النهر مهرولاً بحيويَّة غيرُ مُنتظرَة، فلحقتُهُ مواجِهاً صعوبةً بالغة بالتناغم مع سرعة هرولته.

كان البغل يحمل على كتفه كلَّ ما أملك من طعامٍ ومال، يحثُّ الخطى ضارباً بحوافره دون الإنصات إلى نداءاتي وصيحاتي. بجهدٍ استثنائيٍّ، تمكَّنتُ من بلوغه، وأمسكت بذَنَبِهِ؛ وَاصَلَ العدوَ، وجَرْجَرَنِي معه، فوَجَبَ عليَّ أن أتركَهُ حتَّى لا أسقطَ على الأرض. إذَّاك توقَّف؛ وصار يحكُّ جسمه إلى قشرة أحد الأشجار. لكنَّه، ولمُجرَّد الاقتراب منه، فرَّ من جديد مُجرجِراً حبلَهُ على الدرب. كنتُ أمقتُ فكرة قَتْله، ووَجَبَ عليَّ اللحاق به حتَّى الأدغال، مُمطِراً إيَّاه باللعنات. وأخيراً قَبِلَ بأن يُؤخَذَ من لِجَامِهِ، فتمكَّنتُ من استعادة ممتلكاتي، لكنّ هذه الجولة أفقدتْني كلَّ طاقاتي، فاستلقيتُ على الأرض لأرتاحَ قليلاً، تحت حراسة البغل الذي كان يقتات بالأعشاب، وبدا هو الآخر مُتعَبَاً.

لم أكن لأصعدَ تيَّار النهر من جديد، في ذلك النهار. كانت الشمس آيلةً إلى الغروب، وكان عبوس المساء وقنوطه يَظهران بجلاءٍ في فقدان الجبال لألوانها. "لن أُبارحَ هذا الوادي أبداً"، وداهمتْني الأفكار، وحتَّى أُخفِّف من وطأة الإنهاك والتعب، تخيَّلتُها، تخيَّلتُ زوجتي بدفئها، وأخرجتُ رسالتها الأخيرة، والرسائل القديمة، التي داهمتْها مياه النهر، ولم تُبقِ من كلماتها إلَّا القليل، ما أعجزَني عن فَكِّ رمز الكلمات. فكَّرتُ بأنَّ دموعي كانت ستُكملُ الفعلة في يوم من الأيَّام، وستأتي على ما تبقَّى من الأوراق من كلمات مكتوبة، فلم يبقَ لي منها إلَّا تلك الأوراق.

سَلَكْتُ الطريق صوب الرافد، فتبعني البغل مُبقِياً بيني وبينه مسافةً ما. كانت الشمس تهبط نحو المغيب، عندما وَصَلْتُ أمام كوخ يوهانس.

"طاب مساؤكَ، يوهانس"، قلتُ له.

"طاب مساؤكَ، حضرة الملازم"، ردَّ عليَّ.

"أنا مُتعبٌ للغاية"، قلتُ له "وأُفكِّر بالتَّوقُّف هنا قليلاً".

لم يُجِبِ العجوز على كلامي، وواصل خَلْط عجينة على حجر. كان يخلط دونما تعجُّل، مُضيفاً الماء في علبة من الصفيح. وحين انتهى من خلطة عجينته الطِّريَّة المُقزِّزة، رمى في داخلها حجرةً بيضاوية الشكل، كان قد وَضَعَهَا على نار الموقد، وغطَّى العلبة، ووَضَعَهَا بالقرب من النار، وترقَّب.

جَلَسْتُ في زاوية من زوايا الساحة، وحدَّقتُ في يوهانس الذي كان يُراقب شواء الخبز. وحين طُبخ الخبز، أخرجه من النار، وغطَّاه بقماشة، كما لو كان ثمرةً، وتركه ليبرُد. بعد ذلك، بدأ الأكل بهدوء، متوقِّفاً بين الفَيْنَة والأُخرى، مُلقِياً نَظَرَاتٍ صوب أعلى الهضبة، أو صوب النهر، دون أن يُوجِّه ناظرَيْه إليَّ أبداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٢

في الفجر، أفقتُ من نومي فجأةً، بالضبط كما تفيق العصافير من نَوْمَةٍ دونما أحلام. كانت تلك هي الليلة الأولى، بعد شهورٍ عديدة، لا أحلم فيها، وبدا الإنهاك الذي تراكم في الأيَّام الماضية، وكأنَّه ذاب كذرَّات الملح في الماء، لكنْ، تبقَّتْ لديَّ ذكرى مُضطربة، اتَّضحتْ لمُجرَّد أن لَمَحَتْ عيناي الأكواخ التي كانت ما تزال غارقةً في عتمة الظِّلّ، ومن مَرأى البغل الذي كان يجول مُضطرباً في الساحة التي تتوسَّط الأكواخ، متنشِّقاً مرَّة روائح الأشجار، ومرَّة أُخرى الرائحة التي ترْشَحُ من القبرَيْن. كان ما يزال يُجرجِرُ حبله وحول عنقه بطاقته النُّحاسيَّة التي تُولِّد صَخَباً شبيهاً بحُزمة من المفاتيح المتصادمة فيما بينها خلال المرور في ممرٍّ طويل. ولم أستوعب بعدُ ما إذا كان ذلك ممرَّ كنيسة للرهبان أم ممرَّ سجن من السجون، "يا للبغلِ الملعون"، فكَّرتُ.

كنتُ مُضطرباً وعَجِلاً لترك تلك القرية ومعاودة المسير، لكنَّ خَدَراً لا يُقاوَم، سَمَّرَني إلى الأرض. كنتُ مستلقياً على البطَّانيَّة التي فرشتُها في الليل، لأنام فوقها، وبقيتُ في نفس الوَضْعِيَّة التي غَلَبَنِي فيها الوَسَنُ، برأسي فوق حقيبة الظَّهْر، ويدي ممسكةً بحزامي، وإلى جواري بقايا النار التي أوقدتُها، لأُعدَّ قهوتي. شَعَرْتُ بأنَّني على استعداد للرحيل، لكنْ، حين حاولتُ النهوض بعد عناءٍ كبير، لم تكن أعضائي تستجيب إليَّ.

ومع ذلك، عليَّ الرحيل، عليَّ أن أصعد تيَّار النهر لأكون في "A" قُبيل الغروب. وحين اقترب البغل منِّي، وصار يراقبني، قفزتُ واقفاً على قَدَمَيَّ. أعددتُ أشيائي، ووَضَعْتُ الحقيبة على ظَهْري، كنتُ سأترك ذلك الحيوان لقَدَرِهِ المحتوم، وقد قرَّرتُ ألَّا أُنيطَ مسؤولية قَدَري إلى غيري. كان بإمكانِ ذلك البغل أن ينفعَني، لولا أنَّه بَلَغَ قَدْراً كبيراً من العجز، ولولا أنّ التجارب وسِنِي العُمُر جَعَلَتْ منه حيواناً عنيداً صعب المراس. وقد فَقَدْتُ نهاراً كاملاً بسببه. كنتُ أُغامر أنْ أراه يسقط في مكانٍ ما أو يتهاوى في وادٍ أو منحدرٍ، وبذا سأفقدُ حقيبتي، وكلّ ما أملك. أَضِفْ إلى ذلك أنَّه سيتوجَّبُ عليَّ أن أتدبَّر إطعامه، في الوقت الذي كنتُ أُواجه فيه، أنا نفسي، صعوبات في تدبير الطعام لي شخصيَّاً.

وبما أنّ يوهانس كان قد أفاق من نومه، اقتربتُ من كوخه لأُودِّعه. كنتُ أُجرجرُ ساقَيَّ شاعراً بهما، وكأنّهما جُبِلا من الرصاص الثقيل، لكنِّي اعتقدتُ بأنَّ المسير سيُخفِّف من توتُّرهما وثِقَلهما، ليس بإمكاني الاستمتاع باستراحة أطولَ دون إثارة شكوك العجوز. ربَّما كانت الشكوك قد ابتدأت بالدوران في ذهنه، فناهيكَ عن كوني ضابطاً، فإنَّ مظهري كان يُفصِحُ عن مظهر الفارِّ الهارب من الخدمة.

"وداعاً، يوهانس" قلتُ له. ورأيتُهُ ينهض من موضع رُقاده على الأرض، وما هي إلَّا لحظات حتَّى رأيتُ أرضيَّة الساحة بترابها المحمرِّ تقترب من وجهي، وغابت السماء عن ناظرَيَّ، وتعفَّر وجهي بتراب الأرض، انغلقت عيناي، وبقيتُ على تلك الحالة لوقت طويل. حين أفقتُ من رقدتي كانت الشمس قد عَلَتْ في كبد السماء، وثَمَّةَ ذبابات تشرب ممَّا سالَ من عَيْنَيَّ من دموع، وعجزتُ عن إزاحتها عن وجهي، كنتُ جادَّاً في هَشِّها عن وجهي، لكن ذراعي لم تُطاوِعْني في أداء تلك الرحلة القصيرة ما بين الأرض ووجهي. على مَبْعَدَةٍ بضع خطوات منِّي، كان يوهانس جالساً بوَضْعيَّته المعهودة مُسنداً جسده بالكامل على كاحلَي قَدَمَيْه، لم تكن ملامحه تُعبِّر عن شيءٍ ما، كان يشرب سائلاً ما في علبة الصفيح التي يستخدمها كَقَدَحٍ، ويواصل التحديق حواليه، ولم تكن

عيناه قد انفتحتا بعد بالكامل.

تواصل الصمت فيما بيننا لبضع دقائق، أنا العاجز عن النطق، وهو المُحدِّق بي بفضول، أسند كفَّيه على رأس عصاه، وواصل بإبهامه الأيمن تمسيد العصا، بحركة مُكرَّرة ومتشابهة على الدوام. نَهَضَ حين رآني أفتح عَيْنَيَّ، أشار لي بيده أن أنتظر، وتوجَّه صوب الدرب. كان مُحدودب الظَّهْر، وكتفاه كأنَّهما منجذبان إلى بعضهما. ابتعد عنِّي دون أن أتمكَّن من أن آتيَ حَرَاكاً؛ وكان قد بَلَغَ حافَّة الساحة الصغيرة حين استجمعتُ كلَّ قواي، لأصرخَ منادياً. خَرَجَتِ الصرخة من حلقي مُفاجِئةً ومقطوعةً، لكنّ يوهانس لم يتمكَّن من الاستماع إليها، البغل وحده استمع إليَّ، وأدار رأسه نحوي، وسار صوبي في الممرِّ الكئيب مُجرجِراً وراءه حبله. حاولتُ النهوض، حرَّكتُ يَدَيَّ في تراب الأرض، صرختُ من جديد، إلَّا أن حلقي الجافَّ رَفَضَ الانصياع لرغباتي. انقلبت الصرخة إلى تأوُّهات، إذَّاك رأيتُ على طرف المنحدر رأس يوهانس يظهر أوَّلاً، ومن ثمَّ رأيتُ كامل جسمه وهو يعود إلى المكان.

وحين شاهدَني على ذلك القَدْرِ من الاضطراب، سألني إذا ما كنتُ أحتاج شيئاً. كنتُ قد نسيتُ نبرة صوته الحادَّة والخارجة من عمق الحلق كالحشرجة، وكان مُجرَّد الاستماع إلى ذلك الصوت يُدخل في نفسي قَدْراً من الأمان. أومأتُ إليه بأن يمكثَ معي، ومن ثمَّ سألتُهُ "إلى أين كنتُ ذاهباً؟"

"إلى هناك، في الأعلى"، وأشار إلى الهضبة. كان متوجِّهاً إلى هناك لطَلَب النجدة، لأنَّه لم يُحبِّذ أن يواجهَ متاعبَ. أومأتُ إليه بأنْ ليس عليه التَّوجُّه إلى هناك، فانصاع إلى طَلَبِي. وَضَعَ عصاه في الكوخ، خَلَعَ عباءَتَهُ، وكرَّر عليَّ السؤال ما إذا أحتاج إلى شيءٍ ما. لم أكن أحتاج أيَّ شيء. كلُّ ما كنتُ أُريده هو ألَّا يبتعد عن المكان، وحين قرَّر الابتعاد عنِّي لبُرْهَة حاملاً معه صفيحةً معدنية فارغة، من النوع الذي يُستخدَم لنَقْل المحروقات، كرَّر عليَّ لمرَّات عديدة بأنَّه ذاهبٌ إلى النهر، ليحمل الماء، وبأنَّهُ سيعود في الحال.

"يوهانس"، قلتُ له عندما رأيتُهُ يعود من جديد "عليَّ البقاء هنا".

"هل ستبقى هنا حتَّى صباح الغد، حضرة الملازم؟" سألني.

"نعم، حتَّى صباح الغد"، "غداً سيكون وَضْعي أفضل"، فكَّرتُ، "وسأترك هذا المكان، لن أرقد ليلةً أُخرى إلى جوار هذه الجثث، ولن أرى قشرةَ هذه الأشجار، ولا حتَّى السماء المُغلقة عند حافَّة الوادي".

قطراتٌ من الماء كانت تتساقط من علبة الصفيح على قَدَم يوهانس. كان صامتاً وأنا لا أجرؤ على النَّظَر إليه، كنتُ أرى قَدَمَيْه المُتَرَبَتَيْن والماء الذي يغسلهما، وفي النهاية قال لي "أنتَ سيِّد قرارِك بالبقاء"، قال ذلك بجفاء دون أنْ يسعى إلى إظهار الاستياء أو عدم الترحيب بي. كان يعترف بحقوقي.

"أشكركَ"، قلتُ له.

ابتعد يوهانس عنِّي، ليعود بعد قليل، ويجلس جلسته الاعتيادية التي يُسند فيها ثِقَلَ جسده على كاحلَيْه، وسألني بقَدْرٍ من اللهفة:

"ألَّا تشعر بالجوع، حضرة الملازم؟".

كنتُ أشعر بالجوع، أو على الأقلّ بقَدْرٍ عالٍ من الوَهْن، إلَّا أنَّني أجبتُه بلا. فقد كانت قِطَع البسكويت والجُبن التي خرَّبَتْها مياه النهر أفضل بكثير من خُبزه المطبوخ في إناء الطين المحروق. كنتُ سآكلُ شيئاً ما فيما بعد، كي لا أُشعرَهُ بالإهانة برَفْض قاطعٍ على تلك الشاكلة.

أَلَّا أنَّه أعدَّ قهوة قويَّة المذاق، وقد شَعَرْتُ بقَدْر من التَّحسُّن حين شربتُ منه قليلاً. "ما أُعاني منه الآن ليس إلَّا وعكةً عابرة"، قلتُ له "ربَّما كان من الأفضل لي أن أُواصِلَ المسير"، إلَّا أنَّني غفوتُ من جديد. ولمقدار ما كانت مخاوفي كبيرة في أن يُغادرَ الرجل الكهل المكان مُستغلاً غفوتي، فقد أفقتُ مرَّات عديدة بشكل فُجائي، وناديتُ عليه، وكان هو يحضر دائماً ليُطمئنَني بوجوده.

"ليس عليكَ الذهاب" قلتُ له.

"لكنّ وَضْعَكَ لا يبعث على الطمأنينة"، أجابني، وأضاف "لو لم أذهب لطَلَب النجدة، فإنَّ التبعات ستقع على عاتقي. عندها أمسكتُ بيده، كنتُ في غاية الاضطراب، وكما لو أنَّني أتضرَّع إليه، كرَّرتُ "ليس عليكَ أن تذهب". وَاصَلَ التحديق بوجهي دون أن يستوعبَ، أو ربَّما تظاهر بعدم الاستيعاب ليُجبرَني على الاعتراف، ولم يجرؤ على أنْ يسحبَ من بين أصابعي يده المتوتِّرة والجافَّة كالحديد الذي تآكله الصدأ، فأضفتُ "لا ينبغي أن يعرف بوجودي هنا أيُّ شخص".

ابتعد عنِّي، وسار نحو كوخه، ولم يستدرْ إلَّا لوَهْلَةٍ قصيرة، ليُلقيَ عليَّ نَظْرَة، بَدَتْ كأنَّها الأخيرة، كانت نَظَرَاته قاسيةً، لأنَّه أدرك بأنَّ عليه التَّخلِّي عن افتعال المشاعر أمامي، وبَدَتْ جميع قناعاته، وكأنَّها تُنوخُ تحت وطأة ضربة مميتة. إلَّا أنَّه ظَهَرَ شاعراً بالرضا، فقد كانت تلك هي النَّظْرة التي سيُحدِّق بها فيَّ على مرِّ الأيَّام التالية.

بدأتُ أشعر بقَدْرٍ من التَّحسُّن بعد مُضيِّ اليوم الثالث، لكنِّي لم أستشعر أيَّة رغبة في معاودة المسير. كان طريق الوصول إلى مُصوَّع يبدو لي بلا نهاية، وكلَّما زِدْتُ في دراسة وتفحُّص مراحله على الخارطة، زادت قناعتي باستحالة اقتداري على مواجهة اثنَتَيْن من تلك المراحل، وأنا في الحالة التي كنتُ عليها دون أن أتعرَّض إلى انتكاساتٍ أُخرى. كان عليَّ أن أستعيد قواي بالكامل، وكان ذلك المكان هو الأمثل من بين الخيارات، رَغْمَ أنّ كلَّ ما حوله يجعله في غاية الكآبة. لكنِّي فكَّرتُ بأنَّني قد أعتادُ حتَّى على يوهانس مع مرور الوقت.

في ذلك اليوم كان الكهلُ منهمِكاً في العمل على عيدانٍ خشبيَّة، ليُصَنِّعَ منها مَنَامَةً جديدة، وسألَني عن حالتي باهتمام غيرُ معتاد: فَعَلَ ذلك بنبرة صوتٍ، لم أعتَدْ سماعها منه من قبل. نبرة صداقيَّة، كان بإمكاني أن أتلمَّس فيها على صدىً ما للتعاطف، لو أنَّها ترافقت مع ابتسامة شفيفة، وتجانست معهما عيناه أيضاً. كَلَّا، فعينا يوهانس، وهو يُحدِّق بهما فيَّ، واصلتا البقاء مُشرَعَتَيْن وثابتَتَيْن. كان يبدو عليه الاندهاش في كلِّ مرَّة يُحدِّق فيها بي وكأنَّه يراني للمرَّة الأولى. أمضيتُ ذلك النهار بطوله دون أن أتمكَّن من أن أُزيل من ذهني فكرة أنّ الكهل يتدبَّرُ أمرَ مكيدةٍ ما ضدِّي. استذكرتُ كلمات المُهرِّب: "هؤلاء ليسوا قوماً قادرين على الشَّغَف بالآخرين"، وكنتُ أستنبطُ من تلك الكلمات قناعتي الشَّخصيَّة مُترجماً إيَّاها: "إنَّهم قومٌ غدَّارون". لكنْ، لم يكن من المعقول أيضاً أن أترقَّب بأن يُحيطَني يوهانس بمظاهر الاحتفاء والترحاب، لذا قرَّرتُ أَلَّا أُفسدَ على نفسي يوم الراحة ذاك بآلاف الشكوك والريب. كنتُ قد أسْلمتُ أمري إلى يَدَيْ الرجل الكهل، وإذا ما خانَني، فإنَّ ذلك يعني أنَّني بالغتُ في ترقُّب ما لم يكنْ عليَّ ترقُّبه من شخص مثله. وشَعَرْتُ بقَدْرٍ من الارتياح، لأنَّني تمكَّنتُ من وَأْدِ مشروعه بإيقاعي ما بين براثن الجلَّاد.

كانت تلك خطوة محفوفة بالمخاطر، لكنْ، باحتمالات ضعيفةٍ للنجاح، وإزاء المخاطر التي سأواجهها إذا ما غادرتُ القرية في الحال، فإنَّ من الأفضل إطالة فترة البقاء فيها. كانت التَّلَّة تُطلُّ على الوادي، وإذا وَصَلَتْ إلى هنا كتيبة تفتيش، فسيكون لديَّ الوقت الكافي للاختباء في مكانٍ ما، فالمكان عامرٌ بالأشجار، وثَمَّةَ الدرب الذي يقودُ إلى النهر. وإذا ما استنبط يوهانس تبريراً ما للابتعاد عن القرية، فسأبتعد بدوري أنا أيضاً، صاعداً صوب منبع النهر، وسأُضيِّع آثاري. وحين حادثتُ يوهانس أبلغتُهُ بأنَّ عليَّ التَّوجُّه نحو المنخفض الذي يقود إلى حدود السودان، بدا لي مُصدِّقاً بما أقول. واكتشفتُ أنَّه يعرف جيِّداً مسارات دروب الأراضي المنخفضة، فتركتُهُ يستفيض في توضيحها لي. استجوبتُهُ حول طبيعة القبائل التي تسكن الأراضي المنخفضة، ولم يبخلْ عليَّ بمعلوماته، واستنتجتُ في خاتمة حديثنا الطويل بأنَّ شكوكي حول الرغبة في التَّوجُّه إلى تلك المناطق قد زالتْ. سألتُهُ عمَّا إذا كان قد ذَهَبَ في الأيَّام الأخيرة نحو الهضبة.

"كَلَّا"، أجابني. لم يَعُدْ يُناديني بلقب "حضرة الملازم"، ولم أكن قادراً، في المرَّة الأولى، أنْ أسترعيَ انتباهه إلى ذلك التَّبدُّل في صيغة التحاور. "وماذا عن راتبكَ التَّقاعديِّ؟ أَلَا ترغب في تقاضيه؟"، سألتُهُ.

أذهب إلى هناك مرَّة كلّ ثلاثة شهور"، أجاب.

"وفي تلك الرحلة تشتري الملح والدقيق، و..."، ما الذي يمكن أن يشتري غير ذلك؟

"نعم"، أجاب دون أن يُزيلَ ناظرَيْه عن عمله في عيدان الخشب. كان يعمل ببطء وأناة، ويُدبِّبُ رؤوس العيدان بسكِّينه، ويقتطع لحظات للنَّظَر إلى الساحة متناسياً في تلكم اللحظات، كما بدا لي، وجودي بجواره وعمله معاً. كانت تلك العيدان ستفيده في صُنْع مَنَامَةٍ جديدة بالتأكيد، لكنِّي حين عدَدْتُها انتبهت بأنَّها أكثر من الحاجة إلى صُنْعِ مَنَامَةٍ واحدة، وفكَّرتُ ربَّما كانت ستفيد في صُنْع مَنَامَةٍ أكثر راحةً، أو لتبديل بعض أعمدة الكوخ.

كان في بعض الأحيان يبقى بيدٍ مرتفعة والسِّكِّينة ما بين أصابع كفِّه، ويُحدِّق في الأُفق، لكنْ، دون أن تتجاوزَ نَظَرَاته مساحة الموقد أو الساحة الصغيرة. وحين كان يعود إلى العمل ضارباً بسكِّينته على الجِذْع ( وكان بطؤهُ الشديد في العمل يُثير أعصابي، لأنَّه يعجز في الكثير من الأحيان حتَّى من تثقيف بسيطٍ لخشب الجِذْع)، وكان يبدو لي أنَّه يفعل ذلك كلّه لمُجرَّد إقصاء أفكار مُقلقة، عَلِقَتْ في ذهنه، كانت الأيَّام تمضي، وهو لم يكن بعدُ مستعدَّاً للإفصاح عمَّا في داخله. وفي مرَّات كان يأتي إليَّ ليُخبرَني عن أمورٍ جديدة حول أقوام الأراضي المنخفضة، ويُسعَدُ حين يراني أُخرِجُ دفتر ملاحظاتي، وأُسجِّل في صفحاته معلومات، وافاني بها. وأفترضُ، بأنَّ يوهانس أيضاً كان يجهل قيمة "الزمن"، ولم تكن الفصول، بتتابعها هناك في ذلك المكان، تُغيِّر إلَّا لون الهواء؛ ولذا فقد كان يوهانس يعيش موسماً واحداً فحسب دون أن يتساءل ما إذا كان كلُّ ذلك سينتهي يوماً ما، أم لا.

في اليوم الرابع، شَعَرْتُ بالحاجة إلى حَلْق ذقني، وبينما كنتُ أفركُ وجهي برغوة الحلاقة (كان يوهانس يراقبني، لأنَّ تلك العملية بَدَتْ له مؤشِّراً واضحاً لاقتراب موعد رحيلي من قريته) قرَّرت بأنَّني سأُطيل لحيتي، لأُغيِّرَ بذلك بعضاً من ملامحي. كان ضروريَّاً لي أن تكون ملامحي مُختلفةً، وبإمكاني الحصول على نتيجةٍ ما في غضونِ أسبوعٍ واحد فحسب. "ضابطٌ نَبَتَ على ذقنه زَغبٌ خفيف لِلِّحية"، فكَّرتُ "يمكن أن يمرَّ كإنسانٍ طبيعي في المجتمع"، وسيتأنَّى رجال الشرطة

العسكريَّة لبُرْهَة قبل مطالبتي بإبراز أوراقي الثّبوتيَّة: "كلَّا، لا يُمكن أن يكون هو بالذات"، سيفكِّرون، لأنَّ اللحية تتطلَّب عناية يوميَّة، وفراغ بال، وهما أمران لا يُمكن أن يمتلكهما شخصٌ فارٌّ من الخدمة العسكريَّة، وحتَّى لو امتلكهما، فلا يُمكن أن يسمح لنفسه بهما. لحيةٌ كستنائية، وعينان زرقاوان، كلُّ ذلك كفيلٌ بإقلاق انتباه رجل الشرطة العسكريَّة. "وإذاً، فلنترِكِ اللحيةَ تطول"، استخلصتُ أخيراً.

وحين أزلتُ رغوة الحلاقة عن وجهي، أطلق يوهانس شهقة حسرة طويلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٣

عادت إليَّ قواي بالتدريج، لكنْ، ببطءٍ، بسبب نقص الغذاء. وحين انتبهَ يوهانس إلى نفاد المؤن الغذائية لديَّ، ورآني أُدمدم متذمِّراً وأنا أتحرَّى داخل حقيبة الظَّهْر عمَّا أقتات به، جاءني ليُقدِّم لي جزءاً من خبزه، فقبلتُ ذلك بالطبع، لكنَّه كان خبزاً خالياً من الملح، إلى درجة أنَّني عانيتُ كثيراً في ازدراده؛ إذَّاك فقط تذكَّرتُ أنّ في داخل حقيبتي علبةً من الملح، فأهديتُها إلى يوهانس مقابل كرمه لي. قَبِلَ الهديةَ دون الإعراب عن أيِّ امتنان، كما لو أنَّها هديَّةٌ مُستَحَقَّة، بل واجبة، وأَوْلَجَ لسانه إلى داخل العلبة في الحال، وبدا راضياً، لكنَّه لم يَجُدْ عليَّ بأيَّة نَظْرَة. وَضَعَ علبة الملح داخل كوخه، وبقيتُ أراقبه، فيما كنتُ أشعر بالندم إزاء فعلتي الطُّفوليَّة والُمتسرِّعة تلك، والتي لم تُثمَّن من قِبَلِ يوهانس على الإطلاق. ساءلتُ نفسي عن الوسيلة التي سأتمكَّن بها من العثور على ملحٍ آخر.

ربَّما كان يوهانس، كمواطنيه، يعدُّ الملحَ الهديَّةَ الأثمن على الإطلاق، وهي مفضَّلة لهم أكثر من المال نفسه، أو حتَّى من الطلقات، حين تضع الحرب أوزارها. كنتُ قد وَهَبْتُهُ كنزاً لا يُقدَّر بثمن، لكنْ، دون أن أحظى منه حتَّى بنَظْرَةِ امتنان. كان ذلك الملح الورقة الوحيدة والأخيرة بحوزتي، وقد استخدمتُها بعَبَث طفولي: والآن سيواصل يوهانس مَنْحي جزءاً من خبزه، لكنْ، دون أن يُضيف إليه حبَّةَ ملح واحدة، ولن يكون بمقدوري أن أطلب منه استخدام "مِلْحِي"، لأنَّني أهديتُهُ إيَّاه، وصار مِلْكاً له.

وفي حوالي المساء، عاد يوهانس إلى القرية، بعد غيابٍ طويلٍ، وخلال عبوره من أمامي انحنى لوَهْلَة، فقط ليُناولَني شيئاً ما، بيضتان، شريتُهُما على الفور. كانتا طازجَتَيْن، وسألتُهُ ما إذا كان بمقدوره أن يُوفِّر لي واحدةً منها كلّ يوم، وأنا على استعداد لأنَّ أدفع مقابل ذلك أيَّ ثمن يُريد، أجابني بأنَّه سيحاول تلبية طَلَبِي، وبالفعل فقد حَصَلْتُ في اليوم التالي أيضاً على بيضَتَيْن طازجَتَيْن، إلَّا أنَّني لم أحصل في الأيَّام التالية حتَّى على بيضةٍ واحدة، وحين تساءلتُ من يوهانس عن سبب ذلك الغياب، وكرَّرتُ له استعدادي لدَفْع أيِّ مبلغ يطلبه مقابل الحصول على بيضات أُخرى، رَفَعَ كتفَيْه، وقَضَمَ حديثي بهمْهَمَةٍ غير مفهومة. ضَغَطْتُ على فَكَّيَّ غاضباً، لأكظمَ غيظي، ولأمتنع عن توجيه ضربة إلى وجهه، وابتعدتُ عنه منزعجاً، ولعنتُ عجزي الذي يُوثِقُ يَدَيَّ، ويربط مصيري، يوماً بعد آخر، بيَدَي هذا العجوز الهَرِمِ وبوقاحته. لم تعد لديَّ الوسائل لاستعادة الأرضية التي كنتُ أقف فوقها، وواسيتُ نفسي بأنَّ الرحيل من هنا سيُعيد الأمور إلى نصابها، وبأنّه سيضع حَدَّاً لكلِّ هذه الإهانات. وكان الغضب يتملَّكني في بعض المرَّات، فأحمل غصن شجرة، وأتّجه نحو العجوز، ضارباً به على بسطاري مُتهيِّئاً لتوجيه ضربه إلى منتصف وجهه، فيما لو صَدَرَتْ عنه أيَّة إيماءةٍ دالَّة على الانزعاج. إلَّا أنَّه كان، في تلك الحالات، يتظاهر بعدم رؤيتي. كنتُ أدور حوالَيْه بصبرٍ نافدٍ مستثيراً إيَّاه بتلك الضربات الحادَّة على جِلْد البسطار؛ وتستمرُّ الحالة حتَّى اللحظة التي أرمي فيها الغصن بعيداً، أو أهوي به على ظَهْر البغل، مُستشاطَ الغضب أُكلِّم نفسي بصوتٍ عالٍ، وأُعلن عن استعدادي لتجاوُز كلِّ الحدود.

في صباح اليوم السابع، وجدتُ يوهانس منشغلاً بطَهْي شيء ما في إناء، وأغلقتْ رائحةُ ذلك الطعام الوحشيَّة حلقي؛ إلَّا أنَّني لم أتمكَّن من النكوص أو رَفْض دعوة يوهانس بإيماءة من رأسه لمشاركته غداءه. كان عليَّ أن أسدَّ جوعي بشكلٍ من الأشكال ..

لم أَسائِل نفسي أبداً من أيِّ حيوان جاء لحمُ ذلك الصحن، وهو اللحم الأسوأ الذي ذُقتُهُ يوماً، كان عَصيَّاً على المضغ، وفي بعض الحالات، كان ليِّناً مُنساباً إلى درجة الذوبان في الفم كما الشَّحْم، إلَّا أنَّه كان عَصِيَّاً على الابتلاع في جميع الأحوال. فقد أضاف يوهانس إلى ذلك اللحم توابلَ حارقةً للغاية، حَصَلَ عليها من دَقِّ عدد من حبَّات الفلفل الحارق. لم يفعل خلال ذلك النهار شيئاً غير دَقِّ الفلفل على الحجر، وها هي هناك داخل الصلصة. ربَّما كان العجوز يتوقَّع أن أرفضَ الدعوة لتناوُل الغداء معه، أو، على الأقلِّ، أن أُدهشَ من الطبخة، إلَّا أنَّني أجبرتُ نفسي على تناوُله بهدوء، وعلى إخفاء تقزُّزي، وأكثر من ذلك دموعي التي نزلت من مآقيَّ، بسبب حُرْقَة التوابل. شَعَرْتُ بأنَّني انتصرتُ في تلك المواجهة، لأنَّ يوهانس كان يتوقَّف عن الأكل، وينشغل بالنَّظَر إليَّ، وبالتَّحرِّي عن آثار الفلفل الحارق على سَحْنَتِي. لقد أَعْمَلْتُ كلَّ كرامتي وزَهْوِي في تلك العملية. وللمرَّة الأولى، رأيتُ بأنَّ عينا يوهانس صارتا تخونانه بإبداء الفضول، ذلك الفضولُ الذي يُولَدُ لدى جندي التفجيرات الواثق من أنَّه أشعل الفتيل بشكلٍ صحيح، وهو يتساءل الآن عن سبب إحجام القنبلة عن الانفجار. كان ذلك انتصاري الأوَّل، وقد استغللتُهُ بشكلٍ ناجحٍ مُواصِلاً الأكل في صمت. لم يتمكَّن يوهانس من الإمساك بنفسه، وسألَني، بعُسرٍ شديد، ما إذا أحببتُ الطعام. أجبتُهُ بجفاء بأنَّه طيِّب المذاق، دون أن أُضيف شيئاً آخر. عاود يوهانس تناوُل الطعام، وقرأتُ في وجهه ملامح الخيبة المفاجِئة، وبعد قليل من ذلك أعلنَ عن استسلامه: "أَوَليس حارقاً شيئاً ما؟"، سألَ بتودُّد.

"حارق!"، حدَّقْتُ فيه بدهشة، كما لو أنَّني أرغب في معرفة ما يعنيه بتلك الكلمة، وقلتُ له "إنّ هذا هو المذاق الطَّبيعيّ لهذا النوع من الطعام". بإمكاني الجزم بأنَّ يوهانس ابتدأ، منذُ تلك اللحظة، بالشعور بالاحترام تجاهي، أو بالأحرى ابتدأ بالشعور بقَدْر من الخشية منِّي، ولم أعُدْ بحاجةً إلى الدوران حوله ضارباً جِلْد بسطاري بغصن الشجرة أو إلى مُحادثةِ نفسي بصوتٍ صارخ. وحين كنتُ أُحدِّق فيه، كان هو يتظاهر بعدم رؤيتي، إلَّا أنَّه لم يُعُدْ يستهين بي، رَغْمَ تعمُّده تحاشي توجيه الكلام إليَّ، وربَّما كان يفعل ذلك، كي لا يجد نفسه مُجبَراً على مخاطبتي بتسبيق الحوار بيننا برُتبتي العسكريَّة: "حضرة الملازم".

لكنْ، باستثناء دهاء يوهانس الذي كنتُ أشعر بنفسي قادراً على لَجْمِه، فلم يَبْدُ لي المكوث في تلك القرية يسيراً إلى الدرجة التي توقَّعتُها في البدء. وفي صباح اليوم الثامن، (ربَّما كانت السفينة ترفع في تلك اللحظات مرساتها، وتُودِّع المدينة)، اكتشفتُ بأنَّني انتهيتُ من تدخين جميع سجائري، وعَبَثاً غَرَزْتُ أصابعي داخل العلبة الفارغة باحثاً عن واحدة منها. لقد أتيتُ على نهاية كلِّ المؤونة التي حَمَلْتُهَا معي من مُصوَّع، أو ربَّما سَرَقَ يوهانس جزءاً منها، وخبَّأه في مكانٍ ما. تحرَّيتُ داخل حقيبة الظَّهْر، لكنَّ كلَّ محاولاتي باءت بالإخفاق الذريع. عندها بدأتُ بالبحث المتأنِّي في الأرض، علَّني أعثر على بعض أعقاب السجائر التي رميتُها هنا وهناك بعد تدخين سريع، وتمكَّنتُ من التقاط ما يربو على دزِّينة من الأعقاب. وكنتُ على وشك اقتطاع صفحة بيضاء من الكتاب المقدَّس الذي أحمله معي حين تذكَّرتُ بعضاً من رسائل زوجتي، والتي زالَ عنها كلُّ الحبر الذي كُتِبَتْ به. لم تعُدْ تلك اللقى قادرة على أن تُنبئني بأيِّ شيء بعد أن أَمْحَتْ مياه النهر كلَّ كتاباتها، وأبقتْها مُجرَّد أوراق متلوِّنة ببقايا حبْر، لقد كانت تلك هي الأوراق التي عليَّ استخدامها لِلَفِّ سجائري القادمة. أقنعتُ نفسي بهذا بينما كنتُ ألفُّ السيجارة الأولى، ولكي أُخفِّف من وطأة وَخْز الضمير الذي أَرْعَشَ أصابعي، قلتُ لنفسي: "أعذُريني، يا حبيبتي". لم يستدر يوهانس ليُحدِّق بي، كما كانت عادته أن يفعل في كلِّ مرَّة يستمع فيها إليَّ محادثاً نفسي.

كان ورق الرسائل الجوِّيَّة مناسباً لِلَفِّ التبغ، فَلَفَفْتُ سيجارتي الأولى، لكنِّي وجدتُ نفسي في نقطة البداية حين حلَّ المساء، إذْ بدأتُ أعاني من افتقاد التبغ مرَّة أُخرى؛ ولم يكن بإمكان يوهانس أن يُوفِّر لي منه شيئاً، لأنَّني لم أرَه يُدخِّنُ أبداً. لكنْ، ماذا لو أنَّه يمتلك التبغ؟ فهل كان سيستخدمه كوسيلة إضافية لإذلالي أكثر؟!

كانت الوحدة تزيد من انزعاجي، مضيفةً قَدْراً من الأسى. كنتُ أجولُ في الساحة الصغيرة جيئةً وذهاباً، ولم أجرؤ على الابتعاد عن التَّلَّة مُقدِّراً أنّ حدود أمانيَّ تنتهي عند حافَّتها. وكان بغل الحمولة يذهب ويجيء هو الآخر، ويعدو في بعض الأحيان وبدا وكأنَّه قد تعافى من عاهاته بشكلٍ جيِّد. كان هذا الافتراض يُسهم في زيادة حزني: وبالفعل فقد وُلِد تعاطفي مع ذلك الحيوان بفعل الوَضْع الذي عثرتُ عليه فيه. ففي اليوم الذي التقيتُهُ على الدرب، وعندما هَرَبَ منِّي حاملاً معه حقيبتي، تردَّدتُ في إطلاق النار عليه، وذلك لأنَّني كنتُ أراه محكوماً بالموت؛ لكنَّه يبدو لي الآن مليئاً بالرغبة في الحياة، فشَعَرْتُ بالغَيْرة تجاهه، شاعراً بنفسي مريضاً بأكثر منه. لقد ابتدأ ذلك الحيوان باستعادة حُرِّيَّته رويداً رويداً.

اعتدتُ الجلوس تحت ظلِّ بعض الأشجار، مُحدِّقاً بالهضبة وبالوادي الذي كان يُغيِّر ألوانه، من وضوحِ رمادي الفجر إلى اشتعال أرجواني الأصيل، وبسبب حالة الوَحْدة والأفكار الحزينة التي تنتابني وتُقلِقُني، فقد كان الوادي يبدو لي أوسع ممَّا كان عليه بالفعل، أو حتَّى يبدو مَهُولاً، وبأنَّ المسافة الفاصلة ما بين طَرَفَيْه تتجاوز سبع كيلومترات. وعلى الرَّغْمِ من أنَّني كنتُ أرى المسافة شاسعةً، فإنَّ صورة الطرف الآخر كانت واضحةً، واعتقدتُ أنّ بإمكاني أنْ أَعُدَّ الأشجار التي نَبَتَتْ على صخوره. وبرَغْمِ مواظبتي على التحديق، فلم أرَ أيَّة شاحنة أو عربةً تمرُّ من هناك، فكَّرتُ أنَّني قد أعجز عن رؤيتها، بسبب انغلاق الطريق الصاعدة خلف الجدران الجانبية المانعة للسقوط، وقد تكون تلك الجدران هي ما تمنع عليَّ الرؤية.

لم يكن يمرُّ من الوادي أحدٌ، وبدا لي هذا أمراً إيجابيَّاً، فالقرية تقع في نهاية طريق مُغلَقة، وهي خارجةٌ عن حدود مناطق عبور القطعات العسكريَّة أو دوريَّات الشرطة العسكريَّة. فمن جانب، كان هناك الجسر، ومن الجانب الآخر النهر، وربَّما كانت هناك أكواخٌ أُخرى على بعد بضعة كيلومترات، وهذا ما يُفسِّر عثور يوهانس على البيضات، لكنَّها لا بُدَّ أن تكون قرية أكثر بؤساً من قرية يوهانس. وربَّما كانت قريةً تسكنها دجاجةٌ واحدة فحسب. كنتُ أبتسم لهذا الافتراض، واعداً نفسي بأن أطلب من يوهانسِ أن يقودَني إلى صاحبة الكرم مانحة البيضات. لكنْ، لم تكن جميع الأفكار التي تراود ذهني باعثةً على الحبور دائماً كهذه الفكرة. وكان ذهني، الذي تكاسل في الأيَّام الأولى، قد بدأ بالاستيقاظ، وابتدأتُ باستعراض وَضْعي الصِّحِّيِّ والتَّكهُّن بالمخاطر التي قد تُحيق بي. كنتُ قد أقصيتُ المرض عن ذهني، وتناسيتُهُ منذُ لحظة وصولي إلى قرية يوهانس، ورَغْمَ أن هذا التناسي الخادع كان يزول بين الفَيْنَة والأُخرى بشكلٍ مفاجِئ، فقد بقي المرض، على أيَّة حال، عذاباً لا يمكن التغاضي عنه. وحين جَعَلَتِ الراحةُ والاستقرارُ الذِّهنيُّ ساعاتِ النهار تبدو لي وكأنَّها لا نهائيَّة، أدركتُ في الحال بأنَّ اليأس والقنوط سيأخذان مأخذهما منِّي، وسيهزمانني بالتأكيد، ما لم أُمِطِ اللثام عن كلِّ الفضول حول هذا المرض، وما لم أُزِلْ مقداراً من جهلي حوله عبر قراءة ما يحتويه ذلك الكُتيِّب من معلومات. لم أكن راغباً في قراءته، وكنتُ أشعر بالتَّقزُّز إزاءه، لأنَّه كتابٌ يحتوي بين صفحاته الحُكمَ عليَّ بالموت بوضوح أكثر ممَّا قد يظهر في عَيْنَي يوهانس أو في الحيوية المستعادة لدى البغل. ورَغْمَ ذلك، وبعد وَأْدِ مشاعر التَّقزُّز، قرأتُ الكُتيِّب، وعرفتُ منه بأنَّ الكثير من الأعراض والآلام التي عانيتُها منها في الأيَّام

الماضية إنّما هي أعراضٌ لذلك المرض الخبيث.

قرأتُ الكتاب بتأنٍّ، مُحاوِلاً استيعاب التعبيرات العلمية، وساعياً للوصول إلى بعض الخلاصات. كانت الخلاصة الأساسيَّة هي أن بالإمكان الحصول على العلاج، وأنّ هناك علاجات كثيرة يمكن الحصول عليها، لكنْ، ليس بالإمكان الجزمُ بأنَّ أحد تلك العلاجات سيشفيني من المرض بالكامل. بالإمكان الشفاء من هذا المرض، وقد أورد الكتاب نماذج عن حالات الشفاء؛ لكنْ، مع احتمال أن أفيق في صباح أحد الأيَّام بعد عشر سنوات، وألحظَ تغيُّراً طفيفاً في تركيبة يدي، أو أن أراها اصطبغت بلون آخر، وبأنَّني، حين سألمس تلك اليد، سأشعر أنَّها ما عادت تنتمي إلى جسدي. كان تنويم المرض مسموحاً لي، لا أنْ أصرعه، أهزمه أو أقضي عليه. وكلُّ ما سيبقى لديَّ إذَّاك هو العيش في عُزلة مُطلقة.

كنتُ أقرأ الكُتيِّب حين رأيتُ يوهانس جالساً على حافَّة الوادي. كان يُحدِّق بالوادي. دُهشْتُ، لأنَّ تلك كانت هي المرَّة الأولى التي أراه فيها مركِّزاً نَظْرَته واهتمامه على الوادي. كنتُ قد اعتبرتُ يوهانس خالياً من أيِّ فضولٍ صوب الآفاق، أو ربَّما كان عاجزاً عن رؤيتها، واعتقدتُ بأنَّ عَيْنَيْه البدائيَّتَيْن غيرُ قادرَتَيْن، بالتأكيد، على التنسيق ما بين تلك المكوِّنات، ليخرجَ منها بصورةٍ مكتملة، وواضحة المرأى. لقد كان يوهانس، برأيي، قادراً على رؤية شجرةٍ، كوخٍ، رؤية الهضبة والنهر والغابة، لكنَّه، بالتأكيد، كان عاجزاً عن اعتبار هذه المكوِّنات جُزئياتٍ من صورة متكاملة. كانت رؤيته تُشذِّبُ ما يعتبره فائضاً في لحظة الرؤية، إلَّا أنَّه يجلس الآن إلى جواري، ويُحدِّق في الوادي، وأدركتُ إذَّاك بأنَّه "يرى" الوادي الآن بأكمله، وبأنّ ناظرَيْه يتوقَّفان بأناة على "جميع" الأشياء، مُدقِّقاً في تفاصيلها. لم يكن بمقدور أيِّ رسَّام أن يُحدِّق بذلك المشهد بأفضل ممَّا كان يفعله يوهانس في تلك اللحظة.

مرَّات كان يُضيِّق حَدَقَتَي عَيْنَيْه، وفي مرَّات أُخرى كان يحني جِذْعه إلى الأمام، إلَّا أنَّه يستعيد في الحال ثباته، وقد شَعَرْتُ بارتباك حقيقي حين أدار يوهانس ناظرَيْه نحوي، وبدأ يهزُّ رأسه، وعجزتُ عن الإتيان بأيَّة نَأمَة، ولم أتمكَّن من إشاحة ناظرَيَّ عنه، ولو للحظة. وفي الحال، شَعَرْتُ بالحاجة إلى أن أسألَهُ عن مريم، وعمَّا إذا كانت مُصابة بالمرض، واغتنمتُ الفرصة عندما أشاح يوهانس ناظرَيْه عن وجهي، ووسَّع دائرة رؤيته، ليشمل جسدي بأكمله، متأمِّلاً فيَّ، على ما أفترض، كواحدٍ من مكوِّنات المشهد بأسره. قلتُ له بأنَّني أُحبُّ ذلك المكان، وبما أنَّه لم يكن يردُّ على كلماتي (نعم، ربَّما بالغتُ في تقييم مقدرته على الحسِّ الجماليِّ)، سألتُهُ ما إذا كان يعيش هناك منذُ وقتٍ طويل. "منذُ سنةٍ واحدة"، وأتى بحركة من يرمي وراء ظَهْره ذكرى الأيَّام الخوالي، والتي لم يعد لها أيَّما نَفْع.

"وهل كان يعيش معكَ أُناسٌ كُثر؟"

"كنَّا تسعة أشخاص"، أجاب. تركتُ فترة الصمت تنقضي، صمتٌ كان سيُزيل قَدْراً من ريب يوهانس، وبعد ذلك سألتُهُ دون إظهار اهتمامٍ مُحدَّد: "وكم من النساء كنَّ هنا؟".

لم يَحُدْ يوهانس بناظريْه عن الوادي وقال: "كانت هنا امرأتان".

خشيتُ من التَّردُّد في مواصلة الحديث في أن يُدركَ يوهانس سبب تساؤلاتي هذه. كان قد عاد إلى التحديق في الوادي، وبدا لي وكأنَّه يرى المرأتَيْن متجسِّدَتَيْن أمام ناظرَيْه. فسألتُهُ: "وهل تعرَّضَتَا، هما أيضاً، إلى القَتْل؟"

"نعم، قُتِلَتَا"، أجاب.

وإذاً لم تنجُ أيٌّ منهما؟"

"لا أحد منهما".

جَلَسْتُ إلى جوار يوهانس، هَزَزْتُ رأسي لإشعاره بتعاطفي معه، وحين شَعَرْتُ به غارقاً في ذلك التَّأمُّل الغريب، قلتُ له بتردُّدٍ واضح: "كان إلياس يُحدِّثني دائماً عن فتاة شابَّة، اسمها مريم"، نطقتُ الاسم بسلاسة، كما يُنطَق اسم فردٍ من أفراد العائلة، وأضفتُ: "لم تكن من هذه القرية؟".

حَدَجَنِي يوهانس بنَظْرَة سريعة: "كَلَّا"، قال "لم تكن من هذه القرية".

تُرى لماذا ينفي يوهانس الواقع بهذه الطريقة الفاضحة؟ ألأنّه يشعر بالألم للاعتراف بما افترضَهُ في ذهنه، وهو أنّ مريم باغتت الجميع بالفرار من القرية قبل وقوع المذبحة، لتذهب إلى الهضبة، صوب الحياة الجميلة. كنتُ أستعيد صورة يوهانس في المدينة وهو يتوقَّف أمام أبواب منازل اللهو، وتذكَّرتُ عَيْنَيْه اللَّتَيْن كانتا تتحرَّيان في عُتمة الغرف المظلمة. "مُثير للفضول". "اعتقدتُ أنَّها كانت من سُكَّان هذه القرية، لأنَّ إلياس كان يُحدِّثني عنها دائماً، و...".

"لم تكن من سُكَّان هذه القرية"، قاطَعَني يوهانس بصوتٍ هادئ مُعزِّزاً لديَّ القناعةَ في أنّ ما يقوله مُلفَّق. لكنْ، ماذا لو أنَّه كان ينطقُ بالحقيقة؟ ربَّما كان قد ذَهَبَ إلى المدينة، وجالَ ما بين منازل اللهو لهدفٍ آخر، إلَّا أنَّني لم أُفلِحْ في تحديد ذلك الهدف، وأيَّاً كان، فهو مُغايرٌ لهدفه الذي تصوَّرتُهُ على مدى الأيَّام الماضية. ربَّما كان إلياس دائم اللقاء بمريم (التي كانت تُقيم في "قرية الدجاج")، وقد جَعَلَتْهُ تلك اللقاءات يتقمَّص شخصيةً مُغايرةً عمَّا هو في الواقع. ألم يُخبرْني بأنَّ مريم كانت شقيقته؟ حسنٌ، لكن الجميع هنا يعتبرون أنفسهم أخوةً وأخوات. ربَّما كَذَبَ عليَّ إلياس بذات الطريقة التي يكذبُ فيها الأطفال الصغار.

"ربَّما كانت من سُكَّان القرية القريبة؟"

"أجهل ذلك"، أجابني يوهانس، ومن ثمَّ أضاف في الحال "لم يسبقْ لي التَّعرُّف عليها".

كان من العسير إدراك شيءٍ ما في نَظَرَات الرجل الكهل. حدَّق في الوادي طويلاً، وأشاع تلفيقُهُ ذاك في داخلي ارتياحاً جديداً. وإذاً، فقد كان بمقدوري أن أتخيَّل بأنَّ مريم لم تكن موجودة بالفعل.

لم يكن العجوز ليتصوَّر مقدار الارتياح الذي مَنَحَنِي إيَّاه بذلك التلفيق الذي برَّأني من خطيئتي بشكلٍ من الأشكال. فإذا ما كان هو قادراً على نَفْي وجود مريم أصلاً، فلماذا لا يكون بإمكاني أن أفعل الشيء ذاته؟ ومع ذلك، فقد كان الجُرح على ظاهر كفِّي ماثلاً أمام عَيْنَيَّ. ورَغْمَ إدراكي الكامل بأنْ ليس ما ادَّعاه يوهانس بشأن مريم إلَّا تلفيقاً فاضحاً، فقد بَعَثَ فيَّ ذلك التلفيق، بالذات، قَدْراً من الارتياح. إلَّا أنَّني وجدْتُ نفسي أعود مُجدَّداً إلى نقطة البداية. لم يكن ممكناً لي أنْ أحصل على أيَّة معلوماتٍ عن مريم، عدا أنَّها كانت تهاب التماسيح كثيراً، وبأنَّها كانت تُغنِّي أحياناً (بإمكاني أن أتخيَّل، وأنا أُحدِّق في ذلك المشهد، مقدار الحزن الكامن في أغانيها)، وبأنَّها كانت دائمة الابتسام، بالضبط كما ابتسمتْ في تلك الليلة حين ضَمَمْتُهَا بين ذراعَيَّ. كنتُ سأمكثُ في تلك القرية، لأدفع ثمن خطيئة ما حلَّ بها، أيْ أنْ أمكث على بُعد بضع خطوات

قليلةٍ عن قبرها، وإلى جوار القبور الأُخرى مُترقِّباً امتلاك قبرٍ خاصٍّ بي وحدي (ما بعد عشرين، ثلاثين أو ستِّين سنة أُخرى). أمَّا ما أمتلك الآن، فهو كوخٌ بائسٌ وفقير، وجُرحٌ على ظاهرِ كفِّي: وهذان، الجُرحُ والكوخ البائس، مفردتان ضروريَّتان للابتداء.

نَهَضْتُ واقفاً بشكل مفاجِئ. "حسنٌ جدَّاً"، قلتُ بصوتٍ مسموع "لم يبقَ لي إلَّا التعبير عن إيماني بالرَّبِّ، فليتمجَّد اسمُهُ". وابتسمتُ. نَظَرَ يوهانس إليَّ مقطِّباً جبهته دون أن يتمكَّن من استيعاب ما رميتُ إليه.

"ليتمجَّد اسمُ الرَّبِّ"، كرَّرتُ الجملة صارخاً. وبينما كان يوهانس يواصل التحديق بي ذاهلاً، ابتعدتُ عنه، وذَهَبْتُ نحو الأشجار الأُخرى، وبقيتُ هناك لبُرْهَة مُحدِّقاً بالوادي الذي بدأ يتوشَّح الآن بعتمة الغروب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٤

حين هَبَطَ الليل، ترقَّبْتُ الوَسَنَ دون أن أتمكَّن من النوم. كانت السماء مُكتظَّة بالنجوم، وكنتُ بين الحين والآخر أسمع (أو بدا لي أنَّني أسمع) خرير مياه النهر. كان التمساح هناك، ربَّما كان تمساحاً عجوزاً، لذا لم يجرؤ على الاقتراب الجسر، وحيثُ يستحمُّ سائقو الشاحنات بين الحين والآخر. وإذا ما نَظَرْتَ التمساح من علٍ، فإنَّه يبدو لكَ مثل جِذْعٍ قديم لشجرة عجوز، تَرَكَتْ نفسها تنساب مع مسار النهر، لا، لم يكن جِذْع شجرة، بل التمساح الذي يحفظُ، عن ظَهْر قلب، حكاية ذلك الوادي، وجزءاً من حكايا العالم، ذلك لأنَّ مياه النهر حَفَرَتِ الأرضَ تحت ناظرَيْه لقرون طويلة. ورَغْمَ شيخوخته، فقد كنتُ مُقتنعاً بأنَّ التمساح سيعيش بعدما أموتُ أنا أيضاً. ومَنْ يدري؟! فقد أتوجَّهُ إلى النهر يوماً، لأُقدِّم إليه قروح كفِّي قرباناً.

ها أنا، لم أكنْ لأهزمَ رُعب الليل في تلك الأرض، في تلك الساعات التي كان فيها الكون يبدو وكأنَّه يتدحرج هابطاً نحو الظُّلمة القاتمة، فيما أُصغي أنا إلى الجحيم المضطرم بصراخ المعذَّبين فيه. كنتُ قد أعددتُ لنفسي أحد الأكواخ (وتساءلتُ ما إذا كان ذلك هو كوخ مريم)، وَضَعْتُ فيه حقيبة الظَّهْر، ولم أكن أُقيم فيه عن طِيْب خاطر. وكضربٍ من طقوسٍ لطَرْد الأرواح الشِّرِّيرة، كنتُ أوقد أمام الكوخ ناراً، وأُبقيه مضطرماً حتَّى الفجر. كنتُ أُقنع نفسي بأنَّ تلك النار تنفعني في حال احتجتُ إلى إعداد كأسٍ من القهوة، إلَّا أنّ واقع الحال هو أن الخوف هو ما يدفعني إلى إبقائها مُضطرمةً. الخوفُ من يوهانس، ومن تلك القبور الماثلة أمام عَيْنَيَّ دائماً، والتي كانت الشيء الأوَّل الذي أراه حين أفتح عَيْنَيَّ.

أعددتُ الكوخ، لكنِّي لم أجرؤ على الرُّقاد في داخله، كنتُ أُفضِّل الرُّقاد خارجه، على رَغْمَ أنَّه لم يكن من الحذر النوم في الهواء الطلق. كانت السماء هناك مختلفةً عمَّا هي عليه في أيِّ مكانٍ آخر، وكان الليل، ببساطة، ليلاً قاتم الظُّلمة، مُغلَقاً دونما أيَّة فسحة، ودون نُباحٍ لكلابٍ، ودون أيَّة نَأمَة تُشير إلى الحياة الجارية في أماكن أُخرى، لا نغمات أُغنيَّة متلعثمة، تصدُرُ عن حَنْجَرَة سِكِّير، يعود ليلاً إلى منزله مترنِّحاً، ولا صرير عجلات الترام على السِّكّك. ليس هنا غير الضِّباع والذئاب المُستفزَّة والبعيدة، وكأنَّها تسعى، بما تُصدِر من أصوات وعُوَاء، إلى التأكيد على حالة العُزلة والوَحْدة التي كنتُ أعيش في ظلِّها. وفي بعض الأحيان، كانت تبلغ أسماعي صيحة طائر عابر فوق أشجار الساحة الصغيرة، لم أكن قادراً على إبعاده أو طَرْده. كنتُ أُفضِّل تلك العتمة على داخلِ الكوخ الذي قد يُخفي لي مفاجآتٍ غير مُرتقَبَة. في تلك الليلة، استلقيتُ بالقرب من النار، وبقيتُ أُحدِّق في النجوم المزدحمة في قبَّة السماء، بَدَتْ النجوم لي حَيَّةً، لكنَّها كانت كثيرة تجثمُ على رأسي، وتمكَّنتُ من تحديد عدد من المجرَّات، والتَّعرُّف عليها.

فكَّرتُ في سرِّي بأنَّ تلك هي العُزلة التي تترقَّبني، وفي ظلِّ تلك العُزلة الفارغة والقاسية، قرَّرتُ التواجه مع الليل الطويل، وعدم تقطيعه أوصالاً بالنوم. لم يكن الليل يُخيفني، بل الأمل الذي يبزغُ رويداً رويداً هو ما يُخيفني، كان في البدء يبزغ باستحياء، ويصير أكثر إقداماً ووقاحة، كلَّما مرَّ الوقت، لأنَّه كان الكابوس الذي سأُعاني منه أكثر من غيره لمُجرَّد مبارحتي هذا الوادي الذي لا تُلحَظُ فيها إصابتي أو تبرز للعيان. كنتُ مرتعباً من رغبتي الجامحة في البقاء على قيد الحياة بأيِّ ثمن، ويُرعبني أيضاً أنَّني صرتُ أرمي خطيئة كلِّ ذلك على كاهل زوجتي. نعم، الخطيئة: لم يكن بمقدوري أن أُطلقَ عليها أيَّ اسم آخر. لقد قرَّرتُ البقاء على قيد الحياة من أجلها هي، فأنا أُحبُّها بكلِّ ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، أُحبُّها، وأشتاق إلى رؤيتها؛ لكن جموح الرغبة في

الوصول إليها لم يكنْ قادراً على التأكيد بأنَّها سترغب في مشاركتي العيش، أو أنَّها ستواصل حُبَّها لي. ويوماً بعد آخر، كانت تترسَّخ لديَّ القناعة بأنَّ مطالبتي الحماية من لدُنها لم تكن إلَّا نتاجاً لاندفاعات طفوليَّة. أَوَلستُ أنا مَنْ خَلَطَ الأوراق، أَوَلمْ أكنْ أتستَّرُ بادِّعاءات كوني عاشقاً لها، وأحلم في العيش إلى جوارها، لإخفاء سعيي بالبقاء على قيد الحياة؟ لم تكن زوجتي هي الهدفُ الأساس على الإطلاق، بل كانت مُجرَّد نقطة ارتكاز أو علامة طريق، ربَّما كانت أكثرُ العلامات اقتراباً، ولذا اندفعتُ دائماً إلى تحميلها مغزى، قد تفتقر إليه. أحاولُ الآن شَمْلَها في خططي باسم حُبٍّ، ينبغي عليَّ أن أتجنَّبه، بدلاً عن تغذيته بالقراءة اليومية لرسائلها، وبالذكريات عن حياتنا المشتركة (سنةً واحدةً قبل الرحيل)، بذكريات ذلك العام الذي بدا لي مُفعَماً بالأحداث، بالإيماءات، وبالكلمات المنطوقة والمسموعة.

كنتُ قد سطَّرتُ في دفتر مذكِّراتي، يوميَّات ذلك العام في مقاطع عديدة، وحاولتُ أنْ أُسطِّر إلى جوارها أحداثاً أُخرى، وَقَعَتْ بالتزامن مع ما شهدتُ وسطَّرتُ خلال تلك الأيَّام. لم تكن أحداثاً كبرى، بل من نوع الأحداث التي تَعْلَقُ في الذاكرة رَغْمَ صعوبة رَبْطها بيومٍ أو بساعة مُحدَّدة، وذلك لأنَّها أحداثٌ تتشبَّث بالذاكرة دون عِلْمٍ منَّا أو تخطيطٍ مُسبَّقٍ من قِبَلِنا، وتُضبِّب بمغزاها، غير القابل للشطب، جميع الذكريات الأُخرى. رحلاتُنا التي كانت تبتدئُ مع طلوع الفجر، يدها المُسندة على جدار الغرفة. متى كانت المرَّة الأخيرة التي رأيتُ فيها تلك اليد؟ نعم، كنتُ أتذكَّر الشهر، دون أن أتمكَّن من تحديد اليوم. لا أتذكَّر إنْ كان في شهر أغسطس أم سبتمبر حين قرَّرتْ أن تغطس في مياه البحر دون أن تخلعَ ثيابها عن جسدها، مومِئةً إليَّ بأن أفعل الشيء ذاته.

وصورتُها التي تظهر فيها دائمة الابتسام، وكأنّ لا شيء حَدَثَ على الإطلاق؟

كنتُ أُحدِّق في تلك الصورة طويلاً. لساعاتٍ، حتَّى اللحظة التي تَغِيمُ فيها الصورة، ولا أعودُ أرى إلَّا عَيْنَيْن وأنفاً وفماً، ويبدو لي بأنَّ كلَّ ذلك ليس إلَّا تفاصيلَ وجه ضائع. ربَّما، في هذه الحالة أيضاً، كنتُ أقلب المعادلة: هي ما تزال حَيَّة تُرزق، وأنا أُحاول أنْ أتصوَّرها ميِّتةً، كي أتمكَّن من اقتيادها إليَّ عبر تلك الصورة.

وإذْ ما رفعتُ ناظرَيَّ من قُصَاصَة الكرتون تلك، فإنَّني أرى أمام يوهانس الذي يشتغل في تركيب عيدان الخشب، ومن الطريقة التي كان يستخدم فيها سكِّينه بغضبٍ فاضح، أدركتُ بأنَّه بدأ في داخله بصياغة الحُكم عليَّ.

صار قاموس مفرداتي فقيراً، وسيزيد فقراً أكثر فأكثر: كلمات قليلة للتعبير عن جميع الأفعال التي كانت مُتاحةً لي في ذلك الفضاء المغلَق. الأكل، النوم، النَّظَر والأمل، لكنْ، كان بإمكاني أيضاً أنْ أزدردَ الطعام بحَلْقٍ يتمرَّد، أنْ أنام غارقاً في أحلامٍ أكثر دُكنةً من كوابيس اليقظة، أنْ أنظر إلى جميع الأشياء التي لن ألمسَها أبداً، وأنْ آمُلَ في شفاءٍ، لن أحظى به. لقد أُمْحِيَتْ جميع الكلمات الأُخرى إلى الأبد. هل بمقدوري أن أفرضَ قاموسيَ الفقير هذا عليها، هي التي تُلقي بنفسها في الماء دون أن تخلع ثيابها عن جسدها وتومئُ لي، لأُقلِّدَها؟ هل ستُضحِّي بحياتها بالوقوف إلى جواري، وتتخلَّى عن أفعالها الجنونية المفاجِئة (التي كنتُ أُحبُّها بسبب إتيانها بها)؟ هل سأراها تشيخ وتفقد جمالها إلى جواري وهي تواصل افتعال البسمة؟ هل سأستمع إليها تُتمتم بألحان أُغنيَّة، كي تتظاهر أمامي بالسَّكِينَة؟ ستكون كلُّ السنين عبارة عن تتابع مريرٍ لثلاثمائة وستِّين يوماً وثلاثمائة وستِّين ليلةً، فهل سأتمكَّن من أن أعيشَها جميعاً بعَيْنَيْن مُشرعَتَيْن وأنا أستمع إلى

حشرجة بكائها المكتوم في الغرفة المجاورة، التي لن أدخلها أبداً. مَن الذي أعطاني الحقَّ في أن أفرض عليها زِنْزَانَةً أقسى من الزِّنْزَانَة التي سأعيش أنا بين جدرانها؟

وفيما كانت هذه الأفكار تتوارد في ذهني، جَفَلتُ ونَهَضْتُ واقفاً بسبب ضوضاء مفاجِئة، كنتُ أُفزِع حتَّى من الظلال. لكنّ تلك كانت ضوضاء، صَدَرَتْ عن البغل الذي اقترب منِّي منجذباً من النار التي أوقدتُها، أو ربَّما احتاج إلى الرفقة، استلقى أمامي على الأرض بكلِّ ثِقَلِهِ، وحين داعبتُ ظَهْره، ومسَّدتُ عليه بكفِّي، هزَّ رأسه فاركاً إيَّاه على الأرض مُعرِباً عن سعادته. لم يكن يعرف أيَّ شيءٍ عن قروح يدي، لذا لم يعترض على تلك اللمسة. "آهٍ، يا عزيزي"، همستُ إليه "الأمور هنا لا تسير على ما يرام بالمطلق. بل بالأحرى، أَسْدِ عليَّ بنصيحةٍ. لقد فَعَلْتُ ما فَعَلْتُ فقط لأتمكَّن من رؤيتها في أسرع وقت، لكنْ، ما الذي جنيتُ؟ جنيتُ حقيقةَ أنَّني لن أراها عمَّا قريب. لقد اقترفتُ كومةً من الحماقات كي ألجَ الفردوسَ، لكنّكَ، تراني ها هنا في هذا الجحيم، أتساءل عمَّا سيحلُّ بي. لا أتباكى على الماضي، لكنِّي أتساءل ما إذا كان من العدل والانصاف في أن تَنْفُقَ البغال عند مفترقات الطُّرُق في قارَّة شاسعة مثل أفريقيا. ثمَّ إنَّني أرغب حقَّاً في معرفة حقيقةٍ أُخرى: هل كان كلُّ ما فَعَلْتُ من أجلها هي أم أنَّني فَعَلْتُ كلَّ شيء لصالحي فحسب؟ أُدرك أنَّه سؤال مُخجل".

وَاصَلَ البغل فَرْكَ جِلْده على الأرض، فصَدَرَتْ من كوخ يوهانس هَمْهَمَةٌ منزعجة، هَمْهَمَة ناقمة من منزعجٍ يسكن الغرفة المجاورة، وعليه أن يفيقَ في الخامسة صباحاً، لذا فهو ليس على استعدادٍ للقبول بأسباب أرق الآخرين. صَمَتُّ، واستلقيتُ بجوار البغل، وأسندتُ رأسي على ظَهْره.

هي لن تهجرَني بالتأكيد، كنتُ على استعداد حتَّى للقَسَم على ذلك، وربَّما ستستنبط الكلمات المثاليَّة للتخفيف من وطأة الأخطاء التي ارتكبتُها، ومن ثِقلِ إحجامي عن فِعْل ما كان ضروريَّاً. ولربَّما سأعثر في ظلِّ هدوئها ذاك، حتَّى على براءتي، لكنَّها ستفيق في يومٍ من الأيَّام بالتأكيد، وقد اكتشفتُ استحالةَ قُدرتها على احتمال مآلات ذلك الغَرَق الوئيد والحَتْمِيِّ. وماذا بعد ذلك؟ لهذا السبب بالذات كانت تبدو لي كلُّ لحظات سعادتنا ضَرْباً من اللَّامعقول، كان بإمكاني أن أراها كظرف الجلَّاد الذي يقضي وقتاً قصيراً للتحاوُر مع المحكوم بالإعدام، قُبيل القيام برَبْط مِعْصَمَيْه وراء ظَهْره، ويعتذر له لمبالغته في التضييق في شِدَّة الحبل على المِعْصَم. لم تَعُدْ لحظات السعادة، تلك التي عشْناها معاً، تنتمي إليَّ، وكان عليَّ أن أصرف ذهني عنها. لا نفعَ في استذكار ذلك الساحل، أو كلَّ الأماكن وتواريخ تواجُدنا فيها، لا نفع في استذكار جسدها الناعم كالحرير أو تعب عَيْنَيْهَا النَّاعسَتَيْن في الفجر.

كانت رغبتي برؤيتها وضيعةً وجبانة، وكانت أفكاري هذه، على سطحيَّتها، تواسيني شيئاً ما: لكنِّي، على أيَّة حال، أخرجتُ دفتر يوميَّاتي، وخلعت عنه الأوراق التي سجَّلتُ فيها سِفْرَ أيَّام السنة التي قضيتُها معها، ورميتُها في النار الموقَدَة. وبينما كنتُ أُحدِّق بالأوراق التي انكمشت على نفسها وسط اللهيب، ندمتُ على تلك الفِعْلَة (وكنتُ سأُعيد رَسْم جدول الأيَّام المحروقة من جديد). حينها سمعتُ هديراً لمُحرِّكات شاحنة. كان الهدير يصعد من عمق الوادي. "لنذهبْ" قلتُ للبغل "لنذهبْ، ولنرَ ما الذي يجري هناك".

كانت المسافة الفاصلة ما بيني والشاحنة تجعل من هديرها أقلّ صَخَبَاً من شخير يوهانس. كانت تصعد صوب الهضبة بالضبط كما تصعد الذبابة صوب أعلى زجاج النافذة باحثةً عن

منفذٍ للخروج. كان الهدير مُلِحّاً ومُميَّزاً، لكنْ، ضعيفاً. فكَّرتُ بالمُقدَّم، بتلك المَزْحَة المخفقة، وبتحيَّته التي سخر بها منِّي (التي أثارت مشاعري أيضاً). كان ذلك الهدير شبيهاً بهدير وصَخَب الحياة. الشاحنة تصعد المرتفع غير آبهةٍ بي، ولربَّما ستصعد شاحنات أُخرى صوب الهضبة، وتتجاهلني. وأنا في هذه الحالة، لن يكون بمقدورهم مَدُّ أيِّ يدٍ للعون إليَّ.

بَلَغْتُ الحافَّة عند نهاية الساحة، وركَّزتُ ناظرَيَّ في ظُلمة الوادي، الذي بدأ بالإشراق بفعل قوس الضياء الصاعد من خلف الجبال. لم أتمكَّن من رؤية أيِّ شيء، وابتعد الصَّخَب حتَّى اختفى. ثمَّ رأيتُ على القمَّة ضياء مصابيح الشاحنة الصاعدة. كان ذلك الضياء المعكوس على جدار الجبل يبدو مثل عود ثِقَاب، أَشعلَهُ شخصٌ، نَهَضَ من نومه مُحاولاً العثور على ثُقب قِفْلِ الباب. كان الضوء يصعد صوب القمَّة، ويتحرَّك كما عود الثِّقَاب في الظُّلمة حتَّى اختفى نهائيَّاً على الطرف الآخر من الجبل، ولم يبقَ منه إلَّا الصَّخَب السابق الذي بدأ يتلاشى تدريجيَّاً حتَّى صَمَتَ نهائيَّاً، وكان في بعض الحالات يبدو قريباً منِّي إلى الدرجة التي أستمع فيها إلى تغييرات السرعة. ثمَّ تلاشى، أو بالأحرى توقَّف فجأةً. ربَّما تكون الشاحنة قد بَلَغَتْ أعلى الهضبة، وهي الآن في طريقها صوب الساحل.

بقيتُ وحدي، حتَّى دون ذلك الهدير الذي رافقَني لبُرْهَة من الوقت، فعُدتُ مُسرِعاً إلى الكوخ. لم أكن قادراً على النوم. أخرجتُ جُبَّتي العسكريَّة من حقيبة الظَّهْر، وتحرَّيْتُ في زوايا جيوبها، علَّني أعثر على نُتَفٍ من التبغ، وبدلاً من ذلك، عثرتُ في أحد جيوب الجُبَّة على تذكرَتَي دخول إلى صالة سينما في نابولي. كنَّا قد ذَهَبْنا إلى تلك الصالة في الليلة التي سَبَقَتْ سَفَري.

انساب حلقي وأنا أُقبِّل قُصَاصَتَي الورق اللَّتَيْن حدَّثَتَاني عن زوجتي أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، تركتُ لدموعي تنهمر كما شاءت. كنتُ مأخوذاً من ارتعاشةٍ، تُخفِّف عنِّي من وطأة الألم الذي أُعانيه. هي أيضاً، بَكَتْ في تلك الليلة في ظُلمة الصالة، بَكَتْ على كتفي، سَحَبْتُ جُبَّتي، ولَثَمْتُ ذراعها مُقبِّلاً إيَّاها، وكي لا أُوقِظَ يوهانِّس من نومه، حَبَسْتُ تنهُّداتي في قماش الجُبَّة، لكنّ حَذَري لم يكن مُجدِياً، لأنَّ يوهانس أفاق من نومه، وبدأ يُدَمْدِمُ، أو بالأحرى ابتدأ بالكلام بلُغته. وبالتأكيد كان يُوجِّه اللعنات إليَّ أنا، لأنَّني قَطَعْتُ عليه نومه.

نَهَضْتُ، أخذتُ غُصناً جافَّاً، واقتربتُ من كوخ يوهانس الذي كان يُواصَلُ الكلام، وبدأتُ بضَرْب الغصن على جِلْد البسطار. صَمَتَ يوهانس.

رميْتُ الغصن بعيداً، عُدتُ إلى النار، واستلقيْتُ على الأرض واضعاً فمي فوق الجُبَّة التي كانت قد تشرَّبت بدموعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٥

في اليوم التالي، قرّرتُ بأنَّ عليَّ الرحيل. أدركتُ بأنَّ أيَّ زيادةٍ على أيَّام الكسل العشرة التي قضيتُها هناك ستكون كافية لإفقادي الجرأة، وتجعلني لا أرى الذهاب إلى مُصوَّع مُجرَّد رحلةٍ محفوفةٍ بالمخاطر فحسب، بل حتَّى غير مُجدِيَة. وربَّما كانت كلُّ الأفكار التي جالت في رأسي في الليلة السابقة نتاجاً للجُبْن الذي صار يعتريني، وبأنَّني لو واصلتُ البقاء في تلك القرية، فإنَّني سأُواصِلُ اختلاقَ الأعذار والتبريرات لإرجاء الرحلة، حتَّى البلوغ إلى درجة اعتبارها مستحيلةً. كنتُ سأُقنِعُ نفسي بأنَّ صالح زوجتي يقتضي منِّي الإحجام عن الرحيل، بالضبط كما كنتُ أُقنع نفسي في البدء بعكس ذلك. ولو حَدَثَ أن حلَّ اليوم الذي سأُقرِّر فيه البقاء هنا نهائيَّاً، فسأكون قد اقترفتُ جميع حماقاتي لأمرٍ لا طائل من ورائه.

حينها سيتحتَّمُ عليَّ البقاء في تلك القرية إلى الأبد (أو أن أنتظر اللحظة التي تكتشف فيها مفرزة تفتيش تابعة للدرك وجودي) أو أن أُهرعَ إلى أقرب نقطة موقع للقيادة، ما وراء السفح، وأُسلِّم نفسي، كي أَحُولَ دون التَّعرُّض إلى الاعتقال.

وبما أنَّني كنتُ أُزيح هذا الاحتمال الأخير عن خاطري، فقد ابتدأتُ بالتَّأمُّل في فكرة المكوث في القرية. حسنٌ، لم يكن هذا الخيار أيضاً قابلاً للحقيق، فقد سَبَقَ ليوهانس أن أظهر انزعاجه من وجودي معه هناك، ولم يكن سلوكه الدنيء في الليلة الفائتة إلَّا المقدِّمة لما يختزنه في داخله لي في المستقبل، وحيثُ لن يهاب لا العصا المضروبة على جِلْد البسطار ولا المُسدَّس. كان عليَّ الرحيل إذاً: فلو مكثْتُ في القرية مدَّة أطول، فقد أُصاب بالنحول الذي سيُضعِف طاقتي لقَطْع المرحلة الأولى من الرحلة، وهي الأعسر، ولا بُدَّ من قَطْعها في مسيرٍ نهار كاملٍ. قرَّرتُ بأنَّني سأرحل في اليوم التالي، كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء. لم يكن لي أن أُشغل بالي حول حقيبة الظَّهْر، فقد كانت جاهزة للرحيل، وكنتُ سأُغادر حتَّى دون أن أُلقيَ تحيّة الوداع على يوهانس، كي لا أُقدِّم له الانتصار على طَبَقٍ من ذَهَب. كنتُ سأُدهِشُهُ بازدرائي له. "ربَّما"، فكَّرتُ "سيُدهِشُهُ رحيلي المفاجِئ، وقد يشعر بالندم لإجباري على تلك الخطوة".

فَرَشْتُ الخريطة، ومن جديد، قِسْتُ المسافات ما بين القرية ومدينة "A". كانت تربو على خمسين كيلومتراً، ولنزدها، لتصل إلى ستِّين كيلومتراً، وذلك يعني مسير عشر ساعات بخَطوٍ ثابت، مانحاً نفسي ساعةً واحدة فحسب للراحة: النهار بطوله. ربَّما سأُقاوم، ولدى وصولي، سأطرق باب أحد منازل الاستضافة، ولِمَ لا باب رحابات، صاحبة جهاز الغرامافون؟ لا، لن أذهب إلى منزل رحابات، فقد أتقاطع هناك مع المُقدَّم. وعلى أيَّة حال، فإنَّ أي منزلٍ هناك شبيه بغيره من المنازل. كان عليَّ أن أتجنَّب الوقوع في شَرَكِ الرغبة في التَّفسُّح جيئةً وذهاباً خادعاً نفسي بأنَّهم لن يقبضوا عليَّ، وأن أتجنَّب الرغبة (القويَّة) في القفز على مَتْن أوَّل شاحنةٍ للجنود، أُصادفها مُقنِعاً نفسي بأنَّه "لن يُعقَل بأنْ تُوقِفَ نُقاط التفتيش تلك الشاحنة بالذات".

فلو تمكَّنتُ من مقاومة هذَيْن الإغراءَيْن، فإنَّني سأصل إلى مُصوَّع بالتأكيد. كنتُ أُهلِّل لذلك الاحتمال، وكانت فكرة أن أرى منزلاً أو شارعاً أو بشراً آخرين، غير يوهانس، تملؤني بعذوبة ثَمِلَة. كنتُ أقطع الساحة جَذِلاً، لأنَّني تمكَّنتُ، مرَّة أُخرى، من الانقضاض على الانكسار، وإلحاق الهزيمة به، وبدأتُ أشعر بانبعاث روح المقاومة لديَّ. لم أكن قد رأيتُ القرية بائسة إلى تلك الدرجة التي بَدَتْ لي في ذلك النهار، كانت واقعاً مُصطَنَعاً بشكل رهيب، وقد ابتدأ النمل ينهش

تفاصيله، وستتحوَّل القرية إلى وكر للضِّباع حين يموت يوهانس. وربَّما كانت الضِّباع تترقَّب اليوم الذي يموت فيه العجوز، لتُرتِّب مقامها على أعلى التَّلَّة، وحيثُ الرياح تحمل إلى خياشيمها عفن الجيف النافقة والمتحلِّلة. "نعم"، قلتُ لنفسي "إنَّها فرصةٌ لا تُعوَّض بالنسبة إلى تلك الحيوانات المفترسة، لامتلاك مركز مراقبة متميِّز بهذا الشكل، لمُجرَّد قرار يوهانس دَفْن احتقاره للعالم!".

ولأنَّني رأيتُ يوهانس قادماً وهو يحمل الصفيحة المعدنيَّة مليئة بالماء، لم أقوَ على السكوت، وأبلغتُهُ بأنَّني سأرحل. كنتُ أحمل في يدي الغصن، وأضرب به بسطاري، وحرَّكتُهُ في الهواء بحبور، وأنا أُبلِّغُهُ النبأ، كما لو كان برقيَّة عاجلة، طال انتظارها، وهي تُجيز لي مبارحة ذلك المكان الذي أبغضُهُ كثيراً. وَاصَلَ يوهانس مساره، وأخفض رأسه بودٍّ (فقد كان دَرْس الليلة الفائتة مُفيداً)؛ ثمَّ ابتسم، وأدار رأسه مؤشِّراً صوب أسفل الهضبة.

كنتُ أُدقِّق في الخريطة عندما شَعَرْتُ به واقفاً خلف ظَهْري، ووَجَبَ عليَّ لَفُّ الخريطة، ووَضْعها في جيبي، كي لا يتعرَّف على مساري المرسوم حتَّى مُصوَّع. لكنْ، ربَّما لم يكنْ يُجيد قراءة الخرائط، ولا حتَّى إنّ تلك الزُّرْقة والنقاط البُنِّيَّة تعني البحر والجبل والأرض، أرضه هو. بدا سعيداً بالنبأ، وأَطلَعَني على كلِّ المعلومات التي بحوزته حول مناطق أسفل الهضبة، بالضبط كما فعل في الأيَّام الأولى من تواجُدي معه. وأخبرني بنقاط تواجُد الماء، فيما لو قرَّرتُ الابتعاد عن النهر، وحسبَ خمس نقاط، ملامِساً أنفه بأصابعه. كرَّر لي أسماء المناطق، التي تبدأ جميعها بكلمة "ماي"، الماء. (فكلُّ نبع أو بئرٍ في هذه المناطق يحملُ هذا الاسم يعني وجود الماء فيه)، ولم يكفَّ عن التكرار حتَّى اللحظة التي دوَّنتُ فيها تلك الأسماء في دفتر يوميَّاتي. كان يُكرِّر، ويطالبني أن أُكرِّر معه الأسماء. وفي النهاية، بدأ باستجوابي، ليتأكَّد بأنَّني حفظتُ الأسماء عن ظَهْر قلب: وكان يقول: "ماي ..." مُلِحَّاً حتَّى اللحظة التي أنطق فيها اسم الموقع بشكلٍ صحيح. وعلى حين غِرَّة، خَتَمَ الدَّرْس قائلاً "أتمنَّى لكَ رحلة ميمونة"، قالها دونما سخرية، فقد كان يجهل السخرية، ثمَّ ابتعد عنِّي، كما لو أنَّني سأرحل في الحال.

بعد ذلك، عاد يوهانس في التو إلى هيئته الاعتيادية كالذي عرفتُهُ عليه في الأيَّام الأولى: شيخ عجوز نافد الصبر. فبعد أن استنفد واجبه في إرشاد عابر السبيل على الطريق، سعى إلى إفهامي بأنَّه لم ينسَ انزعاج الليلة الفائتة. وأراه الآن، مثلاً، يسير في الساحة جيئةً وذهاباً مُدَمْدِماً دون أن يرفع عَيْنَيْه عن الأرض، كأنَّهُ يبحث عن الغصن الذي ضَرَبْتُ به على جِلْد بسطاري. وحين عَثَرَ على الغصن، حَمَلَهُ بين يَدَيْه، وكَسَّرَهُ إلى أجزاءٍ عديدة، ورمى بقِطَع الخشب في النار دون أن يتوقَّف عن الدَّمْدَمَة. دَفَعَنِي ذلك السلوك الطُّفُوليُّ إلى الابتسام. "غضبةُ يوهانس"، فكَّرتُ في سرِّي، "قصيرة كما الزمن الذي تبقَّى له للعيش. فإذا لم يعدْ قادراً على الإحجام عن بعض أنواع الاحتجاج، لأنَّ إحجامه ذاك سيعني بأنَّه صار ضعيفاً. الوَضْع أفضلُ الآن، فقد هدَّأ قليلاً من غضبتِهِ وحَنَقِهِ تجاهي بعد أن كَسَّرَ ذلك الغصن، وألقاه في النار، بالضبط كما يفعل الأطفال حين يصفعون زاوية الطاولة التي ارتطمتْ بها رؤوسهم. هو الآن يعتبر نفسه منتصراً، وسيجعله ذلك الوَهْم أقلَّ إثارةً للإزعاج على مدى النهار بطوله، وعلى مدى الساعات القليلة الأُخرى التي سنقضيها معاً". ومع أنَّني كنتُ أفكِّر بذلك، فقد كنتُ أستشعر بيوهانس قادراً على الإتيان بانتقامات مدروسة، وقد أوحت لي قسوة عَيْنَيْه بفكرة أن لطافته العابرة معي تُخفي في ثناياها مناورة ماكرةً. حين ناديتُهُ بقي واقفاً أمامي مُحدِّقاً فيَّ بريبة، لكنَّه تقدَّم نحوي ببطء حين رآني مبتسماً. "يوهانس"، قلتُ له "غداً في الصباح سأغادر القرية، إلَّا أنَّني أودُّ، قبل ذلك، أن أُعرب

لكَ عن امتناني، وأعتقد بأنَّكَ ستقبل بهذا". وحين انتهيتُ من جملتي، مَدَدْتُ إليه ورقة نَقْدِيَّة.

نَظَرَ يوهانس إلى تلك الورقة مندهِشاً، ربَّما كانت الورقة النَّقْدِيَّة الأكبر قيمة من بين ما رأى في حياته، ثمَّ أتى بحركة تراجع لِمَنْ أرهبه شيءٌ ما. وَجَبَ عليَّ أن أغرز الورقة ما بين أصابعه، إلَّا أنَّه وَاصَلَ التحديق بي دون أن يقدر على الإمساك بها، فسَقَطَتْ على الأرض بعد ذلك بقليل. ابتسمتُ، وحملتُ الورقة النَّقْدِيَّة من الأرض، ووَضَعْتُها من جديد في كفِّه، إلَّا أنَّه، هذه المرَّة هزَّ رأسه رافضاً، ومَدَّها إليَّ كَمَنْ يرفض ثمن الخيانة أو ثمن الكتمان. رأيتُهُ متوتِّراً ومضطرباً ربَّما بسبب سرابِ تلك المِلْكِيَّة المفاجِئة، إلَّا أنَّه كان عاجزاً عن قبولها، لم يكن يجرؤ على شيءٍ من هذا القبيل أبداً. واستغلَّ دهشتي لما يحدُث كي ينسحبَ عائداً إلى كوخه وليختبئَ في داخله، ولم يخرج منه إلَّا ليطبخ الطعام.

رأيتُهُ، في هذه المرَّة، أكثر عبوساً من المعتاد، وكان يرمي نحوي نَظَرَات مُثقلةٍ بالكراهية، وكانت كراهيته عميقة لدرجة مَنَحَتْني الارتياح، لأنِّي سأتركه وأرحل. عَبَثاً حاولتُ إيجاد تفسيرٍ ما لذلك الرَّفْض، حتَّى اقتنعتُ بأنَّ بإمكاني العثور على التفسير في ذلك المَدْفَن على حافَّة الساحة، فأنا حليفٌ لمَنْ تسبَّبوا في امتلاء تلك الحفرة بجثامين موتاه. وها هي نَظَرَاته التي ذكَّرتْني بذات النَّظَرات التي شاهدتُها حين التقيتُهُ وهو يردم حفرة المدفن. "لم ينسَ"، قلتُ لنفسي، "ولن ينسى أبداً، وما محاولاتي هذه إلَّا مطالبة بليدة بأن يضع حقده جانباً، ويتخلَّى عن حَنَقِهِ أمام عملة ورقيَّة، تُمَدُّ إليه، والتي لنْ يمتلك الفرصة لإنفاقها أبداً، هو الذي يكفيه للعيش ذلك القليل البائس الذي تمنحه هذه الأرض، أو تلك الدجاجة الوحيدة، أو بعض الحيوانات التي تضلُّ طريقَها، وتقعُ فريسةً له، ليطبخ منها طعامه المتبَّلِ بفلفلٍ حارق. إنَّه رجلٌ حكيم، وكَكُلِّ الرجال الحكماء، يبغض المال، لأنَّه يرتاب من سِحْره الخفي. يحاول الآن التَّملُّص من إغراء ذلك المال. في هذه الصحراء! أو ربَّما يحاول أن يؤكِّد لي بأنَّني المنتصر في المعركة، وليس الصديق، أي أنّ بمقدوري أن أبيعَ له شيئاً ما، لكنْ، لا أن أُهديَهُ ذلك الشيء".

وإذاً، فقد شَعَرَ يوهانس بإهانةٍ ثقيلة ممَّا عرضتُ عليه. وتحاشى طَوَالَ النهار إلقاءَ نَظْرَة نحوي أو تبادُل الكلام معي، وحين حلَّ المساء، رأيتُهُ يبتعد عن القرية مُتَّجهاً صوبَ النهر حاملاً معه صفيحة البترول. "إنَّها ساعةٌ غير مُعتادة للذهاب صوب النهر"، فكَّرتُ، لكنِّي لم أمنح الأمر اهتماماً أكثر ممَّا يستحقُّ، فلربَّما كان البغل قد استغلَّ انشغال يوهانس أو من لا مبالاته، فشرب ما كان موجوداً من ماءٍ داخل الصفيحة، ووَجَبَ على العجوز أن يتسلَّح بالصبر، ويذهب إلى النهر كي يملأ الصفيحة بالماء. كان سيعود بالتأكيد، فلم تكن الساعة تلك مناسبةً لمواجهة الدروب صوب أعلى الهضبة، دون أن تُغامر في الضَّياع داخل تَيهِ مجاهل الغابة. ولكي أُخادِع ترقُّبي له وزمن الانتظار بدأتُ بالإعداد لليلتي الأخيرة في قرية يوهانس، ووَضَعْتُ في الغلَّاية كلَّ ما بقي لديَّ من القهوة، لأخلطَها مع ماء قارورة السَّفَر. القهوة ضرورية لإعانتي على المسير، وقرَّرتُ تخفيف ثِقَل حقيبة الظَّهْر، وإفراغها ممَّا هو فائضٌ عن الحاجة، إلَّا أنَّني لم أتمكَّن إلَّا من رَمْي القليل من محتوياتها، فبعد ان استنفدتُ ما حَمَلْتُ معي من حمولة، لم يبقَ في الحقيبة إلَّا بعض غيارات الملابس، البطَّانيَّة، رُزمة الرسائل، الإنجيل، أدوات حلاقة الذَّقْن والأوراق النَّقْدِيَّة. وَضَعْتُ داخل الحقيبة قطعة كبيرة من الخبز (صِرْتُ أُجيد صُنْعَهُ بنفسي، وقد باع إليَّ يوهانس جزءاً من دقيقه)، رَبَطْتُ الحقيبة بالحزام.

بعد مُضيِّ ساعة، كان المساء قد حلَّ، إلَّا أن يوهانس لم يعد أدراجه. وانتبهتُ بأنَّ البغل أيضاً اختفى من المكان برحيل يوهانس: وإذاً فقد تَرَكَنِي بمفردي. كانت السماء قد تَلَفَّعَتْ في تلك

الأُمسيَّة بغِلَالَة شفيفةٍ من الضباب، لذا لم أكن لأحْظى حتَّى بضياء النجوم. بدأ صبري بالنفاد، وبعد أن سِرتُ في الدرب الضَّيِّق لمسافةٍ، ناديتُ على يوهانس بصوتٍ عالٍ، لمرَّتَيْن، ثلاثاً وعشر مرَّات. لكنِّي لم أحصلْ على أيِّ جواب، باستثناء الأصوات الصادرة عن الطيور اللَّيليَّة، والتي كانت تباشر غناءها قُبيل مباشرة الضِّباع والثعالب بالعُوَاء، مُعتبرة القرية بمثابة مسكنها المقبل، ولأنَّها انجذبتْ إلى الصمت المُطبق في فضاء القرية، فقد ابتدأتْ بالإعلان عن مطالباتها الأولى. لم أحظَ بأيِّ جواب، عندها قرَّرتُ العودة إلى القرية، آملاً في أن يكون يوهانس قد عاد أدراجه خلال فترة غيابي. كنتُ أحاول إقناع نفسي بعدم أهمِّيَّة غيابه المفاجِئ هذا، ما لم يتعلَّق الأمر بوشايةٍ ضدِّي.

أمضيتُ وقتاً طويلاً إلى جوار النار المُوقَدَة. مُسنِدَاً ظَهْري إلى جدار الكوخ، ولم أكن أشعر بالنعاس. فكَّرتُ بأنَّ يوهانس ربَّما ذَهَبَ إلى القرية المجاورة، قرية البيضات، وقرَّر البقاء هناك بعد أن باغَتَهُ ظلام الليل، لكنْ، حين تأمَّلتُ في هذا الاحتمال، وَضَعْتُهُ جانباً، وتذكَّرتُ بأنَّ يوهانس حَمَلَ معه الصفيحة المعدنية، وهو ما يدلُّ على أنَّه توجَّه إلى النهر، ليحمل منه الماء، لذا فلا بُدَّ أنَّه بقي قرب النهر، لكنْ، ما السبب في بقائه هناك؟ لماذا سَحَبَ البغل معه، لو أنَّه كان يسعى لحَمْل الماء فحسب؟ بالتأكيد ليس رغبةً منه في تحميل ظَهْر ذلك البغل الكسول بصفيحة الماء. لماذا إذاً؟ آه، الأمور واضحةٌ بجلاء! فيوهانس تظاهر بأنَّه ذاهب إلى النهر لحَمْل الماء، إلَّا أنَّه يعدو الآن على صهوة البغل في الطريق المختصرة، أو ربَّما وَصَلَ الآن إلى قيادة الموقع، وهو يروي لهم عن ضابط يبثُّ عدوى المرض في قريته منذُ عشرة أيَّام، ولا يكفُّ عن تكرار أنَّه سيتوجَّه صوب أسفل الهضبة، في حين يواصل البقاء هناك، ولا ينطلق برحلته أبداً. لَعَنْتُ العجوز الذي أدار اللعبة بطريقة تَحُولُ دون قدرتي على الفرار. لم يكن بمقدوري البدء برحلتي إلَّا في الفجر، لكنّ الطُّرُقات ستكون تحت المراقبة منذُ ساعات الفجر الأولى بمفارز من الدرك. اعتبرتُ أنَّه استغلَّ، بنباهته البدائيَّة، ظُلمة الليل، لينصب كمينه لي. "حسنٌ"، قلتُ لنفسي مؤنِّباً، "تستحقُّ هذه الخاتمة!". وبقلبٍ ممتلئٍ بالحَنَق، نُظَرْتُ إلى الساعة: إلَّا أنَّها لم تكن تشير إلَّا للسابعة مساءً. كانت قد توقَّفتْ عن الدوران عند ذلك التوقيت. "ها نحن ثانيةً"، قلتُ، واعتبرتُ ذلك فألاً سيِّئاً، زاد من استيائي الذي كان فائضاً أصلاً.

ثمَّ جال في ذهني افتراضٌ آخر ضاعف استيائي، وأَقْلَقَنِي، وهو أن يكون يوهانس قد تعرَّض إلى الغرق في مياه النهر، وبأنَّ البغل مَكَثَ هناك عند ضفَّة النهر، مندهشاً من التَّطوُّر السريع للحَدَث الذي دار أمام عَيْنَيْه دون أن يتمكَّن من إدراك حقيقة ما يجري، عاجزاً عن تقديم يد العون إلى العجوز المسكين.

نَهَضْتُ واقفاً على قَدَمَيَّ على الفور، وحَمَلْتُ من النار الموقَدَة غُصناً كبيراً مُتَّقِدَ الرأس، وبفضل الضياء الصادر من تلك الشُّعلة (كنتُ أُحرِّكها في الهواء، لتظلَّ مُتَّقِدَةً)، عُدتُ من جديد إلى الدرب، صارخاً باسم يوهانس، كي أمنح نفسي جرأة إضافيَّة. كانت الظلال قد تعدَّدتْ بشكل مثير للرعب، وكنتُ أتمكَّن من العثور على مواطئ قَدَمَيَّ بصعوبة بالغة. كنتُ أصرخ باسم العجوز ليس أملاً في أن يردَّ على نداءاتي، بل لأُخيفَ الحيوانات التي اعتادت التَّوجُّه صوب النهر في تلك الساعات، لترتويَ من مائه. وكلَّما تقدَّمتُ كان الدرب الذي يقود إلى النهر يزداد وعورةً وهبوطاً خطيراً، يلفُّهُ الظلام الدامس. كانت الشُّعلة تُضيء الطريق أمامي لخطوات قليلة فحسب، ويَحُولُ الظلام الدامس دون رؤية الوادي ومجرى النهر. وحين قدَّرتُ بأنَّني نزلتُ في

الدرب مسافة لا بأس بها، توقَّفتُ عن المشي، واعتبرتُ أن من غير المفيد إطلاقاً مواصلة المسير فيما لو أنّ يوهانس قد تعرَّض إلى الغرق بالفعل، وبأنَّ البغل بقي جاثماً في مكانه عند حافَّة النهر. فلو كان هناك، فإنَّني سأسمع شحيحه. لم يكن هناك، في الأسفل، أيُّ كائن حَيٍّ، وباستثناء خرير الماء ورفيف أوراق الشجر، ولم أستشعر بأيَّة نَأمَة تصدر من الأسفل.

وماذا لو أن التمساح الغاطس في النهر ابتلع البغل أيضاً؟ كان عليَّ التَّأكُّد من الوَضْع، فقرَّرتُ مواصلة النزول، وبعد قليل، شَعَرْتُ بأنَّني بَلَغْتُ حافَّة النهر، لكنِّي عجزتُ عن رؤية أيِّ شيء، باستثناء أنّ خرير الماء صارَ أعلى من ذي قبل، وهو ما كان يؤكِّد لي بلوغ حافَّة النهر. حرَّكتُ الجمرة في الهواء فوق رأسي، لكنْ، دون أن أتمكَّن من رؤية أيِّ شيء، رَغْمَ قناعتي بأنَّ تلك الظُّلمة القاتمة هي مجرى النهر. أخفضتُ الجمرة، فعثرتُ على حُفَرٍ، نَتَجَتْ عن حوافر البغل، لكنْ، دون أن تكون هناك أيَّة آثار لاشتباك أو للدم. كانت هناك بعض الآثار على الرمل، كما لو أنَّها نتجت عن مسحاةٍ، إلَّا أنَّها كانت منتظمة دون اضطراب. شَعَرْتُ بالحبور لعدم عثوري على آثار لصراع، لكنّ حبوري دام قليلاً، لأنَّ ذلك قد يعني بأنَّ يوهانس توجَّه إلى أعلى الهضبة. "يوهانس"، ناديتُ صارخاً من جديد، إلَّا أنَّ أُذُنِيّ لم تلتقطا إلَّا خرير النهر، عندها عُدْت عبر الدرب عَدْوَاً، متسلِّقاً بقَدْرٍ من التَّعجُّل. بعد ما يربو على مائة متر، صَدَمْتُ صفيحة البترول. كانت فارغةً، وشبه مُخبَّأةً بين جذوع الشجر، وإذاً فقد وَصَلَ يوهانس حتَّى تلك النقطة من الدرب. وانتبهتُ بأنَّ الدرب يتفرَّع إلى قسمَيْن، فسرتُ الخطوات في درب مجهولٍ بالنسبة إليَّ ، صارخاً من جديد باسم العجوز. بعد بضعة أمتارٍ كان ذلك الدرب ينتهي في فُسحةٍ من الأرض أصغر من قرية يوهانس. حرَّكتُ الجمرة المشتعلة، فرأيتُ بأنَّ الفسحة مُغلقةٌ في نهايتها بكوخٌ دائريٍّ، طُلِيَتْ جدرانه بالطين، فيما تغطَّى سقفه بالقشِّ وأغصان الشجر. كان كوخاً جيِّد البناء، لكنَّه كان مهجوراً بالكامل. كان الكوخ دون باب، إلَّا أنَّني لم أجرؤ على الدخول، واكتفيتُ بمناداة يوهانس، وانتظرت لبُرْهَة، بعدها أقفلتُ عائداً أدراجي إلى ساحة القرية، كانت الجمرة قد انطفأت، كما انطفأت النار الموقَدَة أيضاً. كان الجمر في الموقد قد استُنفِدَ بالكامل، فاضطُرِرْتُ إلى إعادة إضرام النار من جديد. لَعَنْتُ العجوز في سرِّي، لأنَّه اختفى دون أن يُعلمَني بشيء، بعد أن تكهَّن بتفاصيل خطَّتي في الرحيل في فجر اليوم التالي دون إلقاء التَّحيَّة عليه.

"أنَّى لِيَ أن أنام الآن؟!"، قلتُ لنفسي، ومن نافل القول بأنَّ محاولاتي للنوم باءت بالإخفاق، وبقيتُ يَقِظاً وحَذِرَاً لأيَّة نَأمَة، وعلى استعداد لإطلاق الرصاص في الظُّلمة على أي ظلٍّ يتحرَّك، على جميع الظلال. كان المدفن شاخصاً أمامي، وكان عليَّ أن أُواصل التحديق فيه، لعجزي عن إدارة ظَهْري إليه. ولمقدار ما كنتُ أستشعرُ من مخاطر، قرَّرتُ الدخول إلى الكوخ، إلَّا أنَّني خرجتُ منه في الحال باضطرابٍ أكبر؛ مُقنِعاً نفسي بأنَّني أُفضِّل، في نهاية المطاف، رؤية الأشياء. كنتُ أُريد رؤية مَنْ سيُباغِتُني. في تلك اللحظة، ثار في بالي الفضولُ الذي يتسبَّبُ في مقتل الجنود خلال المعارك، حين يدفعهم الخوف إلى رَفْع رؤوسهم خارج المخبأ، لأنَّ الجميع يرغبون في رؤية الأشياء، رؤية العدوِّ، على الأقلِّ، لا أن يُخمِّنوا وجوده فحسبْ، هناك على الطرف الآخر من ساحة المعركة.

عُدتُ إلى المناداة الصارخة باسم يوهانس، صرختُ بأعلى الصوت حتَّى الدرجة التي سَمَحَتْ بها أوتاري الصَّوتيَّة، ورَفَضَتْ بعد ذلك حتَّى عن إصدار حشرجة خفيفة. استندتُ على جدار الكوخ، يُبلِّلني العَرَق الذي تصبَّب منِّي مِدْرَارَاً، وانزلق المُسدَّس من يدي لأكثر من مرَّة. وكنتُ في كلِّ مرَّة أعود إلى حَمْلِهِ، حتَّى اللحظة التي قرَّرتُ فيها تَرْكَهُ على الأرض، إذْ عجزتُ عن حَمْله.

كنتُ أشعر بلا جدوى ذلك السلاح.

كنتُ أشعر بالوَهْن عندما باغت خياشيمي عطرٌ عذبٌ، أدخل فيَّ قَدْراً من الفرح والارتياح، وأفترض بأنَّ ما تصبَّب منِّي عَرَقاً أحيا عطرها الذي تشبَّع به قماش الجُبَّة العسكريَّة، ذلك العطر الذي فاح منها وهي تبكي على كتفي في ظُلمة صالة السينما. كان عطراً لطيفاً، كما لو أنَّه صَدَرَ عن (زهرِ بخور مريم)، نَبَتَ على مسافةٍ بعيدة، أحسستُ بذلك رَغْمَ أنَّني أجهل العَبَق الصادر عن هذا الزهر. لكنّ رقَّة وعذوبة ذلك العَبَق جَعَلَاني أربط ما بينهما وزَهْرِ بخور مريم، بحُزمةٍ جميلة من زَهْر بخور مريم. لكنَّه كان عطراً يصدر عن مسافة بعيدة، فسألتُ نفسي عمَّا إذا كان الوادي يحتضن بين ظَهرانَيْه تلك الزهور أيضاً. شَمَمْتُ جُبَّتي، واكتشفتُ بأنَّ العطر لم يصدر من ذراعها. لا أذكر بأنَّ زوجتي كانت تستخدم هذا العطر الطُّفوليَّ والشفيف. إلَّا أنّ ذلك العطر أعاد إليَّ قَدْراً من الحيوية، وجَعَلَني أتذكَّر أيَّام الطفولة. أين شَمَمْتُ ذلك العطر، يا إلهي؟ لم يكن شبيهاً بأنواع العطور التي ولَّدت لديَّ اضطرابات في السابق. كلَّا، كان عطراً لطيفاً وعذباً وصعب المنال، وانتهى بي الحال إلى إحالة الأمر لخيالاتٍ ناتجةٍ عن الجوع.

لم يمْضِ وقت طويل، وتلاشى العطر أيضاً، وبقيت بمفردي. خشيتُ أن يتملَّكني الخوف، لكنْ، ما الذي ينبغي أن أخاف منه؟ ليس هناك أيُّ سبب يدعوني إلى الخوف، كرَّرتُ لنفسي. ركَّزتُ نَظَرَاتي في الظُّلمة، لكنْ، دون أن أتمكَّن من رؤية أيِّ شيء، ولا حتَّى ظلالاً باهتةً للأشياء، كما أنّ ذؤابات الأشجار بَدَتْ لي وكأنَّها التصقت بقبَّة السماء، كانت الظُّلمة دامسةً وموحَّدةً في كلِّ مكان. بإمكاني أن أُصنِّف نفسي كمعصوب عَيْنَيْن طالما أن العَيْنَيْن تعجزان عن تحديد أيِّ عُمقٍ في تلك الظُّلمة، ولم أعدْ أستمع حتَّى إلى خَشْخَشَة أسنان فأرة تقضم شيئاً ما أو دبيبَ أيَّة حشرات، وتأخَّر في تلك الليلة حتَّى عُوَاء الذئاب وصيحات الضِّباع الشبيهة بالقهقهة. "أمن الممكن أن يحدُث كلُّ هذا مع بعضه؟" قلتُ لنفسي، "تُرى هل اختفت الجثث النافقة في هذا الوادي، وحلَّت محلَّها باقاتٌ من زَهْر بخور مريم؟". حتَّى الطيور خَلَدَتْ إلى النوم، ولم يعد يصدر عنها أيَّة نَأمَة أو رفيف جناح، كما لم تعد تَكْتَكَةُ رقَّاص ساعتي تكسر الصمت المطبق. شَحَنْتُ الساعة. لا بُدَّ أن تكون حبَّة رمل قد تسلَّلت إلى داخلها، وأَوْقَفَتْها عن الحَرَاك. ركَّزتُ نَظَري على جمرات الموقد، إلَّا أنّ الظُّلمة حولي كانت دامسةً سوداء، ولم يكن بوسعي الابتعاد عن الكوخ، هذا لو افترضْنا قدرتي على النهوض من مكاني؛ خمَّنتُ بأنَّ الساحة ستصدُّني بالتأكيد. إذَّاك بدأتُ أضحك من ذلك الخوف، فحَمَلْتُ غُصناً، وبدأتُ أضرب به جدار الكوخ بإيقاع موسيقي مصاحب لأُغنيَّة. ثمَّ أدَّيتُ بصوتٍ عالٍ مقطعاً شِعْرِيَّاً، تعلَّمْتُهُ خلال سِنِي المدرسة الابتدائية، كان شِعْراً باللغة الفرنسية، يقول شطره الأوَّل: "ساعة لي؟ يا لسعادة! ([24])"، دُهشتُ من قُدرتي على تذكُّر تلك القصيدة، وأعدتُ قراءتها من جديد، إلى الدرجة التي بَدَتْ فيها القصيدة ذاتها خاليةً من أيِّ معنى، إلَّا أنَّها هدَّأت من روعي، وما عُدتُ أرتعش. كرَّرتُ تلك القصيدة مرَّات ومرَّات، وفي الفجر فحسب، أدركتُ بأنَّني مُصابٌ بالحُمَّى، وربَّما كنتُ أهذي. لا نفع في التفكير بالبدء بالرحلة، كانت الحقيبة جاهزةً، لكنِّي لم أقوَ حتَّى على حَمْلها عن الأرض. لعنتُ مخاوفي، الآن بعد أن بدأت الظلال بالتلاشي، وانفتحت الساحة الصغيرة أمام ناظرَي، ولَعَنْتُ يوهانس. كنتُ أُواصِلُ توجيه اللعنات بالضبط حين رأيتُهُ يصل من الدرب الذي يقود إلى النهر مُمتطِياً صهوةَ البغل. لم أتمكَّن من ضَبْط نفسي، وهُرعتُ صوبه، فرأيتُهُ يُدخِّن سيجارة.

اضطربتُ إلى الدرجة التي لم أطرحْ عليه سؤالاً، أمَّا هو، فقد اكتفى بإلقاء نَظْرَةٍ عليَّ، وحيَّاني

بإيماءةٍ عابرة، ووَلَجَ إلى كوخه، ثمَّ خَرَجَ منه، ليُوقِدَ النار، ليُسخِّنَ بعض الشراب في علبة الصفيح. كان يبدو على مزاجٍ هادئ، ويُواصِل محادثة البغل، كما قدَّم له كِسْرَةً من الخبز.

حَمَلَ معه عدَّة بيضات، وعلبة من الدقيق. ربَّما ذَهَبَ إلى القرية الأُخرى، عبر طريقٍ جانبيَّة. وماذا عن تلك السيجارة؟ هل طَلَبَهَا من جندي أم أنَّهم قدَّموها إليه في القرية نفسها (إلَّا إذا كانت عُقب سيجارة مَرمِيَّة، عَثَرَ عليها، وحافظ عليها بحرص شديد). وبدا جَلِيَّاً، من الطريقة التي كان يمسك بها السيجارة بين شَفَتَيْه، أنَّها المرَّة الأولى التي يضع فيها سيجارة في فمه. كان يُبذِّر تلك السيجارة! وعندما احترق التبغ بأكمله، رمى العُقب نحوي، لكنِّي لا أعتقد بأنَّه تعمَّد ذلك. دُسْتُ على عُقب السيجارة، لأُطفِئَها، دُسْتُ على العُقبِ بغضب، وبغضبٍ أعمق، شَعَرْتُ بالاستياء إزاء حركتي الصِّببيانيَّة تلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٦

صرتُ أُفضِّل النوم نهاراً والسهر ليلاً، أغفو عند الفجر، ويتواصل نومي حتَّى ساعات متأخِّرة ممَّا بعد الظُّهْر. كنتُ أنام داخل الكوخ، كان صوت يوهانس وشحيح البغل يمتزجان بالأصوات التي أستمع إليها في أحلامي المضطربة، بسبب الحَرِّ الشديد، وبما أنَّني كنتُ أمكث داخل الكوخ حتَّى ساعة خروجي منه، كان العجوز يواصل الثرثرة: تلك وسيلته للحصول على الرفقة، وفي بعض المرَّات، استمعتُ إليه يتكلَّم لغتي بشيء من الغُنْج المصطنع. لم يكن يتكلَّم عن أمورٍ هامَّة جدّاً، بل يكتفي بتفسير ما كان يقوم به في تلك اللحظة من فِعْل، فعلى سبيل المثال، كان يقول: "الآن سيحمل يوهانس الماء، ويضعه فوق النار المُوقَدَة"، أو "الآن سأبدأ بتقليم عيدان الخشب"، وهكذا دواليكَ، جُملٌ قصيرة كانت تبلغني كرسائل مُرحِّبٍ بها، لأنَّها تعني بأنَّ يوهانس لم يبتعد عن المكان، وبأن الأمور في الساحة الصغيرة تسير على ما يُرام.

إلَّا أنَّه كان في بعض المرَّات يتكلَّم بسرعة كبيرة، بلُغته المحلِّيَّة، وكنتُ واثقاً بأنَّه يُحادِثُ البغل، رَغْمَ صعوبة إمكان التَّعرُّف على فحوى ما كان يقوله. أعلم بأنَّه يُحادِث البغل، وغالباً ما كانت جُمَلُه تُختتَم بصوت ضربة عصا على ظَهْر الحيوان، ضربات صداقيَّة ورئيفة، تتبعها هرولة البغل الذي يبتعد حتَّى حدود الساحة، ليعود منها من جديد، وإذَّاك كان يوهانس يُعيد الكَرَّة. لم تكن تلك الضوضاء تُزعِجُني، أو لنَقُلْ بأنَّني تعوَّدتُ على تحمُّلها؛ وكنتُ، ما بين النوم واليقظة، أستبق بعضاً من جُمل يوهانس والأعمال التي يقوم بها، ونادراً ما كنتُ أُخطئ في ذلك. أضفْ إلى ذلك بأنَّ يوهانس كان يُقدِّر عدم استيائي من الضوضاء التي يُثيرها: فكونه لا يراني أجول في أرضه من الفجر وحتَّى ساعة متأخِّرة من العصر، جَعَلَ من تواجُدي في القرية أقلَّ وطأة وثِقَلاً على نفسه. كنَّا قد توصَّلْنا إلى اتِّفاق هُدْنَةٍ غير مكتوب، فأنا أتحاشى إزعاجه بفَرْض هيمنتي عليه، وهو، تخلَّى عن سلوكه الوَقِح تجاهي، وكان يردُّ على كلماتي بودٍّ، وغالباً ما كان هو مَنْ يبدأ بالحديث. ومنذُ تلك الليلة، عَرَضَ عليَّ أن أشتريَ منه البَيضَ والدقيقَ مقابل مبلغ زهيد للغاية، ولأنَّني تذكَّرتُ رَفْضه الأوَّل للمال، تحاشيتُ إعطاءَه مبلغاً أعلى مقابل ما أشتري منه.

في عصر اليوم الثاني عشر، ابتعدتُ عن الساحة، وتوجَّهتُ إلى القرية الأُخرى التي رأيتُ فيها الكوخ الدَّائريَّ في الليلة التي كنتُ عائداً فيها من النهر. رآني يوهانس أُغادر المكان دون أن أقول شيئاً، وبعد قليلٍ، كنتُ أقف قُبالَة ذلك الكوخ. كان الكوخ يبدو بناءً أفضل بكثير من الأكواخ الأُخرى الموجودة في القرية. ولكي تدخله، عليكَ أن تصعد ثلاث درجات طينيَّة، إذْ لم تكن أرضيَّة الكوخ على نفس مستوى الدرب، وهذا ما كان يُصعِّب من ولوج الحيوانات السائبة إلى داخل الكوخ، وكذا بالنسبة إلى النمل الذي كان يملأ المنطقة بأسرها. جدران الكوخ مَطلِيَّة بالطين، ويقوم فوقها سقف مخروطي، صُنع من القشِّ المصفوف بانتظام. كلُّ ذلك كان يُبدي ذلك الكوخ كما لو كان حَلَبَة صيد. لم يكن الباب موجوداً، لكنِّي أفترض أنَّه خُلِع من مكانه، فقد كانت المفاصل ما تزال هناك في إطار الباب. داخلُ الكوخ أيضاً دائريّ الشكل، وربَّما كان طول قُطْره بما يربو على ستَّة أذرع. بدا لي الكوخ نظيفاً، لكنْ، دونما أيِّ قطعة أثاث، وحتَّى من أكثرها بدائية. وعلى الأرض، توجد قِطَع أوانٍ خَزَفِيَّة متربةٍ وكفى، لم تكن هناك مَنَامَةٌ، حصيرةٌ أو حتَّى كرسيّ. سألتُ نفسي عن السبب الذي حال دون اختيار يوهانس لهذا المكان أو لهذا الكوخ الذي يوفِّر أموراً عديدة، فإضافة إلى كونه قريباً من النهر (إذْ كان يكفي أن تهبط الطريق المنحدرة، لتجد نفسكَ على حافَّة النهر)، فقد كان الظِّلُّ الدائم للأشجار المُورِقة والخضراء التي تُحيط

بالمكان، يُطيل من ساعات الظُّلمة، وهو أمرٌ في غاية الأهمِّيَّة في هذا البلد الذي تسطع عليه شمسٌ حارقة دونما توقُّف على مدار العام.

تمكَّنتُ، فيما بعد، من العثور على تفسير لتردُّد يوهانس إزاء ذلك الاختيار، فقد اكتشفتُ فوق الباب أثراً، أو شيئاً ما يُشبه الرَّسْم، أشعلتُ عودَ ثُقابٍ، وقرَّبْتُهُ من الأثر: نعم، كان ذلك جزءاً من رَسْمٍ بدائيٍّ للغاية، ومنتشر في هذه الأصقاع: ملاكٌ يقتل تنِّيناً. كان الرَّسَّام قد بَذَلَ جهداً كبيراً في إنجازه، ولكونه (على ما أفتَرِضُ) يجهل شكل التِّنِّين، فقد مَنَحَ الوحشَ هيئةَ التمساح. وإذاً لم يسكن يوهانس في ذلك الكوخ لأنَّه كان كنيسة، أو ربَّما صومعةً نذريَّة. لكنْ، لم يكن هناك أيُّ أثرٍ للمحراب أو لأيِّ شيءٍ يمكن أن يدلَّ على كنيسة أو مكاناً مُقدَّساً، باستثناء بقايا ذلك الرَّسْم. وفي نهاية المطاف، استخلصتُ بأنَّ ذلك الكوخ لم يكن كنيسةً أو صومعةً: ففي تلك الحالة كان ينبغي أن يكون الرَّسْم في مواجهة الباب، بحيثُ يُرى بوضوحٍ حتَّى من خارج الكوخ.

ألقيتُ نَظْرَة على الملاك المرسوم، وكنتُ على وشك الخروج من الكوخ عندما شاهدتُ يوهانس يظهر أمامي على عتبة الكوخ. كان يبتسم لي بسعادةٍ لافتة، لأنَّني تأمَّلتُ بإعجابٍ في ذلك الكوخ الذي يبدو له مُثيراً للدهشة. وبينما كان يُدقِّق داخل الكوخ، ليتأكَّد بأنَّ كلَّ شيءٍ في مكانه، أشار إلى جدران الكوخ، وطَرَقَ عليها بظَهْر مفاصل أصابعه، ليُسمِعَني صدى الضربات، أعني أنَّه كان ينظر حوالَيْه بذات الأناة التي يقوم بها النادل بتقديم الغرفة لنزيل الفندق. ربَّما كان يرغب في أن آتيَ لأسكن داخل ذلك الكوخ، كي لا يراني قُبَالَته في النهارات بطولها. ولكوني عجزتُ عن قول أيِّ شيء إزاء حماسته تلك، امتدحتُ البناء، وسألتُهُ عن سبب عدم اختياره لسُكْناه. أجابني بأنَّ الكوخ ليس مِلْكاً له، وكان ذلك الجواب هو الأبعد عن توقُّعاتي. لقد أضعتُ مبدأ المِلْكِيَّة، ولم أُسائل نفسي أبداً ما إذا كانت مِلْكِيَّات الأكواخ الإفريقيَّة تعود لأشخاصٍ مُحدَّدين أم أنَّ الطبيعة مَنَحَتْهَا إليهم كجزءٍ من تركيبتها الشاملة، أموالٌ غير منقولة في خدمتنا نحن المتنقِّلون الفانُون. واستخلصتُ من ذلك أيضاً بأنَّني أحتلُّ الكوخ الذي أنام فيه بشكل غير مشروع، وبدا لي فائضاً عن الحاجة أن أستميحَ يوهانس، وأطلبَ منه الإذن بسُكنى ذلك الكوخ. وبابتسامةٍ أخبرتُ يوهانس عمَّا دار في خَلَدِي في تلك اللحظة، فقابلَني بابتسامةٍ صادقة. كلَّا، ليست إقامتي، في ذلك الكوخ، غيرُ مشروعة، بإمكاني البقاء فيه، كما أشاء. وإذاً لماذا يضع هذه الفروقات الدقيقة؟ لِمَ لا هذا الكوخ، فيما لا مانع بالنسبة إلى الكوخ الذي أسكنه؟. "يوهانس"، قلتُ له "هل يمكنني أن آتي إلى هنا، وأحتلَّ هذا الكوخ؟"، بدا لي منزعجاً من الطَّلَب، وردَّ عليَّ بأنَّ الكوخ ليس مِلْكاً له، وليس بمقدوره مَنْح نفسه حقَّ التَّصرُّف به. وأخبرني أن بإمكاني احتلاله، فلديَّ كلُّ الحقِّ في ذلك، إلَّا أنَّه، هو، لا يمتلك حقَّ التَّصرُّف به. "ولمَنْ تعود مِلْكِيَّة هذا الكوخ؟" سألتُهُ ("لمَنْ يمكن أن يكون؟"، فكَّرتُ "إنْ لم يكن لذلك الراهب الذي رأيتُهُ في الغابة برفقة يوهانس؟، وهذا يُفسِّر بوضوح وجود ذلك الرَّسْم").

كان يوهانس يتردَّد في الجواب، ثمَّ قال بأنَّ مِلْكِيَّة الكوخ تعود لشخص لم يعد يُقيم في هذه القرية، وربَّما سيعود يوماً ما. وحين نَطَقَ بهذه الكلمات حَدَّقَ في وجهي بشكلٍ مباشر، مُقرِّباً رأسه من رأسي (أو هذا ما بدا لي). "حسنٌ"، فكَّرتُ، "وإذاً، فهو، بالتأكيد، كوخ مريم". "وهذا الشخص"، سألتُهُ "كان يسكن في الكوخ وحده؟"، أجابني بنعم. ما السبب الذي جَعَلَ ذلك الشخص يعيش في الكوخ وحده؟ لم يتمكَّن يوهانس من الرَّدِّ على سؤالي هذا، أو ربَّما لم يرغب في مَنْحِي جواباً عليه. هو بالأحرى لم يرغب في ذلك.

صَعِدْتُ الدرجات الثلاث مُجدَّداً، وأشعلتُ عود ثِقابٍ آخر، لأُلقي نَظْرَةً أخيرة على الصورة المرسومة. في هذه المرَّة، اكتشفتُ أنَّ هناك، تحت جسد التمساح، ثَمَّةَ ما يُشبه زخرفة مخروطيَّة لكتابة دِينيَّة على شكل ورقٍ ملفوف، فُتِحَ من أحد جوانبه، وتتضمَّن تلك الزخرفة كلمات كُتِبَتْ باللغة القبطيَّة. "ما الذي تعنيه هذه الجملة؟"، سألتُ يوهانس. سَحَبَ العجوز عُلبة أعواد الثِّقَاب من يدي، وأشعل عودَيْن، قرأ الجملة، وأغمض عَيْنَيْه، ومن ثمَّ ترجم لي الجملة بقَدْرٍ من العناء. لم أفهم منه شيئاً، ووَجَبَ عليَّ أن أجعله يُكرِّر ما قال، وفي النهاية استوعبتُ الأمر بوضوح أكبر؛ ففي خاتمة المطاف أدركتُ بأنَّ ذلك الكوخ هو كوخي أنا، وبأنَّني سأسكنه على مدى الحياة.

بعد هذه القراءة اعترتْني حالةٌ من الإحباط، جَعَلَتْنِي أهرب من ذلك المكان، وأُسارع الخُطى للعودة إلى ساحة قرية يوهانس الصغيرة، ذلك المكان المُقزِّز الذي بدا لي في تلك اللحظة كالفردوس المُضاء بنور الشمس. حضور البغل، الضياء الذي يُنير ذؤابات الشجر، ويرسم ملامح الجبال البعيدة وسفحُ أعلى الهضبة مُبدياً إيَّاها قريبةً منِّي، الأكواخ المُعوَجَّةُ والمُرقَّعة، المدفن المُغطَّى بالعشب، نارُ يوهانس الموقدة التي يُصدِرُ خشبها المحترق فرقعاتٍ، ويتصاعد دخانها من المدخنة. بدا لي كلُّ شيء هنا، بتحصيل الحاصل، وكأنَّه يتغنَّى بالحياة. لا أعتقد بأنَّ أيَّ غريقٍ تعلَّق في الليل بقطعة خشبية طافيةٍ فوق سطح الماء، وأفاق في النهار التالي مُحاطاً بنساءٍ ورجالٍ، بأطبَّاءٍ ومصوِّرين، تهافتوا على الساحل مُبدين له تعاطفهم معه ودهشتهم لنجاته من لُجَّة البحر، قد امتلك الإحساس بسعادة البقاء على قيد الحياة كتلك التي غمرتْني وأنا واقف في منتصف ساحة قرية يوهانس، كَلَّا، لم أكنْ لأترك تلك القرية أبداً لألتجئ إلى ذلك الكوخ المرعب الذي يترقَّبني. عندما اقترب منِّي البغل، مسَّدْتُ بيدي على رأسه لوقتٍ طويل، بينما كانت الدموع تحول دون أن أرى ما الذي يفعله يوهانس. لا شيء استثنائياً، بالتأكيد كان يُعدُّ الطعام.

"لن يتمكَّن أيُّ إنسانٍ من مَنْعي في البقاء هنا"، قلتُ للبغل، ولأنَّه كان فَرِحَاً من مداعبتي له، فَرَكَ رأسه بكتفي. وكي لا أنهارَ تحت وطأة الإحباط، قرَّرتُ إعداد الإفطار لنفسي، وبدأتُ بعجن الطحين. إلَّا أنَّني أُحبطتُّ بعد وقت قصير، فهُرعت إلى يوهانس. "مَنْ هو الشخص الذي كان يسكن ذلك الكوخ؟".

حَدَجَنِي يوهانس بنَظْرَة طويلة، زَمَّ شَفَتَيْه، وتوقَّف عن الأكل نافد الصبر. ولأنَّه لم يكن يردُّ عليَّ. كرَّرتُ له السؤال مرَّتَيْن وثلاثاً. ولوَّحتُ له تحت أنفه بقبضتي المضمومة والمغطَّاة بالعجين، وأنا على استعداد لأصفعَهُ إذا ما امتنعَ عن الرَّدِّ.

"لمَنْ كان ذلك الكوخ؟" صَرَخْتُ في وجهه.

فردَّ عليَّ يوهانس: "لقد كان الكوخ لراهب".

هدأتْ ثائرتي فجأةً. "وأين هو الآن؟".

دار يوهانس بناظرَيْه في الأرجاء، مندهشاً من جهلي بالأمر، وأومأ بيده التي ما تزال مُمسكة بالسِّكِّين "هناك"، وأشار إلى المدفن.

حين عاد إلى تناوُل وجبته، عُدتُ إلى عَجْن الطحين وأنا أُحدِّق بالمدفن، بأملٍ طفيف يدعمني، إلَّا أنَّني تذكَّرتُ في الحال بأنَّ يوهانس قال، فيما سَبَقَ، بأنَّ مالك ذلك الكوخ قد يعود إلى القرية.

ها هو وقد اصطدتُ تناقضاته. لقد كَذَبَ عليَّ شريطة ألّا يعترف بوجود مريم. أو ربَّما كان يُقرُّ بأنَّني مُصابٌ بالجُذَام، وبأن ذلك الكوخ بانتظاري، غير أنَّه لم يكن راغباً في الاعتراف بوجود مريم.

"يوهانس"، قلتُ له "ومتى سيعود هذا الشخص؟".

نَظَرَ إليَّ، ابتسم، وهزَّ رأسه، وقال بأنَّ ذلك أمراً ليس بمقدور أحدٍ معرفته أو التَّكهُّن به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٧

كنتُ أحسب الأيَّام، وأُسجِّل مرورها على أحد أعمدة الكوخ. بَلَغَ عدد الخطوط العمودية ثمانية عشر خطَّاً. ستَّةُ خطوط أُخرى كانت تُؤشِّر للأيَّام التي قضيتُها ما بعد حصولي على الإجازة، ومتى ما تجاوز عدد الخطوط ستَّةً وأربعين (لأنَّني كنتُ أحسب أسبوعَي الذهاب والإياب من إيطاليا، ما بعد انقضاء الإجازة) سأُعتَبَرُ بعدها فارَّاً من الخدمة العسكريَّة: وتلك تهمةٌ جُرميَّةٌ إضافيَّة أُخرى. عليَّ بالفعل أن أترك تلك القرية قبل حلول ذلك الأجل، وأن أتوجَّه إلى مُصوَّع، وحيثُ لم يكن هناك أيُّ رُبَّان يمتنع عن حَمْلِي على مَتْن سفينته، طالما أنَّني صرتُ أملك المال الكافي. حسبتُ ما لديَّ من مال، وكان ما يربو على سبعين ألف ليرة إيطاليَّة، خبَّأتُهُ بعناية داخل الحقيبة مُخفِياً إيَّاه في محفظة أدوات حلاقة الذَّقْن، لأمنع الفئران من قَضْم الأوراق النَّقْدِيَّة (وقد رأيتُ بعضاً منها، كبيرة الحجم، تجول حوالي الكوخ). لم أكن أثق حتَّى ببغل حَمْل المؤونة، الذي كان على أُهْبَة الاستعداد لالتهام أيِّ شيء.

بَدَأتْ ملامح البدانة تظهر على البغل، بسبب حياته الجديدة الهادئة والخالية من الأتعاب والأثقال بالتأكيد. لم يَعُدْ حيوان النَّقْل المُنهَك الذي التقيتُهُ للمرَّة الأولى على الدرب قبل واحد وعشرين يوماً؛ كنتُ أراه أكثر حيويَّة، وعلى أُهْبَة الاستعداد ليهشَّ جانبَيْه بعنف بذيله المصفرِّ. كنتُ قد أزلتُ عن عنقه الحبل منذُ فترة، وبدا عُنقه الآن أكثر اعتدالاً، والتمعتْ زغبات شَعْره، وطالت. وعلى العكس منه، فقد شَعَرْتُ بأنَّني فَقَدْتُ الكثير من وزني. كان البغل حيواناً مثيراً للفضول، وأعتقد بأنَّه يعتبرني دخيلاً على المكان، وبأقسى ممَّا كان يعتبرني عليه يوهانس، والذي كان قد ابتدأ معه بعلاقة مودَّة حَذِرَة. فعندما كان يوهانس يهبط صوب النهر حاملاً صفيحته المعدنيَّة، كان البغل يتبعه. وفي المرَّات التي يرحل فيها يوهانس دون إشعاره (وأعتقد أنَّه كان يفعل ذلك مدفوعاً بالزَّهْو وبالغرور)، كان الحيوان يقفز واقفاً على قوائمه الأربعة، ويهرول بتُؤَدَة، ليغيب وسط أحراش الغابة مُقتفياً آثار مُضيفه المتجاهل لصرخاته وهو ينهره عن اللحاق به. أعتقد بأنَّ يوهانس كان يتدبَّر للبغل ما يقتات به، وهذا هو سبب تعلُّق الحيوان غير المشروط به.

وبما أنَّ يوهانس كان يعمل دائماً على تقليم جذوع الأشجار وإعداد الأعمدة (وهو ما لم يكن ينتهي منه أبداً)، فقد كان الحيوان يقترب من العجوز، ويُدقِّق فيما يفعله، حتَّى اللحظة التي كان فضوله يبلغ فيه مقداراً لا يُحتمل، فيُبادر يوهانس بطَرْده مُنْزِلاً ضربته الوئيدة على ظَهْره. ومع ذلك فقد كان كلاهما يُحبُّ الآخر، كلٌّ على طريقته، وكثيراً ما أفسدتْ عليَّ مشاعر شبيهة بالغَيْرة بعضاً من أيَّام إقامتي في القرية. ففي أحد الأيَّام، بلَغَتْ ريبة البغل تجاهي أن رَفَضَ قطعة خبزٍ، مَدَدْتُها إليه بيدي، وبدا في غاية السعادة وهو ينال ضربة سوطٍ على ظَهْره من العجوز. وبما أنَّني خمَّنتُ بأنَّ الجندي الذي كان يقوده عوَّده على هذا السلوك، فقد فكَّرتُ بأنْ أتعامل معه بذات طريقة يوهانس، إلَّا أنَّني أدركتُ في الحال ضرورة الإقلاع عن الفكرة، لأنَّ بالإمكان أن أكون ضحيَّة لانتقامه. لذا فقد دُهشتُ في عصر اليوم الحادي والعشرين عندما رأيتُ البغل يقترب منِّي، ويحكُّ كتفي برأسه، ويبرك على الأرض بجوار كوخي، غير آبِهٍ بما يُدمدم به يوهانس من كلمات، كان البغل يُدرك معناها بالتأكيد.

بدأتُ أشعر بالضجر من مواصلة رؤية الوادي من على حافَّة ساحة القرية المُطلَّة عليه. وفي ذلك اليوم، قرَّرتُ المغامرة بالتَّوجُّه إلى النهر، وربَّما كنتُ سأُطيل المسير حتَّى الطريق

المختصرة، ولربَّما واصلتُ حتَّى أبلغ الطريق العامَّ، رغبةً منِّي برؤية شاحنةٍ مارَّةٍ من هناك. أن أراها فحسب. أومأتُ للبغل بأن يقوم على قوائمه، حَمَلْتُ بطَّانيَّتي، ورتَّبْتُها على ظَهْره، وبالحبل اجترحتُ ما يُشبه اللِّجَام. تَرَكَنِي البغل أفعل كلَّ ذلك بهدوء، وقَبِلَ بفكرة فُسحةٍ في الأرجاء، أو بالأحرى شَعَرْتُ بأنَّه هو مَنْ ألحَّ على تنفيذ تلك الفكرة. سار بحيويَّة، وكان يتوقَّف بين الفَيْنَة والأُخرى، ليقتلعَ بأسنانه بعضَ الأغصان الخضراء التي لم تتجفَّف بعد بأشعَّة الشمس اللَّاهبة.

لكنْ، ما إن وَصَلْتُ إلى النهر شَعَرْتُ بإنهاك من تلك الرحلة، وابتدأتُ أستشعر بعض المخاطر. لم يكن بمقدوري الثقة بالبغل، ولا باشتياقي إلى الطُّرُق التي تمرُّ بها الشاحنات. نزلتُ عن ظَهْر البغل، وتركتُهُ يرتوي من ماء النهر، في نقطة التَّجمُّع التي كانت مريم تستحمُّ فيه في ذلك اليوم.

كان عليَّ، في كلِّ مرَّة تخطر مريم ببالي، أن أحبس ما قبل الخروج من بين شَفَتَيَّ شتيمةً كان الحَنَقُ والحقد يدفعانها إلى الخارج. لقد بَلَغَ بِي الأمر في بعض الأيَّام، أن أُبرِّر لنفسي إقدامي على قَتْلها، مُوفِّراً عليها المصير الذي واجهه سُكَّان القرية الآخرين؛ أمَّا الآن، فقد كنتُ أُؤنِّب نفسي على ما اعتبرتُهُ رأفةً بها. وكنتُ أُحاول إقناع ذاتي بأنَّها لم تكنْ لتتعرَّض إلى القَتْل، لأنَّها كانت ستذهب إلى أعلى الهضبة برفقة إلياس وعجوز القرية. فالعجوز لم يذهب إلى المدينة لمُجرَّد البحث والتَّحرِّي عنها هي. كان الثلاثة سيذهبون إلى المدينة في جميع الأحوال، فما كان للشَّابَّيْن أن يُغنِّيا ويرقصا على أنغام الموسيقى في ذلك الصباح خلال عبور أدغال الغابة، لو أنَّ رحلتهم كانت بغرض البحث عنها هي بالذات. "وإذاً"، قلتُ لنفسي "لنُلغِ الجزء الثاني من المعادلة، ولنقُلْ بأنَّني سعيد، لكوني أنا مَنْ قَتَلَهَا. لكنْ، هي أيضاً قَتَلَتْنِي بدورها، وبدون التَّطفُّل غير المنتظر لذلك الحيوان اللَّيليِّ، فإنَّ جريمتها كانت ستبقى دونما عقاب".

وعليه، كنتُ أشعر بالرضا، لأنَّني قَتَلْتُهَا. ولم أعدْ أتذكَّر حتَّى تأوُّهات الألم، الممزوجة بذهول مَنْ لا يُصدِّق عَيْنَيْه إزاء ما يجري. كانت طويلةً تلك التَّأوُّهات التي أطلقتْها قبل أن تنطفئ نهائيَّاً.

اقتربتُ من قبرها، وواجهتُ صعوبةً في التَّعرُّف على مكانه. كانت الرياح قد سوَّت الأرض، وطيَّرت عنه بعض الأغصان الجافَّة. لم تكن تصدر منه أيَّة رائحةٍ مُثيرة للشكوك. تعرَّفتُ على المكان من الأحجار التي كنتُ قد رتَّبتُها. وأمام تلك الأحجار تلاشت كلُّ أماراتِ الحقد التي بَاغَتَتْنِي قبل دقائق، ودُهشتُ لأنَّني صرتُ أتذكَّر تفاصيل ذلك النهار، جسدها الناعم والمراوغ، الذي كان يصغرُ ويكبر ما بين ذراعَيَّ، تذكَّرتُ ذلك الدم الكثيف الذي تراكم على نَهْدَيْها والأوردة الخافقة في رقبتها، تذكَّرتُ يدها النحيلة التي غطَّت بها شَفَتَيْهَا الباسمَتَيْن حين كنتُ أُريها تخطيطاتي المضحكة. كانت كلُّ مصائبي تأتي من ذلك الدم ومن تلك الأنامل، أمَّا المصائب الأُخرى، ولا أعلم كم عددها، فقد كانت ستأتي تِباعاً.

كنتُ أراها تُشعِرُني ببراءتها، وهي تتقدَّم نحوي ماشيةً في الدرب باسمةً وقَصِيَّة. بحثتُ في ثنايا ذاكرتي عن الوسائل التي كانت ستَنقُل بها العدوى إليَّ، إلَّا أنَّني عجزتُ عن إيجاد جواب. كانت مريمُ الأولى والأخيرة. وباستثناء ثوبها الذي غطَّيتُ به ذلك الجرح بأناة، لم أمسَّ أيَّة قطعة أو خِرْقَةَ قماشٍ من ثياب سُكَّان البلد الأصليِّيْن. لقد دخلتُ منزل رحابات لمرَّتَيْن فحسب، وكانت هي وسُكَّان المنزل أصحَّاء ونظيفين. ومع ذلك، وأنا أقف أمام قبرها، عجزتُ عن تبديد القناعة بأنَّ مريم كانت بريئة (رَغْمَ أنَّ كلَّ شيء يسير باتِّجاه إدانتها): وبذا تبدَّد الأمل في التَّوصُّل إلى القناعة بكون مَرَضي مُجرَّد احتمالٍ مُتَخيَّلْ. آه، لو أن يوهانس أفصح لي عمَّا يعرف! لكنِّي فَقَدْتُ الأمل في انتظار أيِّ شيءٍ من ذلك العجوز الهَرِمِ. لكنْ، أَلَا تكفي القروح في كفَّيَّ والبقع

على جسدي كدلالات على المرض الذي أَصِبْتُ به؟ أَوَليس الكوخ الأفضل من بين الأكواخ الأُخرى، بالمقطع الشِّعْرِيِّ الذي خَطَّهُ الشاعر المجهول في أسفل الصورة المرسومة كهديَّة لي، تذكيراً بأنَّني ما أزال أحياً في حضرة الرَّبِّ؟. "كُفَّ عن هذا كلِّه، يا رجل"، قلتُ "فقد تجاوزتْ شكوكُكَ المُبالغ فيها كلَّ حدود المنطق"، وجَلَسْتُ على الأرض بالقرب من القبر.

ورَغْمَ تركيزي لحاسَّة الشَّمِّ، لم تتمكَّن خياشيمي من التقاط أيَّة رائحة. كَلَّا، لا رائحة تصعد من ذلك المكان، ولم تكن تلك الروائح العفنة التي أقضَّتْ مضجعي لوقتٍ طويل إلَّا نتاجاً لخيالي المتوتِّر. لا وجود لانتقامِ مريم، بقَدْر ما كانت جريمتي موجودةً. كان على أحدنا أن يغفرَ للآخر خطيئته، هي التي ماتت، وأنا الذي أقضي في ذلك الوادي القذر إجازتي التي سَمَحَتْ لي بأنْ أُقرِّب حتفها: وتلك هي، إذا لم أكن مُخطئاً خُلاصة انتقامها. وأضافتْ إلى كلِّ ذلك القروح والكوخ الذي كانت تسكنه، والذي كان، وهو، دونما شكٍّ الأفضل من بين جميع الأكواخ.

"عزيزتي مريم"، قلتُ، "لو لم أكُنْ قد قرَّرتُ الرحيل في واحدٍ من الأيَّام المقبلة - ربَّما الاثنَيْن -، فإنَّني سأسكن ذلك الكوخ راضياً: أحتاج أن أكون قريباً من النهر، لأنَّ بإمكاني غَسْل قروحي، واغتنام الفرصة على سَلْب العجوز الماء. وما بين تلك الأشجار الكئيبة سأُنعمُ بالظلال، الشبيهة كثيراً بالظلال التي تكاثفتْ على عَيْنَيْكِ في اللحظة التي لَفَفْتِ بها رأسكِ بعِمَامَتِكِ البيضاء الشَّفيفة" . .

كنتُ أتكلَّم بصوتٍ عالٍ، فجاء البغل ليقفَ ورائي، ويفركَ رأسه بكتفي. واصلتُ "أعترف بأنَّ حياتكِ تساوي الكثير، لأنَّكِ تمنحينني حتَّى ما لم أطلبْهُ منكِ: الاستضافة. ومع ذلك لا أرى بأنَّ حياة شخصٍ تلتقيه بالصدفة المحضة أو بالخطأ - نعم بالخطأ وبالصدفة المحضة - يساوي حياة شخص، لم يَبْدُ لنا في لحظة ذلك اللقاء أكثرَ من شجرةٍ وأقلَّ من امرأة. لا ينبغي أن نتناسى بأنَّكِ كنتُ عارية، وبدوتِ كتفصيل من تفاصيل تلك الطبيعة. أو بالأحرى، فقد كنتِ موجودةً، لتُحدِّدي مقاييس أشياء تلك الطبيعة".

نَهَضْتُ واقفاً على قَدَمَيَّ. "لا يغلبنَّكِ الأسى"، ختمتُ "لم يكن لطبيب موقع البناء، ليأتي إلى هنا لإنقاذكَ، لم يبدُ لي شخصاً مستعدَّاً لتَرْك فراشه في الخامسة فجراً، كي يَدْلِفَ إلى مجاهل الغابة، ليُنقذ حياة إنسان".

صَدَمَنِي البغل برأسه، وكِدْتُ أسقط متهاوياً إلى الأسفل. شَعَرْتُ، في نهاية المطاف، بقَدْرٍ من الارتياح، لأنَّه تذكَّرني، حادثتُهُ طويلاً، وشَتَمْتُهُ، كانت تلك مناسبةً هامَّة للكلام. بعد ذلك، قَفَزْتُ على ظَهْره. بدأ بالهَرْوَلَة صوب التَّلَّة، التي بَلَغْناها وهو يعدو. جَلَسْتُ أمام كوخي، وبقَدْر من الشعور بالعذوبة، رَحَلَ تفكيري من جديد صوب مريم، تذكَّرتُ نومها الهادئ وخفَّة حضورها. واصلتُ الغَرَقَ في أفكاري حتَّى اللحظة التي اقترب فيها يوهانس منِّي. تقدَّم صوبي ببطء، وبالتأكيد كان يُدير في ذهنه ما سيقوله لي، وما إن وَصَلَ على بُعد بضع خطوات من الكوخ، حتَّى توقَّف، وغيَّر مساره مُتَّجهاً صوب حافَّة الساحة.

وبعد أن حَدَّقَ في الوادي لبُرْهَة طويلة، عاد وجَلَسَ على أرض المدفن، وسألَني بشكل مفاجِئ:

"أين كنتَ؟".

لم أُعِرْ سؤاله اهتماماً، ولم أُجبْ عليه، نَظَرْتُ إليه منزعجاً، كي يستوعبَ بأنَّني لستُ مُجبراً على مَنْحه أيَّ تفسيرٍ، وبأنَّني إذا ما فعلتُ ذلك في الأيَّام الأولى بسبب ضعفي، فإنَّ بإمكاني الآن

تخفيض فضوله، وإنَّ بإمكاني الرحيل الآن، حتَّى في هذه الساعة، فقد استعدتُ قواي، وإنَّ عليه أَلَّا يَخْرِقَ المسافات التي ينبغي أن تفصل ما بيننا.

لم يُلِحّ يوهانس في السؤال، وعاد أدراجه إلى عمله بهدوء. إنَّه يعمل الآن بحزمٍ أبرز، كان يرفع ذراعه، ويُنْزِلُ الضربة المناسبة في الغصن، دون أن تشغل أحداث وأشياء الساحة بَالَهُ أو اهتمامه. وبالتأكيد تَخَلْخَلَ هدوؤُهُ بفعل جوابي الصامت على سؤاله، لذا بدأ بتفريغ غضبه بالضَّرْب على قِطَع الخشب. بعد دقائق، شَعَرَ بالتعب، فتوقَّف عن العمل، ودون أن ينظر إليَّ، أعاد السؤال هذه المرَّة بصوت هادئ.

"يوهانس، ليس هذا أمراً يعنيكَ أنتَ"، قلتُ له بشكلٍ ودود، رَغْمَ أن هذه الكذبة جَعَلَتْنِي أبتسم. لكنْ، بالتأكيد لم يكن بإمكاني أن أُخبره بأنَّني ذَهَبْتُ إلى قبر "الشخص الذي سيعود يوماً"، والذي كان ينتظرُ هو نفسُه عودتَهُ، أو بالأحرى كان يشعر بالانزعاج لحضوري في القرية، لأنَّه، بالذات، كان يترقَّب عودة مريم.

بدا يوهانس مُقتنعاً بردِّي، فواصل عمله، لكنْ، بذات التكاسل المعتاد ناظراً حوالَيْه ومنشغِلاً بالبغل، صارخاً به بذات الجُمَل المعتادة. ولم أتبيَّن مغزى سؤاله الخبيث ذاك، إلَّا بعد مرور أيَّام عديدة، أمَّا في تلك اللحظة، فقد ابتسمتُ، وأنا أراه غارقاً في عمله الذي لا ينتهي أبداً، وبما أنَّني كنتُ أبحث في حقيبة الظَّهْر، أخرجتُ الإنجيل، وفتحتُهُ، وقرأتُ في صفحة من أجزائه، قرأتُ صفحة من "العِظَات" وصفحَتَيْن من مَتْن الكتاب المقدَّس، ثمَّ عُدتُ إلى قراءة صفحات أُخرى من العِظات. وإذْ كنتُ أقرأ في ذلك الكتاب، انتبهتُ بأنَّ تلك النصوص تتجسَّد أمامي كحياةٍ، بانسجام كاملٍ، ما يُحيط بي في ذلك المكان: تلك الأكواخ، تلك الطبيعة الفقيرة، ويوهانس، ذلك النَّبيُّ دونما شَعْب، الذي تختزن عظامُهُ الحقيقةَ الواردةَ من مُجمل تلك الحِكَمْ دون أن يكون هو على درايةٍ حتَّى بواحدةً منها. كان يوهانس حكيماً، لكنْ، دون أن يكون على علْمٍ بذلك. لقد أقصى العالم عن نفسه، وقرَّر العيش بجوار مَيِّتِيْه، دون أن يشعر بالهَلَع عند حلول المساء، أو هو، بالأحرى، يترقَّب حلول المساء، كي تزيدَ ظلاله حكمته وقاراً.

هنا كانت تكمن قوَّة يوهانس، قوَّة البقاء بجوار مَيِّتِيْه، وأن يحيا وإيَّاهم أيَّامه الأخيرة. لم يرَ في ذلك ضرباً من الاستغفار كي ينال الفردوس، بل اختاره، ليكون إلى جوار رفقةٍ طيِّبةٍ حسنة. وبدا له من غير المعقول أو المقبول أن يحرم القرية ممَّنْ عاشوا فيها، ومَنْ قضى برفقتهم أسعد أيَّامه. كانت ذكرياته مخزونة في تلك الساحة الصغيرة، وكانت نَظْرَة يوهانس الأولى، وهو ينهض من نومه كلّ صباح، مُخصَّصة للمدفن الذي ضمَّ أحبَّته، وخلال النهار بأكمله كان يُعيد ترتيب قِطَع الحجر والحصى التي انتقلتْ من مكانها، ويُضيف إليها حَجَرَاتٍ أُخرى، ويعمل من أجل أن ترتفع الحجارة وتزيد، ولم يكنْ ليُعنى بشيء أو يغضب إذا ما ذَهَبَ البغل، ونَتَّفَ الحجارة مُفرِّقاً إيَّاها، لأنَّه لم يكن يعتبر نفسه سادناً وحارساً للمكان.

فكَّرتُ بأنَّني أفتقد إلى تلك القوَّة التي بحوزة يوهانس، ولم يكن بمقدوري امتلاكها، وفكَّرتُ بالمقابر الكئيبة في مدننا، وحيثُ ندفن تحت ترابها الأشخاص الذين كانت عيونهم تُبصر في اليوم السابق ذات النور الذي تُبصره عيوننا، وفيها ذات ابتسامة عيوننا. نفعل كلَّ ذلك بالسرعة التي تجعلنا نشعر بهم غُرباء عنَّا إلى الأبد، ومادَّة بائسة قابلة للزوال. كان يوهانس، منذُ اللحظة الأولى من قيامه من مَنَامَتِهِ المفروشة على الأرض، يؤدِّي الصلاة لميِّتِيهِ، يفعل ذلك حتَّى وإنْ لم يكن قد شاهد من قبلُ صلاةً تُؤَدَّى للمَيِّتِين. ولم تكن تلك الدَّمْدَمَةُ التي أسمعها في الفجر،

والقادمة من كوخه، إلّا الصلاة التي يؤدِّيها، صلاة لمَيِّتِيْه. وفي بعض المرَّات، كان يجلس إلى جوار المدفن، ويُواصِلُ تقليم وتشذيب عيدانه.

لم أكنْ أجرؤ على تخيُّل أيَّام يوهانس الأخيرة في تلك البقعة من الأرض القَصِيَّة والخالية من البشر، فيما لو غادرتُها أنا أيضاً. سيموت جوعاً، عاجزاً عن تدبير ما يسدُّ به رَمَقَهُ، فيما سيقتات عدد من الفئران بجسده غير المدفون. كانت هذه الأفكار تدفعني إلى الاستعجال في الرحيل، وإلى استباق اليوم الذي كنتُ قد حدَّدتُهُ. كنتُ سأرحل بعد خمسة أو ستَّة أيَّام. يا ليوهانس المسكين، قلتُ في سرِّي. لكنْ، ربَّما كان يوهانس قد تجاوز عُمُر الموت نفسه.

نعم، سأرحل. كنتُ دخيلاً على ذلك المكان، دخيلاً على الجثث المدفونة فيه، أو، ربَّما، كنتُ أنا جُثَّة مُغايرة، جُثَّة ما تزال تنبض ببعضٍ من حياة. ولهذا السبب تقف القرية بالضِّدِّ منِّي، بالضبط كما كان الحال مع الوادي بأسره. حتَّى تلك الأسطر التي قرأتُها كانت بالضِّدِّ منِّي، كانت تُدينُني بإلحاحٍ، وبقسوةِ كلمات بسيطة، تتلبَّس على حين غِرَّة معانيها. كنتُ قاتلاً، سارقاً، مريضاً ورجلاً محكوماً عليه من الغضب الرَّبَّانيِّ. ومع ذلك كنتُ أتَّبعُ خُطى الزَّهْو والغرور. وكنتُ، في الوقت ذاته، فارَّاً من الخدمة العسكريَّة، أمَّا في نَظَرِ يوهانس، فلم أَكنْ إلَّا عدوَّاً غاصباً. ولهذا السبب كان الرجل يصمت أمامي، ويأتي معي بسلوكٍ مُهينٍ. كان يترقَّب أن أترك المكان، وبأَنْ أعيَ، ولو لمرَّة واحدة، بأنَّ حضوري في أرضه يُهينه، يهين الأشجار والأكواخ والقَتْلى المَيِّتيْن. ولو أنَّني أَطَلْتُ البقاء هنا، فلربَّما سيُجبَرَ على الفعلة التي تحاول كينونته النَّأيَ عنها، أي أن يقتلَني ويسلخَ جِلْدِي: بذات السِّكِّينة التي يُقلِّم بها عيدان أعمدته، ويقطع بها الأعشاب والأغصان. كان سيتناسى لبُرْهَة قصيرة الاحترام الذي يشعر به إزاء بِزَّتي العسكريَّة، والامتثال إلى الكلمات الثمينة التي غَرَزَهَا ضُبَّاطُه المفضَّلون في رأسه، وربَّما سيذبحني واضعاً رأسي باتِّجاه الشرق محوِّلاً مدفن القرية إلى مذبح. كنتُ سأشعر بالكاد بأصابعه فوق رقبتي، تلك اليد المجبولة من حديدٍ تآكله الصدأ. لم تكن لتنفع في شيء كلُّ شروحي بضرورة العودة إليها، إلى زوجتي، لأرى من جديد ابتسامتها الغارقة بالدمع. لم يكن ليوهانس أن يُغْرى بمسبِّباتٍ شخصيَّةٍ إلى هذه الدرجة.

"حسنٌ"، كنتُ أضيف "فَلْيَذْبَحْنِي إذاً. عندها ستُمَّحى كلُّ كوارثي بضربة سِكِّين واحدة. لكنْ، أَمِن الممكن أنْ يفعل يوهانس ذلك، إذا ما كان قد قرَّر الانتقام منِّي، دون أن يتَّبع ما تُشير عليه الطبيعة المحيطة به؟ ولماذا عليَّ أن أفترض بأنَّ يوهانس عاجز عن الإقدام على فعل الشَّرِّ، أو بكونه قدِّيساً ناسكاً؟"، وكنتُ أستخلص "قدِّيسٌ مَنَحَتْهُ الحكومة الإيطاليَّة راتباً تقاعديَّاً صغيراً دونما مبرِّر؟".

جاءني وجَلَسَ قُبَالَتي مُسنِداً، كالعادة، ثِقل جسده بأكمله على كاحلَيْه، وبصوتٍ فيه الكثير من الودِّ، كرَّر عليَّ سؤاله: "أين ذَهَبْتَ؟"

صَعِدَ الغضب إلى عَيْنَيَّ. "يوهانس" وقلتُ له وأنا أرتجف "لا تنسَ مَنْ أنا". عندها نَهَضَ واقفاً أمامي، وأدَّى لي تحيَّة عسكريَّة سريعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٨

كان عدد الطيور المتجمهرة ما بين أغصان الشجر المُحيطة بالكوخ كبيراً. كانت زقزقاتهم المتواصلة والصاخبة تمنع عليَّ حتَّى الاستيقاظ، وكنتُ أغرق في لُجَّة حالات مُنهكة من اليقظة الوسنانة، والتي كنتُ أخرج منها مُهلكاً. كانت ألوان تلك الطيور مُعتمة وشبيهةً بالغِرْبَان، لكنْ، أكثر حيويَّة منها، وبأصوات أقلّ إثارة للحزن، وتُفضِّل التحليق أسراباً. لم تأبه أبداً بصرخاتي. نعم، لقد كان هذا واحداً من الأمور السَّلبيَّة هناك، لكنّ ذلك الكوخ كان الأفضل، بالمُطلق، من بين الأكواخ الأُخرى. ففي الليل كانت تهبُّ عليه نسمة هواءٍ مُنعش، ورَغْمَ إزعاجها لنومي، فقد كانت تلك الطيور اللعينة تُمارسُ معي نوعاً من الرفقة المُخفِّفة من وطأة الوحدة. وعندما كان اليأس والقنوط يغلبانني، وأستلقي على الأرض، لأترك لحشرجات البكاء تُحرِّرني من الإنهاك، كانت تلك الطيور تظهر عند عتبة الباب، وتُحدِّق بي بعيونٍ جانبيَّة مِعوجَّة كما الدِّيَكَة. كانت تقترب منِّي كثيراً، وكنتُ سأقبل، عن طيب خاطرٍ، اقترابَها ذاك، لولا اقتحام الرائحة النتنة الصادرة عنها لخياشيمي، فأُقلِعُ عن فكرة الرفقة تلك، وأهشُّها عنِّي. كان عليَّ أن أطردَها، وأن أُبقيَ حقيبة الظَّهْر مُغلقةً بشكل جيِّد، لأنَّ تلك الطيور بارعةٌ في سرقة واختطاف الأشياء.

كنتُ أُسائِلُ نفسي، ما إذا كانت الحالة التي أنا فيها هو الاستسلام بعينه، ذلك الانتظار والتَّرقُّب الفارغان، وأنا أحسب الأيَّام، وأُناقِلُها. كما يُناقل المُصلِّي حَبَّات المسبحة، مُدرِكاً بأنَّ الأيَّام ما عادت تنتمي إليَّ بأيِّ شكلٍ من الأشكال، ومع ذلك، فهي أيَّام ينبغي عليَّ أن أحياها، لأنَّها، على الأقلِّ، تبدو أفضلُ من اللاَّ شيء.

وحين كنتُ أرفع رأسي نحو السقف، كنتُ أُدقِّق بذلك الرَّسْم المُرعب فوق قوس الباب، وكنتُ أُردِّد في داخلي تلك الكلمات التي نُقِشَت في الصورة المرسومة، والتي تحكم عليَّ بمباركة المسحة الأخيرة([25]). كان وجه الملاك المرسوم دائريَّاً على ذات الشاكلة التي اعتاد الرَّسَّامون المحلِّيُّون هنا إضفاءها على وجوه الشَّخصيَّات المقدَّسة. وكان الملاك يُحدِّق أمام ناظرَيْه بدلاً من تركيز نَظَرَاته على التِّنِّين الذي غَرَسَ فيه رُمحَهُ، أو بالأحرى فهو يُحدِّق فيَّ أنا. فلو نَظَرْتُ إلى ذلك الرَّسْم من أيَّة زاوية من زوايا الغرفة، فقد كانت عينا الملاك تُحدِّقان فيَّ مباشرةً. لا غرابة في هذا الأمر. لكنِّي لم أكن أحتمل نَظَرَات تلك العَيْنَيْن لمقدار الثقة البلهاء واللَّتَيْن كانتا تُبديانه. وكان التِّنِّين (أي التمساح) قد التوى، وانكمش على نفسه تحت ضربات الرُّمح، ولم يكن الملاك، المأخوذ بتأمُّلاته البدائية، يأبه بأيِّ شيء من كلِّ هذا. ربَّما لم تكن تراودُ ذهنه أيَّة فكرة، وربَّما كان يعلم بانتصاره مُسبَّقاً، لذا لم يشعر بأيِّ مقدارٍ من الرضا عن الذات. لم يكن ما أراه في تلك الصورة عبارة عن صراع، بل تنفيذاً لحُكمٍ بالإعدام، ووسيلة لتجريب صلادة الرُّمُح ومقْدِراتِ الجواد الذي يعتلي الملاك على صهوته. "سهلٌ للغاية"، فكَّرتُ في سرِّي "لا تُتاح الفرصة للانقضاض على التَّنانين يوميَّاً. وحسنٌ إذا كان الهدف من ذلك الترميز إلى قدرة الانقضاض على الشَّرِّ. لكنْ، لماذا لا يسعى هذا الملاك إلى الانقضاض على التنانين الخفيَّة التي تُعشِّش ما بين قروحي اللعينة؟ بالتأكيد لا تحتاج التنانين الصغيرة للغاية إلى ذلك الرُّمْح، فالزمن وحده قادرٌ على النيل منها، لكنَّه، إذا ما فَعَلَ، فسيقتلني أنا أيضاً الحامل لتلك التنانين الصغيرة". مرَّة أُخرى اجتاحَني اليأس للقَدَر اللعين والطالع السَّيِّئ الذي أواجهه. امتلأت عيناي بالدموع، وكنتُ على وشك أن أَشْرَقَ بالدمع وبوابلٍ من البكاء، حين رأيتُ من بين ضباب الدموع على أهدابي شبحاً يقترب من المكان. لم أتمكَّن من التَّحرُّك من مكاني، أو ربَّما كان التعب بَلَغَ بي مَبْلَغَاً يحول دون

اقتداري على الحركة. وتمكَّنتُ من استيضاء حدود صورة ذلك الشبح في فتحة الباب. كان ذلك إلياس.

"صباح الخبر، يا حضرة الملازم". قال لمُجرَّد وصوله إلى مطلع السلالم الثلاث. نَهَضْتُ عن الأرض بقفزةٍ، وتوقَّف إلياس كشبحٍ يقف في إطار الباب الفارغ وخلفه سواد الأغصان الكثيفة. توقَّف إلياس هناك بهيئة الاستعداد، رافعاً يده على جبهته بتحيَّة عسكريَّة، وفاغراً فمه بابتسامةٍ واسعة.

"إلياس"، هتفتُ، وكان حافزي الأوَّل هو أن أُعانقَهُ، كما لو كان شقيقاً عثرتُ عليه بعد غيابٍ طويل، إلَّا أنَّني مكَّنتُ نفسي من الإحجام عن تلك الحركة في وقتٍ مناسب. ومع ذلك، فقد كنتُ سعيداً، ولم أسعَ إلى إخفاء تلك السعادة. نَهَضْتُ من مكاني، وتوجَّهتُ إليه، وأمطرتُهُ بالأسئلة، حتَّى دون أن أتيحَ له الوقت للرَّدِّ على أسئلتي، وبما أنَّه أُغرقَ بهذا الترحاب والاستقبال غير المُنتظَر، كان إلياس يُحدِّق فيَّ بقَدْرٍ من الريبة والدهشة، متسائلاً في داخله، قبل كلِّ شيء، عن سبب تواجُدي في القرية. وقد أدركتُ ذلك لمُجرَّد وصولنا إلى الساحة. كان يتحاشى النَّظَر إليَّ شاعراً بالخجل إزاء الحالة الرَّثَّة التي وَجَدَنِي عليها، بلحيتي الطويلة، وبقميصي الذي لا يحمل أيَّاً من شارات رُتبتي العسكريَّة. كنتُ قد خَلَعْتُ ربطة العنق منذُ وقت طويل. أمَّا قُبَّعتي العسكريَّة، والتي عجزت عن العثور عليها، فلا بُدَّ أن يكون بغل المؤونة قد التهمَها.

أمَّا إلياس، فقد كان يبدو أنيقاً في البِزَّة العسكريَّة التي صُغِّرت على مقاسه، كان يعتمر على رأسه قُبَّعة من القماش العسكري، ويحمل في مِعْصَمِهِ ساعةً، وهذا ما كان يعني بأنَّ تجارته قد ازدهرتْ. سألتُهُ كم مضى من الوقت دون أن يلتقيَ بالجندي المُهرِّب.

"التقيتُهُ بالأمس" أجاب.

"أين التقيتَهُ، يا إلياس؟" فأشار لي بأصبعه إلى حافَّة أعلى الهضبة. "هناك"، قال. وأضاف بأنَّ الجميع يُعسكرون هناك منذُ أسبوع، عند الحافَّة، في المعسكر القديم. وإذاً فذلك هو الانتقال المُنتظَر؟ "أسرار التراجعات عن الأوامر السابقة"، فكَّرتُ وابتسمتُ، لكنِّي كنتُ أتخيَّل خيبة الأمل السائدة بين الجميع.

"وهل أنتَ معهم؟"

هزَّ رأسه بالنَّفْي، وبزَهْو. فقد كان إنساناً حُرَّاً، ومُستقلَّاً، ويسافر أينما يشاء دون قيود، وقد بدأ بتلذُّذ مذاق الربح الخاصِّ دون تقاسُمه مع أحد. لبُرْهَة من الوقت شَعَرْتُ بالحسد تجاهه، للحُرِّيَّة التي يشعر بها، وكم ازداد رجولة، وتحوَّل إلى ما يُشبه الفتى البالغ، وبَلَغَ بي الحسدُ درجةَ إغضابي. إنَّه الآن يتكلَّم الإيطالية بطلاقة، وليس مُضطرَّاً إلى استخدام مصادر الأفعال، ويخلط في ذلك عدداً لا نهائيَّاً من اللهجات المحلِّيَّة الإيطالية. وبينما هو كان يتحدَّث معي، كان يوهانس يتحرَّى في مِزْوَدِهِ المصنوع من القماش، وأَخْرَجَ منه شيئاً، دَسَّهُ في جيب سترته، أمَّا باقي الأشياء، فقد تلمَّسها بشكلٍ عابر، وتَرَكَهَا داخل الكيس. تَرَكَ الكيس على الأرض، ورأيتُهُ يعود أدراجه إلى كوخه.

بقي إلياس واقفاً. ومع أن حرارة الطقس كانت لا تُطاق، لم يخلع سترته. بقي واقفاً على قَدَمَيْه، وبدا بذلك مثل القريب الذي يعود إلى القرية من المدينة بعد غياب طويل، ويظلُّ يراقب الأماكن، ليتذكَّر مواقع صباه وماضيه بدهشة وغضب، ويعاني من استلاب مكانه من قِبَلِ

الآخرين، ومن حياتهم اليوميَّة. لم يخلع سترته للإيحاء بأنَّه لن يتوقَّف في المكان إلَّا الوقت الكافي لأداء واجب زيارة الأهل؛ كان سيتركنا، أنا ويوهانس، بالضبط كما نهجرُ الأقارب الذين يُذكِّروننا بماضٍ غير سعيد، ويجهلون كلَّ شيء عن حاضرنا، ويطرحون علينا أسئلة لا نُجيد الرَّدَّ عليها، غيرُ واثقين ما إذا كان علينا أن نتركَهُم في جهلهم أم أن نُحدِثَ لديهم انقلاباً في الرأي الذي كوَّنوه عنَّا. لقد جاء إلياس ليزورَ العجوزَ، وربَّما ليحمل إليه مبلغاً من المال، قليلاً من الخبز، وذلك الشيء الغامض الذي سارع يوهانس إلى أَخْذه من كيس إلياس، وعجَّل بالذهاب ليُخفيَهُ في مكانٍ ما داخل كوخه. الآن بإمكان إلياس الرحيل سعيداً بهجر الطبيعة البائسة التي شهدتْ ميلاده، والتي لا يمكنها إلَّا أن تمنحه الخشيةَ من سجنٍ لا يستحقُّهُ. كان ما يزال واقفاً على قَدَمَيْه باحثاً في ذهنه عن الكلمات المناسبة للوداع، ليرحلَ وليصلَ إلى أعلى الهضبة حاملاً على كتفه مِزْوَدِهِ القماشي.

"ألديكَ سجائر؟"، سألتُهُ.

"كَلَّا، انتهت"، أجابني. كان يشعر بالأسف إزاء ذلك، وكان بذاك بالضبط كما صاحب الدُّكَّان الذي يُلطِّف بابتسامةٍ ودودة رَفْضه لطَلَبٍ منكَ. "وما الذي تحمله في مِزْوَدِكَ؟"، سألتُهُ، على أمل أن أتمكَّن من شراءِ شيءٍ ما منه؛ وهكذا اشتريتُ منه فواكه مُعلَّبة، وقليلاً من المُربَّى. لم يكن يريد أَخْذ النقود مقابل ذلك؛ لكنَّه بدا راضياً عندما أجبرتُهُ على أَخْذ المال. "اليست لديكَ حتَّى ولا سيجارةً واحدة؟" سألتُهُ.

"كَلَّا، يا سيِّدي الملازم". سألتُهُ ما إذا كان سيعود، ومتى. رَفَعَ كتفَيْه، وأخبرني بأنَّ الأمر لا يعتمد على قراره، بل على الظروف. فهناك سائقو شاحنات لا يأبهون لقرارات المَنْع، ويُتيحون الفرصة للأطفال بالصعود على مركباتهم، وآخرون يرفضون ذلك؛ وثَمَّةَ رجال من الدرك الذين يستقبلونكَ بابتسامات، وآخرون يُطلقون النار على ساقَيْكَ؛ هناك جنود يشترون بضاعتكَ، وآخرون يصرخون بوجهكَ، ويستجوبونكَ. كان سيعود إلى أسمرا، ليتزوَّد بالبضاعة من هناك. ومن ثمَّ سيعود بعد أسبوعٍ، شهر أو شهرَيْن، أو ربَّما لن يعود أبداً.

تَرَكَنا يوهانس وحدنا، وهو الآن يُحادِث البغل الذي أزعجَهُ، ويقول له شيئاً ما.

وعندما اقترب الصَّبيُّ منه، رأيتُ يوهانس يمسِّد على رأسه، لكنْ، دون أن ينظر إليه.

فكَّرتُ بأنْ أُحمِّل إلياس رسالة إلى الجندي المُهرِّب؛ لكنِّي أعدتُ النَّظَر في الأمر، فكَّرتُ بأنَّ من الأفضل عدم الوثوق بأحد. تصوَّرتُ الجندي المُهرِّب عاجزاً عن الاحتفاظ بالسِّرِّ، وقد يُسِرُّ بذلك لصديقه المقرَّب، وفي الليلة التالية ستكون أسمرا بأسرها على علْمٍ بي. كَلَّا، لا رسائل. قرَّرتُ إذَّاك أن أبعث رسالةً إلى زوجتي، وعدتُ إلى كوخي، وتبعني إلياس إلى هناك.

عددٌ هائل من الطيور اجتاحت الكوخ، ولم يكن من السهل طَرْدها من داخله، فقد كانت الطيور مُصرَّةً على البقاء، حتَّى بعد أن حَمَلْتُ بيدي عَصَىً، وبدأتُ بتوجيه الضربات على عواهنها في جميع الاتِّجاهات. كانت الطيور تُحلِّق نحو السقف، حيثُ لن يكون بإمكاني بلوغها بعصاي، وها هي أراها بعد قليل متجمهرةً على أرضية الكوخ، التي تلوَّثت ببرازها الوفير. لم نعد نرى الأرضية من كثرة ما أنتجت الطيور من براز، وكانت الظُّلمة دامسة داخله، فاضطُررتُ إلى العودة إلى الساحة، لأتمكَّن من الكتابة. سَحَبْتُ ورقةً بيضاء، وحاولتُ مساسها بأقلّ ما أستطيع. إلَّا أنَّني عجزتُ عن العثور على الكلمات المناسبة لتلك الرسالة، والتي بَدَتْ لي هي

الأُخرى فائضة عن الحاجة والنفع. فما الذي كنتُ سأكتب لها؟ ومع ذلك، لم يكن بمقدوري إفساد فرصةٍ مواتيةٍ كالتي مَثُلتْ أمامي بحضور إلياس. كنتُ سأكتب لها بعد خمسة أو ستَّة أيَّام من رحيلي من القرية، لكنْ، من المفيد أن أستغلَّ زيارة الطفل لإيصال الرسالة. وحين حاولتُ الكتابة، انتبهتُ بأنَّ الحبر داخل القلم قد تخثَّر، وبدا جافَّاً، فوَجَبَ عليَّ أن أُضيف إليه قطراتٍ من الماء: وفكَّرتُ بأنَّ تلك الحروف باهتة اللون ستزيد من مقدار القلق لديها. كرَّرتُ ما كنتُ قد كَتَبْتُ لها من مُصوَّع. لكنِّي فكَّرتُ، وأنا موشكٌ على تسليم الرسالة إلى إلياس، بأنَّ البريد الواصل إليها قد يخضع إلى المراقبة، وبذا سأُوفِّر لمَنْ يتحرَّى عنِّي مؤشِّرات وأدلَّةً للقبض عليَّ، ولربَّما كان بعضهم سيفترض، بعد مُضي شهر أو شهرَيْن على انقطاع أخباري، بأنَّني أقدمتُ على الانتحار. "لقد كان إنساناً منتهياً"، سيقولون "لقد فَعَلَ بالضبط ما كنَّا سنفعل لو وَجَدْنا أنفسنا في موقعه". إلَّا أنَّني لم أكن قادراً على تَرْكها دون أيَّة أخبارٍ عنِّي، ولهذا قرَّرتُ الكتابة إلى والدتها، مُذيِّلاً الرسالة بتوقيعٍ آخر. وستفهم السَّيِّدة مغزى تلك الرسالة.

ابتعد الصَّبيُّ سالكاً الدرب صوب التلال، وكنتُ أنا الوحيد الذي يراقب مسيره. كان يوهانس قد انسحب إلى داخل كوخه، ليهرب من الحرارة الرهيبة التي تُرسلها أشعَّة الشمس الحارقة. كان الصَّبيُّ يبتعد متقافزاً، وبعد حينٍ توقَّف واستدار لينظر باتِّجاهي، وأومأ لي بتحية من يده كرجل إلى رجل، ومن ثمَّ عاد إلى تقافزه، وكان قد بَلَغَ نهاية الدرب قبل الولوج إلى الغابة عندما ناديتُهُ، "انتظرني"، صَرَخْتُ به. هُرعتُ راكضاً نحوه على الدرب. "أعدْ إليَّ الرسالة".

تحرَّى داخل كيسه القماشي، دونما دهشة، ولم يندهش أيضاً عندما شاهدَني وأنا أُمزِّق ورقة الرسالة. "اسمعْ، يا إلياس"، قلتُ له. جَلَسْتُ على الأرض، ودعوتُهُ أن يجلس إلى جواري. وابتدأتُ معه حديثاً طويلاً ومتشابكاً. كان عليه أن يتذكَّر ما يلي: أنا لستُ موجوداً في القرية. هو لم يَرَني على الإطلاق. لم يكن يعرف عنِّي أيَّ شيء. وعندما انتهيتُ من الحديث أومأ برأسه بالإيجاب، وإذَّاك اكتشفتُ في ناظرَيْه شيئاً جديداً: لم يكن ذلك مُجرَّد الفضول في معرفة ما الذي حَدَثَ لي، بل كان اقتناعاً في داخله بأنَّني غدوتُ شخصاً ضعيفاً، ودونما أيَّة دفاعات. وقد يكون فكَّر بأنَّ رجالي لم يعودوا ينصاعون إلى أوامري. وقد هُزمتُ، وخُلِعَتْ عنِّي جميع سلطاتي، وأنّ بإمكانه هو أن يحميَني إذا ما أنصتَ إلى توصياتي، من رجلٍ إلى رجل. لكنَّه خان أفكاره هذه بتذمُّر وقور.

"لن تُخبر أحداً بأنّكَ التقيتَ بي؟"

"كَلَّا، لن أفعل ذلك مع أيِّ شخص".

"ألن يكون بمقدوركَ أن تعود غداً إلى هنا حاملاً معكَ بعض علب السجائر؟".

وَجَبَ عليَّ أن أتضرَّع إليه. لم تكن عودته في اليوم التالي ممكنةً، ولا حتَّى في اليوم الذي يليه. كان يشعر بأنَّه صار يمتلك قَدْراً من الأهمِّيَّة في نَظَري، لكنّ انتصاره ذاك جَعَلَهُ لا يأبه بمطالباتي. عَدَّ بأصابعه، وقال لي. "سأعود بعد أربعة أيَّام"، قال لي.

"أربعة أيَّام". نَهَضْتُ واقفاً. "سأنتظركَ"، قلتُ له. ابتعدْ عنِّي، إلَّا أنَّه لم يعد يتقافز خلال المشي، كان واثقاً من خَطوه كأنَّهُ سيِّد ذلك الدرب، داوود الصغير الذي تمكَّن من قَهْر العملاق قد عاد إلى تجارته المعتادة.

عُدتُ أدراجي صوب الحافَّة المرتفعة من الساحة لأُحدِّق في أعلى الهضبة، مفكِّراً برقَّة مثيرة

للمشاعر بأصدقائي الذين ما يزالون هناك في مكانٍ ما من المعسكر، وفكَّرتُ أيضاً ب. "الملفّ" الذي لا بُدَّ أن يكون قد فُتِحَ باسمي، وكان هناك ضمن الملفَّات في إدارة المعسكر. وبدا لي الطرف الثاني من الوادي بعيداً للغاية، لكنَّه لم يكنْ كذلك لإلياس، ولا حتَّى للبغل الذي بمقدوره أن يبلغه، لولا عناده في عشق المكان الذي يعيش فيه، وتعلُّقه بالعجوز المتذمِّر على الدوام.

بعد زيارتي لقبر مريم، لم يوجِّه يوهانس إليَّ أيَّة كلمة، وكنَّا نعيش منذُ أربعة أيَّام متجاهلَيْن أحدنا للآخر. وقد حاولتُ التَّحرُّش به لإقناعه بالحديث مع، فرَدَّ على جميع أحاديثي بإيماءات عابرة برأسه أو ببضع كلماتٍ قصيرة، دَمْدَمَ بها، دونما حَنَق، ولذا فقد انسدل فيما بيننا ستار اللَّامبالاة التي تَسِمُ الغرقى، الذين لم يعودا يترقَّبون النجدة، وينظر أحدُهُم إلى الآخر وهو يموت غَرَقَاً. تساءلتُ كثيراً عن السبب الذي دعاه إلى الإلحاح بالسؤال عن المكان الذي ذَهَبْتُ إليه في ذلك اليوم. لم يكن بالتأكيد يعلم بتوقُّفي عند قبر مريم، ولذا فقد كان فضوله مرفوضاً، ولو أنَّني استجبتُ إلى إلحاحه، وأجبتُ عن سؤاله، لَبَدَوْتُ الآن في نَظَرِهِ أدنى قَدْرَاً وأَوْضَعَ حالاً من البغل الذي يرعى الآن العشب النابت في أرض المدفن في الساحة. ولذا لم أندم على عدم الاستجابة إلى فضوله، رَغْمَ أنَّني صرتُ أشعرُ بالندم والاشتياق إلى الحوارات الصغيرة وغير المُحبَّبة التي جَرَتْ بيننا في الأيَّام الأولى لحضوري هنا. صار لزاماً عليَّ، بعد أن قرَّرتُ الاستيلاء على الكوخ الدَّائريِّ، التَّوجُّه إلى النهر حاملاً معي الصفيحة المعدنية، وكان التَّوقُّف عند ضفَّة النهر ومراقبة مسار مياهه يبعث في نفسي قَدْراً من الراحة والحبور، لكنّ يوهانس كان يجول في الساحة دون أن يراني، ولم يكن يشعر بأيِّ اشتياقٍ أو حاجةٍ إلى ذلك، كما كنتُ أنا أشتاق وأحتاج إلى استغلال أيَّة وسيلة أو عذرٍ للبدء بحوار أو دردشةٍ معه. صارت الوحدة والعُزلة الكاملة حالَتَيْن ثابتتَيْن لديه، ولربَّما أسهمت الحادثة أيضاً في توفير الفرصة، ليغرقَ في لُجَّتهما، وليعاقبَني بالطريقة الفاعلة الوحيدة برأيه. كان يغيب عن القرية لساعاتٍ وساعات، وكان البغل يتبعه في حلِّه وترحاله. كنتُ واثقاً من أنّهما لن يذهبا إلى أعلى الهضبة أو إلى الجسر، لأنَّني كنتُ أتبعهما لمسافةٍ معقولة، ساعياً بألَّا أتركهما يرياني. ربَّما كانا يذهبان لينعما بقسط من الراحة ما بين أشجار الغابة، وكان يوهانس يتركني بذلك لفترات طويلة في ما بعد الظُّهْر في حالةٍ من القلق اللَّامتناهي، والذي يبلغ في بعض الحالات مرحلة تدفعني إلى الفرار من المكان، لكنِّي. في كلِّ المرَّات التي عزمتُ فيها على إعداد حقيبتي والفرار، كنتُ أستعيد هدوئي مُستعيناً بأفكار جديدة. وَصَلَتْ بي الحالة إلى الكلام مع نفسي بصوتٍ مسموع. كنتُ أُقدِّم لنفسي نصائح ساخرةً. وأضحك إثْرَها، ولربَّما حالت تلك المَزْحَات السَّطحيَّة الساخرة دون أن أُصاب بالجنون أو أن أُهَرَعِ إلى أقرب موقع قيادة، ما وراء حافَّة المنحدر لتسليم نفسي، ولأقول لهم "ها أنا ذا".

وعندما كان يوهانس يعود أدراجه من جولاته، كنتُ أشعر بالارتياح، وأعود إلى كوخي.

ها هو العجوز منتصباً أمام كوخي بالذات، وهو يراني أعود إليه. كان يُحدِّق فيَّ أنا، لا شكَّ في ذلك. اعتقدتُ بأنَّ هذا السلوك الجديد، نَتَجَ عن عودة إلياس إلى القرية وبأنَّهُ يرغب في الحديث معي عن الطفل، وليستغلَّ هذه الفرصة لإحلال السلام ما بيننا. وسَّعْتُ في خَطْوي، وبَلَغْتُهُ حيثُ كان واقفاً. انتظرتُ أن يبدأ هو بالكلام، لكنَّه لم يفعل. وعندما ابتسمتُ له (كنتُ أُريد الولوج إلى الكوخ، كي أطرد الطيور من داخل) أتى بإيماءة من وجهه، ورَفَعَ كَتِفَيْه. لم أقدر على صعود السُّلَّم الأوَّل، ونَظَرْتُ إلى يوهانس. كان منتصباً ومُسنِداً كلتا يَدَيْه على العصا الغليظة التي يحملها، وبدا مثلَ رامي الرُّمْح في وقفة استراحة: وكان يواصل التحديق فيَّ. وفي غمرة تلك

الظُّلمة المحيطة به، تمكَّنتُ من رؤية التماعات حَدَقَتَيْه الصَّفراوَيْن والمُبلَّلَتَيْن فحسب. لم يَبْدُ قَلِقاً على الإطلاق من دهشتي، أو بالأحرى، كان قد ازداد وقاحة، وفي لحظة ما غَمَزَ بعينه. ربَّما خَدَعَتْني الظُّلمة، لكنِّي رأيتُهُ يغمز بعينه، ولم يفعل ذلك ليهشَّ عن عينه ذُبابة. وواصل لمرَّتَيْن أو ثلاثاً الغَمْزَ بعينه.

"يوهانس"، صرختُ به "كُفَّ عن هذا".

هزَّتْهُ نبرة صوتي. ورأيتُهُ يرتعش كما لو أنّ حُمَّى عاليةً فَاجَأتْهُ، ثمَّ أطلق صرخة رهيبةً، صرخة جمَّدت الدم في عروقي، كانت صرخةً من رجلٍ اختزنها وحَبَسَهَا في حلقة لوقتٍ طويل للغاية. رفع عصاه مُمسِكاً بها بكلتا يَدَيْه، وهَجَمَ عليَّ. وبالكاد تمكّنتُ من تحاشي الضربة التي كانت ستُحطِّم جُمْجُمَتِي. نزلت الضربة على طرفٍ من كتفي، هوى يوهانس على الأرض، بفعل حركته العنيفة تلك، وانكسرت عصاه من قوَّة وعنف الضربة على الأرض. نَهَضَ بسرعة، فهَرَبْتُ صوب الساحة. كنتُ أشعر به مُقتفياً خَطوي وهو يصرخ، حَمَلْتُ من الأرض واحداً من الأعمدة التي شذَّبها العجوز، وتمكّنتُ من صَدِّ هجمته. هُرِعَ هو الآخر إلى حَمْل عمود من أعمدته، ولم أتمكّن من مَنْعه من ذلك، وانقضّ عليَّ. دافعتُ عن نفسي، إلَّا أن صرخاته الشبيهة بصيحات المقاتل الذي يلعن الموت ويتحدَّاه، كانت تخلع عنِّي أيَّة جرأةٍ. هكذا، على هذه الشاكلة، كنتُ قد رأيتُ أخوته يندفعون لمواجهة مدافعنا الرَّشَّاشة، صائحين وهم يحملون بين أيديهم عصياً أقلّ متانةً ممَّا نحمل بين أيدينا الآن، هو وأنا: ولم تكن مدرَّعاتنا قادرة على إيقافهم في كلِّ المرَّات.

كانت كلُّ دفاعاتي تنهار أمام ذلك الإصرار، حينها أدركتُ بأنَّني لو اكتفيتُ بالدفاع، فإنَّني سأنتهي في بحر اليوم نفسه جُثَّة طافية على سطح مياه النهر. ابتدأتُ بالصياح أنا أيضاً، صيحات عثرتُ عليها في عمق الخوف الذي شَعَرْتُ به، وكان ذلك يُثير فيَّ الرعب، إلَّا أنَّها كانت، في الوقت ذاته، تُغذِّيني بقَدْرٍ من الإقدام. وحين تمكَّن يوهانس من إصابة كتفي للمرَّة الثانية (وأجبرني الألم على حَبْس أنفاسي)، هَجَمْتُ عليه، وأَنْزَلْتُ العمود على جُمْجُمَتِهِ بكلِّ ما أُوتيتُ به من قوَّة. توقَّف ذاهلاً، ثمَّ سَقَطَ على الأرض مُنهاراً، وتحوَّلت صرخاته في تلك اللحظة إلى تأوُّهاتِ ألمٍ فظيع، ثمَّ سَكَتَ بعد قليل. اعتقدتُ بأنَّني قَتَلْتُهُ بتلك الضربة، وابتدأ جسدي بالارتجاف؛ كنتُ ضائعاً، أتمتم بكلمات مُبهَمَة. وناديتُ عليه أكثر من مرَّة.

بعد قليل، كان يوهانس واقفاً على قَدَمَيْه، جريحاً، لكنْ، أعلى قامةً ممَّا اعتدتُ على رؤيته بها. كان خيطٌ من الدم المتخثِّر يهبط على وجهه من الجرح في جبهته. عندها رميتُ العمود على الأرض كدلالة على أنَّني لا أنوي ضربه من جديد، وكتأكيدٍ له بأنَّني أُجبِرتُ على ذلك من قِبَلِهِ، وبفعل تهديده لي. كان يُحدِّق فيَّ لاهثاً وعيناه مُلطَّختان بالدم. ومشى باتِّجاه حافَّة الساحة مترنِّحاً، ووَلَجَ الدرب. "يوهانس"، ناديتُهُ صارخاً.

لم يستجبْ لندائي، بل، على العكس، سرَّع من خطواته. لذا اضطُررت إلى الجري لِلَّحاق به، كان بالتأكيد يحثُّ الخُطى نحو أوَّل موقعٍ عسكري، ليرفع ضدِّي شكوى اعتداءٍ، ولم يكن لي أن أسمح له بأنْ يفعل ذلك. أمسكتُ به من الظَّهْر، وتوسَّلتُ إليه بأن يعود أدراجه. انفجر بضحكات هيستيريَّة، كادت تُهشِّم صدره؛ وحاول أن يوجِّه بقبضته ذات النتوءات ضربةً إلى وجهي، فاضطُررتُ على الإمساك بمِعْصَمَيْه، وشَعَرْتُ بهما مشحونَيْن بقوَّة رهيبة، وأشدَّ بأساً من قبضتَيَّ، وكنتُ على وشك التَّخلِّي عن المقاومة، بسبب الإنهاك، عندما رأيتُ يوهانس ينهار على الأرض مُواصِلاً ضحكاته. انحنيتُ عليه، لأُساعده، إلَّا أن رائحة قويّة للكونياك طَرَدَتْني منه.

لقد كان يوهانس ثَمِلاً، وفَعَلَتِ الشمسُ به فعلَتَها رافعةً نسبة الثُّمَالَة لديه. وَاصَلَ الضحك والصراخ وتوجيه اللكمات يمنةً ويسرة، لكنْ، بوَهْن متزايد، حتَّى اللحظة التي غطَّ فيها في النوم. لم يكن بإمكاني تَرْكه على الدرب تحت لَفْح الشمس الحارقة، ووَجَبَ عليَّ حَمْله على كتفي، وصعود التَّلَّة، ووَضْعه في فراشه بعد أن نزعتُ من جيبه القَنِّينَة، التي كان قد أفرغ محتوياتها في جوفه.

لم يكن الجرح في جبهته غائراً. غسلتُهُ، وصَبَبْتُ عليه آخر القطرات المتبقِّية من الكونياك في عمق القَنِّينَة. كان يوهانس يغطُّ في نومٍ عميق، وكنتُ أستمع إليه يتضاحك بين الحين والآخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٩

حين استمعتُ إليه وهو يضحك (تلك الضحكة المريرة والطويلة، والشبيهة بما تحمل الريح إلينا ليلاً من الأماكن القَصِيَّة)، كنتُ قد قرَّرتُ قَتْله. كان عليَّ أن أقتله وأهرب من ذلك المكان: كان من الغباء أن أثق بذلك العجوز الهَرِم، والذي كنتُ قد أوصلتُ حَنَقَهُ تجاهي إلى الدرجات القصوى.

نام يوهانس حتَّى ساعةٍ متأخِّرة ممَّا بعد الظُّهْر، ومَكَثْتُ في كوخه طَوَالَ الوقت لأحرسَهُ. لم يكن الجرح باعثاً على القلق، لكنَّه عندما أفاق من غفوته، ورآني مبتسماً، أَقْدَمَ على محاولة النهوض، وابتدأ بتوجيه الشتائم لي. أَعَدْتُهُ إلى فراشه بهدوءٍ ورَوِيَّة، وقدَّمتُ إليه علبةً مملوءة بالماء. ولم يخلعْ ناظرَيْه عن وجهي بينما كان يشرب الماء، لكنَّه شَكَرَني عندما انتهى من شُرب كلِّ ما في العلبة من ماء.

كان يبذل جهداً كبيراً من أجل النهوض من فراشه، وبعناد السُّكارى حين يفيقون من نومتهم بعد السَّكْرة، إلَّا أنَّني أجبرتُهُ على البقاء في كوخه، وأعددتُ له طعام العشاء. لم أُشغِلْ ذهني خلال الإمساك بأوانيه ولمسها، فإذا كان سيُصاب بالجُذَام، فإنَّ المرض سيبلغه بعد أن يكون قد استقرَّ تحت تراب قبره، وليس قبل موته بالتأكيد. فَتَحْتُ له علبة من مُربَّى الفواكه، فالتهم محتوياتها بالكامل. كان يتصرَّف كما الطفل العليل الذي ينبغي معاملته بدلال وحنو. وإذا ما ابتعدتُ عنه قليلاً، كنتُ أسمع صوت مناداته لي: أيُّها الملازم. وربَّما كانت دفاعاته، والضربة التي أنزلتُها على رأسه، وأشعر الآن بأسى تجاهها، هما ما تسبَّبا في هذا التَّغيُّر المفاجِئ في سلوكه معي، ومع ذلك لم يكن ليوهانس إلَّا أن يُبديَ إعجابه بمقاومتي. كانت تلك الضربة خاطفةً، كانت ضربة اعتياديةً على طرف الرأس، إلَّا أن يوهانس ثمَّنَها بشكل كبير. إنَّه يُحدِّق فيَّ الآن باحترام باسم، هذا إذا لم يكن احترامه هذا ناتجاً عن حضور المُسدَّس الذي أحمل على خصري.

بتحصيل الحاصل، بدا يوهانس، وكأنَّه صار صديقاً لي على حين غِرَّة، إلَّا أنَّني لم أكن لأثقَ كثيراً بهذا التَّغيُّر الذي بدا وكأنَّه يختزنُ مكيدة ماكرةً خفيَّة: فلربَّما سيوحي إليَّ في أحد الأيَّام التالية مبتسماً بأنَّه ذاهبٌ إلى النهر، لكنَّه سيسلك طريق أعلى الهضبة نحو قيادة الموقع. لم يكن شخصاً قادراً على الغفران. وكان استغلاله لومضات الندم التي دَفَعَتْني إلى العناية به، يؤكِّد مخاوفي بالكامل.

انتظرتُ حتَّى اللحظة التي غطَّ فيها في نوم عميق، وأعددتُ ما يُشبه السرير، من خلال شبك أغصان خضراء بعدد من أعمدة يوهانس. كان عليَّ أن أحمل الجُثَّة حتَّى النهر، لأُخفيَ أيّ أثرٍ لها، طالما أنْ لا أحد، باستثناء إلياس، سيسأل عن العجوز. ومَنْ كان سيُصغي إلى شكاوى طفلٍ صغير؟ أو بالأحرى، إلياس نفسه، لم يكن ليندهش من غياب العجوز. وأنا لم أكن على استعداد للتَّخلِّي عن الفسحة التي سأحظى بها قياساً إلى مَنْ يلاحقونني.

وبعد نصف ساعةٍ من العمل، كان السرير جاهزاً ومُعَدّاً لاستقبال جُثَّة يوهانس.

كنتُ أحثُّ الخُطى صوب الكوخ، عندما أدركتُ بأنَّني لم أكن لأُطلِقَ النار عليه؛ لم أُطلِقِ النار، وليس ذلك بسبب رَفْض في داخلي، بل بسبب العَجْز عن الإتيان بفعلٍ مثل ذلك. فلقد أخفقتُ في توجيه الطلقة صوب الطبيب وصوب المُقدَّم، وكنتُ أشعر بالعجز لمواجهة فعلةٍ من هذا

النوع من جديد. لمرَّاتٍ عديدة دخلتُ إلى كوخ يوهانس، وفي كلِّ مرَّة كنتُ أخرج منه مُثبَطَ العزيمة أكثر من المرَّة السابقة. كانت الفريسة مَرمِيَّة أمامي هناك، مُغمضة العَيْنَيْن، وكانت تتنفَّس بالكاد، لم تكن الفريسة لتُقْدِمَ على أيَّة حركة، لم تكن لتُحرِّك رأسها، ومع ذلك، فإنَّ يدي كانت ترفض الانصياع إلى رغبتي في القَبْض على السلاح. كنتُ أقف عند عتبة الباب نافد الصبر، وأُفكِّر بأنَّ بمقدور ذلك العجوز الهَرِم الذي لا نفع فيه أن يُخفِقَ مخطَّطي للعودة إلى إيطاليا، ويقلبه رأساً على عقب، لذا كان ينبغي عليَّ أن أُزيحَهُ عن طريقي، وأقتلَهُ. كنتُ أقول، "اقتُلْهُ"، لكنِّي لن أكون قادراً على الإقدام على هذه الفعلة.

صرتُ أذرع الساحة جيئةً وذهاباً مُحاوِلاً إقناع نفسي عبر أفكار تُقنِعُني، لكنَّها تخنق أنفاسي دائماً، وتسلبني قوَّة الإقدام عليها. "أفهم ضرورة هذا الأمر"، قلتُ لنفسي "لكنِّي لن أُقدمَ عليه". ثمَّ كنتُ أُجيب نفسي "تشجَّعْ، عليكَ أن تحاول، لا تَتَخَاذَلِ الآن بالذات".

وبعد ساعة من التفكير والتَّأمُّل في الأمر، توصَّلتُ إلى تسويةٍ. لن أقتلَهُ، بل سأكتفي بتهديده، كنتُ سأُقنعه بأنِّي على استعداد للإقدام على قَتْله، لو أنَّه فكَّر بخيانتي. ولأنِّي سُعدتُ بقراري هذا، فقد بدأتُ بتفكيك سرير الأغصان الذي كنتُ قد أعددتُهُ كتابوتٍ حاملٍ لجُثَّة القتيل. لكنْ، هل سيخاف يوهانس من التهديد بالقَتْل؟ لم تكن تلك التهديدات إلَّا لتزيد نواياه صلابةً وعناداً. من الأفضل ألَّا أُقدِّم له المبرِّرات لذلك العناد على طَبَق من فضَّة، بتهديداتٍ بليدة. واستخلصتُ في خاتمة المطاف بأنَّه "ربَّما سينسى كلَّ شيءٍ حقَّاً".

وصوب المساء، قرَّرتُ أخيراً بأنَّني سأُغادر القرية في اليوم التالي، فقد كانت تلك هي الوسيلة الفُضلى للتخفيف من اندفاعات رغبة الانتقام لدى ذلك العجوز الهَرِم. كنتُ سأُغادر تاركاً له الكثير من المال والبغل (إذْ سيكون من الصعب، قلتُ لنفسي، أن أُقنِعَ ذلك الحيوان على المجيء معي). فيوهانس الذي تمكَّن من رَفْض ورقة بخمسمائة ليرة، سيتردَّد كثيراً برَفْض ورقة بخمسة آلاف ليرة، تُعرَض عليه. فبتلك الورقة كان سيجد نفسه ثرياً على حين غِرَّة، سيمنحني خَدَّه الآخر لأصفَعَهُ، غافراً لي جميع خطاياي.

نمت في تلك الليلة بجوار كوخ العجوز، لأتمكَّن من حراسته. أعددتُ حقيبتي، كي أنطلق برحلتي عند حلول الفجر، لكنْ، عندما حلَّ الفجر، أدركتُ بأنَّني لم أكن لأبتدِئَ رحلتي باستعداد كامل، وبأنَّني لم أكن لأعثرَ على القوَّة والعزم الكافيَيْن لتَرْك القرية، التي كنتُ أكرهها. لقد مضى على مكوثي هناك ستَّةٌ وعشرون يوماً، وبَدَتْ لي تلك التَّلَّة بمثابة المكان الأكثر أماناً على الإطلاق بالنسبة إليَّ ؛ كنتُ قد اقترفتُ ذات الخطأ الذي يقع فيه مَنْ يتعرَّضون إلى المُلاحَقة، عندما يختبئون في مكانٍ آمن، ويعجزون بعد ذلك عن مغادرة المخبأ، وهم الذي يفضِّلون الموت في داخله بدلاً من محاولة الخروج منه والبحث عن حظوظ أُخرى. "عليَّ الرحيل"، كنتُ أُردِّد لنفسي وأنا أُحدِّق بتلك الأشجار التي صارت بمثابة أصدقائي، تلك الطبيعة التي تبرز من ظلال الليل رويداً رويداً، تلك الأكواخ التي ما تزال مستعدَّة لاستضافتي. "إنْ لم أُغادر هذا المكان اليوم، فإنَّ في ذلك دليلاً على أنَّني فَقَدْتُ القدرة على المحاولة، وبأنّ عليَّ أن أقضيَ ما تبقَّى من عُمُري في هذا المكان".

حَمَلْتُ الحقيبة على ظَهْري، وأخرجتُ المال الذي أنوي إعطاءه ليوهانس، وتوجَّهتُ إلى كوخ العجوز، فألفيتُهُ قد أفاق من نومه. كان قد استمع إلى الضوضاء التي نَتَجَتْ عن قيامي بإعداد حقيبتي للسَّفَر، كما استمع إلى حواري مع نفسي بصوتٍ مسموع. كان بانتظاري، جالساً بهدوءٍ

وسكينة على فراشه. "وداعاً، يوهانس"، قلتُ له. تركتُ له المال فوق المصطبة الخشبيَّة، وأخبرتُهُ عن نِيِّتي بتَرْك البغل هنا في القرية، وبأنْ يحتفظ به معه في القرية، كما كانت فكرتي منذُ البداية، ألقى يوهانس نَظْرَة على المال، عَدَّ أوراقه، وأخفاه ما بين ثنايا ثوبه. بدا راضياً، لكنَّه لم يشكرني على فعلتي، بل وَاصَلَ التحديق بي بشكلٍ عابر، ثمَّ مَدَّ يده إليَّ. وحين شَدَدْتُ على يده، شَعَرْتُ بارتفاع حرارة جسمه العالية. "هل أنتَ مريضٌ، يا يوهانس؟"، سألتُهُ.

"كَلَّا"، أجابني، وأضاف "كَلَّا، يا سيِّدي الملازم". كان صوته خافتاً. وصار، أخيراً صوت عجوزٍ هَرِمٍ، لا يقوى على الدفاع عن نفسه. جَلَسْتُ على المصطبة الواطئة بجوار مَنَامَتِهِ دون أن أعرف ما عليَّ أفعل في حالة مثل هذه. كان عليَّ أن أفعل شيئاً ما قبل رحيلي، وهكذا كَشَفْتُ عن الجرح في جبهته: لم يكن غائراً، ولا باعثاً على القلق، ولم تكن لتمضي إلَّا أيَّام قليلة ويتعافى منه. أعدتُ تعقيمه بعناية؛ وبفضل الضياء الذي يتسلَّل إلى داخل الكوخ لاحظتُ شحوب بشرة يوهانس، كان وجهه يبدو وكأنَّه تغطَّى بغِلَالَةٍ من الرماد الناتج عن لَفَحَات الشمس الحارقة. ربَّما ألمَّتْ به الحُمَّى نتيجةً للسَّكْرة المفاجِئة. جَعَلْتُهُ يبتلع حبَّتَي أسبيرين، وتركتُ له أنبوبة الدواء التي كنتُ قد طَلَبْتُهَا من الطبيب الكسول قبل أيَّام، وكنتُ أحتفظ بها في حقيبتي لكلِّ ذلك الوقت كعربون للصداقة العابرة التي وُلدت بيننا، والتي لم تدُمْ طويلاً: وكان عدلاً أن يبقى ذلك الدواء لدى يوهانس، عدوِّي العنيد. "وداعاً، يوهانس"، كرَّرتُ له تلك الجملة مُحاوِلاً أن تُسمعَ بنبرة فَرِحَة؛ ولكي أُخفِّف من قلقي (إذْ أترك مرَّة أُخرى شخصاً غارقاً في المصائب)، قلتُ له بأنَّه سيُشفى في اليوم ذاته، وأضفتُ إلى الهدايا التي تركتُها له علبة من مُربَّى الفواكه.

الآن بإمكاني الرحيل.

ومع ذلك، فقد مَكَثْتُ في مكاني، كان إلياس سيعود إلى القرية بعد ثلاثة أيَّام، وسأترك يوهانس بعد ذلك، دون أن أتناسى، كنتُ أقول لنفسي، بأنَّ إلياس سيحمل لي السجائر، وسيوفِّر عليَّ عناء البحث عنها في القرى أو استجداءها من الجنود الذين ألتقيهم بالصدفة في الدرب. كنتُ أفكِّر بهذا، وأنا أُزمع على الرحيل، لكنّ حقيقة الأمر كانت تكمن في أنّ نَظَرَات يوهانس هي التي أوقفتْني، فعندما استدرتُ إليه عند عتبة الباب، لأُلقي عليه التَّحيَّة الأخيرة، رأيتُ في عَيْنَيْه نَظْرَةً، أصابتْني في الصميم، وفي تلك اللحظة بالذات، أدركتُ بأنَّ يوهانس في الحقيقة هو والد مريم (وهي الحقيقة التي لم أتوقَّف فيها أبداً التفكير فيها). لم أتساءل أبداً عن طبيعة الآصرة التي تربط يوهانس بمريم، والآن أعرف ذلك حقَّاً. كنتُ قد أبعدتُ عن ذهني دائماً بأنْ يكون إلياس ابناً ليوهانس، أمَّا الآن، فالوَضْع واضح وضوح الشمس. لقد أوهمَ مظهرُه تقييمي لسنوات عُمُره، لكنِّي أدركتُ في اليوم السابق وخلال الصراع الذي دار بيننا بأنَّ افتراضاتي لِسِنِي عُمُر يوهانس كان خاطئة بالكامل. كنتُ قد نَظَرْتُ إليه في لحظة دَفْن موتاه، فبدا لي حينها عجوزاً هَرِمَاً.

بقيتُ في القرية، وتعافى يوهانس من إصابته في غضون ثلاثة أيَّام، وصِرْنا في الأيَّام الثلاثة تلك صديقَيْنِ قريبَيْن، أو بالأحرى هذا ما أَوْهَمْتُ به نفسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ١٠

في صبيحة اليوم الرابع، يوم وصول إلياس إلى القرية، وبينما كنتُ جالساً على حافَّة الساحة أترقَّب ظهوره ثانية من بين أشجار أغصان الغابة، كما وَعَدَني، سمعتُ يوهانس يُناديني. كان ما يزال ضعيف البُنية، ولم يستَعِدْ بعدُ قواه بالكامل، أشار إلى الصفيحة المعدنية فارغةً من الماء: كان يعني بإشارته تلك بأنَّ عليَّ أن أتَّجه إلى النهر، لأملأها بالماء، وهكذا فعلتُ .. كنتُ متوتِّراً للغاية في ذلك الصباح، بسبب انتظاري عودة إلياس. أنَّبْتُ نفسي، لأنِّي لم أتَّفقْ معه على ساعة العودة، وكان هذا يعني احتمال أن أنتظر عودته للنهار بطوله، ولم يكن بإمكاني الوثوق بمقدرته في تحديد مآلات الوقت. أكانت أربعةً أم خمسةَ أيَّام؛ فالأمر سيَّان لدى الصبي إلياس، أو بالأحرى فقد تعني الأيَّام الأربعة لديه أربعة شهور. نعم، هو يحمل حول مِعْصَمِهِ ساعةً، لكنَّها تفيدُه كأداةٌ للزَّهْو فحسب، أكثر من فائدتها له لتحديد الوقت والالتزامات، وكانت تنفعه ليُسمع أقرانه من الصبية تكتكةَ رقَّاصها. سيعود بالتأكيد، لكنْ، مَنْ يدري متى سيحدُثُ ذلك؟! وكان سيصل إلينا سعيداً دون أن يشعر بأيِّ ندمٍ لتأخُّره عن الموعد. سيحمل لي معه علبة سجائر مهروسة، أو ربَّما مُجرَّد سيجارَتَيْن، أو حتَّى واحدةً فحسب، وَضَعَهَا خلفَ أُذُنه. كنتُ أُونِّبُ نفسي على عدم تحديد الأمور، تاركاً إيَّاها للخيارات التي تدور في رأسه. ولكي أُخفِّفَ من غضبي وحَنَقِي، خَلَعْتُ ثيابي، ونزلتُ إلى ماء النهر، لأستحمَّ بعد أن ملأتُ الصفيحة المعدنية بالماء.

سَبَحْتُ قريباً من ضفَّة النهر، وخَرَجْتُ منه بسرعة، لم أرغب في المغامرة بالذات في ذلك اليوم، لكن السباحة في ماء النهر أنعشتْني، وفكَّرتُ بأنَّه ليس عليَّ أن أُقيِّم إلياس باعتباره بليداً صغيراً، وبينما كنتُ على وشك ارتداء ثيابي، رأيتُ ماء النهر يغلي على بُعد عشرة أمتار من الضِّفَّة. بعد ذلك بلحظات كانت قبضتي تُمسكُ بالمُسدَّس الذي وجَّهتُ فُوَّهَتهُ صوب التمساح. كنتُ متأكِّداً بأنَّ ما رأيتُ هو ذلك الوحش الكاسر. صوَّبتُ المُسدَّس، لكنْ، دون أن أُطلق النار، وكنتُ أعلم بأنَّ الرصاصات لم تكن إلَّا ستمسُّ جِلْده القاسي إلَّا لتطيرَ عنه إلى مكانٍ آخر، وأنّ بإمكاني القضاء عليه فقط في حال أصبْتُهُ في إحدى عَيْنَيْه. كنتُ على أُهْبَة الاستعداد للفرار صوب الدرب الصاعد تاركاً الصفيحة المعدنية في مكانها، لأنَّها ستُعيق حركتي، وتُبطئُ من إيقاع فراري، إلَّا أنّ ماء النهر توقَّف عن الغليان، ولم ألحظْ أيَّ ظلٍّ للتمساح. "لقد أوهمتُ نفسي بنفسي"، فكَّرتُ في سرِّي. ثمَّ أضفتُ بأنَّني لم أُوهِمْ نفسي على الإطلاق، فلربَّما لم يتكمَّن التمساح من رؤيتي. معروفٌ بأنَّ قدرة الرؤية لدى هذه الحيوانات تخفت حين تكون غاطسةً في الماء، وتكون بأقلّ من ذلك حين تكون على اليابسة. انتظرتُ قليلاً قبل الانصراف، دون أن أنفي أُمنيَّةً في نفسي بعودة التمساح إلى الظهور: كنتُ أرغب في رؤيته، ولم يكن الخوف منه أو شَغَفٌ وفضولٌ علْمي هما ما يُغذِّيان تلك الرغبة، بل رؤيتُه وإطلاق النار عليه بكلِّ ما يحتويه المُسدَّس من طلقات، ومن ثمَّ الفرار من المكان بأقصى سرعة.

وابتدأتُ بشَتْم الحيوان وتوجيه السباب إليه بالضبط، كما يفعل السُّكَّان الأصليُّون، كما اعتقدتُ. صرختُ به طالباً منه الإفصاح عن أسباب فراره من مواجهتي، وبأنّ عليه أن يطفوَ على سطح الماء من جديد، ولماذا يهابُ الظهور أمامي. أهو يسعى إلى استغلال رحيلي المُقرَّر سلفاً، ليختفيَ عن الأنظار؟ تُرى هل كان التمساح يعلم بأنَّني سأرحل عن القرية والمكان في اليوم التالي؟ هل يعلم بأنَّ لديَّ رغبةً كبيرة في تقديم جِلْده المدبوغ هديَّة إلى زوجتي.

كنتُ أتكلَّم بصوت عالٍ وصارخٍ ناطقاً بهذه وغيرها من الحماقات البليدة، وبما أنَّني رأيتُ مياه

النهر تغلي من جديد، ربَّما بسبب دوَّامة مفاجِئة، فقد أفرغتُ رصاصات المُسدَّس الموجودة في المشط مُطلِقاً إيَّاها صوب ذلك الغليان، موجِّهاً لَعَنَاتي إلى التمساح. ولم تفعل الرصاصات السبع إلَّا رَفْع بعض قطرات الماء، وغاب الوحش في الأعماق، ولأنَّني لم أُنفِّس بعدُ عن غضبي، حَمَلْتُ من الأرض حجرةً كبيرة، ورميتُها بذلك الاتِّجاه. "خُذْ"، صرختُ بما اعتقدتُهُ تمساحاً. بعد ذلك، وقد شَعَرْتُ بالارتياح، حَمَلْتُ الصفيحة المعدنيَّة، وصَعِدْتُ صوب ساحة القرية، وعاد القلق والتَّرقُّب حول رجوع إلياس إلى القرية يُهيمن على تفكيري. لم يكن الانتظار عند حافَّة الساحة ينفع في شيء، فعُدتُ إلى الكوخ الدَّائريِّ، وشَغَلْتُ نفسي بتعبئة مشط المُسدَّس برصاصات جديدة. كنتُ، للأسف الشديد، أضعتُ سبع رصاصات هامَّة للغاية، ولم يبقَ لديَّ إلَّا مشطٌ واحد. إلَّا أنَّني قلتُ لنفسي بأنَّني لن أمتلك أيَّة فرصة لاستخدام تلك الرصاصات وإطلاقها.

في ذلك اليوم كانت الطيور تتردَّد في دخول الكوخ، وإذا ما صَرَخْتُ بها، غادرتِ الكوخَ على عجل، ودون أن أُضطَرَّ إلى تكرار الصيحة. رأيتُ أحد تلك الطيور واقفاً في مكانه مُستنِدَاً على ساقٍ واحدة، ومحدِّقاً بي مُعْوِجاً رأسه صوب الأعلى، فبَصَقْتُ عليه، ورأيتُهُ يطير مرتعباً، ليضيعَ ما بين تشابكات القَصَب في سقف الكوخ، وليتهاوى على الأرض عاجزاً عن تحديد مسارات طيرانه للخروج من الكوخ. "ها هي قد تعرّفتْ عليَّ الآن بشكلٍ جيِّد"، فكَّرتُ في سرِّي. تكمن مشكلة الطيور هنا في أن السُّكَّان الأصليِّيْن لا يُمارسون صيد الطيور، لذا فإنَّ الطيور تعتاد على فكرة أنّ على البشر أن يتحمَّلوا إلى الأبد وِزْرَ حضورها البغيض. "أنا لم أمتْ بعدُ"، صَرَخْتُ بوجه الطيور "ومَنْ يدري بأنَّني لن أتمكَّن من التهامكم أنا قبل نهايتي؟!". كنتُ أسعى إلى تهدئة غضبي عبر تلك الصيحات. وأخيراً تمكَّن الطائر الذي بَصَقْتُ عليه من العثور على المخرج من الكوخ، لكنَّه أَسقَطَ، قبل خروجه، شيئاً ما كان قد سَرَقَهُ من حقيبتي: كان ذلك الشيء قطعةً معدنيَّة، صَامُوْلَة بُرغي. لم يكن بمقدوري تَرْك الحقيبة مفتوحةً، ولو للحظة واحدة. حَمَلْتُ الصَّامُوْلَة من الأرض، وتذكَّرتُ المُقدَّم. كان المُقدَّم قد تمنَّى لي إجازةً مُريحة، وقد انتصر عليَّ في لعبة النَّرْد تلك. إلَّا أَنّ إجازتي موشكةٌ على الانتهاء، وشَعَرْتُ الرضا عن نفسي للعاطفة التي كنتُ قد أبديتُها في التعامل مع المُقدَّم.

حَمَلْتُ الصَّامُوْلَة، ورميتُها على الأرض لمرَّات عديدة مُوحِياً لنفسي بأنَّني أُمارس لعبة النَّرْد، وكنتُ أُكرِّر بصوتٍ عالٍ النقاط التي أحصل عليها. "سيِّدي المُقدَّم، "سأنتصر أنا في نهاية المطاف"، ختمتُ مُبتسماً. لكن الحزن غَلَبَنِي من جديد عندما تذكَّرتُ بأنَّني، حتَّى لو تمكَّنتُ من العودة إلى إيطاليا، فسأواجه العديد من المحاكمات. محاكمات عديدة ومستشفيات. فهل ستأتي زوجتي لزيارتي؟ هل ستحمل لي كُتُباً، حبَّات برتقال وسجائر؟ وهل ستجترح في كلِّ مرَّة عُذراً جديداً، لتُغادر وتتركني وحدي قبل الأوان أم أنَّها ستمتنع عن زيارتي بالمُطلق؟! على أيَّة حال، فكَّرتُ، بأنَّ أيَّة وَحْدةٍ يعيش المرء في ظلِّها هي شبيهةٌ بغيرها من الوحدات، لا فرق بينها، سأستمع إلى دَمْدَمَات وتأوُّهات مَنْ يجاورونني في الرَّدْهَة بدلاً من ضوضاء هذه الطيور اللعينة أو دَمْدَمَات يوهانس، الذي يُشبه، هو الآخر، طبيباً صارماً. وبدلاً من إلياس الذي يُخطئ الحساب ما بين أربعة أيَّام وأربعة شهور، سيكون هناك ممرِّض لا يُولي أيَّ اهتمام نحو طَلَبَاتي للنجدة عبر الجَرَس. وبدلاً من الملاك، سيكون هناك راهبٌ يعرض عليَّ أفراح الفردوس. وبدلاً من النهر ستكون هناك أرضيَّة من رُخام التراڤيرتين([26]) كامد البياض.

كنتُ أشعر بالبؤس إلى الدرجة التي عُدتُ فيها إلى استنشاق عبير نبتة بخور مريم البرِّيِّ. كان

عبقاً عابراً، إلى الدرجة التي اقتنعتُ بعدم وجوده بالفعل، وبأنَّهُ لم يكن إلَّا من صنيعِ خيالي. "ربَّما تصدرُ الرائحة من هذه الأشجار"، فكَّرتُ. لكن الأشجار المحيطة بالكوخ خالية من الزهور، ولا أعتقد بأنَّ الطيور ستشعر بالفرح لنُمُوِّ تلك الزهور. تواصَلَ العطر باقتحام خياشيمي وأنا ما بين اليقظة والنوم، إلَّا أنَّه بدأ بالخفوت التَّدريجيِّ بالتناغم مع ثِقَلِ الوَسَن الذي صار يهبط على جَفْنَيَّ، وكنتُ إذَّاك أشعر بأنَّ رائحةٍ زهور بخور مريم تلك لا بُدَّ أن تكون صادرةً عن زهورٍ آيلةٍ إلى ذبولٍ وفساد. "هي ذي الحقيقة"، فكَّرتُ، "لقد صار الخيال يخونني، وينصب لِي كمائنه، أنا مُنهَكٌ، وقد استُنْفِدَتْ كلُّ طاقتي على الاحتمال، وصيَّرني الخمول عُرضةً للتَّأثُّر بأيَّة رائحة تطير في فضاء هذه القرية. ها قد أصبحتُ كالحيوانات، واكتسبتُ طاقةً إضافية لحاسَّة الشَّمِّ". وضحكتُ لما فكَّرتُ به "ربَّما"، واصلتُ التفكير "قد أَعوِي، عمَّا قريب بوجه القمر، أو أسمع شهقات حشرةٍ صغيرة حتَّى لو كانت على بُعدِ كيلومترات. ومع ذلك، فقد عَجِزْتُ عن إقناع نفسي حول سبب إقدامي على الكذب بأنَّني لم أشمَّ أبداً عطر زهور بخور مريم. "فهي زهرة ككلِّ زهور الغابة، ولا بُدَّ أنِّي شَمَمْتُهَا مرَّة"، استخلصتُ. لكنِّي انتبهتُ بأنَّ تلك الرائحة تصدر بالذات من الزاوية التي وَضَعْتُ فيها حقيبة الظَّهْر. شَمَمْتُ الحقيبة، وتذكَّرتُ بأنَّني كنتُ قد حمَّلتُ الحقيبة على مَتْن شاحنة المُقدَّم، ولا بُدَّ أن ذلك الرجل كان يَحمل بين موادِّ تجارته الرخيصة بعض العطور التي يُحبُّها السُّكَّان الأصليُّون، وتنال إعجابهم، أو ربَّما مررتُ بأحد باعة العطور في ساحة بلدة "A". وتذكَّرتُ بأنَّ ذلك العطر أصابَّني بالدُّوار خلال الرحلة ما بين مُصوَّع وبلدة "D". ربَّما انكسرت إحدى القناني الحاوية لذلك العطر، وتشبَّعتْ حقيبتي بالسائل المنساب منها. "صارت الأمور واضحةٌ الآن"، قلتُ لنفسي. وكنتُ على وشك الغرق في النوم عندما رأيتُ يوهانس يتَّجه صوب الكوخ، راكضاً بمقدار ما كانت قواه الضعيفة، في تلك اللحظة. تسمح له. "لقد وَصَلَ إلياس بالتأكيد"، فكَّرتُ في الحال، إلَّا أنَّه، ولمُجرَّد أن صار على عتبة الباب، أبلَغَني ببرود بوصول رجال الشرطة العسكريَّة الإيطاليِّيْن.

أَعلَمَني يوهانس بذلك بصوتٍ هامسٍ، إلى الدرجة التي جَعَلَتْنِي أتوقَّع بأنَّ رجال الدرك يقفون هناك في الساحة. لم أكن أعرف ماذا عليَّ أن أفعل، فنَهَضْتُ، وارتديتُ جُبَّتِي العسكريَّة قبل كلِّ شيء. لم أرغبْ في أن يراني الجنود في تلك الحالة البائسة. زَرَّرْتُ الجُبَّة على عجلٍ، ورَبَطْتُ حزام ظَهْري، وبَحَثْتُ عن مشط الشَّعْر داخل الحقيبة. عندها فقط تذكَّرتُ أن أسأل يوهانس عن المكان الذي يتواجد فيه أولئك الرجال في تلك اللحظة. أخبرني بأنَّهم يصعدون الآن طريق التَّلَّة، وبأنّهم كانوا على بُعد ما يربو على ثلاثمائة متر عندما شاهدهم. "يا له من بليد!"، فكَّرتُ. حَمَلْتُ حقيبتي، وقرَّرتُ الفرار. لكنِّي تذكَّرتُ البغل في الحال، فلو شاهد رجال الشرطة العسكريَّة بغل المؤونة هناك في القرية، فإنَّهم سيتَّهمون العجوز بالسرقة، وإزاء تلك التُّهمة، سيجدُ نفسه مُجبَراً على إماطة اللِّثام عن مكان اختبائي. "البغل"، صَرَخْتُ. حدَّق يوهانس بوجهي للحظةٍ دون أن يُدرِكَ ما أعنيه، ثمَّ هُرع إلى الساحة. انتظرتُهُ على نارٍ أحرَّ من الجمر في مفترق الطُّرُق، وبعد قليل، وَصَلَ البغل إلى هناك مهرولاً، غير آبهٍ، على الإطلاق، بما يجري حوالَيْه. بل هو توقَّف ليقتاتَ على القليل من العشب النابت هناك، إلَّا أن يوهانس أنزل على ظَهْره ضربة، كانت من العنف بحيث أوقفَتْهُ عن التهام العشب، والرضوخ إلى اقتياده إلى النهر. وبينما كنَّا نَدْلِفُ الدرب، مرَّ رجال الدرك من أمام مدفن مريم، وتمكَّنتُ من رؤية وجوه البعض منهم من خلال أغصان الأشجار. تعرَّفتُ على شاراتهم، ورأيتُ أنَّهم يحملون البنادق بأيديهم، وليس على الأكتاف، ولذا فقد كانوا على أُهْبَة الاستعداد لإطلاق النار. ورأيتُ إلياس يتقدَّمهم في ذلك المسير.

"أيُّها الوغد الصغير"، قلتُ، ووَلَجْتُ في الدرب، دافعاً البغل أمامي، بعد أن استكان وصار ينصاع لأوامري. انتابتْني الرغبة في الصعود إلى القرية، كي أُعطيَ لذلك الوغد الصغير دَرْساً قبل أن أترك قيادي لرجال الشرطة العسكريَّة. لقد كنتُ غبيَّاً في توصيته بألَّا يُخبر أيَّ شخص آخر عن وجودي في القرية. كنتُ قد اقترفتُ الخطأ في جَعْلِهِ يُدركُ كلَّ شيء عن وَضْعي، ولم يكن له فَهْم الأمور وحده. وكنتُ قد تضرَّعتُ إليه بأن يحمل إليَّ معه السجائر. الآن فقط أتذكَّر رَفْضه الأوَّل لطَلَبي، ومن ثمَّ النَّظْرة القاسية التي تفحَّصني بها، عندما كان في منتصف الدرب قبل الولوج إلى مجاهل الغابة، وتذكَّرتُ أيضاً طَلَبي إليه بأن يعود إلى القرية من جديد. كان قد حسب عدد الأيَّام بلَمْس أنفه بالأصابع، بالضبط كما كان العجوز يفعل ذلك. لقد انتظرتُ كلَّ تلك الأيَّام بثقةٍ مُطلقة في ذلك الصَّبيِّ الصغير، والذي كان قد بدأ يُخطِّط في ذهنه لفكرة خيانتي في نفس اللحظة التي كان يُغادرني فيها. لم يكن إلياس قد تناسى تلك الصفعة التي وَجَّهتُها إليه داخل خيمتي في المعسكر، هو أيضاً كان راغباً في نَيْل قسطه من الانتقام، القسط الأسوأ. "لكنْ، لحُسْن الحظِّ"، فكَّرتُ "فإنَّ هناك يوهانس. فلو كان قد غَفَرَ لي أخطائي وسامحني، ولو أنّ صداقته التي أبداها لي في تلك الأيَّام صادقةٌ، فإنَّه سيفعل كلَّ ما في وسعه لإنقاذي. لكنْ، أبإمكاني أن أثق بالعنصر الثالث في تلك المؤامرة، يوهانس، الذي ما تزال جبهته الجريحة بسببي مربوطةً بضِمَاد أبيض؟".

قرَّرتُ بأنَّني سأعبر النهر، وسأدخل الغابة متَّجهاً صوب الجبال. سأنام الليل ما بين أحراش الغابة، وسأواصل المسير في اليوم التالي صوب مدينة "A". سينتهي الأمر بألَّا يأخذ رجال الشرطة العسكريَّة كلام الصَّبيِّ الصغير على مَحمَلٍ من الجدِّ، فيما لو نفى العجوز ما يدَّعيه الصغير. سيعودون أدراجهم إلى أعلى الهضبة، لأنَّه ليس من الحَذَر التجوال بين مجاهل الغابة.

حين وَصَلْتُ إلى ضفَّة النهر، قَفَزْتُ على ظَهْر البغل، وحَثَثْتُهُ للدخول إلى الماء. كان يتردَّد عن الحركة. أَوْلَجَ قائمَتَيْه في ماء النهر، وانسحب إلى الوراء في الحال. لم يكن بإمكاني أنْ أستحثَّه أو أن أجلدَهُ بالسوط مخافة أن ينهقَ، ووَجَبَ عليَّ أن أنزل من على ظَهْره. لم يكن النهر عريضاً، فسأعبره سباحة ببضع ضربات من ذراعَيَّ، أبلغ بعدها الضِّفَّة الأُخرى. عليَّ أن أحمل حقيبتي، وكنتُ أجهل ما سيفعله البغل بعد رحيلي. كنتُ متوتِّراً، لكنْ، أيضاً عليَّ التعجيل باتِّخاذ القرار حول ما عليَّ أنْ أفعل، وهذا ما جَعَلَني لا أنتبه إلى عصبيَّة الحيوان الذي كان يركل بحافرَيْه رافضاً بحزم النزول في ماء النهر. لم يكن التمساح ليخطرَ ببالي في تلك اللحظة، فقد غاب عن ذهني تماماً بعد أنْ تحدَّيتُهُ دونما فائدة، أو ربَّما تصوَّرت أنّ وجوده لم يكنْ إلَّا مُجرَّد خيالٍ أو أنَّه تدجَّنَ راكعاً كما ظَهَرَ في الصورة المرسومة فوق باب الكوخ الدَّائريِّ. دَفَعْتُ البغل إلى ماء النهر مُجدَّداً، فما كان منه إلَّا قَفَزَ إلى الوراء بعنف.

إذَّاك رأيتُ على ضِفَّة النهر تمساحاً، لا يزيد طوله على خمسة أقدام، وأعتقد أنَّه كان تمساحاً حديث الولادة، لكنِّي لم أُسائِل نفسي، لا في تلك اللحظة ولا بعدها، كم كان يبلغ من العُمُر. كان لونه أخضر بلون ماء آسنٍ داخل بركة، ببعض النقاط الصفراء على جنبَيْه. كان متوقِّفاً عند الضِّفَّة دونما حَرَاك، فيما تغرق مؤخِّرة ذنبه في ماء النهر، كما لو أنَّه يسعى إلى التَّعرُّف على درجة الحرارة لماء النهر. كان يُحدِّق فينا، ونحن نُحدِّق فيه، ولا أحد منَّا نحن الكائنات الثلاثة، يتحرَّك من مكانه.

كان ثابتاً لا يأتي حَرَاكاً، وعلى بُعدٍ لا يزيد عن مترَيْن منَّا. وبينما صوَّبْتُ المُسدَّس نحوه، تذكَّرتُ رجال الشرطة العسكريَّة، هناك في ساحة القرية. أبقيتُ المُسدَّس في يدي، لكنْ دون إطلاق

النار.

كان البغل يُحرِّك ذَنَبَهُ بتوتُّر كبير، وبدا ذلك التَّوتُّر وكأنَّه اختزن كلَّ حالة الرعب التي يشعر بها الحيوان؛ كانت شَفَتُهُ العليا ترتجف مُعبِّرةً عن الهَلَع، يُحدِّق بثباتٍ في ذلك الوحش الغريب والمجهول، شاعراً باضطرابٍ شبه إنساني، ولم يكن ليتحرَّك من مكانه قيد أنملةٍ قبل أن يتعرَّف على كينونة ذلك الوحش. أنا أيضاً لم أجرؤ على الحركة، كنَّا ثابتَيْن، دون أن يعرف أيٌّ منَّا ما الذي يترقَّبه. "ما الذي ننتظره؟"، وفكَّرتُ إذَّاك بأنَّنا ننتظر إمَّا والد أو والدة ذلك الوحش الصغير.

كان ينبغي عليَّ الفرارُ من هناك. لم أجرؤ على نَقْل بصري عن التمساح. وكنتُ أُراقب بزوايا عَيْنَيَّ المكان بحَذَر منتبهاً إلى أبسط نَأمَة لشفيفٍ يصل من أيِّ مكان. فلو بَرَزَ التمساح الكبير، ذلك الذي يعرف المكان جيِّداً، وجزءاً من تاريخ العالم، لن تكون لدينا أيَّة فرصة للخلاص. ولربَّما سيهرب البغل، لربَّما سأظلُّ واقفاً، مُتسمِّراً في مكاني بفعل الرعب. وبالإمكان ألَّا يصل التمساح الكبير من النهر، بل أن يَقْدمَ من الخلف، ليُغلقَ عليَّ طريق الفرار، إذَّاك، كان يُلزِمُني أن أقفز في ماء النهر في أبعد نقطةٍ عن التمساح الشَّابِّ، فيما لو امتلكتُ القوَّة على الإتيان بذلك، وحتَّى لو تمكَّنتُ من ذلك، فقد كنتُ أشكُّ بقواي وقدرتي على بلوغ الضِّفَّة الأخرى من النهر. تُرى ألم يكن التمساح الشَّابُّ ليلحقَ بي مدفوعاً بالفضول أو بالرغبة في اللعب؟ أوَلَم يكن ليشعر بالرغبة في اختبار أنيابه بعدما وَلَجَ إلى ماء النهر؟ هل سأجرؤ على الإمساك به، ذلك الوحش اللَّزِج والمُدرَّع بجِلْد سميك؟.

لم يتحرَّك أيٌّ منَّا. أبقى التمساح الصغير ذَنَبَهُ داخل الماء، وظلَّ دونما حَرَاك، وهو ما عجز البغل عن فِعْله. إذَّاك فقط أدركتُ لمَنْ كانت تلك النُّتُوءات المُمشَّطة. كانت نتوءاته، هو الذي تعوَّد على الخروج إلى ضفَّة النهر، ولربَّما لم يكن وكره بعيداً عن ذلك المكان، ولذا فقد كان والداه أو أقرباؤه أيضاً على مسافةٍ غيرُ بعيدة عن المكان.

قد يتحرَّك التمساح الصغير إذا ما نهق البغل، ربَّما، لذا كان عليَّ أن أفعل شيئاً ما. لا أعلم كم أمضيْنا من الوقت ثابِتَيْن، يُحدِّق أحدنا بالآخر!. وأخيراً تحرَّك التمساح، وجاء صوبي، وتوقَّف على بُعد خطوتَيْن منِّي رافعاً رأسه إلى الأعلى.

كانّ يُحرِّك رأسه ببطء، مأخوذاً بفضولٍ كسول. لم يكن قد افترضني بعدُ عدوَّاً له. بإمكاني أن أرى أسنانه القاطعة، وفكَّيْه الطويلَيْن اللَّذَيْن يُحدِثان ضوضاءٍ كبيرة حين ينغلقان، كما لو كانا مزلاجَيْ بَوَّابَة ضخمة، صُنِعا بدقَّة حِرَفِيَّة عالية. كان التمساح متوقِّفاً (حتَّى البغل لم يجرؤ على الإتيان بأيَّة حركة فيما كان جنباه الضخمان يرتجفان). ربَّما تساءل التمساح أيضاً عن أسباب ذلك الانتظار وذلك التَّرقُّب. وربَّما افترضُ البغل مثلي (أجهل سلوك حيوانات من هذا النوع، ولن أسعى في التَّعرُّف عليه في المستقبل أبداً)، بأنَّ لدى التمساح رغبة في اللعب، لكنّني لو مَدَدْتُ إليه ذراعي، فإنَّه سيقطعها بعضَّة واحدة، رغبة في اللعب لا غير. كان صغير السِّنِّ، ولم يكن النهر قد علَّمَهُ بعدُ الكثير، وربَّما كنتُ أنا الكائن البشري الأوَّل الذي يراه. ولربَّما ولَّد لديه طول قامتي الكثير من الشكوك والريب. تمكَّنتُ من التفكير بهذه الاعتبارات فيما بعد، أمَّا في تلك اللحظة، فقد كنتُ انتباهي مترِكِّزاً على الوحش الصغير، ولم تكن في داخلي أيَّة رغبة غير رغبة التَّخلُّص منه في أسرع وقت. كان توتُّر الصباح قد هزَّني بما فيه الكفاية، مانحاً إيَّاي طاقة جديدةً وتوتُّراً عصبيَّاً. وإذَّاك، بعد أن رأيتُ ذلك "التِّنِّين" المُتبختر والواثق من نفسه، يتردَّد في

الانقضاض على عضلة ساقي، أقنعتُ نفسي بضرورة التَّحرُّك السريع دون أيَّة إضاعةٍ للوقت. كنتُ ما أزال متوقِّفاً، ولم يكن التمساح يُحرِّك إلَّا فَكَّيْه، لكنْ، دون أن تكفَّ عيناه عن التحديق فيَّ ولو للحظة واحدة، ولم أكن أجرؤ على حرف ناظرَيَّ عنه مخافةَ أن تنكسر الهُدنة القائمة بيننا.

"لن يكون فضوله ناتجاً عن مُجرَّد الرغبة في الاطِّلاع أو لِلَّهو في كلِّ مرَّة"، فكَّرتُ "عليَّ التَّصرُّف، لكنْ، كيف؟". وما كان أَنْ أهداني التمساح الصغير نفسُه الفرصة لفعل شيء ما عندما رَفَعَ رأسه. ربَّما كان يستعدُّ للهجوم. لكنَّه رَفَعَ رأسه. تراجع إلى الوراء لخطوَتَيْن. فانطلقتُ دون أَنْ أُزيح نَظَرَاتي عنه، ولو لجزءٍ من ثانية.

نال الحيوان منِّي ركلة عنيفة تحت فكِّه الأسفل. استند على ذَنَبه، رسم على الأرض بسرعة خارقة دائرة غير مكتملة، وضرب سطح ماء النهر بظَهْره. للحظةٍ واحدةٍ رأيتُ بطنه المتوتِّر، أبيضَ مُرقَّطاً بألوان ماء راكد وآسن، ورأيت حوافر قَدَمَيْه المنكمشة. ثمَّ غاب في زَبَد الماء، استدار، ربَّما شاعراً بدُوارٍ أو مُصاباً بالدهشة من هجمتي، وابتعد سابحاً وهو يغطس في ماء النهر.

لقد رحل، وقد دُهشتُ أنا نفسي من فراره. هويتُ على الأرض جالساً على ضفَّة النهر، عاجزاً عن ترتيب أفكاري. ابتدأتُ بتمسيد كاحل قَدَمِي اليُمنى، وصرتُ أتكلَّم بصوتٍ عالٍ، ولم أنتبه إلى إلياس الذي كان ينزل الدرب وهو يُناديني. كان يؤشِّر لي بإيماءات عاجلةٍ. وعندما اقترب منِّي، أخبرني بأنَّ رجال الشرطة العسكريَّة غادروا القرية، وأنّ بإمكاني أن أصعدَ إلى هناك من جديد.

من نافل القول أن أروي ما حَدَثَ فيما بعد خلال ذلك النهار. عُدت إلى ساحة القرية. فتح إلياس مِزْوَدَهُ القماشيَّ وأخرج منه السجائر، وعلب الفواكه واللحم. وقد أنستْني سَكْرةُ السيجارة الأولى أن أسأل يوهانس عن السبب الذي قاد رجال الشرطة العسكريَّة إلى القرية. عرفتُ السببَ فيما بعد، فقد جاؤوا لأنّهم سمعوا إطلاقاً للرصاص في المكان. كنتُ أنا مَنْ أطلق النار تجاه التمساح المُتخيَّل. وكانوا قد تقاطعوا مع إلياس في الطريق، وأرادوا مرافقته بعد أن ارتابوا من وَضْعه، كصبيٍّ يَقِظٍ للغاية يحمل في مِزْوَدِهِ القماشيّ كلَّ تلك المؤنة. لكنّ إلياس أجاد الاحتفاظ بالسِّرِّ، وأفضلُ منه فَعَلَ العجوز. وقد اطَّلع الجنود على شهادته التَّقاعديَّة، وأبدوا إعجابهم به.

في فجر اليوم التالي، كنتُ مستعدَّاً للرحيل عن القرية. وكنتُ قد استرددتُ حيويَّتي إلى الدرجة التي سأحاول بها قَطْع مسافة الطريق حتَّى مُصوَّع، على الرَّغْمِ من طوله. عندما حيَّيت يوهانس، كنتُ على ثقةٍ بأنَّني سأرحل، ولربَّما أخطأتُ حين سألتُهُ ما الذي يرغب فيه لأترَكَهُ كتذكارٍ عنِّي. طَلَبَ منِّي يوهانِّس، وهو يُعيد إليَّ المال الذي أعطيتُهُ إيَّاه في اليوم السابق، أن أُهديَهُ الساعة، وقال "هذه". لم تَتحوَّل عينا يوهانس عن عَيْنَيَّ، وزاد ذلك من الاكفهرار الظاهر على سَحْنَتِي، فقد خانتْني حركتي المفاجِئة لإخفاء الساعة: إنَّها ذات الساعة التي اعتقدتُ بأنَّ مريم قد عَرَضَتْها عليه حين عادت إلى القرية، لتحملَ إلينا الطعام. وعندما صرتُ أَقْوى على الكلام، قلتُ له: "هَيَّا بنا". بعد ذلك تركتُهُ وحده أمام قبر مريم. ولم أرحلْ من القرية.

لم أرحلْ، لأنَّ يوهانس اعترف بوجود مريم: كان سيبدأ بالحديث عن مريم، وكان سيُعلِمُني ما إذا كان الأمل الضئيل الذي في داخلي بعدم الإصابة بالجُذَام يستند إلى الحقيقة أم لا. وعندما سألتُهُ في اليوم التالي (إذْ لم أره طَوَالَ النهار) عن الحقيقة التي أريد معرفتها، ردَّ العجوز على تساؤلاتي. ثمَّ عَرَضْتُ عليه قروح يَدَيَّ، فهزَّ رأسه. نَظَرَ إليها طويلاً. وفي الأُمسيَّة ذاتها كان يمرِّر على

قروحي دهاناً مثيراً للتَّقزُّز. وأنا تقبَّلتُ ذلك العلاج باكياً غير مُصدِّقٍ بإمكان أن أَشفى. بكيتُ حتَّى الفجر إلى الدرجة التي شَعَرْتُ بها بالدُّوار داخل الكوخ (الكوخ الأفضل من بين جميع الأكواخ).

وفي صباح اليوم الحادي والأربعين، سَلَكْتُ الطريق المختصرة مُتَّجهاً صوب أعلى الهضبة. كنتُ ذاهباً لتسليم نفسي إلى أقرب معسكر. لم يعد الاختباء والفرار ضروريّاً، فها هي القروح في طريقها إلى الشفاء. لم يخدعْني يوهانس، رَغْمَ أنّ الصورة الأولى المطبوعة في ذلك الكُتَيِّب بَدَتْ لي كما لو كانت يدي.

وحين مررتُ من أمام قبر مريم، رأيتُهُ مُغطَّىً بسقيفة من القشِّ. وكانت السقيفة مستندة على الأعمدة التي شذَّبها العجوز بعناد وحزم على مدى أيَّام طِوَالٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل السابع
# نقاط غامضة
## ١

حين رويتُ حكايتي للملازم الثاني بعد يومَيْن، لم يُعلِّق بشيء. بقي مُحدِّقاً بالوادي، الذي بدأتْ ملامحه تتَّضح بفعل ضياء الفجر، نَظَرَ إلى الجبال المقابلة لموقعنا، ولم يقلْ شيئاً. وفي حقيقة الأمر، كنتُ أترقَّب منه بعض الاستشهادات الثَّقافيَّة الرفيعة. كنتُ مستعدَّاً للرهان بكلِّ المال الذي أحمله في جيبي (بما فيه المال المسروق من المُقدَّم) بأنَّه سيكون وفيَّاً لزَهْوه الخجول، وسيتذكَّر بعضاً ممَّا قاله كُتَّابُهُ المفضَّلون، أو إنَّه كان سيستعين بتناصٍّ، تُوحيه إليه روحيَّته الشَّابَّة والمتهوِّرة. أو ربَّما سيذكر لي شيئاً عن الفردوس الذي يمكن اقتحامه في بعض المرَّات، حتَّى بأسوأ الوسائل. وتوقَّعتُ أيضاً أنْ يتحاشى إصدار حُكْم أخلاقي على فِعْل، نَتَجَ عن تقاطع المصادفات التي انصعْتُ إليها، وكان، بالتالي، سيُحجِمُ عن إصدار الأحكام الأخلاقيَّة إزاء الملهاة البشرية التي نَتَجَتْ عن لعبة الاحتمالات. ورَغْمَ كلِّ توقُّعاتي لتلك الاحتمالات، فقد بقي الملازم الثاني صامتاً، ثابتاً يُحدِّق في الوادي. خشيتُ أن تكون روايتي للمصائب التي مررتُ بها قد هَدْهَدَتْهُ، فخَلَدَ إلى النوم، لكنَّه لم يستلقِ، ورأيتُ ذُؤَابَةَ سيجاره المشتعل تُستضاء بين الفَيْنَة والأُخرى. ربَّما كان غارقاً في التفكير أو أنَّه وَجَدَ حكايتي ضعيفةَ الإقناع، ونَدِمَ على الساعات التي سُرِقَتْ من نومه. هذا إذا لم يكن يستمع إلى صوت الجندي الذي كان يُغنِّي في خيمةٍ مجاورة مُعبِّراً عن فرحته لِلَّيلة الأخيرة التي يقضيها عند حافَّة الوادي. كنَّا سنتحرَّك في الفجر صوب الميناء، لنصعدَ على مَتْن السفينة بعد أربعة أيَّام، وبعد ثمانية أيَّام من ذلك التاريخ، سننزل من على مَتْنها في إيطاليا.

سأُغادر أنا أيضاً. وَصَلْتُ إلى المعسكر قبل يومَيْن، وقد كنتُ على استعداد لأُعلن "هاكم، ها أنذا"، وبأن أتْبَعَ ضابط الشرطة العسكريَّة الذي يقودُني، كما تصوَّرتُ، إلى قلعةٍ أو حصنٍ ما في المستعمرة القديمة. كنتُ أتخلَّى عن شُركائي، غير سعيدٍ بدَفْع الثمن، لكنِّي كنتُ مُتعَبَاً من الإصرار على ذلك الفرار المتواصل؛ إلَّا أنَّني وَجَدْتُ المعسكر في حالة اضطراب شاملة، بسبب أوامر العودة التي كانت قد صدرت قبل ساعات. لم يكن يتحرَّى عليَّ أيُّ أحد، ولم تُقدَّم بحقِّي أيَّة شكوى. وعندما علِمَ النقيب بأنَّني لم أستنفد إجازتي في إيطاليا، أخبرني بأنَّه سيعرض على القيادة ملفَّاً لحَبْسِي. إلَّا أنَّه أضاف بأنَّني لا أستحقُّ ذلك العقاب، ورحل عنِّي، كي لا أراه وهو يغرق في الضحك. وحين مَرَرْتُ من خلف خيمته، سمعْتُهُ يروي مغامرتي للضُّبَّاط الآخرين. كنتُ بالنسبة إليهم دائماً رجل "الضِّرْس" و"رحلة التنقيب عن الذَّهَب"، وأمَّا الآن، فبدلاً من العودة إلى إيطاليا في إجازة، مَنْ يعلم ما الذي فَعَلْتُ؟ ربَّما قضيتُ الوقت بأكمله في رفقة امرأةٍ. كان غارقاً في الضحك وهو يروي؛ وإذاً لن أواجه حتَّى الحَبْس الاعتيادي الذي يُسجَّل في إضبارة الخدمة.

لم تُرفَع شكاوى ضدِّي. بل كانت هناك فقط رسالةٌ منها، من زوجتي، إلَّا أنَّني لم أفتحْها بعدْ. ابتدأت بالاقتناع بأنَّ عليَّ التَّخلِّي حتَّى عن الشريك الأخير في المؤامرة، بسبب قسمات وجهها،

القاسية في بعض الحالات، لقد أطلقتُ عليها الرصاص. طبيب الموقع لم يكن ليحضرَ لإسعافها، إلَّا أنَّني أنا مَنْ قَتَلَهَا في جميع الأحوال. عليَّ أن أتخلَّى عنها. لقد اعتقدتُ بأنَّ الحزن الذي بدا على قسمات وجهها كان نتاجاً لتجارب الحُبِّ المخفقة، ولشَغَفٍ في القلب، وتصوَّرتُ بأنَّها تأمَّلتْ في ذلك الحزن طويلاً، واستشعرتْ تداعياته. أمَّا الآن، فإنَّ عليَّ أن أقتنع بأنَّها ليست إلَّا جسداً صار يتحلَّلُ عضويّاً، وتصعد منه رائحة عَفَنٍ نفَّاذة، وربَّما هي ذات الرائحة التي لاحقتْني لأيَّام طويلة، لتُذكِّرني بأكثر الأشياء مهابةً لديَّ. ولو أنّ زوجتي نَزَلَتْ إلى ماء البحر دون أن تتعرَّى من ثيابها، وطَلَبَتْ منِّي أن أتبعَها، فإنَّني سأظلُّ واقفاً في مكاني على الساحل، عاجزاً عن الرضوخ إلى قانون جنونها النَّزِق.

وإذاً، لا أحد تحرَّى عنِّي. لا مُقدَّم مدينة "A"، ولا الطبيب، الذي بدا لي الأقلَّ اهتماماً بأمور من هذا القبيل. كنتُ قد وَصَلْتُ إلى المعسكر، مستعدَّاً للإعلان "ها أنذا"، إلَّا أنَّني رأيتُ الدركي يؤدِّي لي التَّحيَّة. ولا أحد انتبه إلى وجودي. ووَجَبَ على جندي البريد أن يُفتِّش في خيمته طويلاً، ليعثُرَ على الرسالة التي وَصَلَتْني. وأنا كنتُ أشعر في داخلي، بأنَّه ما عاد ضروريّاً لي، سواءٌ عَثَرَ على الرسالة أم لم يعثرْ عليها. ولذا لم أفتحها بعدُ حتَّى هذه اللحظة.

في تلك الليلة، دُهشت من صَمْت الملازم الثاني. لم يكن الجنود يتوقَّفون عن الغناء، كانوا يترقَّبون الفجر، ليتأكَّدوا من عدم وجود أوامر مُعاكسة مع بزوغ الشمس. أربعةُ أيَّام أُخرى، وبعدها سيقوم هدير وصَخَب محرِّكات السفينة بإقناعهم بأنَّ ما هم فيه ليس خيالاً أو حلُماً، بل يُطمئنهم. لن يجدوا لديهم حتَّى على طاقة ضئيلة لإلقاء تحيَّة الوداع على الناس المتجمهرين على رصيف الميناء.

وحين بَلَغْتُ درجة الاحتمال القصوى أمام صَمْت الملازم الثاني قلتُ له: "وإذاً؟ ما رأيكَ؟"، أجابني بأنَّ في حكايتي هذه عدداً من النقاط الغامضة. كنتُ على استعداد لإعادة روايتها له، إلَّا أنَّه أضاف بأنَّ ذلك الالتباس يمكن أن يُختزَل في أربع نقاط: العِمَامَة البيضاء التي لَفَّتْها المرأة على رأسها، قروح اليد، المذبحة التي جَرَتْ لسُكَّان القرية، ومن ثمَّ إحجام المُقدَّم عن رَفْع الشكوى.

"نعم"، كرَّر الكلمة، ملمِّحاً إلى حبوره، لأنَّني لم أعترض على ما ذَهَبَ إليه، كنتُ أرغب في أن أُضيف نقطةً أُخرى: الطبيب، إلَّا أنّ الطبيب لم يعدْ يبدو بالنسبة إليَّ نقطة غموض، بل بالأحرى، فقد كان في غاية الوضوح. فهل بمقدوري أن أغفر له بأنَّه لم يتقدَّم بشكوى ضدِّي؟ لقد كان "كارِهُ البشر" ذاك يدعوني إلى القبول بوَضْعي ك. "معصوم"، ولم يَدُر في خَلَدِهِ أن يعتبرني متَّهماً بجُرمٍ ما. ربَّما لأنَّه كان قد اقتنع بأنَّ الإدانة المكتوبة على ظاهر كفِّي كانت كافيةً، تلك الكفُّ المربوطة بعنايةٍ فائقة، لذا لم تكن هناك أيَّة حاجةٍ لإضافة إدانةٍ أُخرى تُقيَّد في ملفَّات المحاكم. لقد كان الأكثر ضعفاً هو الأكبر انتصاراً في هذه المنظومة بأسرها. كنتُ قد حمَّلتُهُ جميع تلاوين غضبي وحقدي. إلَّا أنّ عليَّ أن أستخلص بأنَّني كنتُ سأتقدَّم بشكوى لو كنتُ في موقعه: ولذا فقد كان خيالي المتوتِّر هو مَنْ أطلق رصاصة الرحمة على صداقتنا العابرة. هل بإمكاني، إذاً، أن أغفر له خطيئة، تؤكِّد مقدار ما بَلَغَهُ عجزي عن استيعاب الأمور؟

"نعم، بإمكاني"، كرَّرتُ. وكنتُ أفكِّر: "سنمرُّ من مدينة "A"، خلال ساعاتٍ قليلة، وسأراه جالساً ما بين أشجار الكَالِبْتُوْسْ في غابته. بعيداً عن البشر، مُحاطاً بالفوضى التي سأتعلَّم في يومٍ ما كيفية تثمينها"، ولكي أكسرَ حاجز الصمت، بيننا قلتُ للملازم الثاني: "لا تبدو لي المذبحة

التي جَرَتْ في القرية نُقطةً تحتاج إلى توضيحٍ إضافي، فهي، لشديد الأسف، قد وَقَعَتْ بالفعل، وكلانا يعلم بكيفية وقوعها".

"إلَّا أنَّنا لا نعلم السبب الذي دَفَعَ إلى القيام بتلك المذبحة"، أجاب الملازم الثاني "ولربَّما كان من الأفضل البدء باستقراء ذلك السبب. ستبدو لكَ المذبحة، إذَّاك، أكثر وضوحاً حين تعلم بأنَّ عازف الكمان مثلاً (ذلك الذي رأيتَهُ يمرُّ بين أشجار الغابة حزيناً، ومن ثمَّ التقيتَهُ مُعلَّقاً بالحبل على أحد تلك الأشجار متأمِّلاً في مغامرة حياته القصيرة) كان قد ذَهَبَ إلى موقع العمل قرب الجسر، لأنَّه توقَّع بأنَّ الفتاة حُمِلَتْ إلى هناك، لتُمْنَحَ إلى أحد الضُّبَّاط الراغبين بالزواج. لقد ذَهَبَ إلى هناك يبحث عنها".

"وماذا بعد؟"، سألتُهُ. (وكنتُ أفكِّر في داخلي بأنَّ لدى الملازم الثاني عاهة تعقيد الأمور، وهي عاهةٌ لن يبرأ منها أبداً).

"وبعد ذلك"، وَاصَلَ حديثه "قام العُمَّال، الباحثون الدائمون عن أسبابٍ لِلَّهو والاستمتاع في ذلك المكان القَصِيّ، بإفهامه بأنَّ المرأة موجودةٌ في موقع العمل بالفعل، لكنَّهم يجهلون وجودها في أيٍّ من الخيام. ربَّما في خيمة الطبيب؟ لا نفعَ في طَرْح هذا السؤال. (ولأنَّ هؤلاء الناس قادرون على كَظْم الغيظ، لأنّهم لا يقيسون الأمور بذات المعايير التي نستخدمها نحن) فقد تمكَّن الموسيقيُّ الشَّابُّ من كَظْم غيظ الغَيْرة اللَّافحة لديه، بعد الحوار الذي دار بينه والعُمَّال، كانت المَزْحَة قد بَدَتْ له ثقيلةً حقَّاً، لكنَّه انتظر حتَّى حلول المساء، ليُبادر مع حلول الظلام إلى طَعْن أحد العُمَّال برأس قصبةٍ مُشذَّبة، تالفاً بذلك بطاقة الولاء التي يحملها في جيبه، إلى غير رجعة".

"أحد العُمَّال؟"، سألتُهُ.

وكما لو أنَّه توقَّع سؤالي ذاك، أجابَني الملازم الثاني: "نعم، ونأملُ بألَّا يكون القتيل هو العامل الأشقر الذي كان يعمل في موقع البناء بالذات".

"وبرأيكَ، فإنَّ الموسيقيَّ الشَّابَّ شُنِقَ بسبب هذه الجريمة؟"، سألتُهُ.

"كَلَّا، فقد شهدتُ الليلة ذاتها هجوم قُطَّاع الطُّرُق على موقع العمل، إلَّا أنّ الهجوم صُدَّ، فانسحب المهاجمون حاملين معهم بعض الأدوات، وتاركين على الأرض عدداً من الجثث. ولسوء الحظِّ ربط العُمَّال الهجوم بغضبة ذلك الشَّابِّ المحلِّيِّ، أو بالأحرى اعتقدوا بأنَّه هو مَنْ حرَّض على الهجوم، وفي اليوم التالي، لسوء حظِّ ذلك الشَّابِّ مرَّ بالموقع أفرادٌ من الضَّابطيَّة([27]) وكانوا على عجلٍ لإعطاء مثالٍ على العقاب الذي يناله من تُسوِّلُ له نفسه للقيام بفعلة مثل تلك، أكثر من رغبتهم لفَتْح ملفِّ تحقيقٍ في الحادث. وكانت الشكوك التي حامت حول الشَّابِّ، كافيّة للضَّابطيَّة لتنفيذ ما دار في خَلَدِ قادتها".

"فهمتُ"، قلتُ "وإذا لم أكن مُخطئاً، فإنَّكَ تُحمِّل مسؤولية المذبحة على عاتق تلك الرصاصة التي أطلقتُها في الظلام. وإذا ما سرْنا على هَدْي هذا المنهج، فإنَّ كل المصائب التي وَقَعَتْ في أفريقيا كانت نتاجاً لتلك الإطلاقة التي خَرَجَتُ من فوهة مُسدَّسي".

"كَلَّا"، قال الملازم الثاني، "ليس ذلك، لكنّ المذبحة تختتم سلسلةً من المصادفات المؤلمة التي انطلقت بفعل الرصاصة التي خَرَجَتْ من فُوَّهَة مُسدَّسكَ. فأيُّ المصائب كانت الأولى في

هذه السلسلة؟ ولو قُيِّضت لنا معرفة ذلك، لتمكَّنَّا من امتلاك مفاتيح قراءة حكايتك. أمَّا الوَضْع على ما هو عليه، فلا يبدو لي أكثر أهمِّيَّة من لُعبة نرد تُجرى ما بين لاعبَيْن يعانيان من الكآبة، حيثُ تُرك كلُّ شيء للصدفة المحضة. أيُّ المصادفات كانت الأولى؟ الشاحنة المنقلبة؟ مفترق الطُّرُق المُغطَّى بجيفة البغل النافق؟ توقُّفكَ عند بركة تجمُّع مياه النهر؟ خوفكَ والهَلَع الذي شَعَرْتُ به خلال تلك الليلة؟ الصخرةُ التي حوَّلت مسار الطلقة؟ الحيوان الغريب الذي توقَّعتَ وجوده في تلك الأرجاء؟ أم علب الحلوى التي كانت تبعثها إليكَ زوجتكَ؟ أو ببساطة ذلك الضِّرْس الذي كان يُوجعكَ؟ ربَّما سيكون من المفيد أن نعرف ما إذا كان ذلك الضِّرْس هو سنُّ العقل أم لا؟".

"كَلَّا"، قلتُ له "لم يكن سنَّ العقل".

"حسنٌ"، وَاصَلَ الملازم الثاني "هذا هو سبب لعزاءٍ ما. لكنَّنا ما نزال في نقطة البداية. فمثل الكثير من القصص التي تقع في هذا العالم، تتهرب قصَّتكُ أيضاً من أيَّة إمكانية للتَّحرِّي والتَّحقُّق، هذا إذا لم تكن مستعداًّ للاعتراف والتسليم بأنَّ "المصادفات البائسة" تُلاحقكَ، لأنَّها جزءٌ مُكمِّل لكينونتكَ. وبأنَّها كانت تنصاع إلى رغباتكَ أنتَ فحسب. فلقد كنتَ أنتَ، بتحصيل حاصل، المصادفة البائسة. لكنْ، ما نفع كلِّ ذلك؟ وما هي الحكمة من ورائه؟ ها أنتَ قد أصبحت إنساناً حكيماً، بعد أن كنتَ ذلك الشَّابَّ سطحيَّ الاهتمامات، وقد حَدَثَ كلُّ ذلك بفضل جريمة قَتلٍ ارتكبتَها دون أن تُخطِّط لها أو أنْ تُوليَها أدنى اهتمام. أُهنِّئكَ على ذلك".

صَمَتْنا. وبَدَتْ لي جريمة قَتْل مريم، الآن، أمراً ضروريّاً لا مناص منه، لكنْ، فقط للأسباب التي أوحى إليَّ بها الملازم الثاني. وأكثر من كونها جريمةً، فقد بَدَتْ لي كأزمةٍ، أو كمرضٍ، سيمنحني المناعة إلى الأبد، كاشفاً لي عن مكنونات نفسي. صرتُ الآن أُحبُّ ضحيَّتي، وبإمكاني أن أهاب فقط فكرة تخلِّيها عنِّي.

كانت الذئاب تعوي من وراء الجسر، ومع ذلك، فقد كان النهار موشِكاً على الانبلاج. وكانت حافَّة الوادي تتقابل مع جبالٍ كئيبةٍ، فيها صوامع، يسعى إليها الباحثون عن الوَحْدة، تبعد إحداها عن الأُخرى مسافة مائة كيلومتر، أعتقد بأنَّ الوَحْدة التي يشعر بها الناس في تلك الصوامع أقلُّ بؤساً من الوحدة التي تلفُّنا حين نحيا في صَخَب المدينة، وهي ذات الوَحْدة التي تدفعنا إلى الخروج إلى الشارع، وارتياد المقاهي، والذهاب إلى المسارح، نفعل ذلك كي نتواجَهَ مع دفء البشر الأكثر حزناً وبؤساً ممَّا نحن فيه. لكنْ، هل بإمكان البشر أن يعيشوا تحت تلك السماء التي ينغلق فيها الأُفق بستارة سوداء من صخرة البازلت المعتمة، والتي ينبتُ الزَّهْر على جنباتها في الربيع فحسب؟

"فَلْنُوَاصِلْ"، قلتُ له "لنأتِ الآن إلى العِمَامَة البيضاء".

"لِنُوَاصِلْ"، كرَّر الملازم الثاني. لكنَّنا صَمَتْنا من جديد. وأضاف بأنَّ إيضاح هذه النقطة صعبٌ للغاية برأيه. "إذا لم تكن المرأة مُصابةً بالجُذَام، أي أنَّها كانت "معصومةً لا يُمكن المساس بها، فلماذا إذاً لَفَّتْ العِمَامَة البيضاء حول رأسها؟!

"أودُّ أن أعرف ذلك منكَ أنتَ"، أجبتُهُ. "أو بالأحرى إذا عجزْنا عن إيجاد الجواب لهذا التساؤل، فمن غير المُجدي طَرْح السؤال التالي".

ردَّ الملازم الثاني عليَّ بالإيجاب عبر إيماءة من رأسه، وأعلن أنَّه سيطرح افتراضَيْن: "الافتراض

الأوَّل"، قال "هو أنَّكَ رأيتَ لِفْعَةَ الرأس البيضاء في وقتٍ لاحق، أي عندما دنوْنا من الفَتَاتَيْن في باحة الكنيسة، واللَّتَيْن لَفَّتَا الرأس بتلك العِمَامَة بالفعل".

انفجرتُ ضاحكاً، إلَّا أنَّه أكَّد لي بأنَّه ليس من المفروض أن يُثير ذلك الافتراض دهشتي. أَوَلَستُ ممَّنْ يمتلكون فَهْماً خاصَّاً للذاكرة، ولاستباقاتها؟ ووَاصَلَ. أمَّا الافتراض الثاني، هو أنّ المرأة، اعتمرت العِمَامَة البيضاء على رأسها لغرض الاستحمام في النهر، وكانت مُدرِكَةً بأنَّها تقترف خطيئة، أو على الأقلِّ كانت تأتي بفعلٍ غريب. فأنَّى لها أن تجرؤ على اقتراف فعلٍ كذلك، في أرضٍ (هنا شدَّد الملازم الثاني على نُطق كلماته) تُصان فيها قِيَم مُعيَّنة، بدأت شعوب أُخرى بافتقادها، كالإيمان واحترام التقاليد الدِّينيَّة بالذات؟. وأضاف "لنُجرِ الآن مقاربة افتراضية: ندخل إلى أحد بيوتنا، ولا نجد فيه مَنْ يستقبلنا. نتقدَّم في ممرَّات المنزل، ونلج بالخطأ (نعم، أقول بالخطأ) داخل حمَّام المنزل، وهناك نكتشف سيِّدة المنزل عاريةً وهي تستعدُّ للاستحمام. هذا مشهدٌ في غاية الاعتياديَّة. وهو ما تُعبِّر به السَّيِّدة عن حُبِّها لذاتها، ووسيلة لتمضية الوقت. لكنَّنا نرى بأنَّ رأس تلك السَّيِّدة، التي تعرَّتْ كي تستحمَّ، تعلوه طاقيَّة رهبان".

"بالضبط"، قلتُ له "لكنْ، أين هو ذلك المنزل الذي يمكن أن تُشاهد فيه عرضاً بهذه الغرابة؟".

فأجاب الملازم الثاني هامساً: "في مصحِّ الأمراض العقليَّة". إذَّاك لم أتمكَّن من الإمساك بنفسي عن الضحك. وإذاً فقد كانت مريم، برأيه، مُصابةً باختلال عقلي! وقد بدا لي من غير المُجدي أن أسعى إلى دَحْض افتراضه هذا، فقلتُ له: "لِنُوَاصِلْ".

"لِنُواصِلْ"، كرَّر الملازم الثاني. إلَّا أنَّنا صَمَتْنا من جديد. "بعد أربعة أيَّام"، فكَّرتُ "سنصعد على مَتْن السفينة في مُصوَّع"، وسيثملُ الجنود بالشمس وبالنبيذ، ومن ثمَّ بالبحر الأحمر، ذلك البحر الدافئ والحزين، وأخيراً سنصل إلى بورسعيد. وما سيبقى عالقاً في أذهاننا من أفريقيا بأسرها هي لوحة الدعاية الكبيرة التي تروِّج لنوعٍ من الويسكي، والمنصوبة عند نقطة الصعود في الميناء. إنَّه النُّصْبُ الأوَّل الذي تراه عند وصولكَ إلى أفريقيا، والأخير عندما تُغادر. وداعاً.

أمَّا نقطة الغموض الثانية، فقد كانت القروح على ظاهر كفِّي. هزَّ الملازم الثاني رأسه عندما قلتُ له بأنَّ تلك القروح قد تكون نَتَجَتْ عن التغذية السَّيِّئة. "لنُجرِّبْ ذلك على أيَّة حال"، قلتُ له "إنْ نستخلص لذلك الغموض تفسيراً منطقيَّاً، فقد تكون القروح ناتجة عن تسمُّمٍ غذائي، تماثلتُ إلى الشفاء بعد إقلاعي عن تناوُل ذلك النوع من الطعام في القرية، وعبر ضِمَادَات يوهانس. وليس كلُّ هذا بمُجمله، بشكلٍ أو بآخر، عبارةً عن نقطة غموض"، استخلصتُ "رَغْمَ أنَّ يدي كانت شبيهة بالصورة الأولى في الكتيِّب الذي أخذتُهُ من الطبيب ك".

تأمَّل الملازم الثاني في الأمر طويلاً قبل الرَّدِّ عليَّ، وقال بأنَّه لا يثق بأنَّ هناك من بين السُّكَّان المحلِّيِّيْن أحداً قادراً على علاج الناس من حالات التَّسمُّم في الدم. "أمَّا علاج القروح الناتجة عن الجُذَام، فنعم"، وأضاف "نحن هنا في عالم الماورائيَّات، وبإمكان يوهانس القبول بالماورائيَّات. أمَّا القروح الأُخرى، فقد كان يترك علاجها والشفاء منها "للسادة"، وهذا، لحُسْن الحظِّ، ما يُسجِّل المقام الأعلى لأولئك السادة".

"وماذا بعدُ إذاً؟" سألتُهُ.

"بعد ذلك، لا سجال مع القروح، كلُّ ما في الأمر هو القبول بها، وكفى".

وبما أنَّني ابتسمتُ، فقد قال الملازم الثاني إنَّه قد يكون بإمكاننا أن نجترح تفسيراً منطقيَّاً لهذا الأمر، لكنْ، ليس قبل عشرة أعوامٍ على الأقلِّ.

"كَلَّا"، قلتُ له "كَلَّا، فَلْنَتَقْبَلْ بالقروح دونما سجال"، وضحكْنا. كنَّا نستمع إلى هَمْهَمَاتٍ كثيرةٍ تأتي من أرجاء المعسكر؛ كفَّ الجنود عن الغناء، وابتدؤوا بإعداد حاجياتهم. وفوق عيون مواقد المطبخ كان الماء يغلي لإعداد قهوة الصباح.

"لديَّ فضولٌ كبير"، قال الملازم الثاني، "أن أستمعَ إلى جواب آليعازر على أولئك الذين استفسروا منه عمَّا شاهدَهُ في العالم الآخر. فلربَّما سيُجيب آليعازر، الهائم في عالمه الخاصِّ كعادته، بأنَّه لم يُعِرْ ذلك العالم الاهتمام الذي يمكن أن يُعينَه في تكوين صورةٍ عنه".

صَمَتْنا من جديد. ربَّما كان كلانا يفكِّر بيوهانس: وهي أفكار تقتحم الذهن عندما تُحدِّق في ذلك الوادي الذي يُستضاء بالفجر المُضبَّب لنهارٍ طالما حَلُمتُ بحلوله. كنتُ أفكِّر بيوهانس وبضِمَاداته وبتحيَّته الأخيرة وهو واقف على حافَّة الساحة المطلَّة على الدرب النازل من التَّلَّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ٢

"بقي لدينا المُقدَّم"، قلتُ له، وأضفتُ: "هذه النقطة الغامضة أرغب في إضاءتها بنفسي، فهل تسمح لي؟"، وهنا ضحكتُ "فأنا أرى بأنَّ المُقدَّم شَعَرَ بالخوف حقّاً".

كانت الجبال قد أُضيئَتْ، وبَرَزَتْ من ظُلمة الليل. وتساقطتْ أشعَّةُ الشمس عليها بشكلٍ مائل، فيما بدا الوادي وكأنَّه خَلَدَ إلى رُقاد، كما المُصاب بالأرق الذي يترقَّب شروق الشمس، أو حفيف مِكْنَسَة الكنَّاس على حجارة الطريق، قبل أن يُقرِّر الخلود إلى النوم. لم نعد نسمع الصيحات الشبيهة بصرخات الباعة المتجوِّلين في الأسواق الشَّعبيَّة، وكانت نُسيمات الليل تنزاح، لتتركَ الفضاء فسيحاً أمام لَفْح الشمس الصَّباحيَّة. "يبقى لدينا المُقدَّم"، كرَّرتُ.

أشعل الملازم الثاني سيجاراً آخر؛ ثمَّ قال، "نعم، لقد خاف المُقدَّم، ولم يتقدَّم بشكوى ضدَّكَ. أو ربَّما لم يَخَفْ من ذلك، بل قرَّر إرجاء الأمر فحسب. من الصعب تأكيد صحَّة أيٍّ من هذَيْن الافتراضَيْن".

"أنا أعتقد بأنَّه أقلع عن الفكرة تماماً"، قلتُ له "وإلَّا فكيف بإمكانه تبرير حصوله على كلِّ ذلك المال؟ لقد خشي أن يخسر كلَّ شيء، هذا كلُّ ما في الأمر".

رأيتُ المُقدَّم ثانيةً وهو يتمشَّى على رصيف الميناء، يُدقِّق في الصناديق المُنزَّلة من السفينة على أكتاف حمَّالين محلِّيِّيْن، يبذلون جهداً خارقاً لقدرة البشر. كان يُحدِّق بأولئك البشر بعَيْنَيْه العاجزَتَيْن على إخفاء المكر التي تعوَّد عليه منذُ وقت قصير، وكان يُدير نَظَرَاته، كما لو كان فاصلة رَبْطٍ بين الرصيف والشاحنة سماويَّة اللون التي أَوقَفَها في الظِّلِّ، قرب بار الميناء.

"سهلٌ للغاية"، وَاصَلَ الملازم الثاني "لكنْ، سيكون من المفيد أن نتعرَّف حقّاً على المخاوف التي جالت في ذهنه. فللخوف تدرُّجات لا نهاية لها، وبالإمكان ترتيبها في تسلسلٍ متدرِّج. فهناك الخوف الذي يتملَّكَكَ في الوَهْلَة الأولى، وذلك هو خوف الحكماء والأكثر حيطةً؛ وثَمَّةَ أيضاً الخوف الذي ... هل أُضجِرُكَ؟"

"كَلَّا"، قلتُ له "وَاصِلْ، أرجوكَ"، (لكنْ، في حقيقة الأمر، كنتُ أفكِّر بأنَّ الملازم الثاني لا يكتفي بامتلاك شَغَف تعقيد الأمور، بل كانت تلك هي خَصْلته الأساسيَّة).

"الخوف"، وَاصَلَ "ذلك الخوف الذي يتملَّكَكَ "فيما بعد"، وذاك هو خوفُ الجريئين والشُّجعان؛ وثَمَّةَ، في النهاية، الخوف الذي يتملَّكُكَ خلال الحَدَث، وهو الخوف الذي يقتل (كما لاحظتَ أنتَ بحقٍّ)، أو هو الخوف الذي يُحوِّلُكَ إلى جبانٍ رعديد. أنا الآن متردِّدٌ كثيراً في ترتيب مخاوف المُقدَّم في خانة واحدة من هذه الخانات. هل أنتَ واثقٌ تمام الوثوق بأنّكَ خَلَعْت صَامُوْلَة البرغي من إطار الشاحنة؟".

"ها هي"، قلتُ له، وأخرجتُ الصَّامُوْلَة من جيبي. دقَّق الملازم الثاني في الصَّامُوْلَة، ولاعَبَها فوق باطن كَفِّه: لم يَبْدُ لي مُقتنعاً بالكامل. كنتُ أشعر بأنَّني لن أفرحَ لو قابلتُ المُقدَّم في مُصوَّع. إلَّا أنّ بإمكاني أن أُعيدَ إليه المال الذي سرقتُهُ منه. ومع ذلك، لماذا ينبغي عليَّ أن ألتقيَهُ؟ "لم يكن ليتعرَّف عليَّ"، ختمتُ "لحيتي الآن أطول بكثير ممَّا كانت عليه حين التقيتُهُ للمرَّة الأولى، وأمرني فيها بضرورة حلاقتها".

كان الملازم الثاني يواصل صَمْتَهُ، فرجوتُهُ أن يُكمِلَ كلامه. فقال بوَهْن كبير (ربَّما كان يشعر بالنُعاس): "لهذا الوادي جانبان، نحن الآن على حافَّة الجانب الشَّماليِّ، أنتَ خلَعْتَ صَامُوْلَة البرغي من أحد إطارات شاحنة المُقدَّم على حافَّة الجانب الجنوبي من الوادي: هناك في الأعلى، إنْ لم أُخطِئ". وأشار الملازم الثاني بيده إلى الطرف الآخر من الوادي، والذي اصطبغ الآن بلونٍ زَهْرِيٍّ. "ولأنكَ كنتُ قلقاً وخائفاً من احتمال رَفْع المُقدَّم شكوى ضدَّكَ، واعتبرتَ نفسكَ مهزوماً عندما رأيتَ شاحنتَهُ تظهر من جديد في الطريق الذي يقود إلى الجسر، أي إلى جهاز الهاتف في نقطة التفتيش. إلَّا أنّ المُقدَّم وَاصَلَ مسيره دون إجراء تلك المكالمة الهاتفيَّة".

"بالتأكيد"، قلتُ "لكنْ، لماذا وَاصَلَ المسير دون إجراء تلك المكالمة الهاتفيَّة؟!" ربَّما كان الهاتف مُعطَّلاً، أو، أنّ المُقدَّم، قَلَّبَ الأمور، خلال مسيره، واعتبر أنّ من غير المُفيد له إشعال الموضوع، لذا فقد تخلَّى عن فكرة رَفْع الشكوى. وقد تملَّكه الخوف في البداية، بتحصيل الحاصل".

"ربَّما"، قال الملازم الثاني "لكنِّي لستُ مُقتنعاً بالكامل بأنَّ المُقدَّم خاف من أن يتعرَّض هو الآخر إلى شكوى. كَلَّا، فإذا كان المُقدَّم يمارس تجارته تلك، فلا بُدَّ أنَّه ضمن لنفسه ظهيراً قويَّاً. ولربَّما كان هو البيدق الأخير في سلسلة أكبر وأوسع من المساهمين"، وأضاف "هل كان سيهاب من شكوى يُقدِّمها ضدَّه ضابطٌ مُتَّهم بالسرقة، وتتحرَّى عليه الشرطة العسكريَّة بتهمة القَتْل؟".

"وإذاً؟"، سألتُ.

"وإذاً سيبقى أمامنا افتراضٌ واحد فحسب. فإذا كان قد عَبَرَ نقطة التفتيش عند الجسر، ولم يتَّصل هاتفيَّاً، (ولْنَسْتَبْعِدْ بأنَّ الهاتف كان مُعطَّلاً، لأنَّ خطَّ الهاتف هناك مزدوجٌ)، فإنَّ علينا أن نقتنعَ بأنَّه لم يكن راغباً في إجراء تلك المكالمة حتَّى لو بَلَغَ أعلى الهضبة، أو بإمكاننا أن نفترض أيضاً أنَّه لم يفكِّر في رَفْع الشكوى ضدَّكَ أبداً. ولم يكن هذا قراراً نَضَجَ خلال المسير؛ بل هو قرارٌ توصَّل إليه المُقدَّم في اللحظة التي صَعِدَ فيها على مَتْن الشاحنة عندما شَعَرَ بخيبة الأمل إزاءكَ. فما الذي كان سيُكلِّفه أن يعود أدراجه؟ أو أن يرفض مواصلة السير؟ هل كنتَ ستُطلق النار عليه؟ كَلَّا، فقد كنتَ ترغب في تحاشي أيَّة تعقيداتٍ أُخرى. لذا فقد تخلَّى عن فكرة الشكوى منذُ اللحظة الأولى. ولكونه لم يُصغِ إلى روايات صاحبة المنزل، مريم، فقد كان قد استسلم لاحتمال تعرُّضه إلى السرقة من قِبَلكَ. استسلم إلى ذلك الاحتمال ببراءة".

"وإذاً، فقد عُدْنا إلى نقطة الصفر من جديد"، قلتُ له "لكنْ، لماذا، برأيكَ، قرَّر عدم رَفْع الشكوى ضدِّي؟".

"أترك الحُكم في الأمر لكَ"، أجابني الملازم الثاني. "أعتقد بأنَّه أشفق عليَّ. أو ربَّما قبِلَ بفكرتكَ حول الحصول على المال من صفقةٍ أُخرى. وعلى أيَّة حال، أنا أستبعد شعوره بالخوف. ليس بالإمكان أن يكون المُقدَّم قد شَعَرَ بأيِّ خوف".

صَمَتَ؛ وإذَّاك سألتُهُ ما إذا كان المُقدَّم ما يزال على قيد الحياة أم أنَّه مات؟ وبسببٍ من تردُّده خلال رواية الأحداث لي، كانت تساورني شكوكٌ حول بعض ما يروي، لكنّ جوابه المبتسر على هذا السؤال أثار دهشتي على أيَّة حال. أو بالأحرى، لم أُصدِّق في الحال بما كنتُ أستمع إليه. "ربَّما"، فكَّرتُ، "بأنَّ هذه هي الوسيلة المروِّعة التي يستمتع بها الملازم الثاني على حسابي وحساب أعصابي"، وسلَّمتُ بصحَّة ما يروي فقط حين أعاد تكرار الجملة لمرَّاتٍ عديدة،

مندهشاً، هو الآخر، من استيائي من النهاية التي آل إليها المُقدَّم. لم يكن الملازم الثاني يمزح معي. قال لي "لقد عَبَرَ المُقدَّم الجسر، ليبلغَ أعلى الهضبة"، وخَتَمَ قوله "لم يكن له أن يشعر بالخوف، بمقدار شعوره بالهَلَع والمفاجأة".

كان الملازم الثاني يستمتع وهو يستهلك مفردات الحوار اللَّيليِّ الطويل ما بيننا. الحوار الأخير في صداقتنا. تذكَّرتُ المُقدَّم وهو يحاول إغواء مريم في السرير، عازماً على جَعْل الآخرين يقبلون بمَرأى صدره الأبيض الأنثوي ووجهه المنشرح، بابتسامة لا غبارَ على ظرافتها. في الغضون، وبعد أن رآني صامتاً، عاد الملازم الثاني فجأةً جادّاً، قائلاً بأنَّ في إمكاني اعتبار نفسي بريئاً من الخطيئة في هذا الإطار. لأنَّ هناك أموراً قد تتسبَّب في وقوع الخطيئة، فشاحنات نَقْل الجنود في أفريقيا تنقلب لأسباب عديدة، أو بالأحرى، فقد كانت أفريقيا مليئة بشاحنات الجُند المقلوبة. وأخبرني أنّ بإمكاننا التَّأكُّدَ من ظروف موت المُقدَّم، لو أحببتُ ذلك، وخَتَمَ قائلاً "فإذا ما كان البرغي ما يزال في موقعه، فلا ذنب على أيِّ أحد. ناهيكَ تحميل الذنوب على مَنْ أزال صَامُوْلَة البرغي".

لم أُجِبْهُ.

لقد عَبَرَ المُقدَّم نقطة التفتيش دون أن يُجريَ المكالمة الهاتفيَّة، لكنَّه لم يبلُغْ أعلى الهضبة أبداً. ربَّما هَوَتْ شاحنته في الوادي لأسباب أُخرى، بعد أن قام بإصلاح العطل في إطار الشاحنة. لكنْ، مَن الذي أزال صَامُوْلَة البرغي؟ هل أنا مَنْ فَعَلَ ذلك؟ أنا، ذلك الشَّابّ الوقح الذي كان يُراقب ساعته اليدوية وهو يقف على حافَّة الشارع، مرتجفاً لمُجرَّد التفكير بأنَّ الشاحنة لم تتهاوى بعدُ في الوادي؟ أنا الذي كنتُ قد احتفظتُ لنفسي بقسطٍ ما في حكاية حياةِ المُقدَّم؟. "لا بأس"، قلتُ لنفسي "حكاية المُقدَّم انتهت، وليست حكايتي إلَّا في بدايتها".

كان بوق الإيقاظ يرنُّ داعياً الجنود إلى النهوض، ومنذُ الرَّنَّات الأولى اشتعل الصَّخَب في المعسكر، وارتفعت صيحات الجنود. كان الجميع قد أفاقوا، وابتدؤوا بتفكيك الخيام، متصايحين ومُهلِّلين ليوم الرحيل، مندهشين حقَّاً لحلول هذا اليوم. ولأنَّه استُحثَّ من تلك الضوضاء، فقد أعاد جندي البوق عزف نغماته من جديد، مُضيفاً إليها نغمات نشاز، أثارت الضحك بين الجنود، ثمَّ إلى حافَّة الوادي، ليُعيدَ الكَرَّة. كان يرغبُ في أن يستمع الجميع إلى نداء الإيقاظ في اليوم الذي طال انتظاره لسَنَتَيْن.

"بإمكاننا التَّأكُّد في الحال، إنْ أحببتَ"، كرَّر الملازم الثاني بإلحاح.

سمع الجميع رنَّات البوق، لكنْ، لا أحدَ ممَّنْ كانوا هناك تمكَّن من الحركة. لم يتمكَّن من الحركة أولئك الراقدون في الصناديق الخشبيَّة المدفونة تحت رمال هذه الأرض الحارقة، لم يتمكَّن المشنوقون الإتيان بأيَّة حركة، ولا الحبشيُّ الذي كان يؤشِّر إلى السماء بأصبعه (ومَنْ يدري ما إذا كان قادراً على الرؤية بأفضل من الطائرة المُحلِّقة؟!). لم تتمكَّن مريم من الإتيان بحركةٍ، على الرَّغْمِ من أنَّني كنتُ رأيتُ رأسها يتحرَّك ما تحت اللِّفْعَة البيضاء التي غطَّيتُ بها وجهها قبل إطلاق الرصاصة. لم يكن لأحدٍ، غيري، أن يتحرَّك في ذلك الوادي. لكنّ حكايتي كانت ستبدأ للتَّوِّ، وكان المُقدَّم قد أرجأ شكواه؛ أرجأها فحسب. لماذا عَبَرَ دون أن يُجريَ المكالمة الهاتفيَّة؟ للحظة واحدةٍ، عندما كنَّا في قمرة الشاحنة، أراح كفَّهُ على كتفي، فشَعَرْتُ بها يداً مُنهكةً، يداً تخون حالة النشوة الظاهرة على وجهه، وكانت تخون أيضاً شبابه الثاني.

كان الملازم الثاني يُلحُّ: "بإمكاننا التَّأكُّد في الحال ما إذا كان البرغي في مكانه. أتريد ذلك؟".

لم أَجبْ عن سؤاله. لماذا عليَّ أن أَجيبَ عن ذلك السؤال؟ كان يتعامل مع الموضوع بوجهة نَظَر ميكانيكي لتصليح السَّيَّارات. يقترح عليَّ أن نهبط في ممرٍّ ضيِّق، ربَّما، كالممرِّ الذي تحت أقدامنا هنا، وأن نتفحَّص رُكام شاحنة، فقط لإزالة أيِّ ظلال للشَّكِّ؟. الشكوك تُريح البشر في بعض الأوقات، ومن الأفضل الاحتفاظ بها. ثمَّ إنَّني كنتُ أُفضِّل إلقاء نَظْرَة على الوادي، ربَّما كان يوهانس قد أفاق من نومه في هذه الساعة، ولربَّما كان في طريقه إلى النهر، يتبعه البغل.

ابتعد الملازم الثاني عنِّي، وسار نحو الحافَّة مُحدِّقاً في الممرِّ الضَّيِّق، وقرَّر أخيراً أن يرميَ صَامُوْلَة البرغي، سمعتُ أصوات تصادم قِطَع معدنية (أو ربَّما كانت تلك هي أصوات قِطَع النقود الفضِّيَّة التي في جيبي)، لم يخامرْني أيُّ إحساس. كانت الصَّامُوْلَة قد استقرَّت في مكانها الطَّبيعيِّ.

كنتُ أُحدِّق بالوادي عندما رنَّ البوق مُطلِقاً نغمات التَّجمُّع، وفي هذه الحال، كان جندي البوق يُسارع في إيقاعات نغمة الدعوة. لقد حلَّتْ ساعة الرحيل، وثَمَّةَ ضرورةً لإرجاء جميع الأسئلة والاعتبارات إلى يوم آخر، أداء التَّحيَّة لمَنْ سيبقون في ذلك الوادي. ربَّما كان الجنود مستعدِّين. كان عليَّ أن أُجريَ التفتيش، وأن أشرب القهوة، لكنْ، وقبل كلِّ شيء، كان ينبغي الرحيل من تلك المقبرة التي صارت عائليَّة لي. تقاطعتُ مع الملازم الثاني، وقلتُ له: "علينا أن نذهبَ"، ثمَّ أضفتُ: "لا نفعَ في الحديث عن جرائم، طالما أن لا وجود لمَنْ يتحرَّى عنِّي".

"أجل"، أجاب "لا نفعَ في ذلك إطلاقاً".

"وإذا لم يوجد مَنْ يتحرَّى عنِّي"، أصررتُ "فإنَّ بإمكاننا الرحيل حقَّاً".

"بطبيعة الحال"، أجاب الملازم الثاني"الآخرُ كثير الانشغال بجرائمه، ولا وقت لديه للتفكير بجرائمنا".

"هذا أفضل"، قلتُ "إذا لم يتقدَّم أحد بشكوى ضدِّي، فهذا أفضل. ومع ذلك لا أعتقد بأنَّه يَحقُّ للآخرين أن يكونوا على هذا المقدار من الكرم والتسامح".

"خذْ هذا أو اتركْ كلَّ شيء"، قال الملازم الثاني.

أعاد البوقُ رنينَهُ من جديد بإيقاع أسرع. وبدا وكأنّ الجندي عَزَفَ ذلك، كي نُسرِّعَ في وصولنا، فقد كان كلُّ الآخرين في مواقعهم، ولم تكن تُسمَع حتَّى نَأمَة همسٍ واحدة. "إنَّها رنَّةُ بوقٍ في غاية الكوميديَّة، حسب ما أرى"، قلتُ "لكنْ، ليكن ذلك، فلكُلِّ بوقُهُ". قلتُ ذلك وأنا أُحادِثُ الوادي، الذي كان ينفتح أمامي في تلك اللحظات، كما لو كان فريداً وخالداً.

"لا تُوهِمَنَّ نفسكَ بالكثير"، قال الملازم الثاني "لن تكون هناك رنَّات بوقٍ أُخرى. فهذه هي الوحيدة التي ستستمعُ إليها، بضعةُ أيَّام أُخرى فحسب، من بعدها سيقومون بتسريحنا من الخدمة".

"ومع ذلك"، قلتُ له "فإنَّ هذا الوادي ..."، إلَّا أنَّني لم أُواصِلِ الكلام (لا نفع في إيراد استشهاد لكاتب، خَلَعْتُ من كتاب ابنه صفحةً، كي ألفَّ بورقها التبغ الذي دخَّنتُ([28]). أليس كذلك، يا يوهانس؟).

لم أُواصِلِ الحديث، ومشيْنا صوب ساحة الاستعراض، لأنَّ الشاحنات ابتدأت بالوصول. كنتُ أسير بجوار الملازم الثاني، وشَمَمْتُ فجأة رائحة العطر الذي صَبَّهُ على نفسه. بالتأكيد كان

يدهن شَعْره بدِهانٍ غالِي الثمن. دهان بعطرٍ نادرٍ، عطر طفولي أفسدتْهُ حرارة الطقس قليلاً. دهانٌ سيِّئ للغاية، أحالتْهُ حرارة الطقس في الوادي إلى ما يُشبه روائح زهورٍ ذابلة ومتفسِّخة، وتحوَّلتْ إلى ريحٍ مسمومة. سرَّعتْ في خطواتي، لكنّ رائحة العفن كانت تسبق خطواتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# حياة المؤلف

## (إينيو فلايانو)

1 - 1922. إنَّه الأخير في تسلسل سبعة أشقَّاء. وُلِدَ في مدينة پيسكارا في الخامس من آذار 1910. في الخامسة من العُمُر، أُرسل إلى مدينة "كاميرينو" ليدخل روضة الأطفال، ومن ثمَّ المدارس الدَّاخليَّة في سينيغاليا، فيرمو وكيتي. ولمُجرَّد انتهائه من المرحلة الابتدائية في هام 1921 انتقل إلى مدينة بريشًّا في مقاطعة لومبارديًّا في الشَّمال. في 5 نوفمبر 1922 سيرحل إلى روما، ليدرس في المدرسة الوطنية الدَّاخليَّة.

1927 - 1932. بعد رسوبه في امتحان الدخول إلى مدرسة المحاسبة، ينضمُّ في عام 1927 إلى المدرسة الثَّانويَّة للفنون. ثمَّ يدخل كُلِّيَّة المعمار، لكنْ، دون بلوغ مرحلة التَّخرُّج. ويبدأ في هذه الفترة نشاطه الصَّحَفِيَّ مدفوعاً بالتشجيع والحَثِّ من قِبَل ماريو پانّونتسيو، الذي يدعوه للكتابة على صفحات مجلَّة "Oggi" التي كانت قد ابتدأت بالصدور في ذلك الغضون.

1935 - 1936. يُشارك برتبة ملازم ثانٍ في الحملة الإيطالية على إثيوبيا.

193 - 1941. بعد وفاة والدته، ندرت زياراته إلى مسقط رأسه پيسكارا. ويسكن في روما في شارع "غريكو"، وهو الحَيُّ الذي يوجد فيه المقهى الشهير "كافيه غريكو" والمطعم الشَّعبيُّ "إل غامبيرو"، وحيثُ يرتادهما عدد من أصدقائه مثل (ڤينتشيسنسو كارداريلّي، أورفيو تامبوري، فرانتشيسكو وكارلو باربييري، غوليلمو سانتآنجيلو وآلفريدو ميتسيو). وفي عام 1941، يُصبح متعاوناً ثابتاً مع مجلَّة "Oggi" تحت إدارة ماريو پانّونتسيو، وحيثُ يبدأ بكتابة النقود السِّينمائيَّة والمسرحيَّة؛ وفي الوقت ذاته، يكتب لمطبوعات أُخرى مثل "سيني إلّوستراتو" و"سينما"، "حكايا الإمس واليوم" و"دوكومينتو".

194. تُولَد ابنته لِيلي، من زواجه من بروزيتّا روتا، وتظهر على الطفلة الوليدة، بعد بضعة شهور، بدايات وأعراض خَلَل كبير في الدماغ. ويبدأ فلايانو، في الفترة ذاتها، بالعمل في عالم السينما بصفة مُستشار فنِّيٍّ في فيلم عن حياة البابا پيوس الثاني عشر "الراعي الكَنَسِي"الذي أخرجه رومولو مارتشيلّيني.

1 - 1944. ينتقل لبضعة شهور إلى ميلانو، حيثُ يعمل في غرفة تحرير مجلَّة "أومنيبوس". وفي هذه المدينة، ومن لقائه بالناشر ليو لونغانيزي تُولَد فكرة رواية "زمن القَتْل"، والتي يفوز بها، في السنة التالية على النشر، بجائزة "ستريغا" للأدب الرِّوائيِّ الإيطالي.

1947 - 1949. يُواصِلُ نشاطَهُ الصَّحَفِيَّ الكثيفَ، ويكتب على صفحات "إل كورّيري لومباردو" و"La Voce Repubblicana" و"Risorgimento" و"L’Europeo" و"Bis"؛ في عام 1949، يتولَّى رئاسة تحرير مجلَّة "Il Mondo" والتي ستتواصل بالتعاون معها حتَّى أعوام السِّتِّي

1950 - 1955. يبدأ، بفيلم "Luci del varietà"، بالتعاون مع فيديريكو فيلّيني، وتواصل ذلك التعاون حتَّى عام 1965: ويزداد عمله في السينما تكاثفاً (ويصبح اسمه واحداً من أهمِّ الأسماء المُنتجة للقصص السِّينمائيَّة، ووَضَعَ توقيعه على أفلام هامَّة مثل "حُرَّاس ولصوص" و"الشيخ

الأبيض" و"Vitelloni" و"La Strada".

19. ينشر من خلال دار بومبياني كتابه المعنون "يوميَّات ليليَّة". ويبدأ في العام ذاته بالتعاون مع جريدة "كورّييري ديلّا سير"، وهو التعاون الذي واصله حتَّى لحظة موته.

1957 - 1959. يواصل العمل للسينما بأفلام "Le notti di Cabiria" و"Le ragazze in Vetrina"، وفي عام 1959، يُصدر كتابه الثالث المعنون "Una e una notte".

196. في مسرح "Teatro Lirico" بميلانو يُقدِّم ڤيتّوريو غاسمان مسرحيَّته الساخرة "مرِّيخي في روما"، ويخفق العرض إخفاقاً ذريعاً. وفي العام ذاته، يتمُّ إنتاج فيلم "La Dolce Vita" لفيديريكو فيلّيني، والذي يحمل توقيع إينيو فلايانو سواءٌ على القصَّة السِّينمائيَّة أو السيناريو.

196 - 1967. بالإضافة إلى مساهماته ومشاركاته الصَّحَفِيَّة، يواصل فلاينو عمله في السينما من خلال أفلام "L Notte"، "Otto e Mezzo" و"Giulietta degli Spiriti"، وهو ما يُتيح له السَّفَر إلى عدد من البلدان والعواصم، من بينها باريس، وبيروت، وبومباي، وبانكوك، وهونغ كونغ، وكندا، ونيويورك.

19 - 1970. يُودِع لدى دائرة حقوق المؤلِّف في لوس آنجيليس قصَّة سينمائية لفيلم كان يرغب، للمرَّة الأولى في حياته، أن يقوم بإخراجها، وهو ما لن يتحقَّق، ويستقي من تلك القصَّة حكاية "Melampus" الذي نُشر في عام 1970، الذي نُشر مع قصَّة "Oh Bombay!" في كتاب واحد، حَمَلَ عنوان "Il gioco e il massacro"، والذي يفوز به بجائزة "كامبيوني"، ويترشَّح لجائزة "كامبييلّو". وفي عام 1970 أيضاً يبدأ بالتعاون مع أسبوعيّة "إيسپريسّو". وفي يوم عيد ميلاده في الخامس من آذار مارس يُصاب بجلطة قلبيَّة.

1. يجمع أعماله المسرحيَّة في كتابٍ بعنوان "مرِّيخي في روما، وجملٌ أُخرى". ويسافر في ديسمبر من العام نفسه إلى كندا، ليُصوِّر للتلفزيون الإيطالي وثائقيَّاً، ستبثُّه القناة الإيطاليَّة الرَّسْمِيَّة "RAI" في عام 1973 بعنوان "Oceano Canada".

197. يفوز بجائزة "إيستينسي" عن كتابه "الظلال البيضاء". وفي صبيحة يوم 5 نوفمبر، تنشر له جريدة "كورّييري ديلّا سيرا" مقاله الأخير.

وفي يوم 20 نوفمبر، يُفارق الحياة بعد أن فاجأتْهُ جلطة قلبيَّة أُخرى.

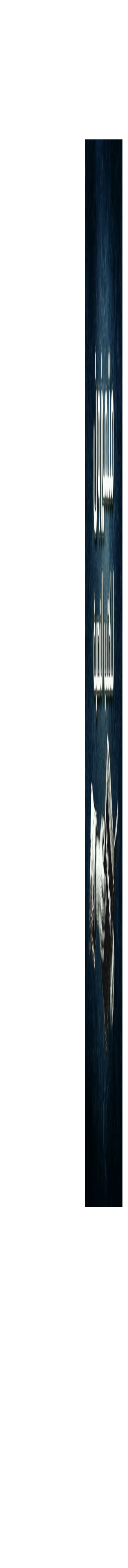
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# المترجم عرفان رشيد

صحفي ومترجم ومخرج وناقد سينمائي عراقي، ولد في مدينة خانقين عام 1952، يقيم في إيطاليا منذ 1978. ساهم كمؤلف مشارك في كتاب "سينما البلدان العربية"، صدر له في الترجمة رواية "الرفيق" ل. تشيزَرِه باڤيزِه، منشورات المتوسط، ميلانو، 2018، وله تحت الطبع ثلاثية الكاتب الصقلّي ليوناردو شاشّا. عمل مراسلًا صحفيًّا وموفدًا لعدد من بلدان أوروبا، للعديد من الصحف والقنوات التلفزيونية العربية، يعمل كمستشار للعديد من المهرجانات الثقافية والسينمائية في ايطاليا والعالم العربي. مؤسّس ورئيس تحرير الموقع العربي الإيطالي "هنا روما". حصل على جائزة أسكيا للعام 2004.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

--



**Group Link – لينك الانضمام الى الجروب**

**Link – لينك القنـاة**

# الفهرس..

# Notes

[←1]

(1) الكتاب المقدَّس، الإصحاح الثالث، الفصل الثالث.

[←2]

(2) ليو ( تصغيرٌ لاسم ليوپولدو ) لونغانيزي. صَحَفِيٌّ، كاتبٌ، ناشرٌ، تشكيليٌّ ومُصمِّمٌ ورسَّامُ كاريكاتير. وُلِدَ في بلدة بانيوكاڤالُّو في 30 آب أغسطس 1905، وتُوفِّيَ في ميلانو في 27 تشرين الثاني / نوفمبر 1957.

[←3]

(3) هيرودوت، المؤرِّخ اليوناني العريق الذي عدَّهُ شيشرون بمثابة « أب التاريخ».

[←4]
(4) غايو جوليو سولينو، كاتب إيطالي تُوفِّي في الثاني من كانون الأوَّل / يناير عام 400 بعد الميلاد.

[←5]

(5) Premio Strega - جائزة « ستريغا» - جائزة أدبية مرموقة للرواية. وقد تأسَّست في عام 1947، ويُعتبر الحصول عليها أحد أهمِّ جوازات العبور إلى القُرَّاء الانتشار في المكتبات.

[←6]

Aethiopia, Appunti per una canzonetta (6)

[←7]

(7) شرطة الكارابينييري، هي الشرطة العسكريَّة الإيطالية، وعليها أيضاً واجبات الأمن الدَّاخليِّ.

[←8]

(8) سلسلة الجبال العالية الفاصلة ما بين إيطاليا وسويسرا.

[←9]

(9) اسم العريف المُفترض، وهو اسم جنوبي بوضوح.

[←10]

(10) نغمة رقَّاص الساعة الذي يُسجِّل مرور الثواني.

[←11]
(11) المرتزقة المحلِّيُّون الذين جنَّدهم الإيطاليون في أثناء الحرب الأثيوبية، وكانوا جزءاً من الجيش الإيطالي ككتيبة خارجية.

[←12]

(12) يعني زوجته الإيطاليّة.

[←13]

(13) طاب مساؤكم.

[←14]

(14) وهي الصيغة التي تستخدمها اللغة الإيطالية حين تُستخدَم كلمة «أنتَ» بصيغة «LEI» أي «حضرتُكَ، وهي صيغة التخاطب الرَّسْمِيَّة البعيدة عن مفردة «أنتَ» الصَّداقيَّة أو العائليَّة.

[←15]

(15) الضَّابطيَّة .. أفراد فرقة الشرطة العسكريَّة الإيطاليَّة (شرطة الدرك) التي ضمَّت مُجنَّدين من السُّكَّان المحلِّيِّيْن في ليبيا وارتيريا والصومال. وبقيت هذه القوَّة قائمة ما بين سَنَتَيّ 1888 و1942. وفيما كانت إيطاليا تعتبرهم مُجنَّدين، فقد اعتبرتْهم أقوام تلك البلاد مرتزقة. وكانت هذه القوَّة أشدَّ ضراوة وعنفاً على السُّكَّان، وعادةً ما كانوا يُستخدَمُون كطلائع هجمات أو إرساليات إنتقاميَّة وتحرِّيات.

[←16]

Bersaglieri (16)

[←17]

(17) بزوجته الإيطالية.

[←18]

(18) C’est la faUTE à Jean Jacques إنَّها غلطة جان جاك، وهو مَثَلٌ يُضرَب ....

[←19]

(19) يعني ب. «هي» زوجته الإيطالية.

[←20]

(20) زوجته.

[←21]

(21) في الوطن.

[←22]

(22) صورة زوجته.

[←23]

(23) زوجته الإيطاليَّة.

[←24]

Une montre à moi? Quel bonheur (24)

[←25]

(25) سرُّ المسحة الأخيرة، وهو الطَّقْس الذي يرسم به الراهب شارة الصليب كغُفرانٍ ووداعٍ أخير للمحتضر.

[←26]

(26) الرخام التَّقليديُّ في روما وحوالَيْها، ومنها بُنيت غالبية الصروح في روما القديمة، وهو حَجَرٌ كامد، يميل إلى السُّمرة قليلاً بعد فترة من النَّحْت.

[←27]

(27) الضَّابطيَّة، هي قيادة فرقة المُجنَّدين (المرتزقة) الأفارقة في الجيش الإيطالي، وقد عُرفوا بعنفهم الكبير على أبناء جِلْدتهم، ذلك العنف الذي كانّوا يُظهِرون به ولاءَهم المطلق لحُكْم الديكتاتور الفاشي بينيتو موسُّوليني.

[←28]

(28) يعني كتاب الإنجيل.